ترجمات

أرونداتي

روي

إله الأشياء الصغيرة

رواية

ترجمة: طاهر البربري



ميريت

إلـه الأشيـاء الصغيرة

إله الأشياء الصغيرة

آروندات ي ورى

ترجمة: **طاهر البربرى**

الطبعة الأولى ، 2003

(c) ميريت للنشر والمعلومات

6 (ب) شارع قصر النيل ، القاهرة
تليفون / فاكس: 5751500 (202)
merit56 @ hotmail. com

المدير العام: **محمد هاشم**

الغلاف: **أحمد اللباد**

رقم الإيداع: **2003/3435**

الترقيم الدولى: **977-351-099-9**

آرونداتي وري
ترجمة: طاهر البربرى

إلـه الأشياء الصغيرة

رواية

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة 2003

هذا الكتاب هو الترجمة العربية الكاملة لرواية

إله الأشياء الصغيرة

The God of Small Things

للكاتبة الهندية: **آروندانتي روي Arundhati Roy**

الرواية الفائزة بجائزة بوكر 1997

ترجمة: **طاهر البربري**

إهداء الترجمة

أسماء

"فرحتي التي تشدد أزري وتأتيني بما يعصمني من الجهامة؛
فصارت أمًا وأبًا وأحبة "

طاهر البربري

-1-

مخللات ومعلبات الجنة

مـايو حـار وكئيب في ايمينيم. النهارات طويلة ورطبة. ينكمش النهر، وتتكـتل الغـربان الســوداء في سكون على اشجار المانجو الوضاءة، أشـجار غـبارية الخضرة. ينضج الموز الأحمر. تتفجر الثمار البرية. يطـن الذبـاب الأزرق الضــخم الفادح ببلاهة في الهواء الخصب. ثم يصـدم نفسـه فـي زجاج النوافذ الشفاف ويموت، وقد أعياه الوخم في الشمس.

الأماسي صافية لكنها مخضبة بالكسل والآمال العنيدة.

لكـن مـع بدايـة يونيو تهب البسارة، حينئذ تبدأ شهور ثلاثة من الرياح والماء مع نوبات قصيرة من السطوع الحاد المتألق للشمس التي تسـتثير الأطفـال لاحـتطافها واللعب بها. يتحول الريف إلى الخضرة المفـرطة. الحدود تعتريها الضبابية حين ترسخ سياج التبيوكة وتزهر. يصـبح قرمـيد الحوائـط مكسوا بخضرة الطحلب. سيقان الفلفل تتلوى متسـلقة أعمـدة الكهـرباء. تـندفع الحشرات التي تدب عبر الضفاف اللطريطـية وتتناثر على امتداد الطرق المغمورة بالمد. المراكب تروح وتجـئ في البازارات. ويظهر سمك صغير في البرك التي تملأ أخاديد الـ P.W.D على الطرق السريعة.

كـان الجـو مطيرا عندما عادت راهيل إلى ايمينيم. أحبال فضية مائلـة تضـرب بعـنف في أرض مهلهلة مفككة، تقتلعها كأنها إطلاق المدافـع. كـان المـنزل القديم على التل يرتدي بلله. ينحدر على أذنيه سـطح جمالون يشبه القبعة الخفيضة. الحوائط، المخططة بالطحلب، قد صـارت ملسـاء، وتورمت قليلا من الرطوبة التي تسربت داخلها من الأرض. الحديقـة الـبرية المكسـوة بالعشـب كانت مكتظة بهمسات وانطلاقـات أنمـاط الحـياة الضئيلة. إحدى أفاعي الجرذان تحك نفسها بحجـر متلألئ في الفروة ضفادع صفراء مفعمة بالأمل تجوب المستنقع

المكســو بالزبد بحثاً عن الرفاق. نمس مبتل أومض منطلقاً عبر الدرب المختفي تحت الأوراق.

المــنزل ذاتــه بــدا خاويا. مغلقة كانت الأبواب والنوافذ. الشرفة الأمامــية خالية. لا أثاث فيها. غير أن السيارة البليموث سماوية الزرقة ذات الزعانف الخلفية الكرومية اللون كانت لم تزل في باحتها بالخارج، وبالداخل كانت بيبى كوتشاما لم تزل على قيد الحياة. لـ

كانــت العمة الكبرى لراهيل، الأخت الصغرى لجدها. حقيقة كان اســمها نافومى، نافومى آيب، لكن الجميع ينادونها بيبى. أصبحت بيبى كوتشاما حينما صارت كبيرة بما يكفى لأن تصبح عمة. على الرغم من ذلــك لم تأتي راهيل لرؤيتها، لم تكترث أبنه بنت الأخ أو العمة الكبرى تحــت وطــأة إحدى الضلالات بهذا الأمر. لقد أتت راهيل لرؤية أخيها إيستا. كانا توأمان لبويضتين. "توأم ثنائي اللقاح" هكذا قال الأطباء. ولدا لبويضتين منفصلتين لكنهما لقحتا في ذات اللحظة معاً. إيستا ــ إيستابن كان الأكبر بفارق ثمانية عشرة دقيقة.

لــم يكــن إيستا وراهيل متشابهان، حتى حينما كانا طفلان بأذرع نحــيفة منبسطا الصدر، ينسلان كالدودة. ومنبهران بألفيس بريسلى، لم يكــن هــناك أيــا مــن الأسئلة الشائعة "من يكون من؟" و "أيهما يكون الأخــر؟" تُطــرح مــن الأقــارب ذوى الابتسامة العريضة أو الأساقفة الأرثوذكــس الســوريين ممــن كــانوا يزورون منزل آيمينيم من أجل التبرعات.

الارتباك كان يكمن في مكان ما أكثر عمقاً وسرية.

فــي الســنوات الفوضوية تلك حين كانت الذاكرة قد ابتدأت لتوها، وكانــت الحياة متخمة ببدايات لا نهايات لها، وكل شئ كان للأبد، كان إيســتابن وراهــيل يفكران في ذاتهما معًا بمنطق ***me***، بانفصال وفردية علــى أنهما نحن أو ***us***. ورغم هذا كانا نوعاً نادراً من التوأم السيامي، منفصلان جسداً ومتوحدان هوية.

الآن، فــي هذه السنوات اللاحقة راهيل لديها ذكرى الاستيقاظ ذات ليلة وهى تقهقه من جراء حلم إيستا المضحك.

لديها أيضاً ذكريات أخرى ليست من حقها.

تذكـــر، مثلاً (رغم أنها لم تكن هناك)، ما فعل بائع شراب البرتقال واللـــيمون بإيستا في أبهيلاش توكيز. تذكر مذاق سندوتشات الطماطم ــ السندوتشات التي كان يأكلها إيستا في عربة بريد مدراس إلى مدراس.

وهذه فقط أشياء صغيرة.

علـــى أية حال، فهي تفكر الآن في إيستا وراهيل بمنطق هما لأنه بانفصال الاثنين لم يصبحا ما كانا أو ما كان يعتقد أن يصبحا.

مطلقا.

الآن، أخـــذت حياتهما وضعا وشكلاً. وأصبح لإيستا أخرى تخصه ولراهيل آخر يخصها.

لقـــد ظهرت الفواصل، الحدود، التخوم، الحواجز، الحواف والقيود كانمـــا فـــريق مـــن الأقزام كل في أفقه المنفصل. مخلوقات قصيرة لها ظـــلال طويلـــة يعســـون الـــنهاية الضبابية، أهلة لطيفة تجمعت تحت عيونهما، أصبحا في عمر آمو حين ماتت وهي في الواحدة والثلاثين.

ليسا كبيرين.

ليسا صغيرين.

لكنهما في عمر قابل للموت.

لقـــد ولدا تقريباً في أتوبيس.تعطلت السيارة التي كان باباء أبوهما، يحمل فـــيها آمـــو، أمهما للمستشفى في شيلونج لولادتهما، على طريق مزرعة الشـــاي المـــتعرج في آسام. غادرا السيارة وأوقفا أوتوبيس مواصلات حكومـــي مـــزدحم. بالحنو الغريب الذي أبداه الفقراء للأغنياء نسبياً، أو ربمـــا فقط لأنهم رأوا إلى أي حد كان حمل آمو ضخما، أوسع الركاب الجالســـون مكانا للزوجين، وقام والد راهيل وإيستا بإمساك بطن أمهما (وهمـــا بداخله) ليحفظهما من التمايل والارتجاج طوال الرحلة. كان هذا قبل أن ينفصلا وتعود آمو للعيش في كيرالا.

وفقـــا لإيســـتا، لو أنهما ولدا في الأتوبيس لكان من حقهما ركوب الأوتوبـــيس مجانـــا طـــوال حياتـــيهما. لم يكن واضحا من أين له بهذه المعلومـــات، أو كـــيف عرف هذه الأشياء، غير أن التوأمان ولسنوات

أضمرا امتعاضا مترددا لأبويهما لأنهما أضاعا عليهما فرصة الركوب المجاني للأوتوبيس طيلة حياتهما.

اعتقدا أيضا أنه لو كانا قد قتلا في عبور الحمير الوحشية، كانت الحكومة ستدفع تكاليف جنازتيهما. كان لديهما انطباع محدد بأن هذا هو الهدف الذي تعبر لأجله الحمير الوحشية. جنازات مجانية. بالطبع لم يكن هناك عبور للحمير الوحشية لتقتل من جرائها في آيمينيم، أو لذلك الأمر حتى في كوتايام، التي تعتبر أقرب المدن، لكنهم قد شاهدوا بعضها عندما ذهبا إلى كوتشين،التي تبعد ساعتين بالسيارة.

الحكومة لم تدفع مطلقا تكاليف جنازة صوفي مول لأنها لم تمت في عبور الحمير الوحشية. شيعت جنازتها في آيمينيم في الكنيسة القديمة ذات الطلاء الجديد. ابنة خال ايستا وراهيل، ابنة خالهما تشاكو . ماتت عندما أتت من إنجلترا في زيارة. ماتت. كان إيستا وراهيل قد بلغا سن السابعة من العمر وكانت صوفي مول في التاسعة من عمرها وضعت في تابوت خاص بالأطفال.

مبطن بالستان

المقبض من النحاس الأصفر البراق

كانت ترقد فيه مرتدية بنطالها الأصفر المتموج ذا الفتحة الواسعة أسفله، وقد ربطت شعرها بشريطه ومعها حقيبة الـ **go go** الإنجليزية الصنع التي كانت تحبها. وجهها كان يعتريه الشحوب وكأنه إبهام غسالة وقد تغضن لانغماسه في الماء لوقت طويل. احتشد المصلون حول التابوت، انتفخت الكنيسة الصفراء كحنجرة بصوت الغناء الحزين. القساوسة بلحاهم الجعداء، كانوا يؤرجحون اواني البخور المدلاة من السلاسل ولم يبتسموا مطلقا للأطفال كعادتهم أيام الآحاد.

انحنت الشموع الطويلة على مذبح الكنيسة والشموع القصيرة لم تنحني.

سيدة عجوز (لم يتعرف عليها أحد)، متنكرة في صورة أحد الأقارب غير وثيقي الصلة، لكنها غالبا ما تصعد إلى جوار الجثث في الجنازات (مدمنة جنازات؟ منجذبة مرضيا نحو الجثث؟) وضعت

الكولونيا علـى حشوة من القطن وبكبرياء لطيف وفور يعتريه التحدي مسـت بـرفق جبهة صوفي.كانت صوفي مول تتضح برائحة الكولونيا وخشب التابوت.

مارجريت كوتشاما. أم صوفي مول الإنجليزية، لم تدع تشاكو، الأب البيولوجي لمول، يضع ذراعه حولها ليواسيها.

احتشـد افـراد العائلـة معـا. مارجريت كوتشاما. تشاكو، بيبى كوتشـاما، وإلـى جوارهـا زوجة أخوها،ماماتشى جدة إيستا وراهيل (وصـوفى مـول). كانـت ماماتشى مكفوفة تقريباً دائماً ترتدى نظارة سـوداء حيـنما تكـون خـارج المـنزل. سالت دموعها وراء النظارة وارتجفت مرتعشة على فكها كانما قطرات مطر على حافة سقف. كانت تـبدو ضـئيلة ومريضة في الساري الأبيض المتموج. تشاكو كان الابن الوحيد لماماتشى. أصابها حزنها بالأسى. أما حزنه فدمرها.

بالـرغم مـن السـماح لامو، ايستا وراهيل بحضور الجنازة، فقد اضـطروا للوقـوف وحدهم منفصلين، وليس مع بقية العائلة. لم ينظر إليهم أحد.

كان الجو حارًا في الكنيسة، والتفت وتموجت حواف زنابق اللوف البيضـاء.ماتـت نحلة في إحدى أزهار التابوت. ارتعشت يد امو وهى تمسـك بكـتاب التراتيل. باردة كانت بشرتها. وقف إيستا لصقها، حافظ علـى يقظـته بالكـاد، عيـناه المتألمتان المكتئبتان كانتا تومضان مثل الـزجاج. وجنـته المـتوهجة كانـت قـبالة البشرة العارية لذراع امو المرتجف الذي يمسك بكتاب التراتيل.

علـى النقيض، كانت راهيل في تمام يقظتها قوية في يقظتها وفى سرعة انفعالها مع إنهاك واستنزاف من معركتها مع الحياة الحقيقية.

لاحظـت أن صـوفى مـول كانت متيقظة لجنازتها. بينت لراهيل شيئين.

الشيء الاول كان القبة العالية حديثة الطلاء للكنيسة الصفراء التي لـم تـنظرها راهـيل ابداً من الداخل. كانت مثل السماء مطلية باللون الأزرق، بسـحب متراكمة، وطائرات نفاثة صغيرة تأز بذيول بيضاء تتقاطع في السحب هذا حقيقي (ولابد أن يقال) أنه كان من الاسهل على

أي شـخص ملاحظــة هذه الأشياء مستلقية في تابوت ينظر لأعلى عن الوقـوف فـي مقـاعد الكنيسة، المحاطة بالورود البرية الكئيبة وكتب التراتيل.

تخيلـت راهيل شخصا ما تحمل عناء الصعود هناك بعلب الطلاء الأبـيض للسـحب، الأزرق للسـماء، الفضـي للطائرات النفاثة وأنواع الفـرش، والتـنر. تخيلـته في الأعالي هناك، مثل فيليوتا، جسده عار مضـيء يجلـس علـى لوح خشبي ثقيل، يتدلى من السقالات في القبة العالية للكنيسة، لطلاء الطائرات النفاثة في سماء كنيسة زرقاء.

أمعنـت التفكـير فـيما كان سيحدث لو أن الحبل طقطق وتمزق. تخيلـته وهو يهوى كنجمة معتمة خارج السماء التي قد صنعها. يرتمي مهشـماً علـى أرضية الكنيسة الساخنة، والدم القاتم ينساب من جمجمته كأنه سر.

عـندئذ أدرك إيسـتابن وراهـيل أن للدنيا طرائق أخرى لتحطيم الآدميين. كانا قد ألفا الرائحة السقيمة. كأزهار قديمة في مهب النسيم.

الشيء الثاني الذي بينته صوفي مول لراهيل كان صغير الخفاش.

أثـناء مراسـم الجنازة، شاهدت راهيل خفاش أسود صغير يتسلق السـاري الخـاص بالجنازات بمخالب متجعدة تتشبث بخفة. عندما بلغ الخفـاش مكانـا ما بين البلوزة والساري،تدفق حزنها، منتصف جزعها العاري، صرخت بيبى كوتشاما وضربت الهواء بكتاب التراتيل. توقف الإنشاد للتساؤل، "ما هذا؟ ماذا حدث؟" لطنين فراء أو لرفرفة ساري.

نفـض القساوسـة الحزانى لحاهم الجعداء بأصابع تطوقها الخواتم الذهبية كأنما عناكب خفية نسجت خيوطها داخلهم بغتة.

طـار صـغير الخفاش متلاشياً في السماء وتحول إلى طائرة نفاثة بلا ذيول تتقاطع.

وحدهـا راهـيل فقط هي التي لاحظت وجود عربة النقل السرية الخاصة بمول في تابوتها.

بـدأ الإنشاد الحزين ثانية وأعادوا ترنيم نفس النظم الحزين مرتين. ومرة ثانية انتفخت الكنيسة الصفراء بالأصوات كأنها حنجرة.

عـــندما أنزلوا تابوت صوفي مول إلى الأرض في المدفن الصغير خلف الكنيســـة، كانت راهيل تعرف أنها لم تزل حية. كانت تسمع (نيابة عن صـــوفي مـــول) الأصـــوات الناعمة للطين الأحمر، والأصوات الخشنة للطريط البرتقالي الذي أفسد اللمعان البراق للتابوت. سمعت الارتطامات الكثيـبة المكـــتومة فـــي خشـــب التابوت المصقول، في بطانة التابوت المصـــنوعة مـــن الستان،أصوات القساوسة الحزينة التي يخمدها الطين والخشب.

أبانا الرحيم،نودع بين يديك،
روح طفلتنا الراحلة تلك،
ونودع جسدها للأرض،
طين إلى طين، رماد إلى رماد،
تراب إلى تراب.

فـــي باطن الأرض صرخت صوفي في مول، ومزقت الستان بأسنانها. لكنك لا تستطيع أن تسمع صرخات تمر عبر التراب والحجارة.

ماتت صوفي مول لأنها لم تستطيع التنفس.

قتلـــتها جـــنازتها. *تراب إلى تراب إلى تراب إلى تراب*. كتب على شاهد قبرها *شعاع شمس أعير لنا على عجالة*.

فيما بعد قالت آمو مفسرة أن عجالة يقصد بها لفترة قصيرة جداً.

بعد الجنازة أعادت آمو التوأمان إلى قسم بوليس كوتايام كانا قد تآلفا مع المكـــان. فهـــناك قضوا جزءاً كبيراً من اليوم السابق. ولتوقعهما لرائحة الـــبول القديـــم النتـــنة، الـــنفاذة، المفعمة بالدخان التي تخللت الحوائط والأثـــاث، فقد أحكما إغلاق فتحات أنفيهما تماماً قبل أن تبدأ الرائحة في التسرب.

ســـألت آمـــو عـــن ضابط القسم وعندما أدخلت إلى مكتبه، أخبرته بوقوع خطأ فظيع وبأنها تريد عمل محضر. طلبت أن ترى فيليوثا.

كـان شعر شارب المفتش توماس ماثيو هانجا مثل شارب مهراجا الخطوط الجوية الهندية الودود، غير أن عيناه كانتا ماكرتان وشرهتان.

قال، "ألا تظنين أن الوقت متأخر إلى حد ما لكل هذا؟" كان يتحدث بلهجـة كوتايـام الخشنة للغة الملايالام. كان يحدق في نهدى أمو وهو يتحدث. قال أن البوليس يعرف كل ما يريد و أن بوليس كوتايام لا يتلقى محاضـر من منبوذين أو من أبنائهم غير شرعيين. وقالت أنها ستتحقق من هذا. دار المفتش توماس ماثيو حول مكتبه و أقترب من أمو بعصاه.

قال، "لو كنت مكانك، لذهبت إلى بيتي في هدوء". حينئذ قرع على نهديهـا بعصـاه. برفق. تاب، تاب. كما لو كان ينتقي ثمار مانجو من سـلة. مشيرا إلى الثمار التي يريدها أن تعبأ وتنقل. بدا المفتش توماس ماثـيو وكأنـه يعـرف من الذي يستطيع ان يزعجه ومن لا يستطيع. الشرطيين لديهم تلك المقدرة الغريزية.

خلفه كان هناك لوحة حمراء وزرقاء كتب عليها:

تأدب	Politeness
إخلاص	Obedience
طاعة	Loyalty
كياسة	Intelligence
تهذب	Courtesy
كفاءة	Efficiency

عـندما تركوا قسم البوليس، كانت امو تبكي، لذا لم يسألها إيستا وراهيل عـن معـنى كلمـة ***Veshyas*** أو فيما يتعلق بمعنى كلمة لا شرعي Illegitimateكانت المرة الأولى التي يشاهدان فيها أمهما وهى تبكى. لـم تكـن تنشج. كان وجهها جامدا كأنه حجر، لكن الدموع تفجرت في عينـيها وسـالت أسفل وجنتيها المتصلبتين مما جعل التوأمان مريضين بـالخوف. دمـوع آمـو جعلت كل الأشياء التي كانت تبدو غير واقعية

تماما، واقعية. عادوا إلى آيمينيم بالباص. اندفع الكمساري صوبهم على درابــزون الباص،رجل نحيل في زي كاكي. أسند مؤخرته النحيلة إلى ظهــر مقعــد.قــرقع لامو بمثقب التذاكر. *إلى أين؟* كانت القرقعة تعني هــذا.لــم تسـتطع راهيل أن تشم رائحة حزمة التذاكر والرائحة النتنة لدرابزون الباص الفولاذي في يد الكمساري.

همست له آمو،"إنه ميت لقد قتلته."

"آيمينيم" أجاب "إيستا بسرعة قبل أن يتملك الغضب من الكمساري.

أخرج النقود من كيس آمو. وأعطاه للكمساري. طواها إيستا بعناية ووضــعها فــي جيــبه. بعدئــذ طــوق أمــه المتصلبة الباكية بذراعيه الصغيرين.

بعد ذلك بأسبوعين، أعيد إيستا.اضطرت آمو إلى أعادته لأبويهما، الذي كــان وقتئذ قد استقال من وظيفته الموحشة في مزرعة الشاي في آسام وانـتقل إلى كالكتا للعمل بشركة لتصنيع سناج الكربون ــ تزوج ثانية. واقلــع عــن تعــاطى الكحولــيات كثيرها وقليلها)،كان يعاني فقط من انتكاسات عرضية.

منذ ذلك الحين لم يرى أيٌ من إيستا وراهيل الآخر مطلقا.

مكــتوباً بخــطٍ أنــثوي مائل،بيد واحدة من مدرسة الراهبات، لكن التوقيع الذي يذيل الخطاب كان توقيع والدهما. أو على الأقل كان اسمه. كــان الخطاب يقول أنه، والديهما،قد تقاعد من وظيفته في شركة تصنيع ســناج الكــربون وأنه سيهاجر إلى استراليا حيث أمكنه الحصول على وظــيفة رئيس أمن في مصنع للسيراميك، وأنه لم يستطع أن يأخذ إيستا معــه. وهو يتمنى الخير لكل من في آيمينيم، كما أنه سوف يقوم بزيارة إيســتا إذا ما واتته فرصة العودة إلى الهند، التي أردف وقال أنها بعيدة الاحتمال.

بيــبى كوتشاما أخبرت راهيل أنه بإمكانها الاحتفاظ بالخطاب إذا ما كانــت تريد ذلك. أعادت راهيل الخطاب إلى الظرف. أصبحت الورقة سهلة الطي كالقماش.

لقد نسيت إلى أي حد يمكن أن تبلغ رطوبة الرياح الموسمية الجنوب غربية في آيمينيم. كانت دواليب الملابس المنتفخة تصدر صريرا. النوافذ المغلقة انفتحت بقوة. صارت الكتب لينة واهنة ومتموجة مجعدة بين أغلفتها. ظهرت حشرات غريبة كأنها أفكار وتصورات في الأماسي وأحرقت نفسها على مصباح بيبي كوتشاما الخافت ذا الأربعين وات. نهارا،تنتثر الجثث الهشة المحترقة لهذا الحشرات لتكسو الأرضية وعتبات النوافذ،وتظل رائحة الهواء مفعمة بشيء محترق حتى تقوم كوتشو ماريا باكتساحها في صندوق قمامتها البلاستيكي.

لم يتغير،مطر يونيو.

كانت السماء تتفتح،والماء يسيل مقرقعًا، باعثا الحياة في البئر القديم العنيد،كاسيا زريبة الخنازير التي لا خنازير فيها،مازال يمنح الزريبة بساطا منه، الطريق الذي مازالت الذاكرة تفجره موحل بلون الشاي، ذاكرة بلون الشاي. كان العشب يبدو مبللاً بالأخضر ومبتهجا.دود الأرض يمرح مخضبا الوحل بالأرجوان. نباتات القراض الخضراء تومئ. الأشجار تتمايل.

بعيداً جداً في المطر والريح، على ضفاف النهر، في عتمة النهار الرعدية المباغتة، كان إيستا يتمشى. مرتديا تي ــ شيرت له اللون الأحمر الوردي للفراولة المتغضنة، الذي صار الآن قاتما من جراء البلل،كان يعرف أن راهيل قد وصلت.

دائما كان إيستا طفلاً هادئا، لذا لم يستطيع أحدا أن يحدد بأي درجة من الدقة متى بالضبط (السنة، لو لم يكن اليوم أو الشهر) الذي قد توقف فيه عن الكلام، يعنى توقف عن الكلام تماماً، بكل ما في الكلمة من معنى، الحقيقية أنه لم يكن هناك توقيت محدد، "*متى بالضبط*". كان سقوطا وانغلاقا تدريجيا. استكانة هزيلة واضحة. كما لو أنه مُنيٌ بنقص في قدرته على الحوار ولم يعد لديه شيئا يتفوه به. مع ذلك لم يكن صمت إيستا اخرقا. أبداً لم يكن متطفلا. أبدا لم يكن مزعجا. لم يكن صمتا معترضا يوجه اتهاماً بقدر ما كان نوعاً من الخدر والاسترخاء، سُبات،

المعادل النفسي لما يفعله السمك الرئوي ليجتاز الموسم الجاف، فيما عدا هذا الموسم كان الموسم الجاف في حالة إيستا يبدو وكأنه سيستمر للأبد.

مـــع مـــرور الوقت اكتسب القدرة على التكيف مع ما تنطوي علية كل الأمكنة من خلفيات ــ مع أرفف الكتب، الحدائق، الستائر، المداخل، الشـــوارع ــ ليـبدوا ملبدا، خفيا تماماً أمام العين الغير متمرسة.عادةً ما كان الغرباء يستهلكون قدراً من الوقت لإدراك أنه لا يتكلم أبداً. البعض لم يلاحظ هذا مطلقا.

كان إيستا يشغل حيزا ضئيلاً في العالم.

بعـــد جـــنازة صوفي مول، حين أعيد إيستا، أرسله والدهما إلى مدرسة للبنين في كالكتا. لم يكن من بين المتأخرين دراسياً أو رديئا في أي شئ علـــى وجــه الــتحديد. *طالب متوسط أو مقبول الأداء* كانت التعليقات المعـتادة التـــي كان المدرسون يكتبونها في تقارير الارتقاء السنوية.*لا يشـــارك الأنشطة الجماعية* تلك كانت شكوى أخرى متكررة. بالرغم من أنهـــم لـــم يذكـــروا تحديـــدا مقصـــدهم بعبارة "الأنشطة الجماعية" على الإطلاق.

أنهـــى إيســـتا دراسته بنتائج معتدلة، لكنه رفض الالتحاق بالجامعة وبـدلا مـــن أن يكـــون عـــاملاً مؤثرا في الارتباك المالي الأولي لأبية وزوجـــة أبـــية، فقد بدأ القيام بالأعمال المنزلية. كما لو أنه كان يحاول بطريقـــته تلـــك كســـب قوته. كان يقوم بأعمال الكنس والمسح وغسيل الملابـــس كاملة. تعلم الطهي وشراء الخضراوات من الباعة في السوق، هؤلاء الجالسين خلف تراكمات هرمية من الخضراوات البراقة المشبعة بالزيـــت، شبوا على معرفتهم فكانوا يعطونه علب الأفلام الصدئة ليضع فـــيه مـــا ينتقـــيه من الخضراوات. لم يساوم أبداً. وهم لم يحتالوا عليه مطلقاً. عند الانتهاء من وزن الخضراوات ودفع ثمنها كانوا ينقلونها إلى ســـلة التســـوق البلاســـتيكية الحمراء الخاصة به (البصل في القاع، و البرنجال والطماطم أعلى السلة) ودائماً عسلوج كسبرة وحفنة من الفلفل الأخضـــر الحـــار مجاناً. في الترام المزدحم كان إيستا يحمل مشترواته للبيت. فقاعة هادئة تطفو على بحر من الضجيج.

فـــي أوقـــات الطعام عندما كان يريد شيئاً ما، كان ينهض ليحضره لنفسه.

ذات مـــرة وصـــلت الاستكانة، وأقامت، وانتثرت في إيستا. امتدت إلـــى خـــارج رأســـه وطوقته بذراعيها المغرقتين. هدهدته وحركته إلى إيقـــاع عتيق لنبض قلب جنيني. أرسلت مجساتها السرية الماصة لتسير بـــبطء عبر أحشاء جمجمته، لتحوم حول هضاب وأدوية ذاكرته، لتزيح الجمـــل القديمـــة، لتنفضها عن طرف لسانها. خططت افكاره بالكلمات التـــي صورتها وتركتها مكشوطة عارية. لا يوصف. لا مبالٍ. لهذا فهو ندرا ما يلوح في أي رقيب، نادراً ما يكون موجود. مع مرور السنوات انســـحب إيســـتا ببطء من العالم. شب معتاداً على الأخطبوط القلق الذي يســـكنه ورش على ماضيه بمهدئ له قتامة الحبر. وبالتدريج أخذ مبرر صمته يختفي. يدفن في مكان ما عميق في ثنايا حقيقته المستكينة.

حيـــنما قـــرر خوبتشاند،حبيبه،المكفوف،الأصـــلع، المصاب بسلس الـــبول، الـــنغل ذا السبعة عشر عاما أن يمضي عبر موت طويل ممتد، تعس، قام إيستا بتمريضه في محنته الأخيرة كان حياته تعتمد إلى حد ما علـــيها. فـــي الشهور الأخيرة من حياته، كان خوبتشاند الذي كان يمتلك مـــن النوايا أجملها،غير أن مثانته لم تكن جديرة بالثقة، يسحب نفسه إلى بـــاب للكـــلاب يتدلى من مفصلة أعلاه مقام أسفل الباب الذي يؤدي إلى الحديقـــة الخلفية، ليدفع برأسه داخله ويبول بطريقة غير منتظمة، أصفر رائـــق*بـــالداخل*. حينئذ بوعي صافٍ ومثانة فارغة يومئ لأعلى لينظر إلـــى إيستا بعينين خضراوين قاتمتين تحتلان جمجمته المنقطة بالرمادي كأنهـــا بـــرك يعلوهـــا الـــزبد والغثاء ويشق طريق عودته إلى وسادته الرطـــبة،تاركا على آثار أقدامٍ مبتلة على الأرض.شاهد إيستا نافذة غرفة النوم تنعكس في ضرته الأرجوانية الناعمة. والسماء من خلفها. وطائر يحلق عبرها ذات مرة. بالنسبة لإيستا- الغارق في عبق الورود العتيقة، المسفوك دمه على ذكريات رجل محطم ــ كان اعجازاً أن شيئاً ما هشاً للغايـــة،لا تحـــتمل رقته إطلاقا قد بقى على قيد الحياة، قد تُرك ليعيش. طائر محلق ينعكس في ضرة كلب عجوز. لقد جعله هذا يبتسم مقهقها.

بعـد مـوت خوبتشـاند، بدأ إيستا يتمشى. كان يمشي لساعات بلا انقطـاع. في بادئ الأمر كان يتجول في المناطق المجاورة، غير انه بدأ يبتعد تدريجيا في غياهب الحقول.
أصبحت رؤيته على الطريق مألوفة لدى الناس. رجل أنيق الملبس بمشية هادئة. صار وجهه قاتما وبريا. متجهما. جعدته الشمس. بدأ يبدو اكـثر حكمـة مما هو عليه فعلا. مثل صياد في مدينة. مسكون باسرار البحر.

إيستا الآن وقد اعُيد ثانية، يتجول في كل أنحاء ايمينيم.
فـي بعـض الأيـام كـان يتمشى على امتداد ضفاف النهر المفعم بـرائحة السيراز والمبيدات المشتراة بقروض البنك الدولي. لقد صارت معظـم الأسماك قتيلة. وما بقي منها على قيد الحياة كان يعاني من تعفن الزعانف وطفح جلدي في القشرة.
فـي أيام أخرى كان يتمشى أسفل الطريق. مارا بالمنازل الجديدة، حديـثة البـناء المكسوة بالجليد. تلك المنازل التي شيدت بأموال الخليج التي جلبها عمال التليفونات، وموظفي البنوك، والممرضات ممن بتعاسة تحملـوا عـناء العمـل الشـاق فـي بلاد بعيدة. مارا بالمنازل القديمة الممتعضة التي لونها الحسد بالاخضر، التي تتكمش مرتعدة في ممراتها بين أشجار المطاط التي تحيط كل منها. لكل إقطاعيته المتداعية بملحمة تخصه دون سواه.
مـارا بمدرسـة القرية التي شيدها جده الكبير للأطفال المنبوذين، أبناء الطبقة الدنيا في الهند.
مـرورا بكنيسة صوفي مول الصفراء. مرورا بنادي شباب أيمينيم للكـنغو فـو. بحضانة البراعم الرقيقة لأبناء الطبقة العليا، بمحل المؤن الـذي يبـيع الأرز، السـكر، والموز الذي يتدلى في عناقيد صفراء من السقف. مجلات ملساء فاضحة عن شياطين الجنس الخياليين في جنوب الهـند معلقـة بمشابك الغسيل على حبال تتدلى من السقف كانت تتمايل بوخـم في النسيم الدافئ تغوى مشترو المؤن الفاضلين البسطاء بنظرات امرأة عارية ناضجة ترقد في حمامات سباحة تمتلئ بدم زائف.

أحـيانا كان إيستا يمر بــ لاكى برس ــ مطبعة الرفيق ك. ن. م. بيللاي العجوز، التي كانت ذات يوم مكتب الحزب الشيوعي في آيمينيم، حيــث كانت تعقد اجتماعات المناقشة والدراسة في منتصف الليل، وكذا طــباعة وتوزيع الكتيبات التي كانت تتضمن الأغنيات الحماسية للحزب الماركســـي. صار العلم الذي كان يرفرف أعلى السطح مهترئا مترهلا، وقد شحب ونزف منه اللون الأحمر.

كومــراد بــيللاي نفسه كان يخرج في الصباح مرتديا ثوبا هفهاف النسيج ضارب إلى اللون الرمادي، وقد رمت ضرتاه بظلها على الماندو الأبــيض الناعم، داهناً جسده بزيت جوز الهند الدافئ الحار، مدلكا لحمه العجــوز المــترهل الـــذي يمتد ممتطياً عظامه، كأنه علكة. الآن يعيش وحـــده. كاليانـــي، زوجـــته ماتت بسرطان الرحم. لينين ابنه، قد انتقل للعيش في دلهي، حيث يعمل متعهد خدمات للسفارات الأجنبية.

لو كان كومراد بيللاي خارج منزله يدهن جسده بالزيت عند مرور إيستا عليه، لجعل من مروره مبرراً لتحيته.

"صباح الخير إيستا!" هكذا كان سيزعق مندهشا، بصوته الجهوري المترنم،الذي أصابه الإعياء والتحشرج الآن، كأنه عود قصب انسلخ من لحائه."صباح الخير، أهذه تمشيتك اليومية؟".

وكان إيستا يمر، دونما وقاحة، دونما تهذب. فقط بهدوء.

كـــان كومـــراد بيللاي معتاداً على طقطقة جسده وذلك للحفاظ على اســـتقرار واستمرارية دورته الدموية. لم يستطيع تحديد ما إذا كان إيستا قـــد عرفه بعد كل تلك السنوات أم لا. ليس ذلك تحديدا ما كان يعبأ به. رغـــم أن دوره فـــي المسألة كلها لم يكن بالطبع دوراً صغيراً، كومراد بيللاي لم يعتبر نفسه بأي شكل مسئولاً بشخصه عما قد حدث. فقد كان يـــرُد القضية كلها إلى عواقب حتمية لما تفرضه السياسيات الضرورية. قضـــية العجـــة والبـــيض القديمة (بما يفيد، هل تصنع العجة إلا بفقس البـــيض، هل ترجو ربحاً بغير خسارة؟ غير أن كومراد ك.ن.م. بيللاي وقتـــئذ كان رجلاً سياسياً أصلاً.طاهي عجة محترف. كان يمضي عبر العالم كالحرباء.لا يكشف نفسه مطلقاً، يظهر في الفوضى والخواء دون أن يصيبه ضر.

كـــان أول مـــن سمع في آيمينيم بعودة راهيل. لم تقلقه تلك الأخبار بقـــدر ما أثارت فضوله. لقد كان إيستا غريبا تماماً عن كومراد بيللاي. كـــان ترحـــيله مـــن آيمينيم فظاً ومباغتاً، ومنذ أمد طويل. لكن كومراد بـــيللاي كان يعرف راهيل جيداً، فقد تتبعها وهي تكبر. ولذا فقد تساءل متعجباً ما الذي أعادها بعد كل هذه السنوات.

كـــل شئ كان هادئا في رأس إيستا حتى أتت راهيل. غير أنها قد حملت معهـــا أصـــوت القطارات التي كانت تمر منطلقة،والضوء والظل اللذان يسقطان عليك إذا ما كان مقعدك إلى جوار النافذة.العالم الذي كان مغلقاً ومحـــرما لســـنوات، بغتة ينفجر متدفقاً.والآن لا يستطيع إيستا أن يسمع صـــوته من جراء الضجيج.القطارات. المرور.الموسيقى.السوق.سد قد انفجـــر مفتوحا لتهمي منه المياه الضارية العنيفة وتجترف كل شئ في الأقاصـــي إلـــى دوامـــة. المذنبات، الكمنجات،المواكب، العزلة، الغيم، اللحـــى، أفراد العصبيات المتحزبة، القوائم، الأعلام،الزلازل،اليأس، كل شئ وقد هوى إلى دوامة جارفة.

وإيســـتا، وقـــد أمكنه أن يستشعر بلل المطر،أو الارتجاف المباغت لكلب قد تبناه مؤقتا فأخذ يئن وهو إلى جواره. بجوار شجر جوز الجندم ومضـــى صاعداً حافة أنف الجبل اللطريطية الناتئة في النهر. جثم على ردفيه وغسل نفسه برزاز المطر. كان الوحل المبلل تحت حذاءه يصدر أصـــواتا غليظة بذيئة كمصيص الرضاعة. ارتعش الكلب المرتعد وأخذ يترقب.

بيـــبى كوتشـــاما، وكوتشـــو ماريـــا الطـــباخة قزمـــية القامة، سريعة الغضب،لاذعة القلب، هما كل ما تبقى من الناس في منزل آيمينيم عندما أعيد إيستا ثانية. ماماتشى جدتهما كانت قد ماتت. تشاكو الآن يعيش في كندا ويدير تجارة فاشلة للأنتيكات.

أما راهيل.

فـــبعد أن ماتـــت آمو (بعد آخر مرة عادت فيها إلى آيمينيم،متورمة بالكورتيزون وصار صدرها يُخشخش كرجلٍ يزعق من بعيد)، تخبطت

راهيل. من مدرسة إلى أخرى. كانت تقضي إجازاتها في أيمينيم. تشاكو وماماتشي كانتا تغفلانها تماما (أصابها الأسى بالوهن، هوت في فجيعتيهما مثل أثنين ثملين في بار يقدم التودي*. وهي تتجاهل بيبي كوتشاما تماما. فيما يخص تربية وتقوية راهيل،كان تشاكو وماماتشي يحاولان، إلا أنهما فشلا. فقد وفرا لهما الرعاية (المأكل والملبس والنقود)، لكنهما انصرفا عن الاهتمام بها.

لقد طوق فقد صوفي مول منزل أيمينيم بهدوء كأنه شيء أنسل مستكينا في جورب. كان يختفي في الكتب والطعام. في حقيبة الكمان الذي تملكه ماماتشي. في قشور القرح التي تكسو قصبتيه، والتي تزعجه وتقلقه باستمرار في ساقيه الضعيفتين الأنثويتين.

شيء مثير للغرابة أن ذكرى الموت تعيش أحيانا لوقت أطول بكثير من ذكرى الحياة التي تختلسها.

بمرور السنوات وبينما كانت ذكرى صوفي مول (الباحثة عن أنماط الحكمة الصغيرة: *أين تذهب الطيور الهرمة لتموت؟ لماذا لا تسقط الميتة منها في السماء كالأحجار؟* نذير الواقع الفظ : *أنتما مزاحان كبيران، أما أنا فنصف مزاح.* غورو الدم المسفوك: *لقد رأيت بؤبؤا عينيه يتدليان متأرجحين في طرف عصب كأنهما يويو*) يتلاشى ببطء، تنامى فقدان صوفي مول عنيفا، حيا. دائما كان هناك. مثل ثمرة في موسم. كل موسم. بارز كمركز حكومي. شيع راهيل منذ الطفولة (من مدرسة لأخرى) حتى الأنوثة.

في البداية وهي ابنة الحادية عشر في دير راهبات الناصرة أدرجت راهيل في القائمة السوداء، حينما قبض عليها خارج بوابة حديقة رئيسة الدار وهي تزين كتلة من روث البقر بأزهار صغيرة. أمام المجلس التشريعي في الصباح التالي أمرت أن تكشف عن كلمة فساد **Depravity** في قاموس أكسفورد وأن تقرأ معناها بصوت عالي. ***"The quality or condition of being depraved or corrupt"*** كانت راهيل تقرأ وبخلفها يجلس صف من الراهبات متجهمات الفم وأمامها

---

* شراب مسكر (المترجم)

بحـــر مـــن وجـــوه التلميذات اللاتى يكتمن ضحكاتهن. "***صفة منحرفة: انحـــراف أخلاقـــي؛ الفســـاد الفطري للطبيعة الإنسانية الناتج عن إثم أصـــيل؛ كـــلا من الشخص المختار والغير مختار يأتون إلى العام في حالـــة مـــن الفســـاد التام،والابتعاد عن الله،ولا يستطيعون أن يفعلوا بأنفسهم سوى الإثم. ج. هـــ. بلانت***"

بعـــد هـــذا بستة اشهر تم فصلها من جراء الشكاوى المتكررة من الطالـــبات المشـــرفات.لقد اتُهمت (اتهاما صحيحا ثابتا) بالاختباء خلف الأبـــواب والتصـــادم عمدا مع مشرفاتها. عندما استجوبها المسئول عن ســـلوكها (ذُوهنت، سُجنت، جُوعت)، وأخيراً اعترفت أنها قد فعلت هذا لتكتشـــف ما إذا كانت الأثداء تؤلم أم لا. في تلك المؤسسة المسيحية،لا يُعـــترف بالأثداء. من المفترض أنها ليست موجودة، وطالما أنها ليست موجودة فهل لها مقدرة على الإيلام؟

تلـــك كانت الأولى بين ثلاث حالات للطرد. الثانية كانت من جراء التدخين. الثالثة كانت بسبب إشعال النار في كعكة الشعر المستعار التي اعترفت راهيل تحت ضغط التهديد بسرقتها.

في كل المدارس التي التحقت بها، لاحظ المدرسون أنها :

1 ــ كانت طفلة مؤدبة للغاية.

2 ــ لم يكن لها أي أصدقاء.

ظهـــر أنه نوع مهذب ومتفرد من الانحراف ولهذا السبب تحديدا، اتفق الجميع (مستمتعين بامتعاضهم التدريسي، لامسين إياه بألسنتهم، ماصين إياه كأنه حلوى) ــ أنه الأكثر خطورة.

تهامسوا مع بعضهم البعض، *كأنها لا تعرف كيف تكون الفتاة.*

لـــم يكونـــوا علـــى مبعدة من الهدف، من النقطة المطروحة على بساط البحث.

بالصدفة، وبغرابة، يبدو أن اللامبالاة أدت إلى انعتاق الروح.

كـبرت راهـيل دونمـا دفـاع. دون أن يكـون لديهامـن يرتب لـزواجها.دون أن يكون هناك من يدفع لها مهراً ولذا فقد كبرت دون أن يكون لها زوج اضطراري يلوح في افقها.

لـذا طالمـا لم تكن منزعجة لهذا الأمر،فقد ظلت تطرح تساؤلاتها: عـن الأثـداء ولأي مدى تسبب ألما. عن كعكعات الشعر المستعار وكم من الأجدى أن تحرق. عن الحياة وكيف ينبغي أن تُعاش.

عـندما انتهـت سنواتها الدراسية حصلت على تصريح بالالتحاق بكلـية متوسـطة لدراسة الهندسة المعمارية في دلهي.لم يكن هذا نتيجة لاهـتمام خـاص منها بالهندسة المعمارية. حقيقة ولا حتى بسبب اهتمام سـطحي. مـا حدث فقط أنها تقدمت للاختبار واجتازته. أدهش أعضاء اللجـنة الحجـم (الضـخم) للوحاتها الساكنة المرسومة بالفحم؛أكثر مما أدهشتهم المهارة. لقد اعتقدوا خطأ أن الخطوط الطائشة الفوضوية تشي بثقة فنية رغم أن من أبدعتها ليست فنانة أصلا.

ثماني سنوات أمضتها في الجامعة دون أن تجتاز السنوات الخمس المقـررة للحصـول على الدرجة. كانت الرسوم منخفضة ولم يكن من الصـعب توفـير نفقـات المعيشة عن طريق الإقامة في بيوت الشباب وتناول الطعام على موائد الطلاب المدعومة والعمل كمصممة رسومات فـي الشـركات المعماريـة الكئيـبة التي تستغل العمالة الرخيصة من الطـلاب في رسم مخطوطات التقدمة وتوبيخهم في حالة الخطأ بدلاً من حضـور المحاضـرات إلا نادراً. الطلاب الآخرين خاصة الذكور كان يـتوعدهم جمـوح راهـيل وتقريباً النقص الشديد في الطموح. لذا فقد تحاشـوها. لـم تُدعى أبداً لزيارة منازلهم الجميلة أو لحضور حفلاتهم الصاخبة. حتى أساتذتها كانوا يحذرون جانبها إلى حد ما – التصميمات لمعماريـة الشـاذة التي لا تصلح للتنفيذ المقدمة علي ورق قاتم رخيص لامـبالاتها بانـتقاداتهم الحادة. كانت تكتب لتشاكو وماماتشى بين الحين والآخـر لكـنها لـم ترجع أبدا آيمينيم. لا في موت ماماتشى. ولا حين هاجـر تشـاكو إلى كندا. لقد التقت مع لارى ماك كاسلين الذي كان في دلهـي لجمـع مـادة رسـالة للدكـتوراه عن *كفاءة الطاقة في الهندسة المعماريـة المحلي*.أثناء وجودها في مدرسة الهندسة المعمارية،فقد رأى

رأى راهيل أول مرة في المكتبة ومرة ثانية في خان ماركت. كانت ترتدي جينز وتي ـ شيرت أبيض. كانت تزرر حول رقبتها قطعة قماش مزركشة من غطاء سرير وتتدلى خلفها مثل كاب. شعرها كان مربوطاً من الخلف ليبدو منسابا رغم أنه ليس كذلك. ماسة صغيرة تلمع علي إحدى فتحتي أنفها. لترقوتها جمال عبثي مضحك، ولركضها روعة رياضية.

ثمة نغمة جاز تعزف، هذا ما دار بخلد لارى ماك كاسلين، وتتبعها إلي داخل مكتبة حيث لم يعبأ أي منهما بالكتب.

اندفعت راهيل إلى الزواج كما يندفع راكب إلى مقعد خالي في صالة انتظار مطار. مع شعور بالجلوس. عادت معه إلى بوسطن.

عندما احتضن لارى زوجته بين ذراعيه، أسند خدها إلى صدره، كان طويلا بما يكفي ليرى أعلى رأسها، ركام شعرها القاتم. حين وضع إصبعه بالقرب من زاوية فمها كان يشعر بنبض خفيف. أحب موقعه. وكذا ذلك التقافز الضعيف المتقلب الكامن تحت جلدها تماماً تحسسه، منصتا بعينيه، كان مثل أب يترقب طفلاً لم يولد يرفس ويضرب داخل رحم أمه.

كان يعانقها كما لو كانت هبة. أعطيت له بحب. شيئا ساكناً وصغيرا. لا تحتمل قيمته الثمينة العزيزة.

حين مجامعتها كانت عيناها تصيباه بالضيق. كانتا تتحركان وكأنهما تخصان شخصاً آخر. يراقب. يطل من النافذة على البحر. على قارب في النهر. أو أحد المارة مرتديا قبعة في الضباب.

كان يشعر بالغيظ لأنه لم يكن يعرف ما تعنيه تلك النظرة. فوضَعَها في مكانٍ ما بين اللامبالاة واليأس. لم يكن يعرف أنه في بعض الأمكنة، مثل البلد التي أتت منها راهيل،هناك أنواع عديدة من اليأس تتنافس لتحتل موقع الصدارة. وأن ذلك اليأس الشخصي لم يكن أبداً مثيراً لليأس بما فيه الكفاية. ثمة شئ حدث عندما حط الاضطراب الشخصي على النقيض من الاضطراب الشعبي الشاسع العنيف الدائري الجارف الساخر المختل المستحيل لأمة، ذلك القابع على جانب الطريق.أن الإله الكبير عوى مثل رياح ساخنة، وطلب انحناءة الاحترام

والطاعــة. حينئذ انخلع الإله الصغير (مستكينا منطويا منعزلا ومحدودا) من مكانه مكتويا، ضاحكاً ببلاهةٍ على طيشه الخاص عندما تمالك نفسه ووقف خروجه عن السياق. أصبح مرنا وغير مكترثا تماما. لاشيء يهم كثــيرا. لاشيء كثيرا يهم. أقل ما يهم،أقل ما يهم. ليس مهما بما يكفي. لأن أشياء أسوأ قد حدثت. في البلد التي أتت منها، ظلت الأشياء السيئة تحـدث وهو متأرجح أبدا بين فزع الحرب وهول السلام. لذا أطلق الإله الصــغير ضـحكه مختالة، ووثب مرحا مبتهجا. مثل ولد ثري يرتدي شورت. يصفر ويركل الأحجار. كان مصدر ابتهاجه الهش تلك الضآلة النســبية لمحنته. صعد مقتحما أعين الناس وأصبح سماء مثيرا للضيق والســخط. إطلاقــا. لــم يكــن اليأس هو ما رآه ماك كاسلين في عيني راهــيل، كــان نوعا من التفاؤل الاضطراري وفجوة هوت في غياهبها كلمــات إيســتا. لم يكن متوقعا أن يفهم ذلك. ذلك ان الخواء الذي يسكن أحــد التوأمين لم يكن سوى ترجمة للاستكانة التي تمكن في الأخر. أن الشــيئان تطابقــا معــا. مثل ملاعق تراكمت فوق بعضها. مثل أجساد عشاق متآلفة.

بعد طلاقهما، ظلت راهيل تعمل لعدة اشهر كنادلة في أحد المطاعم الهــندية في نيويورك. ولسنوات عديدة كموظفة ليلية في كابينة مضادة للرصــاص بمحطــة غاز على حدود واشنطن، حيث كان السكارى من وقــت لأخــر يمطرونها بالنقود، ويعرض القوادون عليها وظائف اكثر ربحــا لمرتيــن رأت رجــال يتبادلون إطلاق النار من نوافذ سياراتهم. وذات مرة رأت رجلا مطعونا يُلقي من سيارة وفي ظهره مدية.

حينئذ كتبت بيبي كوتشاما لتخبرها بعودة إيستا ثانية. تركت راهيل وظيفتها في محطة الغاز وبسعادة غادرت أمريكا لتعود إلى آيمينيم. إلى إيستا في المطر.

فــي البيــت العتــيق على التل، كانت بيبي كوتشاما تجلس على المائدة تســتخرج من ثمرة خيار كبيرة علقمها المرير. كانت ترتدي قميص نوم كاروهــات بأكمــام واسعة منفوشة منقوشة بأشكال الزعفران الأصفر. تحــت المنضــدة كانت تؤرجح قدميها ذات الأظافر المطلية بالمانيكير، وكأنهــا طفــل صــغير على كرسي مرتفع. كانتا متورمتان من جراء

الإكــزيما. كأنهمـــا وسادتان هوائيتان على شكل قدم. في الأيام الغابرة حيـــنما كـــان يأتي أي شخص لزيارة آيمينيم، كانت بيبي كوتشاما تجعل مـــن هـــذه الـــزيارة فرصة لتلفت الانتباه إلى قدميه الكبيرتين. فتطلب تجريــــب مداســـه وتقول، 'انظر إلى أي حد هي واسعة وكبيرة!' حينئذ تطـوف بالمـــنزل، وهي ترفع ساريها قليلا حتى يتثنى لكل شخص أن ينبهر برؤية قدميها الصغيرتين.

اســـتمرت فـــي انشـــغالها بثمرة الخيار بإحساس لا يتجاوز النصر المســـتتر. كانـــت سعيدة لأن إيستا لم يتحدث مع راهيل. لقد نظر أليها ومضـــــى مباشرة. إلى المطر. كما يفعل مع أي شخص آخر. كانت في الثالثة والثمانين. عيناها تنتثران مثل الزبد خلف نظارتها السميكة.

قالـــت لراهـــيل،'قلت لك، أليس كذلك؟ ماذا كنت تتوقعين؟ معاملة خاصـــة؟لقد فقـــد عقلـــه، أقول لك! انه لم يعد قادرا على *التعرف* على الناس! ماذا كنت تعتقدين؟'

لم تنطق راهيل بأي شئ.

كانـــت تشـــعر بإيقـــاع اهتزازات إيستا، ورزاز المطر على جلده. كانت تسمع صوت العالم المضطرب الأجش في رأسه.

رفعت بيبي كوتشاما عينيها لتنظر إلى راهيل بقلق. لقد ندمت على إبلاغهـــا بنـــبأ عودة إيستا. لكن ماذا كان بإمكانها أن تفعل آذن؟ أتحمله علـــى يديهـــا ما تبقى من حياتها؟ ولماذا *ينبغي* عليها أن تفعل ذلك؟ انه ليس مسئوليتها.

أم انه كذلك؟

كـــان الصـــمت يجلس بين حفيدة الأخ وعمتها الكبرى كأنه شخص ثالـــث.غريـــب. منـــتفخ. سام. ذكرت بيبي كوتشاما نفسها بإغلاق باب غرفة نومها ليلا. حاولت أن تفكر في شئ تقوله.

"ما رأيك في قصة شعري؟"

بيدها التي كانت تمسك ثمرة الخيار تحسست شعرها فتركت خلفها قطعة ثابتة من غثاء الخيار.

لـــم تســـتطيع راهـــيل أن تفكر في شئ لتقوله. كانت تشاهد بيبي كوتشـــاما وهي تقشر ثمرة الخيار. رقائق صفراء من لحاء الخيار تتأثر

علــى صدرها. شعرها، المصبوغ بالأسود الفاحم، كان مصففا بعرض فــروة رأسها مثل خيط مفرود غير ملفوف. تركت الصبغة بقعا رمادية فاتحــة علــى جبهتها، فظهر على جبهتها ظلاً لخط شعر ثان. لاحظت راهــيل أنهــا قد بدأت وضع مكياج. إصبع شفاه.كحل.لمسة خفيفة من احمــر الخدود. ولأن المنزل كان مغلق ومعتم، ولأنها لم تكن تحب إلا المصــابيح قــوة 40 وات، فقــد انحــرف لون الشفاه قليلا عن موضع شفتيها.

قامت بإنقاص وزن وجهها وكتفيها، مما حولها من شخص مستدير القــوام إلــى شخص له قوام مخروطي. لكن جلوسها على المائدة كان يــواري أردافهــا الضخمة مما جعلها تبدو رقيقة القوام. الضوء الخافت فــي غرفة الطعام محا تجاعيد وجهها فبدا ــ بشكل غريب غائرــ أكثر شــباباً. كانــت ترتدي مجوهرات كثيرة. مجوهرات جدة راهيل. كلها. خواتــم صــدفية مضــيئة. أقراط أذن من الماس. أساور وخلاخيل من الذهــب، وسلســلة ذهبية منبسطة رائعة الصنع تتحسسها من أن لآخر مؤكــدة لنفســها أنها موجودة وأنها ملكها. مثل عروس شابة لا تصدق حسن الطالع الذي أصابها.

تفكرت راهيل. *إنها تعيش حياتها بأثر رجعي.*

لقــد كانــت ملاحظــة ثاقبة بشكل لافت.بيبي كوتشاما كانت تعيش حــياتها بأثــر رجعي. حين كانت امرأة شابة، كانت تتبرأ من وتعتزل العــالم المادي، والآن، وهي هَرِّمة،شوهدت وهي تحتضنه. تعانقه وهو ثانية يبادلها العناق.

عندما كانت في الثامنة عشر من عمرها أحبت راهباً شاباً أنيقاً من أيرلــندا الأب مولــيجان، الذي كان منتدبا لمدة عام في كيرالا من قبل معهــده اللاهوتــي فــي مــدراس. كــان يقوم بدارسة الكتاب المقدس الهندوسي وذلك ليصبح قادرا على دحضه عن معرفةٍ ثاقبة.

صــباحِ كل خميس كان الأب موليجان يأتي إلى آيمينيم لزيارة أبو بيبــي كوتشــاما، الكاهن المبجل إ. جون آيب، أحد قساوسة كنيسة مار تومــا. كــان للكاهن آيب شهرة واسعة في المجتمع المسيحي. ذلك لأنه

الرجل الذي باركه بطريرك أنتيوك، سيادة رئيس الكنيسة المسيحية السورية شخصياً ــ الواقعة التي صارت جزءاً من فلكلور آيمينيم.

ففي سنة 1876 عندما كان والد بيبي كوتشاما في السابعة من عمره أخذه أبوه ليشاهد البطريرك الذي كان في زيارة للمسيحيين السوريين في كيرا لا. فوجدوا أنفسهم مباشرة أمام جمع من الناس، كان البطريرك يلقي عليهم خطبة من الشرفة الغربية في منزل كاليني، في كوتشين. همس الأب في أذن ابنه الصغير منتهزا الفرصة، ودفع الرفيق الصغير للأمام. وهو منثنيا على عقبيه، متجمداً من الخوف لثم كاهن المستقبل خاتم البطريرك الذي يلف إصبعه الأوسط تاركا إياه مبللاً بريقه. مسح البطريرك خاتمه في كمه، وبارك الولد الصغير. بعد وقت طويل كبر وأصبح قسيساً وظل الكاهن آيب يُعرف بـ *بانسيان كنجو* ــ الصغير المبارك ــ والناس يقطعون النهر بقواربهم من أوليبي وأرتاكولام ــ مصطحبين أطفالهم ليباركهم.

بالرغم من فارق السن الكبير بين الأب موليجان والكاهن المبجل آيب، وبالرغم من أنهما ينتميان لطائفتين كنسيتين مختلفتين (يجمعهما شعور واحد فقط من السخط المتبادل) إلا أن كلاهما كان يستمتع بصحبة الأخر، وفي أغلب المرات، كان الأب موليجان يُدعى للغداء. أحد الرجلين فقط أدرك الإثارة الجنسية التي كانت تعلو مثل المد في الفتاة الممشوقة التي كانت تحوم حول المائدة طويلاً بعد أن يرفع الغداء.

في البداية، حاولت بيبي كوتشاما ما أن تغوى الأب موليجان باستعراضات أسبوعية من البر والإحسان المصطنع. ففي صباح كل خميس، حين يكون الأب موليجان تماماً على وشك الوصول، كانت بيبي كوتشاما تقوم بغسل طفل قروي فقير رغماً عنه في البئر بصابون أحمر خشن يؤلم أضلعه الناتئة.

كانت بيبي كوتشاما تهلل عندما تراه، وعلى شفتيها ابتسامة تنفخ تماما القبضة الآثمة التي تحكم بها إمساك ذراع الطفل النحيف الذي جعله الصابون زلِقا، وتقول، "صباح الخير أيها الأب!"

فيتوقف الأب موليجان ويرُد وهو يطوي شمسيته قائلا، "وعليك صباح الخير يا بيبي!"

وتردف بيبي كونتشاما "ثمة شئ أريد الاستفسار عنه منك ايها الأب، تقول الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس. في الآية الثالثة والعشرين من الفصل العاشر... *كل شئ حلال عندي، ولكن ليس كل شئ ينفع*. أيها الأب، كيف يمكن ان يكون *كل* شئ حلال عنده؟ أعني من الممكن أن أفهم أن بعض الأشياء حلال عنده. لكن ـ"

الإحساس الذي أثاره الأب موليجان في الفتاة الشابة الجذابة التي تقف أمامه بفم مرتعش في انتظار قبلة وعينين سوداوين متوهجتين، كان أكثر من مداهنة وإرضاء لغروره. ذلك لأنه كان شاباً أيضاً. وربما لم يكن يتنافى تماما مع الوعد المثير الذي تطلقه عيناه اللامعتان زمردتا اللون.

صباح كل خميس، دون اكتراث بشمس الظهيرة القاسية، يقفان معا بجوار البئر. الفتاة الشابة واليسوعي الجريء، تزلزلهما عاطفة متوهجة لا مسيحية. والإنجيل بيد كل منهما حيلة للتستر.

وبنفس الطريقة، يتمكن الطفل البائس الذي يجبر على الاستحمام من الهرب في منتصف الحوار مبللا يكسوه الصابون، فيعود الأب موليجان إلى رشده ويهم قائلا، "هوب! يا ساتر! من الأفضل أن نمسك به قبل أن يصيبه البرد."

حينئذ سيفتح شمسيته ثانية ويمضي في جبته البنية الداكنة وصندله المريح، مثل جمل يرفع رجليه عاليا، كأنه على موعد هام. وهو يجرجر معه قلب الشابة بيبي كونتشاما المتوجع الذي يتقافز، متخلعا في مشيته فوق الأوراق والأحجار الصغيرة خلفه. معتلاً بالخدوش ومهشما إلا قليلاً.

عام كامل مضى من أيام الخميس. وفى النهاية حان موعد عودة الأب موليجان إلى مدراس وإذا بالشابة المدلهة بيبى كونتشاما تستثمر كل آمالها في الدين، طالما لم يأت البر بثمار ملموسة.

عصت بيبى كونتشاما رغبات والدها وأصبحت كاثوليكية رومانية معلنة بذلك عن نزاهة نفس واستقلالية رأى عنيدين (وقتئذ كان هذا السلوك يعتبر في رداءته مثل التشوه الجسدية ـ إنفراق الشفة العليا أو اعوجاج القدم) بفتوى خاصة من الفاتيكان، أدت يمين الولاء والتحقت

بذيـر للراهبات في مدراس كمستجدة في التدريب. كانت تأمل أن يكون فـي هذا فرصة شرعية إلى حد ما للبقاء إلى الأب موليجان. تصورتهما معـا، في غرفة مقبرية معتمة مبطنة بالقطيفة الثقيلة، يتبادلان الجدل في علـوم اللاهـوت. هكذا كانت رغبتها. كل ما تجاسرت لأجله. فقط ان تصـبح إلى جواره. قريبة بما يكفى لتتشمم لحيته. لترى النسيج الخشن لرستامته فقط لتحبه بالنظر إليه.

أدركـت بسـرعة شديدة عبثية هذه المساعي. وجدت أن الأخوات الرشـيدات يحاصرن القساوسة والأساقفة بمشكلات إنجيلية أكثر إلحاحا وحـنكة ممـا سـتكون عليه أسئلتها، وربما مضت سنوات قبل أن تجد مكانا بالقرب من الأب موليجان. صارت قلقة وتعسة في الدير. أصابها طفـح جلـدي مـنفر في فروة رأسها من جراء الاحتكاك المستمر بين رأسـها والخمـار. أحست أنها تتحدث الإنجليزية أحسن بكثير من أي شخص آخر. مما جعلها أكثر عزلة من أي وقت مضى.

خـلال عام واحد من التحاقها بالدير، بدأ والدها يتلقى منها رسائل بريدية ملتبسة.

> ***بابـا الحبيب، أنا سعيدة وعلى ما يرام في خدمة السيدة العـذراء. غـير أن كوهينور تبدو تعيسة ومغتربة. بابا الحبيـب، اليوم تقـيأت كوهينور بعد الغداء وأصيبت بارتفـاع في درجة الحرارة. بابا العزيز، طعام الدير لا يناسـب كوهيـنور. مـع إنـي احبه جدا. حبيبي بابا كوهيـنور مؤرقة ومنزعجة لأن العائلة تبدو غير قادرة على فهمها أو مكترثة بصحتها...***

لـم يكـن الكاهن المبجل إ. جون آيب يعرف كوهينور أخرى غير أنها أسم أكبر ماسة في العالم (في ذلك الوقت). وتعجب كيف انتهى المطاف بفتاة تحمل اسما مسلما في دير للراهبات الكاثوليك.

أم بيبي كوتشاما هي التي أدركت أخيرا أن كوهينور لم تكن سوى بيبي كوتشاما نفسها. تذكرت أنها كانت قد أطلعت، منذ زمن بعيد، بيبي كوتشـاما علـى نسـخة من وصية أبيها (جد بيبي كوتشاما) التي كان

يصف فيها أحفاده قائلا: *لدى سبعة جواهر بينهم كوهينور التي تخصني*. ومضى يوصي بمقادير صغيرة من المال والمجوهرات لكل منهم دون أن يوضح أيهم كان يعتبرها كوهينور. أدركت والدة بيبي كوتشاما، دونما مبرر لديها، أن بيبي كوتشاما تقلدت هذا اللقب وأن جدها يعنيها هي به ــ وطيلة تلك السنوات في دير الراهبات وهي تبعث كوهينور لتخبر عائلتها بمتاعبها، ذلك لأنها تعرف أن رئيسة الدير تقرأ الخطابات قبل إرسالها.

توجه الكاهن المبجل آيب إلى مدراس وسحب ابنته من الدير. كانت سعيدة بتركها المكان غير أنها أصرت ألا ترتد، وظلت ما تبقى من حياتها كاثوليكية رومانية. عندئذ أدرك الكاهن آيب أن ابنته أصبحت ذات سمعة، وليس من المحتمل أن تجد زوجاً. وطالما أنها لن تستطيع زوجاً فلا ضرر، كما قرر، في أن تنال قسطاً من التعليم. لذا فقد أعدها للحصول على درجة دراسية من جامعة روتشستر بأمريكا.

بعد عامين، عادت بيبي كوتشاما من روتشستر بعد حصولها على دبلوم في نباتات الزينة، غير أنها صارت أكثر ولعاً بالأب موليجان. لم يعد هناك أثر للفتاة الجذابة ممشوقة القوام التي كانت من قبل. فقد ترهلت بشدة خلال سنوات إقامتها في روتشستر. الواقع أنها قد صارت مفرطة السمنة. حتى تشيلابن الخياط الضئيل الجبان الكائن عند كوبري تشانجام كان يصر على تقاضي أجر خياطة قميص عن بلوزات الساري التي تقوم بتفصيلها عنده.

وحفاظاً عليها من التراخي والكبت أوكل لها أبوها أمر الحديقة الأمامية في منزل آيمينيم،حيث استطاعت أن تزرع حديقة قاسية ومريرة كان الناس يأتون إليها من كل أنحاء كوتايام.

كانت رقعة من الأرض الدائرية المنحدرة، يطوقها درب شديد الانحدار ومعبد بالحصى. حولتها بيبي كوتشاما إلى سياج ونتوء ورؤوس صخرية قصيرة من الخضرة الناضرة المذهلة.أحب الأزهار إليها كان *الأنثيروم*. كان لديها مجموعة منها،*"روميرام،شهر العسل،* ومجموعة متنوعة من الأزهار اليابانية. طلعها الزهري الريان يتفاوت بين درجات الأسود الأرقط والأحمر القرمزي والبرتقالي الفاقع. دائما

كان الاصفر هو اللون المهيمن على طلعها المنقوش. وفي منتصف حديقة بيبي كوتشاما، تمثال من المرمر لملاك صغير بأجنحة يبول قوسا فضيا لانهائيا في غدير ضحل أزهرت فيه لوتسة زرقاء وحيدة. في كل ركن من الغدير عفريت من الجبسين الباريسي الوردي يقف متهدلا بخدود متوردة وقبعة حمراء ملسنة.

كانت بيبي كوتشاما تقضي فترات ما بعد الظهيرة في حديقتها مرتدية ساري وبووت. كانت تستعمل مقصا ضخما للأغصان وتمسكه بقفاز البستنة البرتقالي الساطع. وكمدرب أسود كانت تروض الكرمة الملتوية وتهذب الصباريات ذات الأشواك. كانت تحدد نباتات البونساي وتوسع وتدلل السحلب النادر. شنت حربا على الطقس. فحاولت ان تزرع الشريف الأبيض، والجوافة الصينية.

كل ليلة كانت تدهن قدميها بالكريم وتنزع النتوء الجلدية التي تحيط بأظافر قدميها.

مؤخرا، وبعد أكثر من نصف قرن من الرعاية المتواصلة الدقيقة المتيقظة، هجرت حديقة نباتات الزينة. صارت برية متشابكة النباتات بعد أن تُركت وشأنها دونما اكتراث من أحد، أصبحت كالسيرك الذي نسيت حيواناته ألعابها وحركاتها ــ البستان الذي أطلق عليه الناس الضفيرة الشيوعية (ذلك لأنها كانت مزدهرة وقتئذ مثل الشيوعية) اختنقت وتلاشت كل نباتاتها المستجلبة الرائعة. الكروم فقط هو الذي ظل ينمو، مثل أظافر القدم في جثة. نمت حتى بلغت فتحات الأنف في العفاريت الجبسين الوردية وتبرعمت في رؤوسها المجوفة، وكستها بسيماء الشخص نصف المندهش الموشك على العطس.

السبب في هذا الانكسار المتعجل المباغت كان حبا جديدا. فبيبي كوتشاما قد قامت بتركيب طبق لالتقاط البث التليفزيوني على سطح آيمينيم. أطلت على العالم من غرفة الصالون عبر الستالايت. لم يكن من الصعب تفهُم الإثارة التي تفوق التصور الذي أحدثها هذا لـ بيبي كوتشاما. فهذا الولع لم يحدث تدريجيا. بل في ليلةٍ واحدة. شقراوات، حروب، مجاعات، كرة قدم، جنس، موسيقى، انقلابات ــ جميعهم وصلوا على نفس القطار. أفضوا بمكنونهم جميعا في ذات اللحظة.

أقـــاموا جمـــيعا في نفس الفندق. وفي آيمينيم التي كان صوت آلة التنبيه في الباص هو أعلى الأصوات فيها، الآن حروب كاملة، مجاعات مذابح مصورة، وبيل كلينتون يُمكن أن يُستدعى مثل الخدم. وهكذا، كانت بيبي كوتشـــاما تـــتابع مـــباريات الجمعية الوطنية لكرة السلة الأمريكية يوم كروكـــية، وكل منافسات بطولة الجراند سلام للتنس، بينما كانت حديقة الزيـــنة تذبـــل وتمـــوت. طـــوال أيـــام الأسبوع كانت تشاهد *الجريء والجمـــيلات وسانتا باربرا* حيث الشقراوات المتصلبات بألوان شفاههن، وتصـــفيفات شـــعورهن المتصلبة بفعل المثبت يتفنن في إغواء الآلات البشـــرية الأوتوماتيكية والدفاع عن إمبراطورياتهن الجنسية. كانت بيبي كوتشـــاما تحب ملابسهن البراقة وحضورهن الخبيث الداعر. مقتطفات مـــتقطعة من هذه المسلسلات كانت تعاودها أثناء النهار وتجعلها تضحك في نفسها.

كوتشو ماريا، الطباخة، مازالت ترتدي قرط الأذن السميك الذي قد شـــوه شـــحمة أذنـــيها للأبد. كانت تستمتع بمصارعة المحترفين، هوس عـــروض المصارعة حيث هولك هوجان ومستر برفكت اللذان تتجاوز عنقيهما ضخامة رأسيهما، وكلاهما بوحشية يشبع الآخر ضربا.يرتديان طماقات مرصعة بتباربق فسفورية. كانت كوتشو ماريا ذات ضحكة لها رنين فظ إلى يشبه حد ما ضحكة الأطفال.

كوتشو ماريا، الطباخة، مازالت ترتدى قرط الأذن السميك الذى قد شـــوه شـــحمة أذنهـــا للأبد. كانت تستمتع بمصارعة المحترفين، هوس عـــروض المصارعة حيث هولك هوجان ومستر برفكت اللذان تتجاوز ضـــخامة عنقيهما حجم رأسيهما، وكلاهما بوحشية يشبع الأخر ضرباً، يـــرتديان طماقـــات مرصعة بتباريق فسفورية. كانت كوتشو ماريا ذات ضحكة لها رنين فظ إلى حد ما يشبه ضحكة الأطفال.

كانـــتا تجلسان طيلة اليوم فى الصالون، بيبى كوتشاما تجلس على مقعـــد بأذرع طويلة أو على الشيزلونج (حسب ما تقتضيه حالة قدميها)، وإلـــى جوارهـــا كوتشو ماريا على الأرض (تغير القنوات عندما تريد)، متلاحمتان معاً فى سكون تلفزيوني صاخب. لإحداهما شعر أبيض بلون الثلج وللأخرى شعر مصبوغ بالأسود الفاحم. اشتركتا فى كل المسابقات

وانتفعنا بكل التخفيضات المعلن عنها، فازتا في مسابقتين وربحتا تي شيرت وتورمس وضعته بيبي كوتشاما بعيداً في دولابها.

كانت بيبي كوتشاما تحب منزل أيمينيم وتعتني بالأثاث الذي ورثته لأنها بقيت على قيد الحياة أكثر من أي شخص آخر. كمنجة ماماتشي، وحامل الكمنجة، الدولاب التركي،الكراسي البلاستيكية، أسرة دلهي، تسريحة فينا المطعمة بحلي عاجية مشققة. المائدة التي صنعها فيليوتا من خشب الورد.

كانت مجاعات الـBBC والحروب التلفزيونية التي تشاهدها مصادفة عند تغيير القنوات تفزعها. اشتعلت ثانية مخاوفها القديمة من خطر الثورة الماركسية اللينينية من جراء القلق التلفزيوني بسبب تزايد أعداد البائسين والمشردين. كانت تعتبر التطهير العرقي، والمجاعة والإبادة الجماعية تهديدا مباشرا لأثاثاتها.

كانت تحكم إغلاق الأبواب والنوافذ، طالما لم تكن تستخدمها. كانت تستخدم نوافذها لأغراض محددة. لتتنفس هواء نقيا. لتدفع ثمن الحليب. لتطرد دبورا وقع في شرك (اضطرت كوتشوماريا لمطاردته بفوطة في كل أنحاء المنزل).

حتى أنها كانت تغلق ثلاجتها الكئيبة ذات الطلاء المتآكل، التي تحفظ فيها التموين الأسبوعي من كعكات الكريمة التي أحضرتها كوتشوماريا من مخبز الفطائر في كوتايام وزجاجتين من ماء الأرز الذي تشربه بدلا من الماء العادي. كانت تحفظ ما تبقى من طاقم المائدة المزخرف بتصاوير زرقاء (تمثل حكاية صينية) الذي كانت تمتلكه ماماتشي في الرف تحت حاجز الأطباق.

كانت تضع دستة أو أكثر من زجاجات الأنسولين التي أحضرتها راهيل في الجزء المخصص للجبن والسمن. كان يهاجسها شك في هذه الأيام حتى الأبرياء ذوي العيون المستديرة من الممكن أن يكونوا محتالين أو مشتهي كعكات الكريمة، أو لصوص من المصابين بالبول السكري يجولون آيمينيم بحثا عن الأنسولين المستورد.

لـم تكـن تثق حتى بالتوأمين. رأت أنهما قادران على فعل أي شيء.أي شـيء كـان. ظنت أنهما ربما حتى يستردان هديتهما بالسرقة.وأدركت بلوعـة كـيف أنها بسرعة ارتدت وعادت ثانية لتفكر فيهما على أنهما وحـدة واحـدة. بعـد كل هذه السنوات. عزمت ألا تسمح للماضي أن يـزحف علـيها ثانية وعلى الفور بدلت فكرتها. هي. هي ربما تسترد هديتها بالسرقة.

" هكذا" قالت بصوت حاد متملق. ما هي خططك؟ كم ستقضين هنا؟ هل قررت؟ "

حاولـت راهـيل أن تقـول شـيئا ما. خرج مسننا كأنه قطعة من الصفيح. مضت إلى النافذة وفتحتها لتستنشق نفسا من الهواء النقي.

قالـت بيبى كوتشاما، "أغلقيها حينما تفرغين منها"، وأغلقت وجهها بتجهم كأنه دولاب.

لم يعد من الممكن رؤية النهر من النافذة.

كنـت تسـتطيعين ذلك، قبل أن تغلق ماماتشى الشرفة الخلفية بأول بـاب زلاج فـى أيمينيم. صورتا الكاهن المبجل ا. جون أيب وآليوتى أماتشـى (الأجداد الكبار لإيستا وراهيل) الزيتيتان، تم نقلهما من الشرفة الخلفية وعلقتا فى الشرفة الأمامية.

اللوحـتان معلقـتان الآن، صـورة المبارك الصغير وزوجته على جانبي رأس لثور أمريكي غاضب مثبتة على الحائط.

الكاهـن المـبجل أيب تعتريه ابتسامة الأجداد الواثقة للخارج عبر الطريق بدلا من النهر.

آلـيوتى أماتشى كانت تبدو أكثر ترددا. كما لو كانت تود أن تلتفت للـوراء لكنها لم تستطع. ربما لم يكن من السهل عليها أن تهجر النهر. كانـت تنظر بعينيها صوب الاتجاه الذى كان زوجها ينظر صوبه. غير إنهـا كانت تشيح بقلبها بعيدا. قرط أذنها الكانوكو الثقيل المنطفئ البريق (الـتذكارات المحـبوبة زوجـة المبارك الصغير) كان يمتد متدليا من شـحمتا أذنـيها وحتى كتفيها. وعبر ثقوب أذنها تستطيع أن ترى النهر الحـار والأشـجار المعتمة التى تنحني داخله. والصيادين فى قواربهم.

والأســماك. لــم يــزل منزل آيمينيم مسكونا بالنهر مثل قوقعة بحرية يسكنها الإحساس بالبحر.
إحساس بسمك يسبح ويندفع متموجا.

مــن نافذة غرفة الطعام كانت تستطيع راهيل الواقفة والريح تصفر في شعرها، أن ترى طرقات المطر على السطح الصفيحي الصدئ للمبنى الذي كان مصنع مخللات جدتها.
مخللات ومعلبات الجنة.
كان يقع بين المنزل والنهر.
كــانوا يصنعون المخللات، العصائر، المربات ومسحوق الكاري والأناناس المعلب. ومربى الموز (دون تصريح قانوني) بعد أن منعتها الـــ FPO (هيئة المنتجات الغذائية) ذلك لأنه طبقا لحيثياتهم لم يكن مربى ولــم يكــن جيلي. فقوامه رقيق بحيث لا يصلح أن يكون جيلي وغليظ بحيــث لا يصلح أن يكون مربى. قالوا أن، درجة كثافته غامضة غير قابلة للتصنيف.
بالـــرجوع إلـــى الوراء الآن، بدا لراهيل أن هذه المحنة التى تمر بعائلتها تعتبر اكثر عمقا من قضية المربى/الجيلى.
ربما كان إيستا وآمو وهى هم أكثر الناس إثما. لكن ليس هم فقط. الآخـــرون أيضـــا. جميعا خالفوا اللوائح. جميعهم عبروا إلى المنطقة المحرمة. جميعهم تلاعبوا بالقوانين التى تحدد من الذى ينبغي أن يحب وكــيف. والـــى أي مدى. القوانين التى تجعل الجدات جدات، الأخوال والأعمـــام أخوالا وأعماما، الأمهات أمهات، أبناء العم وبنات العم أبناء وبنات عم، الجيلى جيلي. والمربى مربى.
وقــت اصبح فيه الأعمام والأخوال آباء، الأمهات عاشقات، وأبناء الخال ماتوا ولهم جنازات.
وقت صار فيه اللامعقول معقولاً والمستحيل واقعاً.

حتى قبل جنازة صوفى مول، وجد البوليس فيليوتا.

كـــان علـــى ذراعيه علامات من أثر الأغلال التى احتكت بجلده. أغـــلال بـــاردة لها رائحة معدنية نتنة. مثل درابزون الباص الفولاذي ورائحة كفي الكمساري من جراء الإمساك به.

بعـــد مـــا انـــتهى كل شيء، قالت بيبى كوتشاما،"ستجنى ثمار ما زرعت." كأنها لم يكن بيدها شيئا تفعله فى البذر والحصاد. عادت على قدمـــيها الصـــغيرتين إلـــى غـــرز التطريز المتقاطعة. أصابع قدميها الصغيرة لم تلمس الأرض أبداً. إعادة إيستا كانت فكرتها.

أسى ولوعة مارجريت كوتشما على موت أبنتها ملتفا داخلها كأنه يـــاي غاضب .لم تقل شيئا لكنها كانت تهين ايستا متى استطاعت ذلك في الأيام التى أمضتها هنا قبل أن تعود إلى إنجلترا.

شاهدت راهيل آمو وهى تعبأ صندوق ملابس ايستا الصغير.

قالـــت آمو هامسة،"ربما يكونون على حق ،ربما يحتاج الولد إلى بابا."

رأت راهيل احمرار الموت فى عينيها.

استشـــاروا خبـــيرة توائم فى حيدرآباد.ردت قائلة أنه لا ينصح بفصل الـــتوأم أحـــادى اللقاح،لكـــن التوأم ثنائي اللقاح لا يختلف عن الأقارب العاديـــين ورغم أنهما سيعانيان تحديدا تحت وطأة الأزمة الطبيعية التى يمر بها الأطفال ذوى الكيانات المنزلية المفككة،لن يتجاوز الأمر أكثر من هذا.لا شئ يتجاوز السياق الطبيعي.

وهكـــذا أعـــيد ايستا فى قطار ومعه صندوق ملابسه المعدني وحذائه البيجى المدبب ملفوفا فى جرابه الكاكى. رحلة ليلية فى الدرجة الأولى علـــى عربة بريد مرداس الى مرداس وبعد ذلك مع أحد أصدقاء أبوه من مرداس إلى كالكتا.

كـــان يحمـــل حقيـــبة يعـــبأ فيها الطعام بها سندوتشات الطماطم. وزمزميه على شكل صقر وصقر. رأسه كان متخما بالصور المفزعة. مطر. ماء قاتم بلون الحبر، يهمي. ورائحة. شوق للأحبة. مثل زهور قديمة في مهب النسيم.

لكـن أسـوأ مـن هذا كله أنه كان يحمل داخله ذكرى شاب له فم رجل عجـوز. ذكرى وجه متورم، وابتسامة مهشمة مقلوبة رأسا على عقب. ذكـرى بـركة ممـتدة تمتلئ بسائل صاف ينعكس فيه مصباح شفاف. ذكرى عين تشبه طلقة رصاص انفتحت، جالت ثم ثبتت نظرتها المحدقة علـيه. إيسـتا. وما الذى قد فعله إيستا؟لقد نظر فى هذا الوجه المحبوب وقال:نعم.

نعم، كانت هو.

الكلمة التى لم يستطع أخطبوط إيستا أن يدركها: نعم. الرفرفة ذاتها لـم تقـدم يد العون. كانت تسكن هناك، عميقا فى غياهب حظيرة ما أو حقل، مثل ألياف المانجو بين الضروس. لم يكن ممكنا أن تمس وتقتلع.

بشـكل عملـي بحت سيكون مناسبا أن نصحح ونقول أنها بدأت عندما أتـت صـوفى مول الى أيمينيم. صحيح أن الأشياء ربما تتغير فى يوم واحد. أن اثنتا عشرة ساعة قليلة يمكن أن تؤثر على ثمرة حياة بأكملها. وأنـه عـندما يحـدث، مثل البقايا التى نجت من منزل محترق ـ ساعة الحائط المتفحمة، الصورة الموقع عليها، الأثاث المهشم ـ لابد أن تبعث هذه الساعات وتفحص. لابد أن تحفظ. لابد أن تطرح للتاويل.

أحـداث ضـئيلة، أشـياء اعتيادية، تهشمت وأعيد بناؤها. تتشرب بمعنى جديد. بغتة تصبح العظام المقصرة لقصة.

مازلـت أقـول أنهـا بدأت عندما أتت صوفى مول إلى آيمينيم هو الطريقة الوحيدة للنظر إليها.

وعلـى نفـس الدرجة من التساوي،يمكن تأكيد أنها بدأت فعلا منذ آلاف السـنين. قـبل أن يأتـي الماركسـيون بكثـير. قبل أن يستعمر البريطانـيون مالابـار، قبل السلالة الهولندية. قبل أن يصل فاسكو دى جامـا، قـبل الغـزو الـزامورى لكاليكوت قبل العثور على ثلاثة من الأسـاقفة السـوريين بجبب أورجوانية يطفون على مياه البحر، بثعابين بحـر متجمدة تلتف على صدورهم ومحار معلق بلحاهم المتشابكة. بعد أن قـتلهم البرتغالـيون. يمكن القول بأنها بدأت قبل أن تصل المسيحية بكثير فى قارب وتتفرط فى كيرالا مثل حقيبة مملوءة بالشاي.

إنهـا بدأت حقا فى الأيام التى وُضِعت فيها قوانين الحب. القوانين التى تحدد من ينبغي أن يحب، وكيف.
والى أي مدى.

مع هذا و لأجل غايات مادية، في عالم مادي يبعث على اليأس.....

-2-

فراشة باباتشي

كـــان يومـــا ســـماوي الـــزرقة من أيام ديسمبر سنة تسع وستون (ألف وتســـعمائة ساكنة، لا تنطق). وقت في حياة عائلة من طبيعته أن يُحدث شـــيئا يزحـــزح آخلاقهـــا الخبيثة عن موضع استكانتها، فيظهرها علي السـطح مـــثل فقاعـــة كي تطفو لبرهةٍ. بوضوح. ليراها الجميع. كانت الســـيارة البليموث سماوية الزرقة، تمر مسرعة، والشمس تنعكس علي أجنحـــتها الخلفية، عبر حقول الأرز الشابة وأشجار المطاط العجوز، في طـــريقها إلي كوتشين. بعيدا صوب الشرق، في بلدةٍ صغيرة لها طبيعة مماثلـــة (غابـــات، أنهـــار، حقول أرز، شيوعيين)، دانات كافية انهالت لتغطـــيه تمامـــا بســـت بوصات من الفولاذ. هنا، رغم كونه وقت سلم وكانت الأسرة راحلة في السيارة البليموث دونما خوفٍ أو توجس.

كانـــت الســـيارة البلـــيموث ملكا لباباتشي، جد راهيل وإيستا. الآن تمـــتلكها ماماتشـــي؛ جدتهما، بعد موته. كان راهيل وإيستا في طريقهما إلـــي كوتشـــين لمشـــاهدة صـــوت الموسيقى للمرة الثالثة. كانا يعرفان الأغاني كلها.

بعـــد ذلك، كانوا جميعا سيذهبون للإقامة في فندق ملكة البحر Sea Queen حيـــث رائحة الأطعمة العتيقة. فقد تم حجز الأماكن. ومبكرا في الصباح التالي كانوا سيذهبون إلي مطار كوتشين لاستقبال زوجة تشاكو الســـابقة ـــ زوجة خالهم الإنجليزية، مارجريت كوتشاما ـــ وابنة خالهم، صـــوفي مـــول، القادمتين من لندن لقضاء الكريسماس في آيمينيم. ففي أوائل ذلك العام، مات جو، الزوج الثاني لمارجريت كوتشاما في حادث ســـيارة. وعـــندما عـــرف تشاكو بنبأ الحادث وجه إليهما الدعوة لزيارة آيمينـــيم. قال أنه لا يحتمل فكرة قضائهما لكريسماس كئيب موحش في انجلترا. في منزل متخم بالذكريات.

قالــت آمــو أن تشاكو لم يتوقف أبدًا عن حب مارجريت كوتشاما. كانــت ماماتشـــي رافضة لهذا. كانت تود، في المقام الأول، أن يرسخ لديها اعتقاد بأنه لم يحبها مطلقًا.

لــم يلتقـــي راهيل وإيستا بــ"صوفى سول" من قبل بالرغم من ذلك فقد سمعا كثيرا عنها خلال ذلك الأسبوع الأخير من بيبى كوتشاما ومن كوتشـــو ماريــا وحتى من ماماتاشى نفسها لم تلتقى أى منهن بها أيضا غــير أن الجمــيع تصـــرفوا كـــأنهم يعرفونها بالفعل كان ذلك الأسبوع مخصصًا لـــ "ماذا سوف تعتقد صوفى مول؟"

طـــيلة هـــذا الأســـبوع كلـــه كانت بيبى كوتشاما كثيرا ما تتصنت باستمرار على ما يدور بين التوأمين من أحاديث، وفى كل مرة تجدهما يـــتحدثان لهجـــة المالايالام، كانت تفرض عليهما غرامة صغيرة تخصم مـــن منـــبع مصــــروفيهما. أخبرتهما أن يكتبا سطورا ـــ كانت تسميها، تكلـــيفات.ـــ ســـوف أتحدث الإنجليزية دائما، سوف أتحدث الإنجليزية دائمًـــا. كل سطر مائة مرة. عند الانتهاء من التكليفات كانت تُعلم عليها بـــالقلم الأحمر، لتتأكد أن السطور المكتوبة من قبل لم تحُسب من جديد مع العقوبات الجديدة.

أمـــرتهما بـــترديد أغنـــية إنجلـــيزية للتغنى بها فى طريق العودة. يتوجـــب علـــيهما صـــياغة الكلمات بشكل ملائم، وأن يهتما على وجه الخصوص بنطق الكلمات. النطق.

لتبـــ ـــ تهج بالإ ـــ له دا ـــ دائما.
وثانية أقول ابت ـــ هج،
ابتهج،
ابتهج،
وثانية أقول ابت ـــ هج.

ايســـتابن يـــاكو، كـــان هو الاسم الكامل لإيستا. راهيل كان اسمها راهـــيل. حـــتى ذلك الحين لم يكن لهما لقب لان آمو كانت تفكر فى أن تنســـبها لاسمها قبل الزواج، رغم أنها كانت تقول أن الاختيار بين اسم الزوج واسم الأب لا يعطى المرأة متسعًا كبيرا للاختيار.

كان ايستا يرتدي حذائه البيجي المدبب. نفشة إلفيس بريسلي. نفشته الخاصة عند التنزه. أغنية حفلة **party** هي أغنية الفيس المفضلة لديه "البعض يحبون الروك، البعض يحبون الرول" ***some people like to rock, some people like to roll*** كان يدندن بها عندما يخلو بنفسه، يعزف علي مضارب الراكيت، قالبا شفتيه مثل الفيس **but moon in' groonin' gonna satisfy mahsoul, less have apardy —an' a' ....'**

كان لإيستا عينين مائلتين ناعستين، وأسنانه الأمامية الجديدة لم تكن مستوية الحواف. أسنان راهيل الجديدة كانت تنتظر داخل اللثة، كأنها كلمات في قلم. كان مربكًا للجميع أن فارق ثمانية عشر دقيقة يمكن أن يؤدي إلي هذا التباين في توقيت ظهور الأسنان.

معظم شعر راهيل كان يتكوم علي قمة رأسها كأنه نافورة. كان مربوطًا مع بعضه البعض بتوكة الحب ــ في ــ طوكيوــ كرتين في شريطة مطاطية، لا شيء نفعل بالحب أو طوكيو.

إذا ما كنت ستطلب واحدة من إحدى محلات السيدات المعروفة، فهذا ما ستحصل علية. كرتين في شريطة مطاطية.

علي ساعة راهيل اللعبة كانت عقارب التوقيت مرسومة. الثانية إلا عشرة. كان أحد طموحاتها هو أن يكون لديها ساعة يد تستطيع أن تغير فيها وضع عقارب التوقيت وقتما تريد (هذا ما كان يعنيه الوقت عندها في المقام الأول) نظارتها البلاستيكية عباءة المطار التي تخصها كانت في حقيبة آمو، وكان لهذه العباءة بنطالا قصيرا من نفس القماش.

تشاكو هو الذي كان يقود السيارة. كان يكبر آمو بأربعة سنوات. لم يستطيع ايستا وراهيل أن يناديانه بـ "تكاتشين"، لأنهما إذا ما فعلا ذلك، كان يناديهما "دتشيتان" أو "تشيديوتي". إذا ما نادياه بـ "آنكل" كان يناديهما بـ "أنتي"، مما كان مربكًا ومحرجًا لهما أمام الناس. لذا فقد كان ينادينه بـ "تشاكو".

كانت غرفة تشاكو مكدسة من الأرض إلي السقف بالكتب. قرأها جميعا واقتبس منها مقاطع طويلة بلا مبرر واضح. أو علي الأقل ما لا يمكن أن يسبر غوره أي شخص آخر. علي سبيل المثال، وبينما كان يقود

السيارة إلي الخارج في الصباح، والجميع يهللون مودعين ماماتشي التي كانت في الشرفة. ذلك الصباح، قال تشاكو. بغتة: *"في النهاية أصبح جاتسبي علي ما يرام؛ هو ما أثقل جاتسبي بالهموم. ما طفا من غبار كريه في مجرة أحلامه. الذي أوقف اهتمامي مؤقتاً عما يعتري الآدميين من أشكال الأسي المحبطة، وأنماط الزهاء المجعدة"*

الجميع كانوا معتادين علي هذا، لذا لم يكترث أحدٌ بلكز الآخر أو تبادل النظرات معه. لقد كان تشاكو أحد الحاصلين علي منحة رودز الدراسية في أكسفورد. وكان مصرحاً له بتجاوزات واختلافات شاذة لم تكن لسواه.

ادعى قيامه بكتابة بيوجرافيا للعائلة حتى تضطر العائلة إلى تدفع أي مبلغ له حتى لا ينشرها. قالت أمو أن هناك مرشح واحد مناسب لابتزاز العائلة بما يخص سيرتها الذاتية، وأن ذلك الشخص هو ذاته تشاكو.

بالطبع كان هذا فيما مضى. قبل الفزع.

في السيارة البليموث، كانت أمو تجلس في المقدمة، إلي جوار تشاكو. كانت في السابعة والعشرين من العمر، وفي جوف بطنها كانت تحمل تلك المعرفة الباردة، التي كانت الحياة تعاش لأجلها بالنسبة لها. كان لديها فرصة واحدة. ارتكبت خطأ. تزوجت الرجل الخطأ.

أنهت أمو سنواتها الدراسية في نفس السنة التي تقاعد فيها والدها من وظيفته في دلهي وانتقل إلي آيمينيم. وأصر باباتشي أن التعليم الجامعي يعتبر نفقات لا طائل منها بالنسبة لفتاة، لذا فلم يكن لدى آمو أي اختيار سوى أن تغادر دلهي وتنتقل معهم. لم يكن لدى فتاة صغيرة في آيمينيم ما تفعله إلا أن تنتظر عروض الزواج وهي تساعد أمها في شئون المنزل. وطالما أن والدها لم يكن لديه ما يكفي من المال ليزايد عليها بمهر مناسب، لذلك لم يقع في طريق آمو أي عرض للزواج. مر عامان. وأتى عيد ميلادها الثامن عشر ومضى. لم يكترث به أحد، أو علي الأقل لم ينتبه له والدها. شبت آمو محبطة. طيلة اليوم كانت تحلم بالهروب من آيمينيم ومن مخالب أبوها شرس الطبع هذا، وأمها التي

عانت طويلا وتجرعت المرارة. رسمت العديد من الخطط الواهية البائسة. أخيراً نجحت إحداها، حين وافق باباتشي أن يسمح لها بقضاء الصيف عند إحدى خالاتها غير وثيقي الصلة والتي كانت تعيش في كالكتا.

هناك في حفل زفاف شخص آخر، قابلت آمو زوج المستقبل.

كان في إجازة من وظيفته في آسام حيث كان يعمل مديراً مساعداً في مزرعة الشاي. كان ابنًا لأسرة ثرية من ملاك الأراضي التي هاجرت إلي كالكتا من البنجال الشرقية قبل التقسيم.

كان رجلاً ضئيلا لكنه متين البنية. وسيم الشكل. كان يرتدي نظارة قديمة الطراز جعلته يبدو جادا في حين نفت تماما ما تنطوي عليه شخصيته من جاذبية التعامل مع الأمور ببساطة فيما عدا خفة الظل الساحرة التي فسرت خفة ظله وقت أن كان تلميذاً. طلب يد آمو بعد خمسة أيام من لقائه بها لأول مرة. لم تتظاهر آمو بحبه. فقط حسبت المميزات وقبلت. أيقنت أن أي شيء، أي إنسان علي الإطلاق، سيكون أفضل من العودة إلي آيمينيم. كتبت لأبويها تخبرهما بقرارها فلم يردا عليها.

حفل زفاف آمو في كالتكا كان بديعا. فيما بعد، عند استرجاع ذكرى هذا اليوم، أدركت آمو أن اللمعان المحموم الضئيل الذي كان في عينيها ليلة العرس لم يكن الحب، أو حتى الهياج في انتظار النشوة الجسدانية، لكنه كان تقريباً أثر ثمانية كؤوس من الويسكي الصافي.

والد زوج آمو كان رئيسا لهيئة السكة الحديد وحاصلا علي وسام في الملاكمة من كمبريدج. كان سكرتيرا للـ (BABA) اتحاد البنجال لملاكمة الهواة. أهدى العروسين سيارة فيات وردية اللون. تم طلاءها حسب الطلب. قادها بنفسه وبها كل المجوهرات ومعظم الهدايا الأخرى. مات قبل ميلاد التوأمين ـــ علي طاولة العمليات ـــ أثناء جراحة لاستئصال حصوة في المثانة. حضر مراسم حرق جثته كل ملاكمي البنجال. حشد من المعزين ذوى الأنوف المهشمة. لكل منهم فكين هزيلين طويلين.

عـندما انتقلـت آمـو وزوجهـا إلي آسام، أصبحت امو ، الجميلة، الشابة، الجريئة، التي تُشرب الأنخاب لأجلها في نادي الزراعيين. كانت تـرتدي بلـوزات عارية الظهر. وتدخن سجائر طويلة في مبسم فضي وتعلمـت أن تنفث دوائر دخانية متقنة. لم يصبح زوجها سكيراً شرهاً، فحسـب، بـل ومنتفخاً تماما بالكحول بكل ما ينطوي عليه من انحراف وسـحر مأساوي. ثمة شيئين لديه لم تستوعبهما آمو. لم تتوقف آمو عن التسـاؤل، حـتى بعـد أن تركـته، بفترة طويلة، لماذا كان يكذب دائماً وبفظاعـة، بينما لم يكن مضطراً لذلك؛ تحديداً وهو ليس مضطراً لذلك. ففـي أحـد حواراته مع أصدقائه، أعرب عن مدى حبة للسمك المدخن، بيـنما كـان يكرهه بشدة. أو كان يعود للبيت من النادي ويخبر آمو أنه شـاهد فـيلم "قابلني في سانت لويس **Meet Me in ST lauis** بينما كان الفـيلم المعـروض فعـلاً هـو، "راعـي البقر البرونزي**The Bronze Buckaroo**" وعـندما كانت تواجهه بهذه الأشياء، لم يكن يعتذر أو يقدم تفسـيراً. فقـط كان يقهقه، مما كان يثير لدي آمو ضيقاً لم تكن تحتمله مطلقاً.

عـندما اندلعـت الحـرب مع الصين، كانت آمو حبلى في شهرها الثامـن. كان هذا في أكتوبر 1962. تم إخلاء اسام من زوجات وأطفال الزراعيـين. كانـت امـو حـبلى بمـا لا يمكنها من السفر فبقيت في المـزرعة. فـي نوفمبر، وبعد رحلة مرهقة قلقة في الباص إلي شيلونج في خضم شائعات بالغزو الصيني وأن هزيمة الهند وشيكة الوقوع. ولد إيسـتا وراهيل. علي ضوء الشموع. في مستشفى مطفأ الأنوار استتاراً مـن العـدو. ولدا دونما كثير من الضجيج والجلبة، بينهما ثمانية عشرة دقـيقة. رضـيعان صـغيران بدلاً من واحد كبير. عجلا بحر توأمان، أملسـان بمـا يغمـرهما مـن عصـارات أمهما. متشنجان من جراء اسـتيلادهما. فحصتهما آمو بحثاً عن أي تشنجات قبل أن تغلق عينيهما وتنام.

عـدت أربعـة عيون، أربعة آذان، فمين، أنفين، عشرين أصبعاً للأيدي ومثلهما بالتمام في الأقدام.

لـــم تلاحظ الروح السيامية الواحدة. مبتهجة كانت لو لادتهما. أبوهما كان يتمدد علي دكة صلبة في طرقة المستشفى، كان ثملاً.

قـبل أن يـبلغ التوأمان عامهما الثاني. كان أبوهما قد انجرف في خـبال الكحول من جراء سوء حالته من حياة العزلة في مزرعة الشاي. أيـام كاملة كانت تمر وهو يستلقي في سريره ولا يذهب للعمل. وأخيرا اسـتدعاه المدير الإنجليزي مستر هوليك إلي البنغل - الخاص به "لأمر هام."

جلست آمو في شرفة منزلها تنتظر بقلق عودة زوجها. كانت واثقة أن السبب الوحيد الذي أراد هوليك لأجله أن يراه هو فصله من الخدمة. ذهلــت عــندما عاد مكتئباً وليس منهاراً. أخبر آمو أن مستر هوليك قد عــرض علــيه شــيئاً يريد أن يناقشه معها. بدا مرتبكاً قليلاً، متحاشياً نظـــراتها، غير أنه استجمع شجاعته عندما شرع في طرحه للأمر. قال إن هـــذا العــرض، وبشــكل عملي، سيكون نافعاً لكليهما في المستقبل. حقيقة لكل منهما، إذا ما وضعا في الاعتبار تربية الطفلين.
لقد كان مستر هوليك صريحًا مع مساعدة الشاب. أخبره بالشكاوي التي تلقاها من المستخدمين وكذا من المديرين المساعدين.
قال، "أسف لأنه لا بديل لدى سوى أن أطلب استقالتك."
تــرك الصــمت أن يأخذ وقته. ترك الرجل المثير للشفقة الجالس أمامه علي المنضدة أن يبادر بالارتجاف. أن يبكي. ثم تحدث هوليك ثانية.
"حسنا، ربما يكون هناك بديلاً بالفعل ...... ربما نستطيع أن نتدبر شــيئًا. فكــر بإيجابــية هو ما أقوله دائمًا. لتحصى ما لديك من النعم." توقــف هولــيك ليأمر ببكرج من القهوة الثقيلة السوداء. "أتدرك كم أنت رجــل محظــوظ للغاية، أسرة رائعة، أطفال ممتعين، مثل هذه الزوجة الجذابة ...." أشعل سيجارة وترك عود الثقاب يحترق حتى عجز أن يظل ممسكاً به مدة أطول من هذا. "زوجة شديدة الجاذبية......"

توقف البكاء. عينان عسليتان مرتبكتان حدقتا في عينين خضراوين متوهجتيــن تــتخللهما أوردة حمراء. أثناء شرب القهوة، عرض مستر هولــيك علي بابا أن يبتعد لفترة. لإجازة. ربما الذهاب إلي العيادة لأجل

العلاج. قدرما يتطلب الأمر حتى تتحسن. واقترح مستر هوليك أن تبعث آمو للعناية بها في البنغل الخاص به أثناء فترة غيابه.

لقد كان هناك عددا من الأطفال الصغار ذوي الثياب الرثة في المزرعة ممن خلفهم هوليك لجامعي الشاي الذين مالت إليهم نفسه. كانت هذه هي أولى غاراته في دوائر الإدارة.

كانت امو تراقب فم زوجها وهو يتحرك ليصوغ الكلمات. لم تقل شيئا.صار قلقا ثم جعله صمتها يستشيط غضبا. فجأة وثب عليها وأمسك بشعرها، لكمها، ثم بعد ذلك أغمى عليه من العناء. أمسكت آمو بأضخم كتاب وجدته علي رف الكتب. وضربته بكل ما أوتيت من قوة. علي رأسه. رجليه. ظهره وكتفيه. عندما استعاد وعيه، انشغل بما أصابه من رضوض. اعتذر بإذلال عن العنف الذي بادر به. لكنه بدأ علي الفور في الإلحاح عليها أن تعينه علي الانتقال من مكانه. أخذ هذا نمطا. عنف ثمل يتبعه إلي إلحاح ما بعد الثمل. كانت آمو تنفر من الرائحة الطبية للكحول المقزز التي تتخلل جلده، والقيء المتيبس المتحجر الذي كان يكسو فمه كل صباح مثل فطيرة. عندما بدأت نوبات عنفه تعصف بالطفلين، وبدأت الحرب مع باكستان، تركت آمو زوجها، وعادت، مستثقله بلا ترحاب، إلي أبوها في ايمينيم. إلى كل ما فرت منه قبل سنوات قليلة. فيما عدا هذا صار لديها طفلان صغيران. ولا أحلام.

لم يكن باباتشي ليصدق قصتها – لا لأنه كان يتوسم خيرا في زوجها، لكن لأنه ببساطة لم يكن ليصدق أن رجلا إنجليزيا، أي رجل انجليزي، يشتهي زوجة رجل آخر.

كانت آمو تحب أطفالها (بالطبع)، لولا أن عيونهما الواسعة سريعة التأثر، واستعدادهما لحب من لا يحبونهما بالفعل من الناس، كان يثير غضبها ويجعلها أحيانا تريد ان تضربهما – فقط علي سبيل الحماية والتربية.

لو كانت النافذة التي اختفى منهما ابواهما قد ظلت مفتوحة لدخول أي شخص.

كان الطفلان يبدوان لـ "آمو" مثل ضفدعتين مشدوهتين غارقتين في صحبة بعضهما، تمشيان ذراعا في ذراع بخطى واسعة علي طريق

سـريع متخم بالمرور المزدحم. غافلتان تماماً عن كل ما يمكن أن تفعله الشاحنات بضفادع. كانت امو تراقبهما بشراسة. طقت عليهما يقظتهما، وجعلـتها مـتوترة ومكـروبة. كانت سريعة في توبيخ أطفالها. وأكثر سرعة في الاستياء والتأذي لأجلهما.

كانت تدرك انتفاء إمكانية وجود فرص أكثر لها. الآن لم يكن هناك سوى آيمينيم. شرفة أمامية وأخرى خلفية. نهر حار ومصنع مخللات.

وفـي الخلفـية، التناقض، ضغاء عالي حزين كامن في سياق من الاستنكار المحلي.

أثـناء الشهور القليلة الأولى لعودتها إلي منزل أبويها، تعلمت ان تدرك وتحـتقر وجـه الشـفقة القبيح. الأقارب من النساء العجائز كانوا يأتين بصـحبة لحي في مطلعها والعديد من الذقون المرتجفة في رحلات ليلية إلـي أيمينيم لمواساتها في طلاقها. كانوا يشدون علي ركبتها ويشيعونها بـنظرة تشفي. كانت تقاوم رغبتها في لطمهن. أو برم حلماتهن. بمفك. مثل شابلن في "أوقات عصرية".

عـندما نظرت إلي نفسها في صور زفافها، شعرت آمو أن السيدة التـي تـبادلها الـنظرة شخص آخر. عروس حمقاء مرصعة بالحلي. ساريها الحرير البرتقالي بلون الغروب، الموشى بالذهب. خواتم في كل إصبع. نقط بيضاء من معجون خشب الصندل أعلي حاجبيها المقوسين. عـندما نظـرت إلي نفسها هكذا.. التوي فم آمو الرقيق وصار صغيراً، ابتسـامة مرارة علي الذكرى ــ ليست ذكرى الزفاف ذاتها بقدر ما هي حقـيقة أنهـا سـمحت لنفسـها أن تتزين بعناية شديدة قبل أن تقاد إلي المشنقة. كان الأمر يبدو عبثيا تماما. تافها تماما.

مثل صقل وتلميع الحطب.

ذهبت إلي صائغ القرية وطلبت منه أن يصهر خاتم زواجها الثقيل ويصنع منه خلخال رفيع برؤوس ثعابين وادخرته لراهيل.

أدركـت أمـو أنه ليس بالإمكان تجنب حفلات الزفاف تماما. علي الأقـل لـم يكـن هذا عمليا. لكنهما كانت تدعو بقية حياتها. إلي إقامة حفـلات زفـاف صـغيرة بملابس عادية. اعتقدت أن هذا سيجعلها أقل وحشية.

بيــن الحيــن والآخر، وعندما كانت آمو تستمع إلي الأغنيات التي أحبتها، ثمة شيء كان يهيج داخلها. وجع سائل ينسل تحت جلدها، ومثل ســاحرة، كانت تمشي إلى خارج العالم صوب مكان أكثر بهجة وأحسن حــالاً. فـــي مثل هذه الأيام، كان هناك شيء فيها بريئا وهائجا. كما لو كانت تتحول من مشية الأم المطمئنة إلي مشية أخرى من نوع متوحش. كانـــت تضع الأزهار في شعرها، وتحمل أسرار سحرية في عينيها. لم تكــن تــتحدث إلـــي أحـــد. تقضـــي ساعات علي ضفة النهر بصحبة الترانزيســتور البلاســتيك الــذي كان يأخذ شكل ثمرة اليوسفي. تدخن السجائر وتمارس السباحة في منتصف الليل.

أي شــيء هــذا الــذي منح آمو هذه الحدة الخطرة؟ هذا الجو من المباغــتة؟ لقــد كان ما قد صارعته داخلها. مزيج غير قابل للامتزاج. رقة الأمومة اللامتناهية والحنق الطائش كقاذفة قنابل انتحارية. كان هذا ما شب داخلها، وأخيرا قادها لأن تحب الرجل الذي أحبه طفلاها نهارا. أن تستخدم ليلا القارب الذي أعده ايستا، ووجدته راهيل.

ففــي الأيــام التي كان الراديو يذيع فيها اغنيات آمو، كان الجميع يحذرونهــا. كــانوا يشعرون أنها تعيش فيما يشبة الظلال بين عالمين، تحديــدا فيما وراء قبضة قوتهم. إن امرأة كانوا بالفعل قد أدانوها، صار مــا لديها لتخسره ضئيلا، ولهذا فبإمكانها أن تصبح مصدرا للخطر...لذا كــان الناس يتجنبون آمو في الأيام التي يذيع فيها الراديو أغنياتها، كانوا قلــيلا مــا يحــرمون حولها، لأنهم اتفقوا جميعا أنه من الأفضل تركها وشأنها.

في أيام، كان يظهر لها غمازتين عميقتين حينما تبتسم. وجهها كان رقــيقا منحوتا، حواجب سوداء لها زوايا مثل جناحي نورس يحلق عاليا فـــي الهواء، أنف صغيرة مستقيمة، وبشرة مضيئة بلون اللوز. في ذلك الــيوم الصافي من ديسمبر، تطايرت خصلات شعرها البري المجعد في هــواء السيارة. كتفيها يسطعان في الساري الذي لا أكمام له كما لو كانا قــد صُــقلا بمــادة شمعية لتلميع الكتفين. أحيانا كانت أجمل امرأة علي الإطلاق في نظر إيستا وراهيل. وأحيانا لا.

علـــي المقعد الخلفي للسيارة البليموث، كانت تجلس بيبي كوتشاما بيـــن إيستا وراهيل. الراهبة السابقة، والمتقلدة منصب الجدة العمة. بيبي كوتشـــاما كانـــت تكره التوأمان بنفس الطريقة التي يكره بها المنكوبون أحيانا من يقاسمونهم النكبة وسوء الطالع، لانها اعتبرتهم إثنين من أولاد الأزقـــة المتســـكعين من لا أب لهما. والأسوأ من ذلك، أنهما كانا هجينا نصـــف هنديا ممن لا يقبل الزواج منهم أي مسيحي محترم. كانت حادة وثاقـــبة تجاههمـــا فأدركـــت أنهما (مثلها تماما) مبتلين بالعناء في منزل أيمينـــيم، منزل جدتهما لأمهما، حيث لا حق لهما في الإقامة. كانت بيبي كوتشـــاما تســـتنكر أمو، لأنها شاهدت عراكها مع قدر قد شعرت، بيبي كوتشـــاما نفسها، أنها تقبلته بمرحمة. مصير امرأة بائسة بلا رجل. بيبي كوتشـــاما التعســـة، دون الأب مولـــيجان. استطاعت أن تقنع نفسها مع مـــرور السنوات، أن حبها الذي لم يكتمل للأب موليجان كان ناجما عن تمالكها لنفسها وعزيمتها علي فعل الشيء الصحيح.

كانـــت توافق من صميم قلبها علي وجهة النظر الشائعة القائلة بأن البنت المتزوجة لا مكان لها في بيت أبيها. اما بخصوص الابنة المطلقة ـــ وفقا لـــ"بيبي كوتشاما"، فلا مكان لها علي الإطلاق. أما بالنسبة لابنة مطلقـــة من علاقة حب أدت إلي الزواج، حسنا، فالكلمات لم تستطع أن تعـــبر عـــن فظاعة بيبي كوتشاما. فيما يخص ابنة مطلقة من زواج عن حـــب داخل مجتمع ـــ فقد اختارت بيبي كوتشاما أن تظل صامتة بشكل متذبذب حيال هذا الموضوع.

التوأميـــن كانـــا صـــغيران علي استيعاب كل هذا، لذا ضنت بيبي كوتشـــاما عليهما بلحظات السعادة البالغة حين يرفع فرفور الماء، الذي قد امسكاه، حجرا صغيرا برجليه من أكفهما. أو حين يسمح لهما بالقيام بمهمة حموم الخنازير. أو حين يجدان بيضة ـــ ساخنة من دجاجة. لكن أكـــثر مـــن هذا كله انها ضنت عليهما بالراحة التي كان يبثها كل منهما في الآخر. توقعت لهما علي الأقل نوعا من التعاسة الرمزية.

فـــي طـــريق العـــودة من المطار، كانت مرجريت كوتشاما ستجلس في المقدمـــة إلـــي جـــوار تشـــاكو لأنها كانت زوجته. كانت صوفي مول ستجلس بينهما وستتحرك أمو إلي المقعد الخلفي.

كـــان هـــناك قارورتـــان من المياه. ماء مغلي لمرجريت كوتشاما وصوفي مول، ما صنبور للآخرين جميعا.

الأمتعة في حقيبة السيارة boot.

ظنـــت لراهيل أن كلمة boot جميلة. أجمل بكثير علي أية حال من عـــتل stardy. عـــتل كانت كلمة مقززة. مثل اسم القزم. كوشي أو مين العتل ــ قزم تقي دمث من الطبقة الوسطى بركبتين خفيضتين.

وعلي الحامل الموجود علي سقف السيارة البليموث لوحة إعلانات مـــن الخشب الرقيق المبطن بالصفيح، كتب علي جوانبها الأربعة بخط منقـــن، وخـــط غريـــب مخللات ومعلبات الجنة. تحت الكتابة رسمت زجاجـــات المـــربى المشـــكلة ومخلل الليمون الغارق في زيت الطعام، علـــيها طـــابع كتب علية بخط جميل، مخللات ومعلبات الجنة. بجوار الـــزجاجات، كان هناك قائمة بكل منتجات الجنة وراقص كاثاكالي بوجه أخضـــر وتنورة دائمة الدوران. على امتداد الطرف السفلي أخذ الدوران شـــكل S في تنورته المتموجة، كُتب عليها، اباطرة مملكة المذاق ــ هذه العـــبارة التـــي كانـــت إسهامًا تطوعيا من الرفيق ك.م.ن. بيلاي. كانت تـــرجمة حرفـــية لـــ"روتشي لوكاثندي راجافو، التي بدت في نطقها أقل قليلاً في إثارتها للسخرية من منطوقها الإنجليزي The Emperors of The Realm of Taste . لكـــن طالمـــا ــ كتـــبها الرفيق بيلاي بالفعل، فلا أحد يمـــتلك القدرة على إعادة ترتيب شكلها الطباعي. لذلك أصبحت عبارة، أباطـــرة مملكـــة المـــذاق، علـــى مضض ملمحًا دائمًا على مطبوعات مخللات الجنة.

قالـــت أمـــو أن راقـــص الكاثاكالي بمثابة سمكة رنكة حمراء، ولا علاقـــة له بأي شيء. أما تشاكو فقال أنه يعطي المنتجات نكهة محلية، وسوف يضعها في مكانة جيدة في حالة دخول هذه المنتجات إلى السوق العالمية.

قالـــت أمو أن اللوحة الإعلانية جعلتهم مثار للسخرية. مثل سيرك متجول. له زعانف.

بـــدأت ماماتشي صناعة المخللات تجاريًا بعد تقاعد باباتشي تحديدًا مـــن وظيفـــته الحكومـــية فـــي دلهي، وعودتهم للعيش في آيمينيم. كان

لمجــتمع كوتايــام المسيحي سوقا وطلب من ماماتشي إعداد بعض من مــربى المــوز ومخلــلات المــانجو الرائعة التي اشتهرت بها. بيعت بســرعة، ووجدت ماماتشي طلبيات تتجاوز قدرتها الإنتاجية. فقررت، مبــتهجة بنجاحها، أن تواصل انتاجها للمخللات والمربى، وبذلك وجدت نفسها مشغولة طيلة العام. باباتشي، من ناحية، كان منزعجا لعدم قدرته علــى التكــيف مــع الوضع الشائن لإحالته للتقاعد. كان يكبر ماماتشي بســبعة عشــر عامــا. أهالــه أن يدرك أنه قد صار كهلاً بينما لم تزل زوجته في ريعانها.

رغــم أن ماماتشي كان لديها قرنية مخروطية الشكل وكانت بالفعل مكفوفــة، لم يكن باباتشي يساعدها في صناعة المخللات، لأنه لم يعتبر صــناعة المخلــلات مهــنة تليق بموظف كبير سابق في الحكومة. كان رجــلا غيورا دائما، لذا فقد استاء من الانتباه الذي حازته زوجته. كان يمشــي مــتهدلاً حول الحوش مرتديا بدله النظيفة المتأنقة، ناسجا دوائر واجمة حول تلال الفلفل الأسود، والزعفران المطحون لتوه، وهو يشاهد ماماتشــي تشــرف علي عمليات بيع، ووزن، وتمليح، وتجفيف الليمون والمــانجو الطري. كل ليلة كان يضربها بمزهرية من النحاس الأصفر. الضــرب لم يكن جديدا. لكن الجديد فقط هو التكرارية التي كان يحدث بهــا فعل الضرب. ذات ليلة كسر باباتشي قوس كمنجة ماماتشي وألقى به في النهر.

عــندئذ وصل تشاكو من أكسفورد لقضاء إجازته الصيفية. أصبح رجلاً ضــخماً، في تلك الأيام، قوى لتجديفه لنادي باليول. بعد وصوله بأسبوع وجــد باباتشي يضرب ماماتشي في غرفة المكتب اقتحم تشاكو الغرفة، وامسك يد باباتشي وبها المزهرية ولواها خلف ظهره.

قال لوالده، "لا اريد هذا أن يحدث ثانية علي الإطلاق، أبدا."

ظل باباتشي طيلة ذلك اليوم جالسا في الشرفة ينظر بتحجر للخارج علــي حديقــة نباتات الزينة، متجاهلاً أطباق الطعام التي أحضرتها له تشــاكو ماريــا. متأخرا في الليل ذهب إلي غرفة مكتبه وخرج بكرسيه الهــزاز المفضل المصنوع من الخشب الماهوجني. ليضعه في منتصف الممــر الخارجي ويهشمه قطعا صغيرة بمفتاح السباكة. رفعه هناك في

ضوء القمر، كومة من الأماليد المجدولة المصفولة و الخشب المهشم. ثم ينمس ماماتشي بعد هذا أبدا لم يتحدث معها أيضا طيلة ما تبقى من عمره. عندما كان يحتاج إلي أي شيء كان يستخدم كوتشوماريا او بيبي كوتشاما كوسطاء.

في المساء، عندما كان يعلم بانتظار زائرين، كان يجلس في الشرفة لحياكة الأزرار المفقودة في قمصانه ليعطي انطباعا بتجاهل ماماتشي له. نجح بدرجة ضئيلة في بث نظرة استنكار علي الزوجات العاملات في ايمينيم.

اشترى البليموث السماوية الزرقاء من رجل انجليزي عجوز في مونار. أصبح مشهداً السيرة العريضة في الطريق الضيق مألوفاً في آيمينيم، أن يقود سيارته إلي جوار الساحل بعظمة وشعور بالاهمية و هو يرتدي بدله الصوفية التي تجعله يتفصد عرقا. لم يكن يسمح لماماتشي أو أي شخص اخر أن يستخدمها، أو أن يجلس حتى بداخلها. لقد كانت السيارة البليموث هي انتقام باباتشي.

كان باباتشي عالم حشرات إمبراطوري في معهد بوذا. بعد الاستقلال، بجلاء البريطانيين، تغير لقب منصبه من عالم حشرات إمبراطوري إلي مدير مساعد، في علم الحشرات. في السنة التي بلغ فيها سن التقاعد، ترقى إلي مرتبة تتساوى مع مدير.

أعظم نكبات حياته كانت عندما لم يطلق اسمه علي الفراشة التي اكتشفها.

ذات مساء عندما كان يجلس في الشرفة سقطت في الشراب الذي كان يحتسيه. عندما التقطها لاحظ ذؤابتها الظهرية الكثيفة علي غير المعتاد. حدق فيها عن قرب. بدهشة متزايدة رفعها، وقاسها، في الصباح التالي وضعها في الشمس لساعات قليلة ليتطاير منها الكحول. حينئذ أخذ أول قطار إلي ديلهي. ليفوز بمكانة خاصة بالتجنيس أو تصنيف الكائنات الحية، وكان يأمل في الشهرة. بعد ستة شهور من القلق المميت، قيل له أن فراشته قد صنفت أخيرا علي أنها سلالة شاذة

تافهـــة مـــن نـــوع معـــروف ينتمي لعائلة الليمانتريبيدي **Lymantriidea** المدارية مما اثار لديه خيبة امل شديدة.

جـــاءت الضـــربة الحقيقـــية بعـــد اثنـــتا عشر عاما، عندما قرر المختصـــون فـــي دراسة العث والفراش أن فراشة باباتشي في الحقيقة. نوعـــاً وجنســـا منفصلاً لم يكن معروفا من قبل للعلم؛ وكان ذلك نتيجة لتعديل جذري في تصنيف الكائنات الحية. لحظتئذ كان باباتشي قد تقاعد وانتقل إلي أيمينيم. وكان هذا متأخرا تماما لكي يؤكد أحقيته بالاكتشاف. أطلـــق علي فراشته لقب نائب المدير في قسم الحشرات، موظف صغير كان باباتشي يكرهه دائمًا.

فـــي الســـنوات اللاحقـــة، ورغـــم أنه لم يكن في حاله نفسية طيبة قبل اكتشـــاف الفراشة بكثير، صار راسخا أن فراشة باباتشي هي المسئولة عـــن حالـــته النفســـية القاتمـــة وشعوره بالاكتئاب، ونوبات الامتعاض المفاجـــئة. شـــجها الخبيـــث ـــ الرمادي ناعم الملمس، بنوابته الظهرية الكثـــيفة علـــي غـــير العادة كان يسكن كل منزل عاش فيه. لقد عذبه، وعذب أولاده وأحفاده.

حـــتى اليوم الذي مات فيه؛ كان باباتشي يرتدي كل يوم بدلة مكونة مـــن ثلاثـــة قطع محبوكة تماما عليه وجراب ذهبي للساعة. كان يضعه علـــى تسريحته بجوار الكولونيا وفرشاة الشعر الخاصة به، وصورة له وهـــو شـــاب بشعر ناعم مسترسل، التقطت له في أستوديو تصوير في فينـــيا، حيـــث كـــان يحصـــل علي دبلومة تأهيل لما بعد عالم حشرات إمـــبراطوري لمـــدة ستة أشهر. أثناء هذه الأشهر القليلة تلقت ماماتشي أول دروســـها فـــي الكمنجة. غير أن الدروس توقفت فجأة، عندما أخطأ مـــدرس ماماتشي، لاونسكي ـــ تيفنثال، وأخبره باباتشي أن زوجته ذات مهارات فوق العادة، وأنهما علي أتم الاستعداد لفصل الكونشرتو.

قامـــت ماماتشـــي بلصق قصاصة من الـــ "إنديان إكسبريس"، في البوم صور العائلة، كانت تتضمن تقريرا عن موت باباتشي جاء فيها:

لـــيلة أمـــس وإثـــر أزمة قلبية جسيمة، توفى في مستشفى كوتايـــام العام عالم الحشرات المعروف، شري بينان جون

أيـــب، ابن المرحوم الكاهل المبجل في أيمينيم. كان يعاني من آلام صدرية في غضون الساعة الواحدة وخمس دقائق صـــباحا، ونقـــل إلي المستشفى. فتوفى في تمام الثالثة إلا ربعـــا. شـــري أيب كان يعاني من تقلبات صحية منذ ستة أشهر. خلف وراءه زوجته واثنين من الأبناء.

فـــي جـــنازة باباتشـــي، بكت ماماتشي، فانزلقت عدساتها اللاصقة في عينـــيها. قالـــت آمو للتوأمين أن ماماتشي تبكي اعتيادها عليه أكثر من حبها له. اعتادت علي مشيته المتهدلة حول مصنع المخللات، واعتادت أيضا علي ضربه لها بين الحين والآخر. قالت آمو أن الكائنات البشرية هـــم مخلوقـــات العادة، ونوع الأشياء التي يعتادون عليها مثيرة للذهول. قالـــت آمو، عليك أن تنظر حولك لتدرك أن الضرب بالمزهرية النحاس هو أقل هذه الأشياء.

بعد الجنازة طلبت ماماتشي من راهيل أن تساعدها في تحديد مكان عدســـاتها اللاصـــقة وخلعهـــا بالمرشـــف البرتقالي الموجود في جرابة الخـــاص بـــه. ســـألت راهـــيل ماماتشي ما إذا كانت تستطيع أن ترث المرشف بعد موتها. أخذتها آمو خارج الغرفة ونهرتها بشدة.

قالـــت لها، "لا أريد أبداً أن أسمعك تناقشين موت الناس معهم مرة ثانية."

قال ايستا لراهيل انها تستحق هذا لبلادتها.

صـــورة باباتشـــي فـــي فيينا بشعره الناعم المسترسل وضعت في برواز جديد وعلقت في غرفة الجلوس.

كـــان رجـــلا جذابـــا في الصور الفوتوغرافية (فوتوجونيك)، أنيق الملـــبس، نظيف الهندام، رأسه هي الرأس الكبيرة قليلا للرجل الضئيل. لـــه ذقـــن ثانـــية خيالية، كانت تظهر عندما ينظر لأسفل أو يومئ. في الصـــورة كـــان واعـــيًا لأهمـــية رفع رأسه عاليا بما يكفي لإخفاء ذقنه المـــزدوجة، مـــع ذلـــك لم يرفع رأسه عاليًا جداً فيبدو متغطرسًا. كانت عيـــناه العسليتان نشيان بأدب جم،مع ذلك شريرتان، بدا وكأنما كان يبذل جهـــدا كبـــيرا ليبدو متحضراً أمام الصلورة بينما هو يدبر لقتل زوجته.

كـــان عنده تورم لحمي خفيف في منتصف شفته العليا يتدلى على شفته السـفلي فـــي نوع من النتوء المخنث ــ النتوء الذي يظهر عند الأطفال الذيـــن يقومـــون بمص إصبع الإبهام. كان لديه نونة مستطيلة في ذقنه كانت تنوه عن تهديد بعنف جنوني مضمر نوع من القسوة الكامنة. كان يرتدي بنطلون كاكي لركوب الخيل رغم أنه لم يركب حصانا في حياته علي الإطلاق. حذاء ركوب الخيل انعكست فيه اضاءة الأستوديو. سوط ذا يد من العاج وضع بعناية علي حجره.

ثمـــة ســـكون مترقب جعل الغرفة الدافئة التي علقت الصورة على احد جدرانها تنطوي على رعشة برد واضحة.

عـــندما مات باباتشي، ترك صناديق مكتظة ببدل غالية الثمن وعلبة شـــيكولاتة مليئة بازرار معدنية للأكمام، قام تشاكو بتوزيعها علي سائقي التاكسي في كوتايام. تم فكها وتحولت إلي خواتم وأقراط كمهور للفتيات اللاتي لم يتزوجن.

عـــندما سأل التوأمان عن وظيفة أزرار الأكمام ــ قالت لهما أمو، "لشـــبك أســـاور الأكمـــام ببعضها" ــ فرحا بكسرة المنطق هذه في لغة كانت تبدو غير منطقية الي حد كبير. مشبك + إسورة = مشبك إسورة. هـــذا، بالنســـبة لهم مفرط. كان يضاهي دقة ومنطق الرياضيات، كلمة مشـــابك الأســـاور منحتهم من الامتنان المفرط (لو لم يكن المبالغ فيه) وحبا حقيقيا للغة الانجليزية.

قالـــت امـــو أن باباتشي كان بريطاني ميئوس منه **CCP**، اختصار لعبارة **Chh-Chhi Poach** والتي كانت تعني بالهندية ماسح خراءة. قال تشاكو إن الكلمة الصحيحة لتعريف أمثال باباتشي هي **Anglo phile** أي محـــب للإنجليز. اقنع راهيل وايستا بالكشف عن الكلمة في: **Reader's digest great Encyclopoedic Dictonary** كان معناها **person well disposed to the English** بعدئـــذ كان لزاما علي إيستا وراهيل الكشف عن كلمة **disposed** فوجدا:

1 ــ أن تضع بشكل ملائم في ترتيب محدد

2 ــ ترتيب العقل علي حالة معينة

قال تشاكو إنها في حالة باباتشي، تعني الثانية: ترتيب العقل على حالة معينة والتي تعني أن عقل باباتشي قد تحول الى حالة جعلته كالانجليز.

اخبر تشاكو التوأم انهم جميعاً محبين للانجليز رغم كراهيته الاعتراف بذلك. مندفعون في الطريق الخطأ، أوقعوا في فخ خارج تاريخه وغير قادرين علي اقتفاء أثر خطواتهم ثانية لأن آثار اقدامهم قد طمست. فسر لهم تشاكو التاريخ علي أنه يشبه منزلا قديما في الليل حيث كل المصابيح مضاءة. كل الأسلاف يتهامسون داخله.

قال تشاكو، "كي نفهم التاريخ لابد أن ندخل وننصت لما يقولون ونمعن النظر الى الكتب والصور المعلقة علي الحوائط ونتشمم الروائح."

لم يكن لدي ايستا وراهيل شك أن المنزل الذي يعينه تشاكو هو المنزل الرابض علي الجانب الآخر من النهر، في منتصف مزرعة المطاط المهجورة التي لم يذهبا إليها أبدا. منزل كاري سايبو الصاحب الاسود **The Black Sahib** الرجل الإنجليزي الذي أصبح من السكان الاصليين، فأصبح يتحدث المالايالام ويلبس الماندو. كورتز **Kurtz** ايمينيم. ايمينيم كانت قلب الظلام **Heart of Darkness** الخاصة به. منذ عشر سنوات مضت أطلق النار علي رأسه عندما أخذ والدي محبوبته الولد منه وأرسلاه للمدرسة. بعد انتحاره، بعد انتحاره أصبحت أملاكه مادة لتقاض ممتد بين طباخ كاري سايبو وسكرتيره ظل المنزل خاويا لسنوات، شاهده قليل جداً من الناس لكن التوأم رسماه في مخيلتهما.

منزل التاريخ.

بارضيات حجرية باردة وحوائط قاتمة مريبة وظلال هائجة علي هيئة السفن. سحالي شفافة منتفخة تعيش خلف الصور القديمة، وأسلاف شمعيون متصدعون لهم أظافر أقدام قوية خشنه وأنفاس لها رائحة الخرائط الصفراء التي تعلن عن أسرار ووقائع مثيرة في همسات ورقية.

قال تشاكو، "لكننا لا نستطيع أن ندخل لأننا محرومون من الدخول. وعندما نحدق في النوافذ، كل ما نراه ليس سوي ظلال وعندما نحاول

ونتصت لا نسمع سوي الهمس. ولا نستطيع أن نفهم الهمس، لأن الحرب قد غزت عقولنا، حرب انتصرنا وهزمنا فيها، أسوأ نوع من الحروب، حرب تأسر الأحلام وتعيد صياغتها أحلاما، حرب جعلتنا نعشق غزاتنا ونحتقر أنفسنا."

قالت أمو بجفاء، "أنها أقرب للتشابه مع: تزوجوا من غزاتكم"، مشيرة إلي مارجريت كوتشاما. تجاهلها تشاكو. وجعل إيستا وراهيل يكشفان عن كلمة يحتقر Despise كانت تعني أن ننظر من عل علي، أن ننظر باحتقار، أن تزدري أو تحتقر **To Look down upon to view with contempt, to scorn or**

قال تشاكو إنه كان يتحدث في سياق الحرب عن ـ حرب الأحلام ـ يحتقر Despise تعني كل هذه الأشياء مجتمعة.

تشاكو قال، "نحن سجناء الحرب، لقد خلطت أحلامنا، نحن لا ننتمي لأي مكان، نبحر بلا مرسي في بحار هائجة ربما لن يُسمح لنا أبدًا بالرسو علي شاطئ، مآسينا لن تكون أبدا محزنة بما يكفي، افراحنا لن تكون مطلقا مبهجة بما يكفي؛ أحلامنا ليست كبيرة بما يكفي، حياتنا ليست مهمة بما يكفي لكي تثير الاهتمام."

حينئذ لكي يعطي إيستا وراهيل إحساسا بالمنظورية التاريخية (رغم أن المنظورية كانت شيئا يحتاج إليه تشاكو بشكل ماس في الأسابيع اللاحقة)، حدثهما عن المرأة الأرض، جعلهما يتخيلان أن الأرض منذ أربعة آلاف وستمائة مليون سنة ـ كانت امرأة تبلغ أربعة وستين عاما، مثلا، في عمر مدرس الياما الذي كان يلقي عليهم دروس اللغة المالايالام، لقد استنفذت المرأة الأرض حياتها كلها لكي تأخذ الأرض هيئتها تلك، لكي تنشق المحيطات وتعلو الجبال، "المرأة الأرض كان عمرها أحد عشر عاما" قال تشاكو، "عندما ظهرت أول الكائنات الحية أحادية الخلية، الحيوانات الأولي ومخلوقات مثل الدود وقنديل البحر ظهرت فقط عندما كانت في الأربعين من العمر ـ تجاوزت الخامسة والأربعين منذ ثمانية أشهر فقط عندما أخذت الديناصورات تحوم حول الأرض.

قـــال تشكو للتوأمين، "الحضارة الإنسانية برمتها كما نعرفها بدأت مـــنذ ســـاعتين فقـــط في حياة المرأة الأرض. نفس الوقت الذي قطعناه بالسيارة من أيمينيم إلى كوتشين."

"كانـــت فكرة متواضعة تبعث علي الرهبة،" قال تشاكو. (متواضعة تـــتوازى مـــع بلا اهتمام بالعالم) إن التاريخ المعاصر برمته، الحروب العالمـــية. حروب الأحلام، الإنسان علي القمر، العلوم، الأدب، الفلسفة، السعي للمعرفة ليسوا اكثر من غمزة من عين المرأة الأرض.

قـــال تشـــاكو بغرور، وهو يرتمي علي سريره محدقا في السقف، "ونحـــن يـــا أحبائي ــ كل شئ نكون وكل شئ سنصبح مجرد لمعة في عينيها."

عـــندما كـــان تشـــاكو في حالته المزاجية هذه، كان يستخدم صوته الجهوري في القراءة، كانت غرفته تشعرك وكأنها كنيسة، لم يكن يبالي مـــا إذا كان هناك من يسمعه أم لا، وإذا كان هناك من يسمعه، فلم يكن يبالي ما إذا كان يفهم ما يقوله أم لا، كانت امو تطلق علي هذه الحالات [نفسانيات أكسفورد.]

فـــيما بعـــد، وفي ضوء كل ما حدث، بدت كلمة Twinkle (ومضة تخطئ) في وصف التعبير الكامن في عين المرأة الأرض، ومضة كانت كلمة ذات حواف هفهافة مفرحة.

ورغـــم أن المرأة الأرض تركت انطباعا أبديا علي التوأمين إلا ان مـــنزل الـــتاريخ ــ القريـــب المنال جدا ــ هو الذي جذبهم بالفعل، كانا يفكران فيه دائما، المنزل الرابض علي الجانب الاخر من النهر.

ملوحا في قلب الظلام.

منزل لم يمكنهما دخوله، يكتظ بهمسات لم يفهماها.

لـــم يعـــرفا وقـــتها أنهمـــا سوف يدخلاه توا. أنهما سيعبران النهر ويصـــبحان حيـــث لم يفترض أن يوجدا، مع رجل لم يكن مفترضا أن يحباه، أنهما سيشاهدان بعيون لها استدارة الأطباق عندما يكشف التاريخ عن نفسه لهم في الشرفة الخلفية.

بيـــنما كـــان الأطفال في عمر إيستا وراهيل يتعلمون أشياء أخري، تعلـــم إيســـتا وراهيل كيف أن التاريخ يتجاوز حدوده ويجمع عوائده من

هؤلاء الذين يتجاوزن قوانينه سمعاً صوت ارتطاماته الممرضة، شما رائحته ولم ينسياها مطلقا.

رائحة التاريخ.

مثل أزهار قديمة في مهب النسيم.

للأبد ستنسل مخبئته في كل شئ. في عراوي المعطف، الطماطم، في قار الطرقات، في ألوان الستائر، في أطباق مطعم، في غياب الكلمات، وفي فراغ العينين.

سيكبران متشبثان بطرق المعيشة، بما قد حدث. سيحاولان أن يخبرا نفسيهما بأنه ما حدث لا طائل تحته. بعبارات (علي أساس) العصر الجيولوجي مجرد غمزة من عين المرأة الأرض، إن أسوأ الأشياء قد حدث، أشياء سيئة ظلت تحدث. لكنهما لن يجدا راحة في التفكير.

قال تشاكو "إن الذهاب لمشاهدة ***صوت الموسيقي*** **The Sound of Music** يعتبر ممارسة ممتدة في حب الإنجليز،"

ردت امو قائلة، "آه، هيا، العالم كله يذهب لمشاهدة صوت الموسيقي، إنه ينال إعجاب العالم."

قال تشاكو بصوته العالي في القراءة، "ومع ذلك يا عزيزي ومع ذلك." غالبا ما كانت ماماتشي تقول إن تشاكو يعتبر بسهولة واحداً من أمهر الرجال في الهند. وكانت أمو ترد قائلة، "علي أي أساس؟"كانت ماماتشي تحب أن تحكي (قصة تشاكو). قصة كيف أن أحد النبلاء الأسبان في أكسفورد، قال إن تشاكو من وجهة نظره يعتبر رائعا، وأنه من خامة رؤساء الوزارة.

ودائما ترد أمو علي هذا قائلة، "ها! ها! ها مثل الناس في المسلسلات الكوميدية"

قالت:

1 ـــ الذهاب إلى أكسفورد لا يجعل الشخص بالضرورة ماهرا

2 ـــ المهارة لا تصنع بالضرورة رئيس وزراء جيد.

3 ـــ لو أن الشخص لا يستطيع حتى أن يدير مصنعا للمخللات بشكل مريح فكيف يستطيع ذلك الشخص أن يدير وطنا بأكمله؟

والأهم من هذا كله:

4 ــ كل الأمهات الهنديات يقلقن علي ابنائهن ولذلك تكون احكامهن موافقة لقدراتهم.

قال تشاكو:

1 ــ أنت لم تذهبي إلى أكسفورد اقرأي في أكسفورد

و

2 ــ بعد القراءة في أكسفورد تهبطين.

وتسأله امو، "تعني اهبط تحت الأرض؟ كما فعلت تحديدا طائراتك المشهورة."

قالــت أمو إن المصير المتوقع تماما والحزن لطائرات تشاكو يعتبر قياسا محايدا لقدراته.

كــل شــهر (فيما عدا المواسم التي تهب فيها الرياح الموسمية في الهــند)، كان تشاكو يتلقى طردا عن طريق الــ VPP كان يحتوي دائماً علي طائرات مصنوعة من خشب البلزا الأمريكي وعادة ما كان يقضي تشاكو ما بين الثانية والعشر أيام في تجميعها مع خزان وقودها الصغير وموتــور الدفع، عندما تكون جاهزا للإقلاع كان يأخذ ايستا وراهيل إلى حقول الأرز التي يمتزج فيها الطين بالخضرة التي كان يندفع فيها ايستا وراهيل مثل كلاب صيد مدربة لإنقاذ البقايا.

ذيل، مخزن وقود، جناح.

ماكينة معطلة.

كانت غرفة تشاكو مكتظة بطائرات خشبية محطمة. وكل شهر كان تشاكو يتلقى طائرة أخري أبدا لم يلقي باللوم علي الطائرة.

استقال تشاكو من وظيفته كمحاضر في كلية مرداس المسيحية، بعد مــوت باباتشي تحديداً، عاد إلي أيمنيم بمجدافة في نادي باليول وأحلامه أن يصــبح بارونــا فــي مجال المخللات، استبدل معاشة وما تدبره من مــوارد مالية لشراء ماكينة لإغلاق الزجاجات، مجدافه (بأسماء زملائه في الفريق منقوشة بالذهب) علق علي حائط المصنع.

حــتى وصــول تشاكو، كان المصنع مشروعاً صغيرا لكنه مربح، أدارتــه ماماتشــي كمطــبخ كبــير. قام تشاكو بتسجيله كشركة واخبر

ماماتشي بأنها الشريك النائم، استثمر الأموال في التجهيزات (آلات التعليب، الغلايات والمواقد) وتوسع في طاقة العمالة وبدأ التدهور الآلي على الفور تقريبا، غير أنه دعم ظاهريا بقروض بنكية كبيرة جميعها تشاكو عن طريق رهن حقول الأرز التي تملكها العائلة حول منزل ايمينيم، ورغم أن امو بذلت جهداً في المصنع يوازي ما بذله تشاكو إلا أنه كان يشير اليه علي انه مصنعه أثناء تعامله مع مفتشي الأغذية أو مهندسي الصحة، أنا، مخللاتي ، قانونا كان هذا صحيحا، لأن امو كابنة لم يكن لها أي حق في الثرة، قال تشاكو لإيستا وراهيل إن أمو ليس لديها حق المثول أمام القضاء.

قالت أمو . "شكرا لمجتمعنا الذكوري الشوفوني الرائع."

قال تشاكو ، "ما تملكينه ملكي وما أملكه هو أيضا ملكي".

وأطلق ضحكة عالية مفاجئة مثيرة للدهشة بالنسبة لرجل في حجمه وسمنته وعندما ضحك كان جسده كله يترجرج كلية دون ان يبدو أنه يتحرك.

حتى وصول تشاكو إلى ايمينيم، لم يكن مصنع ماماتشي يحمل اسما، كل شخص كان يشير الي مخللاتها ومرباتها على أنها مانجو سوشا الطرية أو مربة موز سوشا، سوشا كان الاسم الأول لماماتشي، سوشاما.

تشاكو هو أول من أطلق علي المصنع اسم مخللات ومعلبات الجنة وقام بطباعه ملصقات صممت وطبعت في مطبعة الرفيق ك.ن.م فيلاي في البداية كان يريد أن يطلق عليه اسم مخللات ومعلبات زيوس، غير أن الفكرة اعترض عليها الجميع وقالو ان زيوس كلمة غامضة للغاية وليس لها صلة وثيقة محليا مثل كلمة الجنة. (بينما اعترض الجميع علي اقتراح الرفيق بيلاي ـ مخللات بارشورام ـ للسبب العكسي حيث إنه اسم شائع محليا للغاية.)

كتابة لوحة إعلانية وتركيبها علي حامل السقف في السيارة البليموث كانت فكرة تشاكو.

في الطريق إلى كوتشين الآن، كانت اللوحة الإعلانية تقعقع وتصدر ضجيجا صاخبا من جراء ارتطاماتها.

كـــان علـــيهم أن يـــتوقفوا بالقرب من فايكوم لشراء حبل لضمان تثبيتها، وقد أدي هذا لتأخيرهم مدة عشرين دقيقة أخري، بدأ القلق ينتاب راهيل مخافة التأخر علي صوت الموسيقي.

حيلـــئذ عـــندما وصـــلوا ضـــواحي كوتشـــين، سقطت الذراع الحمراء والبيضـــاء مغلقـــة بوابة عبور مزلقان السكة الحديد، أدركت راهيل أن هذا حدث لأنها لم تكن تأمل أن يحدث.

لم تتعلم بعد أن تكبح جماح آمالها، قال إيستا إن هذا فأل نحس.

هكـــذا سيفقدون بداية العرض عندما تظهر جولي آندروز مثل بقعة علـــي تل وتتضخم أكثر وأكثر حتى تبرز علي الشاشة منفجرة بصوتها مثل ماء بارد.

اللافـــتة الحمراء علي الذراع ذات اللونين الأحمر والأبيض مكتوب عليها Stop باللون الأبيض.

قالت راهيل، "Pots"

لوحـــة إعلانـــية صـــفراء ضخمة كتب عليها بالأحمر كن هنديا، اشتري السلع الهندية **Be Indian Buy Indian**

قال ايستا، **"NAIDI YUB EB'**

كـــان التوأمان مبكرين في نضجهما العقلي بالنسبة لقراءتها، تسابقا فـــي تـــوم الكلـــب العجـــوز، جانيـــت وجـــون وكراســـات الواجـــب لـــرونالدريداوت، فـــي اللـــيل كانـــت راهيل تقرأ لهما من كتاب الغاية لكيبلنج".

الآن تشيل المحتال يحضر للبيت الليل
فيطلق سراحة مانج الخفاش

الزغـــب علـــي أذرعهم يقف منتصباً ذهبياً في ضوء المصباح الجانبي، كانـــت آمو تجعل صوتها أجشا أثناء القراءة، مثل شيري خان أو منتحبًا مثل تاباكي.

'أنـــت تخـــتار وأنت لا تختار'! أي حديث هذا عن الاختيار؟ الزاما علـــي أن اقـــف متشممة ماي كلبك لأجل مستحقاتي العادلة؟ إنها شيري خان التي تتحدث!

"وأنـــا راكشـــا (العفريـــتة) التـــي تجيب". حينئذ يصرخ التوأمان بأصوات صاخبة، ليسا معًا ولكن في نفس اللحظة تقريباً.

بيبـــي كوتشاما التي كانت مسئولة عن تربيتهما سلوكيا تقرأ عليهما نســـخة مبســـطة من مسرحية العاصفة **The Tempest** لخصها وبسطها تشارلز وماري لامب.

حيث النحلة تمتص، أنا أمتص، حينئذ كان ايستاوراهيل يكملان في كأس زهرة الربيع انام أنا".

لذلك عندما أعت الأنسة ميتن المبشرة الاسترالية صديقة بيبي كوتشاما، كـــتابا للأطفـــال لايستا وراهيل ـــ مغامرات سوزي سكوريل ـــ كهدية اثـــناء زيارتهـــا لأيمينيم، أحسا بضيق شديد فقد قاما في البداية بقراءته قدمـــا الآنســـة ميتن التي كانت تنتمي لشريحة من المسيحيين المولودين ثانية، قالت أنها احست بخيبة أمل.

مراغمات يوسر ليروكس، تاذ حباص عريبي استيقظت سوزي سكوريل من الأفضل أن تكتب بالإنجليزية بنفس شكلها المقلوب.

بيـــنا للآنســـة ميتن كيف أنه من الممكن قراءة كلمة مالايالام ومدام أنـــا آدم (Malayalam and Madam I am Adam) مـــن الخلف للأمام مـــثل قـــراءتها من الأمام إلى الخلف، لم يسرها هذا وبدا انها لا تعرف حـــتى مـــا هي المالايالام، أخبراها أنا اللغة التي يتحدث بها كل شخص فـــي كيرالا، قالت انها تعتقد أن اسمها كيراليسي، ايستا الذى كان يضمر كراهية ثائرة للآنسة ميتن أخبرها أن هذا الاعتقاد شديد الغباء، على حد معرفـــته، شكت الآنسة ميتن وقاحة ايستا الي بيبي كوتشاما وكذا شكت لهـــا قراءتها من الخلف للأمام، أخبرت بيبي كوتشاما أنها رأت الشيطان في عيونهما.

عوقـــبا علـــي ذلـــك بكتابة في المستقبل سوف لن نقرأ من الخلف للأمام في المستقبل سوف لن نقرأ من الخلف للأمام " مائة مرة قدما ".

بعـــد هـــذا بشهور قليلة قتلت الآنسة ميتن بشاحنة لنقل الحليب في هوبارت

اعتقد التوأمان أن هناك عدالة خفية لأن شاحنة الحليب كانت تسير عكس الاتجاه.

توقفت سيارات وباصات أكثر علي جانبي المزلقان، سيارة اسعاف كتـب عليها مستشفي القلب المقدس كانت تكتظ بمجموعة من الناس في طـريقهم لحفـل زفاف، كانت العروس تطل من النافذة الخلفية، حجب وجهها جزئيا بسبب الطلاء المتآكل للصليب الأحمر الضخم.

كانـت الباصـات جمـيعها تحمل أسماء فتيات لوسي كاتي، مولي كاتي، بينامرل، بالمالا يالام كانت مول تعني الفتاة الصغيرة ومون الفتي الصـغير، ان الباص الذى يحمل اسم بينامول مزدحما بالحجاج، حلقوا رؤوسـهم فـي تيروباتي، رأت راهيل صفا من الرؤوس الصلعاء من نـافذة الـباص فوق خطوط قيء علي مسافات متوازية، كانت أكثر من مجـرد فضـولية صـغيرة للقيء، فهي لم تتقيأ مطلقا. ولا مرة، ايستا فعلهـا، وحيـنها صـارت بشرته ساخنة ولامعة وعيناه كانت واهشان جميلتان واحتبه امو أكثر من المعتاد، قال تشاكو ان ايستا وراهيل تمتعا لحالـة صحية غير عادية وكذلك صوفي مول قال ان هذا ناتج من انهم ليسـوا ابـناء لـزيجات الأقـارب مـثل معظـم المسيحيين السوريين والزرادشيين.

قالـت ماماتشي أن ما يعاني منه أحفادها أسوأ ن أمراض زيجات الأقارب بكثير، كانت تعني أن لهم أباء انفصلوا عن زوجاتهم كما لو أن هـذه هـي الاختـيارات الوحيدة المتاحة لدي الناس: زواج الأقارب أو الطلاق.

راهـيل لـم تكن متأكدة مما تعانيه، لكن وجهها بين الحين والآخر يعتلـيه الحزن وتنتحب أمام المرآه، بمرارة كانت تقول لنفسها، ما أفعله أحسن بكثير جدا، مما قد فعلته للأبد، تلك كانت راهيل عيل هيئة سيدني كـارتون، علـي هيـئة تشارلز ارناي، حينما يقف علي درجات السلم، منتظرا الإمام بالمقصلة في طبعة كوميدية مصورة من حكاية مدينتين.

كانـت تتساءل عن سبب تقيوء الحجاج بشكل متوافق وما اذا كانوا قـد تقـيأوا معـا دفعة أوركسترا واحدة (ربما للموسيقي، لايقاع باص بهاجان)، أو بانفصال كل فرد في مرة منفصلة.

في بادئ الأمر، حينما انغلق المزلقان، كان الهواء متخما بأصوات متضـجرة تصـدر مـن محركات ساكنة لا تعمل لكن السائقين أوقفوا

محــركات ســياراتهم واســتداروا ممديــن أرجلهم عندما خرج الرجل المســئول عــن المــزلقان من سقيفته علي رجليه المقوستين المتثاقلتين وأشــار بمشية مترهلة مترنحة صوب دكانة الشاي التي كانوا فيها لوقت طويل.

بإيمــاءة مــتقطعة من رأسه الناعسة المتضجرة، استحضر لاهوت المــزلقان شحاذون بضمادات رجال يحملون صواني يبيعون عليها قطع جــوز الهــند الطازجــة والــ علي أوراق الموز والمشروبات المثلجة كوكاكولا، فانتا وروزميلك.

مجـذوب بعصابة ملوثة كان يتوسل الركاب من النافذة، قالت آمو عن دمه الذى يلمع بطريقة غير عادية، إنه يشبه محلول المربرومين.

قــال تشــاكو أهنــئك، قلتــيها مثل برجوازية حقيقية ابتسمت آمو وتصــافحا كما لو أنا قد حازت جائزة التميز لكونها برجوزازية أصيلة، رفــيعه الخلق ــ لحظات كتلك اكثرها التوأمان ولضموها بالخيط كأنها حبات خرز من نوع نفيس في عقد (نادر إلي حد ما).

كــان ايســتا وراهيل يضغطان أنفيهما لصق زجاج نافذة السيارة، يشــتهيان حلــوي الحظمي التي يمسكها الأطفال الوسخين خلفهما، قالت آمو لا بصراحة وتحزيم.

أشــعل تشــاكو سيجار الشارمينار واستنشق نفساً عميقاً، بعد ذلك اقتلع ندفه من التبغ استقرت فوق لسانه.

داخــل الســيارة البليموث، لم يكن سهلا علي راهيل أن تري ايستا لأن بيبــي كوتشــاما كانت تجلس بينهما كأنها تل، كانت آمو تصر علي أن يجلسا متباعدين حتى تمنعهما من الشجار، عندما كانا يتشاجران كان ايســتا يســمي راهيل حشرة ملتصقة لاتجة وكانت راهيل تسمي ايستا الفــيس البلقيس، وكانت تؤدي نوعا ملتويا مضحكا من الرقصات يغيظ ايستا، عندما يدب بينهما شجار جسدي حاد كانا متساويان في القوة حتى أن الشــجار كان يستمر للأبد، وكانت الأشياء اليت تأتي في طريقهما ــ مصــابيح المــائدة، مــرامد السجائر وقوارير المياه ــ تتحطم أو تتهشم تماماً دونما قابلية للإصلاح فيا بعد.

كانـــت بيبـــي كوتشــــاما تتشــبث بــالمقعد الأمامي ممسكة ظهره بذراعــيها، عندما تتحرك السيارة يتأرجح لحم ذراعيها كأنه غسيل ثقيل فـــي الهـــواء، الآن يتدلي مثل ستائر وثيرة اللحم، تحجب ما بين ايستا وراهيل.

كـــان علـــي الطريق من ناحية ايستا "خُص" الذى يبيع الشاي وبسكويت ســكر العنب اليابس في ورق شفاف معتم مترع بالذباب، صودا الليمون معبأة في زجاجات سميكة عليها سدادات زرقاء مرمرية ليحفظ الهسيس داخلهـــا وصندوق مثلجات أحمر كتب عليه بشكل كئيب: مع كوكاكولا كل شئ أفضل.

مورلـــيداران، مجــذوب المــزلقان، كان يجلس واضعا رجلاً علي أخري متوازناً تماماً علي الصوة. خصيتاه وقضيبه يتدليان مشيران الي العلامة التي كتب عليها.

كوتشين

23

كـــان مورلـــيدران عاريًا إلا من كيس بلاستيكي طويل ثبته شخصٌ ما علـــي رأسه مثل قلنسوة طاهي شفافة يظهر من خلالها المنظر الطبيعي باهـــتاً، علي هيئة الطاهي لكنه مكتمل، لم يكن بإمكانه خلع غطاء رأسه هذا حتى لو أراد لأنه بلا ذراعين، ذراعاه قطعتا في سنغافورة سنة42 ، فـــي الأســـبوع الأول لعودتـــه للوطن كي يلحق بصفوف المحاربين في الجـــيش الوطنـــي الهـــندي، بعد الاستقلال سجل نفسه محارباً من أجل الحـــرية من الدرجة الأولي. وخصصت له بطاقة سكة حديد مجانية في الدرجة الأولي مدي الحياة، فُقِدَت هذه البطاقة أيضاً (مع فقدان عقله) لذا لـــم يعـــد بإمكانـــه إلا أن يعـــيش في القطارات أو في الغرف المريحة بمحطـــات الســـكة الحديد، كان مورليدران بلا مأوى. ليس لديه أبواب يغلقهمـــا؛ غـــير أنـــه كـــان يحمل مفاتيحه القديمة مربوطة بعناية حول

خصره، عنقود براق من المفاتيح، عقله كان متخمًا بدواليب تتراكم فيها مباهج سرية...

منبه، سيارة حمراء لها آلة تنبيه موسيقية، مج أحمر للحمام، زوجة تمـتلك ماسـة، حقيبة بها أوراق مهمة، عودة للبيت من المكتب وعبارة آسـف أيهـا الكولونـيل سابهاباتي، لكنني أخشي أنني قد قلت مقولتي، وشيبسي الموز الرقيق للأطفال.

يري القطارات جيئة وذهابا، يعد مفاتيحه.

يري الحكومات تتكون وتنحل، يعد مفاتيحه.

يـري الأطفـال القاتميـن في نوافذ السيارة بأنوف تشتهي حلوي الخطمـي. المشـردين، اليائسين، المرضي الصغار والضالين، جميعهم يصطفون مارين بنافذته وما زال يعد مفاتيحه.

لـم يكـن واثقـا أي دولاب ربما سيتحتم عليه فتحه أو متي، كان يجلـس علي الصوة الحارقة بشعره المهوش وعيناه مثل نافذتين. فرحا لمقدرتـه علـي أن يشـيح بنظره بعيداً أحيانا لأن لديه مفاتيحه يعدها، ويعود ليتحقق من صحة العد ثانية.

الأرقام ستفعل.

اللامبالاة ستكون جميلة.

كـان مورلـيدران يحـرك فمـه وهـو يعد ويخرج كلمات جيده الصياغة.

لاحـظ إيستا أن شعر رأسه أجعد رمادي، شعر إبطيه الفارغين بلا ذراعيـن كان أسود باهتاً وشعر مشعبه أسود ورطب، رجل واحد بثلاثة أنـواع مـن الشعر، تساءل إيستا كيف يمكن هذا حاول أن يفكر في من يسأل.

انتفخـت راهـيل بالانتظار حتى كادت تنفجر، نظرت في ساعتها، كانـت تشير إلي الثانية إلا عشرة، فكرت في جولي آندروز وكريستوفر بلامر وكلاهما يقبل الآخر علي خديه لكي لا تتصادم أنفيهما تساءلت ما إذا كان الناس يقبلون بعضهم البعض علي خدودهم، حاولت أن تفكر في من تسأل.

حينئذ زحف طنين عال من مسافة بعيدة وغطي المرور المتوقف كأنه عباءة. السائقون الذين كانوا يمددون أرجلهم عادوا الي عرباتهم واغلقوا أبوابها بإحكام صاخب. اختفي الشحاذون؛ والباعة في دقائق معدودة. لم يعد هناك أي شخص علي الطريق فيما عدا مورليداران الجالس بصخبه المعربد علي الصوة الحارقة غير مكترث. كان فقط يتفحص بهدوء.

كان هناك ارتباك واندفاع وصافرات عربات الشرطة. حركة سير تتقدم من خلف خط الانتظار. ظهر صف من الرجال يحملون رايات وأعلام حمراء، وثمة طنين يعلو ويعلو.

قال تشاكو، "ارفعوا زجاج نوافذكم واهدءوا، لن يصيبوننا بضرر."

قالت آمو لتشاكو، "لماذا لا تلحق بهم يا رفيق، سوف أقود أنا السيارة." لم ينطق تشاكو بكلمة. توترت عضلة أسفل حشوة اللحم في فكه، قذف بسيجارته بعيدا ورفع زجاج نافذته.

كان تشاكو ماركسيا مجاهرا، كان يدعو النساء الجميلات اللائى كن يعملن في المصنع إلى غرفته بحجة تعليمهن حقوق العمال وقانون النقابة العمالية، كان يغازلهن بصورة تثير الاستياء، كان يناديهن بكلمة **رفيقة** ويصر علي أن ينادينه بكلمة **رفيق** (مما كان يثير قهقتهن)، ومما زاد من ارتباكهن وكذا ارتياع ماماتشي أنه أجبرهن علي الجلوس الي المائدة معه وشرب الشاي.

حتي أنه ذات مرة أخذ مجموعة منهن لحضور محاضرات النقابة العمالية التي كانت تعقد في آليبي، ذهبوا بالباص وعادوا بالمركب، عادوا فرحين، بخلاخيل زجاجية وأزهار في شعورهن. قالت آمو إن كل هذا لا يتجاوز كونه نفايات لا قيمة لها، فقط حالة من حالات الإمارة الفاسدة تلهو رفيقْ! رفيقْ! تجسيد أكسفوردي لفكرة الآلهة في الفلسفة الهندوسية في عقلية زامبندار عجوز اقطاعي يجند كل مجاملاته لنسوة يتكئن عليه لكسب أقواتهن.

عندما وصل المتظاهرون، رفعت آمو زجاج نافذتها، وكذا فعل ايستا وراهيل (بشق الأنفس، لأن الحلية السوداء الصغيرة علي المقبض كانت قد سقطت).

قالت بيبي كوتشاما عندما اقتربت الصفوف الأمامية للموكب من السيارة، "انظر لأسفل! تحاشي التقاء الأعين، ذلك ما يستثيرهم."
في جنب رقبتها كان نبضها يشبه الطرقات.
في دقائق معدودة، كان الطريق مغموراً بالآلف المتظاهرين، جزر من السيارات في نهر من الآدميين، كان الهواء ملونا بأعلام حمراء تعلو وتهبط حين طأطأ المتظاهرون رؤوسهم للمرور من بوابة المزلقان، واندفعوا لعبور شريط السكة الحديد فيما يشبه الموجه الحمراء، غطت آلاف الأصوات المرور المتجمد كأنها شمسية من الصخب.

Inquilab Zindabad
The Ozhilali Ekta Zindabad

كانوا يهتفون، تعيش الثورة! ليتحد كل عمال العالم!
حتى تشاكو لم يكن لديه أي تفسير واضح يبرر به لماذا حقق الحزب الشيوعي في كيرالا نجاحاً أكبر بكثير ربما فيما عدا البنجال ـ مما حققه في أي مكان آخر في الهند.
العديد من النظريات كانت تتصارع هناك إحداها كانت تلك التي التزمت أعداد هائلة من السكان المسيحيين في الولاية، عشرون في المائة من سكان كيرالا كانوا مسيحيين سوريين، يؤمنون بأنهم سليلوا البراهمة المائة الذين أدخلهم سانت توماس الرسول في المسيحية عندما اتجه شرقاً بعد البعث، من الناحية البنائية ـ هكذا ذهب هذا النقاش الأوليّ ـ فالماركسية بديل بسيط للمسيحية، يحل ماركس محل الله، البرجوازيون محل الشيطان، المجتمع اللاطبقي محل الجنة، الحزب محل الكنيسة، وظل شكل الرحلة وعرضها كما هو: سباق حواجز، بمكافئة عند بلوغ النهاية حيث تحتم علي العقل الهندوكي إقامة توافقات أكثر تعقيداً.
الأزمة مع هذه النظرية كانت تكمن في أن المسيحيين السوريين في كيرالا كانوا ـ بشكل عام ـ أثرياء، أصحاب ضياع (يديرون مصنع

مخلـــلات) سادة إقطاعيين، ممن كانت الشيوعية تعني لهم مصيراً أسوأ من الموت، كانوا دائماً يصوتون لصالح حزب الكونجرس.

الــنظرية ثانـــية ادعت التزامها بالمستوى المرتفع نسبيًا من معرفة القــراءة والكـــتابة فـــي الولاية. ربما باستثناء ذلك كان مستوى معرفة القراءة والكتابة مرتفعًا بسبب الحركة الشيوعية.

الســـر الحقيقـــي هـــو أن الشيوعية زحفت سر إلي كيرالا كحركة إصلاحية لم تناقش جهراً الأعراف التقليدية لطبقة مهيمنة، لمجتمع شديد التقلـــيدية، مطلقاً، الماركسيون بدأوا العمل من داخل التقسيمات الطائفية. لـــم يناهضـــوها مطلقـــاً، مطلقاً لم يجاهروا بمعاداتها، لقد طرحوا ثورة كوكتـــيل مزيج مسكر من الماركسية الشرقية والهندوسية الأرثوذكسية، مطعمة بجرعة من الديمقراطية.

رغـــم أن تشاكو لم يكن حاملاً لبطاقة عضوية الجزب، إلا أنه دخل في الماركســـية، وظل خلال فترة عمله الشاقة مؤيداً ملتزماً، كان طالباً في جامعـــة دلهـــي إبـــان فـــترة الحـــركة والنشاط عام ١٩٥٧، عندما فاز الشيوعيون في انتخابات مجلس الشعب ودعاهم نهرو لتشكيل حكومة.

أصـــبح الرفـــيق إ.م.س نامبوديريـــباد بطل تشاكو، الكاهن المتقد البرهمـــي الســـامي للماركســـية في كيرالا. رئيس وزراء أول حكومة شـــيوعية فـــي العـــالم أجمع يتم الاقتراع عليها ديمقراطياً. بغتة، وجد الشـــيوعيون أنفســـهم في وضع شاذ ــ قال عنه النقاد ــ عبثي ــ لحكم شعب وثورة هائجة في نفس الوقت.

أســـس الرفيق إ. م. س نامبوديريباد نظريته عن كيفية القيام بهذا. درس تشـــاكو بحـــثه (التحول السلمي للشيوعية) باجتهاد مراهق تعتريه الهواجـــس، وقـــبول غـــير قابل للجدال من معجب مؤيد مناصر. كان البحـــث يوضـــح بالتفصيل كيف أن الرفيق إ. م. س نامبوديريباد يهدف الـــي إصلاحات زراعية تُحَيِّد موقف البوليس، قلب نظام القضاء؛ وتقييد حكومة الكونجرس الرجعية المعادية للشعب.

لســـوء الطـــالع، وقـــبل أن ينتهي العام، انتهي الجانب السلمي من التحول السلمي.

كل صباح علي مائدة الإفطار، كان عالم الحشرات الإمبريالي يسخر من ابنه الماركسي المجادل بأن يقرأ عليه تقارير الصحف عن أحداث الشغب والاضرابات ووقائع وحشية البوليس التي ترتج بها كيرالا.

"هكذا ياكارل ماركس!" يقول باباتشي ساخراً عندما يأتي تشاكو للجلوس علي المائدة، "الآن ماذا سنفعل مع هؤلاء الدمويين من الطلاب؟ المغفلون الحمقي يحرضون ضد حكومة شعبنا، هل نبيدهم؟ أحقاً لم يعد الطلاب من الشعب؟!"

خلال العامين التاليين أفضي الاضطراب السياسي الي حالة من الفوضي دعمتها الكنيسة وحزب الكونجرس، كان تشاكو قد حصل علي درجة البكالوريوس وغادر الي اكسفورد للحصول علي أخري، حين كانت كيرالا علي شفي الحرب الأهلية، قام نهرو بطرد الحكومة الشيوعية، وأعلن عن أنتخابات جديدة، فعاد حزب الكونجرس للسلطة.

فقط في عام 1967 ــ بعد عشر سنوات علي وجه التحديد من صعودهم للسلطة للمرة الأولي أعيد انتخاب حزب الرفيق إ. م. س نامبوديريبياد، هذه المرة كنوع من الائتلاف بين ما قد أصبحا الآن حزبين منفصلين: الحزب الشيوعي الهندي، والحزب الشيوعي الهندي (الماركسي) الــ **CPI** والــ **CPI (M).**

وقتئذ كان باباتشي قد مات، طلق تشاكو زوجته، مخللات الجنة كان قد بلغ عامه السابع.

كانت كيرالا تتخبط في مغبة المجاعة، والبسارة، الناس كانت تحتضر، وكان من الضروري أن يصبح الجوع علي رأس قائمة أولويات أي حكومة.

مضي الرفيق إ.م.س نامبوديريباد في تنفيذ التحول السلمي بصورة أكثر رزانة، أثناء مدة حكمه الثانية مما جعله ينال غضب الحزب الشيوعي الصيني، نددوا به بسبب هُلاسةُ البرلماني واتهموه بحقن الناس بالاستكانه وبالتالي سلب وعي الشعب وتحويل اتجاه الناس عن الثورة.

حولـت بكين تأييدها الي الحزب الجديد، معظم الانشقاق العسكري للحـزب الشـيوعي الهندي (الماركسي) ـ الناكاليتيين ـ الذين نظموا ثورة مسلحة في ناكالباري*، قاموا بتنظيم الفلاحين وحولوهم الي كوادر محاربـة، اسـتولوا علـي الأراضي الزراعية، طردوا الملاك وأقاموا محـاكم الشعب لمحاكمة اعداء الشعب. انتشرت الآن حركة الناكاليتيين في أنحاء الدولة، وأثارت الفزع في قلب كل برجوازي.

فـي كـيرالا، نفخوا ريشة الارتياع والخوف في الجو المرتجف أصلاً، بـدأت حـوادث القتل في الشمال في مايو تلك الفترة. نشرت الصحف صـورة فوتوغرافـية مطموسة الملامح لأحد ملاك الأرض في بالجات وهـو مـربوط في عمود الاضاءة، مضروب الرأس، رأسه كانت ملقاه إلـي جانـبه، علي مبعده من جسده، في بركة قاتمة، بالامكان اعتبارها بـركة ماء أودم، كان من الصعب تحديدها في صورة بالأبيض والأسود في الضوء الأغبش الذي يسبق الفجر.

كانت عيناه المشدوهاتان مفتوحتان.

الرفـيق إ.م.س نامبوديريـباد (كلـب دووب، تابع سوفيتي) طرد الناكاليتييـن مـن حزبه وواصل انهماكه في تسخير الغضب لأغراض برلمانية.

المظاهـرة التي كانت تمور متدفقه حول السيارة البليموث سماوية الـزرقة في ذلك اليوم من ديسمبر بسمائه الزرقاء كانت جزءا من تلك العملـية نظمهـا اتحاد العمال الماركسي في ترافا نكوريكوتشين رفاقهم كـانوا سـيخرجون فـي مظاهرة تريفاندرم إلي أمناء السر لتقديم ورقة بمتطلـبات الشعب للرفيق إ.م.س نفسه، الأوركسترا قدم التماسا لقائدها، كانـت مطالـبهم تتضـمن منح عمال الأرز المجبرين علي العمل في الحقول لمدة أحد عشر ساعة ونصف في اليوم من السابعة صباحاً حتى السادسة والنصف مساء. ساعة للغذاء، أن ترتفع أجور النساء من روبية وخمس وعشرين بايزا الي ثلاث روبيات.

---

* ناكالاباري: قرية في البنجال (المترجم).

ورفع أجور الرجال من روبيتين وخمسين بايزا في اليوم الي أربع روبيات وخمسين بايزا في اليوم، كانوا يطالبون كذلك بعدم مناداتهم ـ أفراد طبقة المنبوذين ـ بأسماء طبقاتهم الاجتماعية بين الهنود أي لا يتم مناداتهم بـ "أكوبارايان، وكوتان يولايان، لكن يتم مخاطبتهم بآكو، أوكيلان أو كوتان.

ملك الهال، كونتات البن وبارونات المطاط، رفاق المدرسة الداخلية القدامي أتوا من ضياعهم المنعزلة البعيدة وأخذوا يرتشفون البيرة المثلجة في نادي الألعاب البحرية، رفعوا رؤسهم، قالواء وردة تحت أي اسم آخر... وأطلقوا ضحكة مكتومة لموارارة ذعرهم المتزايد.

عبر زجاج السيارة، استطاعت راهيل أن تدرك أن أعلي حكمة ينطق بها المتظاهرون هي **Zindabad** وأن عروق الدم تكاد تقفز من أعناقهم حينما ينطقون بها وأن الأذرع التي تمسك بالأعلام والرايات كانت قوية ومفتولة.

داخل البليموث كان الجو حاراً وراكداً.

كان خوف بيبي كوتشاما يرتمي متكوماً في أرضية السيارة مثل الشيروت الرطب المبلل، هذه كانت بدايته، الخوف الذي نما عبر السنوات ليستهلكها. ذلك الخوف الذى جعلها تُغلق الأبواب والنوافذ؛ أعطاها خطين شعر وفمين، خوفها أيضاً كان خوفاً عتيقاً، طاعناً في القدم، الخوف من أن تُطرَّد وتُسلَّب.

حاولت أن تعد حبات الخرز في سبحتها غير أنها لم تستطع التركيز، يد مفتوحة ضربت زجاج النافذة بعنف، قبضة يد دوت ضاربة كبوت السيارة الساخن ذا اللون السماوي فقفز مفتوحاً، صارت البليموث تشبه حيواناً أزرق بارز العظام في حديقة حيوانات تطلب الطعام.

كعك.

موز.

قبضة يد أخري هوت على كبوت السيارة مغلقة إياه، فصرخ تشاكو وهو ينمكش أسفل نافذة السيارة قائلاً للرجل الذى فعلها، "شكراً، كيتو! شكراً فاليري."

قالــت آمــو: "لا تكــن مــتملقاً يا رفيق. إنها صدفة إنه لم يقصد المســاعدة مطلقــاً، كــيف بإمكانه أن يعرف أن هناك في هذه السيارة القديمة قلب ينبض لماركسي حقيقي؟"

زعــق تشاكو "آمو ألا يمكنك أن تمنعي تعبيراتك الساخرة المرهقة مــن تلويــن جميع الأشياء؟!" كان صوته حاداً أو تعمد أن يكون متقطعاً امــتلأت السيارة بالصمت، كأنها قطعة مشبعة من الأسفنج، كلمة مرهقة كانت وكأنها سكين تمضي قاطعة شيئاً طرياً. كانت هذه هي المشقة مع العائلات مثل أطباء مجانين يعرفون بالضبط أين تؤلم.

لحظتــئذ رأت راهيل فيليوتا، فيليوتا ابن فيلي بابن، فيلوتا صديقها الــودود، فيلوبتا ضمن المتظاهرين يحمل علمًا أحمر ويرتدي تي شيرت أبــيض؛ وــله أورده ثائرة في عنقة، لم يكن من عادته أن يرتدي تي ــ شيرت أبداً.

انحدرت راهيل أسفل نافذتها في لمحة.

نادته، "فيليوتا! فيليوتا!"

تجمــد للحظة، وانصت ومعه علمه. إن ما سمعه كان صوتاً مألوفاً فــي ظرف غير مألوف تماماً. وقفت راهيل علي مقعدها وشبت خارج نــافذة الســيارة مــثل القرن المتخلل لحيوان العشوب علي هيئة سيارة بــنافورة مــربوطة حولها توكة الحب ــ في ــ طوكيو ونظارة شمسية بلاستيكية حمراء بحواف صفراء.

"فيليوتا! يفيداي! فيليوتا!"، هي أيضا لديها عروق في رقبتها.

تحــرك الــي جانب الطريق، واختفي برشاقة في غياهب الغضب المحيط به.

تلفتــت آمــو حولها داخل السيارة، عيناها كانتا غاضبتين، لطمت راهــيل علــى ربلــة ســاقها. الجزء الوحيد المتبقي فيها داخل السيارة لتضــربه بكف يدها، ربلتي ساقيها، وقدمان بنيتان في صندل من انتاج باتا.

قالت آمو "تأدبي!"

سحبت بيبي كوتشاما راهيل وأجلستها علي المقعد بضربة مندهشة، اعتقدت أن هناك سوء فهم ما.

وضحت بابتسامة "إنه فيليوتا ومعه علم."

بدا العلم لها وكأنه أكثر الأدوات اثارة للإعجاب الشئ الصحيح الذى يجب أن يمتلكه صديق.

قالت أمو، "أنت فتاة صغيرة غبية حمقاء!"

غضبها الشرير المباغت ثبت راهيل في مقعد السيارة. ارتبكت راهيل، "ما السبب الذى أغضب أمو لهذا الحد؟ من ماذا؟"

قالت راهيل، "لكنه هو!"

قالت آمو، "اخرسي!"

رأت راهيل أن هناك غشاء من العرق علي جبهتها وشفتها العليا. وأن عينيها صارتا متصلبتين كأنهما كرتين من الرخام مثل عيني باباتشي في صورة الاستوديو التي التقطت له في فيينا (كيف همست فراشة باباتشي في عروق الأطفال!).

رفعت بيبي كوتشاما زجاج نافذة راهيل.

بعد سنوات في صباح خريفي بارد في شمال نيويورك، في أحد قطارات أيام الآحاد التي تقوم من جراند سنترال الي كروتون هارمون، استرجعت راهيل بغتة، ذلك التعبير الذى ظهر علي وجه آمو مثل أحجية، شئ ملغز، جزء لا ملامح له في تكوينٍ ما؛ مثل علامة استفهام تتدحرج عي صفحات كتاب ولا تستقر ابدأ في نهاية جملة.

تلك النظرة الرخامية المتصلبة في عيني آمو، لمعة العرق فوق شفتها العليا وقشعريرة ذلك الصمت المؤلم المباغت.

ما الذى كان يعينه كل هذا؟

قطار الأحد كان فارغا تقريبا، بعرض الممشي من راهيل امرأة بوجنتين متشققتين وشارب من البلغم من أثر سعالها، غلفته في طيات صحيفة أخذتها من كومة صحف يوم الأحد التي كانت في حجرها. رتبت الطرود الصغيرة في صفوف دقيقة علي المقعد الخالي أمامها كما لو كانت تشيد مقعدا من البلغم.

أثناء قيامها بذلك حدثت نفسها بصوت لطيف هادئ.

الذكـري كانـت هـي تلك المرأة في القطار، وكانت طريقتها في الانسـلال عـبر الأشياء القاتمة بجنون. وظهرت مع أشياء أخري غير مـرغوب فـيها، نظرة متلاشية، شعور، رائحة الدخان، ممسحة زجاج السـيارة الأمامـي، عينان رخاميتان لأم رزينة جدا. في الطريقة التي تخفي بها بقع الظلام الضخمة تحت ساتر بلا تذكر.

أراح راهـيل جنون شريكها في ركوب القطار، جعلها تقترب أكثر مـن دخـول رحم نيويورك المزعج بعيدا عن الشئ الآخر المفزع الذى اقتنصـها. رائحـة معدنية نتنة، مثل درابزون الباص المعدني، ورائحة يدي كمساري الباص من جراء إمساكه به، شاب بفم رجل عجوز.

خـارج القطـار، اومضـت أنوار هدسون وكانت الأشجار بلون الخريف، بنية حمراء، كان فقط مجرد برد بسيط.

قـال لاري مـاك كاسـلين لراهيل، "هناك حلمه ثدي في الهواء." وضـع راحـة يـده علـى حلمة ثدي مرتجفه في تي ـ شيرت راهيل القطني، تعجب لأنها لم تبتسم.

تعجبـت لمـاذا حين تفكر في موطنها وبيتها، دائما تكون أفكارها قاتمـة الألوان، خشب المراكب المشبع بالزيت، والقلوب الخاوية لألسنة اللهب التي كانت تتراقص في المصابيح النحاسية.

"إنه فيليوتا"

ذلـك مـا كانت راهيل واثقة منه تماما، لقد رأته، لقد رآها، كانت سـتعرفه فـي كـل مكان وفي أي وقت، ولو لم يكن مرتديا تي شيرت لتعرفـت عليه من ظهره. إنها تعرف ظهره، لقد حملها فوقه، لمرات لا تسـتطيع أن تحصـي عددها، كان في ظهره وحمه ذات لون بني فاتح، كانـت علـي هيـئة ورقة نبات يابسة مدببة، قال إنها ورقة الحظ التي تجعـل البسـارة تهـب في موعدها. ورقة بنية في ظهر أسود، ورقة خريفية في الليل.

ورقة حظ لم تكن محظوظة بما يكفي.

لم يكن مفترضا أن يصبح فيليوتا نجارا.

كـان اسمه فيليوتا، وفيليوتا تعني الأبيض بلغة المالايالام لأنه كان شـديد السـواد. فيلـيا بابـن، والده، كان بارفان **Paravan** بائع شراب

الـتودي، إحـدي عينـيه كانـت زجاجية. كان يقوم بتشكيل كعكة من الجرانيت بجاكوش عندما تطاريت شظية وسكنت عينه اليسري.

فيليوتا كان يأتي وهو صغير مع فيليا بابن الي المدخل الخلفي لبيت آيمينـيم لجلب ثمار جوز الهند التي قطفاها من الأشجار المزروعة في الحوض، لم يكن باباتشي يسمح لأي شخص من طائفة البارافان بدخول المـنزل، لـم يكن أحد يسمح. لم يكن مسموحًا للمنبوذين أن يلمسوا أي شـئ يلمسـه أبناء الطبقة العليا (غير المنبوذين) قالت ماماتشي لإيستا وراهيل أنها تتذكر وقتًا في صباها عندما كانت طبقة البارافان ينتظر أن يـزحفوا للخلـف بمقشـة لطمس آثار أقدامهم حتى لا يدلس البرهميون والمسـيحيون السوريون أنفسهم بالمشي، ولو بالصدفة، علي آثار أقدام البارافان.

أيـام ماماتشي ـ البارافان مثل أي من أفراد الطبقة الدنيا، لم يكن مسـموحًا لهـم بالمشـي فـي الشوارع العامة، لم يكن يسمح لهم بستر الأجـزاء العليا من أجسادهم، كان عليهم أن يضعوا أيديهم فوق أفواههم عندما يتحدثون، ليحولوا اتجاه أنفاسهم الملوثة عمن يخاطبونه.

عـندما أتـي البريطانـيون إلـي مالابـار، تحول بعض البارافان والبيلابـياس والـبولاياس ـ كـان ضـمنهم كيلان جد فيليوتا ـ إلي المسـيحية والـتحقوا بالكنيسـة الإنجيلية للنجاة من براثن وسياط النبذ عرفوا باسم مسيحي الأرز. لم يمر وقت طويل حتى أدركوا أنهم قفزوا مـن وعاء الشئ الي الحريق، أجُبِروا علي التواجد في كنائس منفصلة، بخدمـات منفصـلة، وكهنة منفصلين لهم، وكمعروف خاص، كان حتى الأسـقف الخاص بهم منبوذًا. بعد الاستقلال وجدوا أنهم لا يُمنَحون أي مـن المكاسـب الحكومـية مثل الاحتفاظ بالوظائف أو القروض البنكية بنسـب فائدة منخفضة، لأنهم مسيحيون رسميًا علي الورق ولذا فهم بلا طبقة إلي حد ما مثل ضرورة طمس آثار أقدامك ولكن دونما مقشة.

ماماتشـي هـي التـي لاحظت لأول مرة المهارة الواضحة لبدي الصـغير فيليوتا، عندما كانت في إجازة من دلهي هي وعالم الحشرات الإمبريالي. في هذا الوقت كان فيليوتا في الحادية عشرة من عمره، كان يصـغر آمو بثلاث سنوات ، كان يشبه ساحراً صغيراً، كان يصنع لعب

أطفال معقدة ـ طواحين رياح صغيره، فرقرعات، صناديق مجوهرات صغيرة من سعف النخيل، كان يخرط قوارب متقنة من سيقان التبيوكة، والدمـــي من شجر الكاد الهندي، كان يحمل كل ما يصنع لآمو، علي يده ـ (كمــا قــد تعلم) حتى لا تضطر للمسه عند أخذها للأشياء، رغم أنه كـــان أصـــغر منها، إلا أنه كان يناديها بـــ آموكوتي ـ آمو الصغيرة. اقنعــت ماماتشـــي فيليا بابن بإرساله إلي مدرسة المنبوذين التي أسسها حموها بانيان كونجو.

كـــان فيليوتا في الرابعة عشرة من عمره عندما أتي جوهان كلين، نجـــار مـــن نقابة للنجارين في بافاريا، إلي كوتايام وقضي ثلاثة سنوات مع المجتمع التبشيري المسيحي لإدارة ورشة مع النجارين المحليين بعد الظهـــر من كل يوم، بعد انتهاء المدرسة، كان يركب الباص إلي كوتايام حيث يعمل مع كلين حتى وقت الغروب. عندما بلغ فيليوتا سن السادسة عشـــر، كـــان قد انهي دراستة الثانوية، وأصبح نجارا متمرسًا. كان له صـــندوق معـــدات الـــنجارة الخـــاص به، وحاسة ذوق خاصة به تجاه التصـــميمات الألمانـــية، صـــنع لماماتشي مائدة طعام موديل **Bauhaus** باثنـــي عشر كرسيًا من خشب الورد وشيزلونج بارفاري تقليدي، وضع لـــــ"بيبـــي كوتشاما" مكتبة ذات أجنحة ملائكة؛ ذات حواف من السلك توضــــع علـــي ظهـــور الأطفال مثل الجراب، وذلك للروايات التمثيلية السنوية عن عيد ميلاد السيد المسيح، وسحب من الورق المقوي للملاك جبرائـــيل ليظهر بينها، ومدود يمكن فكه وتركيبه ليولد فيه السيد المسيح عـــند نضـــوب المجري الفضي المقدس لتمثال الملاك في الحديقة دون مـــبرر واضـــح. كان الدكتور فيليوتا هو الذى ثبت لها مثانته. بعيداً عن مهاراتـــه فـــي الـــنجارة، كان لفيليوتا طريقة مع الآلات، غالباً ما كانت ماماتشـــي تقول (بمنطق نزيه محايد) فقط لو لم يكن من طبقة البارافان، لأصـــبح مهندسا. كان يصلح أجهزة الراديو وساعات الحائط ومضخات المياة، كان يعتني بالسباكة وكل الأدوات الكهربية في المنزل.

عـــندما قـــررت ماماتشي أن تغلق الشرفة الخلفية، كان فيليوتا مو الـــذى صمم ونفذ الباب الزلاج الذى أصبح فيما بعد البدعة السائرة في آيمينيم.

كـان فيليوتا يعرف عن آلات المصنع أكثر مما يعرفه اى شخص آخر.

عندما استقال تشاكو من وظيفته في مدراس وعاد الى آيمينيم ومعه آلـة إغـلاق زجاجات ماركة بارات كان فيليوتا هو الذى أعاد تجميعها وتشـغيلها، فيلـيوتا أيضـا هـو الذى كان يقوم بصيانة ماكينة التقليب وقطاعـة الأنانـاس الأوتوماتيكـية، فيليوتا هو الذى كان يقوم بتزييت مضـخة المـياة، ومولـد الديزل الصغير، فيليوتا هو الذى أقام أسطح التقطـيع السـهلة التنظـيف ذات الألواح الألومينوم والأفران المستوية لطهي الفواكه.

فيلـيا بابان، والد فيليوتا، رغم أنه كان بارافان من العالم القديم، فقد رأي أيـام الزحف للخلف، وكان شكره وامتنانه لماماتشي وعائلتها علي كمـل مـا فعلوه لأجله، متسعا وعميقا مثل نهر في حالة من الفضيان، عـندما وقعت له حادثة شظية الجرانيت، رتبت ماماتشي ودفعت له ثمن العيـن الزجاجـية، لـم يدفـع دينه بعد. رغم أنه كان يعرف بأنه ليس منـتظرا أن يفعل ولن يستطيع ابدا ــ إلا أنه كان يشعر بان عينه ليست ملكـه، صـار إحساسـه بالشكر والجميل يزيد اتساع ابتسامته ويحني ظهره.

كـان فيلـيا بابـن يخاف علي ابنه الصغير، لم يستطع أن يقول ما الـذى يخفـيه ــ لم يقل شيئا لم يفعل شيئا ما قاله ليس هو الذى يخفيه، لكن الطريقة التي قاله بها، ليس ماذا فعل لكن الطريقة التي فعل بها.

ربما كان هذا فقط مجرد فقدان التردد ــ مجرد ضمان غير مكفول فـي طريقة مشيه، الطريقة التي يمسك بها رأسه، الطريقة الهادئة التي يعـرض بها الاقتراحات دون أن يطلب منه أو الطريقة الهادئة التي كان يرفض بها اقتراحات دون أن يبدو متمردا.

بينما كانت هذه الصفات مقبولة تماما، أو حتى ربما تكون مرغوبة فـي أبناء الطبقة العليا، كان فيليا بابا يعتقد انها كانت وفي الحقيقة يجب أن تفسر علي أنها إهانة.

حـاول فيلـيا بابن أن يحذر فيليوتا، لكن طالما لم يكن بإمكانه أن يضـع إصـبعه علـي مـا كـان يضايقه، فقد أخطأ فيليوتا، فهم هدفه

المشوش، بالنسبة له، بدا والده كما لو كان يريد أن ينكر عليه ما اكتسبه من تأهيل ومهارات طبيعية.

تحولـــت كل نوايا فيليا بابن بسرعة إلي حالة من التذمر والمشاحنة وجو عام من الاضطراب بين الأب والابن ومما زاد من ارتياع أمه أن فيلـيوتا بـــدأ يتجنــب الذهـــاب للبيت، كان يظل في عمله لوقت متأخر يصـــطاد الســمك من النهر ويقوم بطهيه في الخلاء حيث كان ينام علي ضفاف النهر.

ثــم اختفي ذات يوم لم يعرف أحد مكانه لمدة أربع سنوات، كانت هـــناك شـــائعه أقـــرب بأنه كان يعمل في أحد مواقع البناء التابعة لهيئة الاسكان والخدمة الاجتماعية في تريفاندرم وشائعة أخري حتمية روجت مؤخرا أنه قد أصبح ناكاليتي وأنه كان في السجن واعلن شخص ما أنه قد رآه في كوايلون.

ولكـــن هناك طريقة للوصول إليه، عندما ماتت تشيلا، أمه، بالسل، ثـــم عـــند سقوط أخيه الأكبر كوتابن من فوق شجرة جوز الهند وتهشم عمـــوده الفقـــري. أصيب أخوه بالشلل ولم يعد قادرا علي العمل. سمع فيليوتا بالحادث بعد عام كامل من وقوعه.

مرت خمسة أشهر منذ عودته إلي ايمينيم لم يتحدث أبدًا عن المكان الـــذى كـــان فـــيه أو عما فعل. أعادت ماماتشي استخدام فيليوتا ليصبح نجـــارا للمصـــنع وجعلته مسئولا عن الصيانة العامة، أحدث هذا استياء كبـــيرا بين عمال المصنع الآخرين، فوفقا لرأيهم، ليس للأفراد البارافان أن يصبحوا نجارين، وليس للبارافان الضال تحديدا أن يعاد استخدامه.

ولكـــي تحافظ علي سعادة الآخرين، ولأنها كانت تعرف أن إمكانية اســتخدامه من قبل أي شخص معدومة. فقد كانت ماماتشي تدفع لفيليوتا أجرا أقل من أي نجار اخر من الطبقة العادية في الهند. لكنه أجر أعلي ممـــا يحصـــل علـــيه أي بارافان، لم تكن ماماتشي تشجعه علي دخول المنزل (إلا عندما كانت تحتاج إليه في اصلاح أو تركيب شئ ما) كانت تعـــتقد أنـــه يجب عليه الشكر لأنها سمحت له بالدخول لساحة المصنع، وكـــذا ســـمحت له أن يلمس الأشياء التي يلمسها االأخرون، قالت إن ما يحدث يعتبر تقدما كبيرا في حياة أي بارافان.

عـندما عـاد إلـي آيمينيم بعد سنوات ابتعاده عن المنزل، ما زال فيليوتا يمتلك نفس السرعة، الثقة، كان خوف فيليابابن عليه أكبر من ذي قبل، لكنه هذه المرة أحتفظ بهدوئه، لم يقل شيئاً.

علـي الأقـل لم يقل شيئاً حتي تملكه الفزع، لم يقل شيئاً حتى راي قارباً صغيراً يبحر بعرض النهر، ليله بعد أخري.لم يقل شيئًا حتى رأى نفـس القارب ليلة بعد أخرى يعود في الفجر. لم يقل شيئاً حتى رأي ما قد لمسه، أحد أفراد طبقة المنبوذين، بل أكثر من مجرد اللمس.

دخله

أحبه

عـندما تملكـه الفـزع، ذهب فيليا بابن إلي ماماتشي، حدق للأمام مباشـرة بعيـنه المرهونة بوعد، بكي بعينه التي يملكها. أحد خديه يلمع بـالدموع والآخر ظل جافاً، أخذ يحفر رأسه من جانب إلي الجانب الذى يلـيه حـتى أمـرته ماماتشي أن يتوقف. أخذ جسده يرتجف كأنه رجل مصـاب بالملاريـا. أمرته ماماتشي أن يتوقف لكنه لم يستطع. لأنك لا تسـتطيع أن تأمـر الخـوف المحـيط بك ولا حتى الخوف الذى يحيط بارافـان، أبلـغ فيليا بابن ما قد راي، طلب منها الصفح لأنه أنجب من صـلبه وحشـا، عرض عليها أن يقبل ابنه هذا بيديه ليقضي علي ما قد خلق.

في الغرفة المجاورة سمعت بيبي كوتشاما الضوضاء وأتت لتعرف سـبب كـل هذا، رأت الأسي والاضطراب سراً وجهراً في صميم قلبها فاستطارت فرحا.

قالـت (ضمن أشياء أخري) ـ كيف تستطيع احتمال الرائحة؟ ألا تدركيـن أن لهؤلاء الأفراد من طبقة البارافان رائحة معينة؟ وانتفضت بشـكل مسرحي كأنها طفل مجبر علي أكل السبانخ، كانت تفضل رائحة يسوعي أيرلندي علي رائحة تخص بارافان بكثير بكثير.

كـان فيلـيوتا، فيليا بابن وكوتابن يعيشون في كوخ اللطريط أسفل الـنهر مـن مـنزل آيمينيم، كوخ يبعد ثلاث دقائق من الجري لايستابن وراهـيل، كانـا قـد وصـلا لتوهما منزل منزل آيمينيم مع آمو وكان صـغيرين جـداً بحيـث لا يستطيعان تذكر فيليوتا عندما مضي مغادراً

آيمينـــيم، لكـــنه منذ أن عاد وخلال شهور أصبح من أحسن أصدقائهم، حرم عليهما زيارة منزله، لكنهما زاراه، كان يجلسان معه لساعات علي أليتـــيهما ــ علامـــات ترقـــيم تقعي علي إليتيهما في حوض من نشارة الخشــب ــ ويتســـاءلان كـــيف يبدو دائما مدركاً للأشكال الناعمة التي تنـــتظره داخـــل الخشـــب. أحبا الطريقة التي يلين بها الخشب بين يدي فيلـــيوتا ويصبح طيعا مثل الطين الصلصال. كان يعلمهما كيفية استخدام آلـــة الســـحج. كانـــت تفوح من منزله (في اليوم الجديد) رائحة الشمس ونشارة الخشب الجديدة. رائحة كاري السمك الأحمر المتبل المطهي مع التمر الهندي الأسود، أجمل كاري سمك ــ وفقاً لإيستا في العالم.

فيلـــيوتا هو الذى صنع لراهيل أكثر صنارات صيدها حظاً، وعلمها هي وايستا الصيد.

وفـــي هذا اليوم السماوي الزرقة من ديسمبر، كان فيليوتا هو الذى رأتـــه من خلف نظارتها الشمسية الحمراء يحمل علماً آخر في الموكب عند الخلجان علي حدود كوتشين.

صفارات بوليس فولاذية القوة اخترقت شمسية الضجيج ومن خلال الـــثقوب المتحركة للشمسية، استطاعت راهيل أن تري قطعاً من السماء الحمـــراء وفي السماء الحمراء، حدايات حمراء مشتعلة تحوم باحثة عن فئران.

فـــي عيونها الصفراء كان هناك طريق وأعلام حمراء ترفرف في مظاهـــرة وتـــي شـــيرت أبـــيض فـــوق ظهر أسود به وحمة يسير في مظاهرة.

فـــزع، عرق ومسحوق طلق امتزجوا في صورة معجون بنفسجي بيـــن حلقـــات اللحـــم التي تطوق رقبة بيبي كوتشاما، لعاب متخثر في صـــورة كـــتل بيضاء صغيرة تجمع في ركن شدقيها، تخيلت أنها رأت رجـــلاً فـــي الموكـــب يشـــبه الصـــورة الفوتوغرافية التي في صحف الناكاليتيـــن يســـمي راجـــان والذى أشيع أنه تحرك جنوباً من بالجات، تخيلت أنه ينظر صوبها مباشرة.

رجـل يحمـل علمـا أحمر له وجه يشبه طائر الدريجة. فتح باب راهيل لأنه لم يكن محكم الإغلاق من الداخل، مدخل الباب كان مزدحماً برجال توقفوا ليحدقوا.

بعطـف سـأل الرجل الذى يشبه الدريجة راهيل بلغة المالايالام: " أتشـعرين بالحـر ، يا صغيرتي؟ ثم قال بغلظة: "إسالي دادي أن يشتري لـك تكييف هواء." وصاح مستهزئا بابتهاج لما لديه من فطنة. ردت له راهـيل الابتسامة، سعيدة لأنه أخطا وظن أن تشاكو والدها كأنهم عائلة طبيعية.

همسـت بيبـي كوتشاما بصوت أجش: "لا تجيبي! انظري لأسفل! فقط انظري لأسفل"

الـرجل ذو العلم حول انتباهه إليها، كانت تنظر لأسفل عل أرضية السيارة، مثل عروس خجولة، خائفة تزوجت من غريب.

"أهـلاً أيـتها الأخت" قال الرجل بلغة انجليزية لبقة. "ما اسمك من فضلك؟!"

عندما لم ترد بيبي كوتشاما، نظر خلفه لرفاقه في المماحكة.

"لا اسم لها."

أردف شخص أخر مقهقها "ماذا عن مودالالي مارياكوتي؟"*

شخص آخر قال بطريقة نابية، " A, B, C, D.......................X, Y, Z"

طـلاب أكـثر تزاحموا حول السيارة، كانوا جميعاً يلفون رؤوسهم بمـناديل أو بفوط يد طبع عليها "**بومباي للصباغة**" لتفهيم الشمس، كانوا يشـبهون افـراد الكومبارس الذين شتوا عن الروايات التمثيلية لسندباد بلغة المالايالام: الرحلة الأخيرة.

أهدي الرجل الذى يشبه الدريجة علمه الأحمر لبيبي كوتشاما، قال، "هاهوذا، امسكيه،"

امسـكته بيبي كوتشاما، ما زالت لا تنظر إليه، أمرها، "لوحي به". كـان لـزاما علـيها أن تلوح به، لم يكن لديها اختيار. كانت تفوح منه

---

*مودالالي تعني باللغة المالايالام القطاعي.

رائحـــة القماش الجديد، مكرمش ومترب، حاولت أن تلوح به وكأنها لم تكن تلوح به.

الآن قولي،"**Inquilab Zindabad**"

همست بيبي كوتشاما، "**Inquilab Zindabad**"

"فتاة جديدة"

صاح الحشد ضاحكا: انطلقت صافرة قوية.

قال الرجل بالإنجليزية لبيبي كوتشاما، "حسنا إذن،" كما لو كانوا قد أنهوا بنجاح صفقة تجارية.

"باي ـــ باي!"

صـــفق الـــباب السماوي اللون بعنف، ترنحت بيبي كوتشاما تناثر الحشد الذى كان قد تجمع حول السيارة ومضي مع موكبه.

لفـــت بيبي كوتشاما العلم الأحمر ووضعته علي الرف خلف المقعد الخلفي، أعادت مسبحتها إلي بلوزتها حيث كانت تضعها مع لب البطيخ الخاص بها. شغلت نفسها بهذا وذاك، محاولة حفظ ماء وجهها.

بعـــد أن مـــر آخر جمع من الرجال، قال تشاكو، "كل شئ علي ما يرام الآن وبالإمكان انزال زجاج النوافذ."

سأل تشاكو راهيل، "هل أنت متأكدة أنه هو؟"

انتبهت راهيل بغتة، وقالت، "من؟"

"هل أنت متأكدة أنه فيليوتا؟"

"هـــم م م م......؟" قالت راهيل متلاعبة بالوقت، في محاولة لحل رموز الإشارات الهائجة في تفكير ايستا.

قـــال تشاكو للمرة الثالثة، "هل أنت واثقة أن الرجل الذى رأيته كان فيليوتا؟"

قالت راهيل، "م م م م لا نعم..... لا.. لا.. تقريبا."

قال تشاكو، "هل أنت واثقة تقريبا؟"

قالت راهيل، "لا.... تقريبا كان فيليوتا. كان يشبهه تقريبا..."

"إذن أنت غير متأكدة؟"

نظرت راهيل لايستا خلسة تتلمس موافقته: "تقريبا لا."

قالــت بيبــي كوتشاما، "لابد وأنه هو، تريفاندرم هي التي فعلت به هــذا جميعهم يذهبون إلي هناك ويعودون معتقدين أنهم أصبحوا ساسه، ها، عظماء."

لم يبد أن أحداً تأثر بعمق نظرتها.

قالت بيبي كوتشاما، "لابد وأن نشدد علي مراقبته، لو أنه بادر بهذا العمل الاتحادي في المصنع.. لقد لاحظت بعض الاشارات.. قبل بضعة أيام طلبت منه أن يساعدني في نقل الصخور من أجل السرير الصخري وقد......"

قــال ايســتا بتوهج، "لقد رأيت فيليوتا في البيت قبل أن نغادر، لذا كــيف يمكن أن يكون هو؟" قالت بيبي كوتشاما بتجهم، "أتمني ألا يكون هو، رحمة به، ولا تقاطعني بعد ذلك يا إيستابن،"

تضايقت لأن أحدًا لم يسألها ماذا كانت تعني بالسرير الصخري.

فــي الأيــام اللاحقة، ركزت بيبي كوتشاما حدتها في إذلالها العام علي فيلــيوتا، شــحذته وبــرته مثل القلم الرصاص، بات في مخيلتها يرمز للمظاهرة والرجل الذى أخبرها أن تلوح بعلم الحزب الماركسي والرجل الــذى ســماها مودالالي مارياكوتي وكل الرجال الذين ضحكوا سخرية منها.

بدات تكرهه

استطاعت راهيل أن تدرك من الطريقة التي تمسك آمو بها رأسها، أنهــا لم تزل غاضبة. نظرت راهيل في ساعتها، الثانية إلا عشرة، ليس هــناك قطــار بعد ليمر، وضعت ذقنها على أسكفة النافذة، كانت تشعر بعظمــة اللــباد الــرمادية التي تتوسد زجاج النافذة ضاغطة جلد ذقنها، خلعــت نظارتهــا الشمســية لتتمكن بوضوح من رؤية الضفدعة الميتة المهروســة علي الطريق. كانت ميته تمامًا. ومهروسة. حتى أنها بدت أقرب إلي بقعة في هيئة ضفدعة.

بيقيــن مؤمن حقيقي، كان فيليا بابن قد أكد للتوأمين انه ليس هناك فــي العــالم شئ مثل القطة السوداء، قال إن في الكون ثقوب في هيئة القطة السوداء فقط.

كان هناك بقع كثيرة علي الطريق.
بقع في الكون في هيئة الآنسة ميلتن مهروسة.
بقع في الكون في هيئة ضفدعه مهروسة.
غـربان مهروسة في الكون كانت قد حاولت أن تأكل بقعاً في هيئة ضفادع مهروسة.
ريش، ثمار مانجو، لعاب علي طول الطريق الي كوتشين.
سـطعت الشـمس عـبر نافذة البليموث مباشرة علي راهيل، أغمضت عينـيها، وعـادت تسـطع عليها حتى خلف جفنيها، كان الضوء لامعا ساخنا، كانـت السـماء برتقالـية، وكان شجر جوز الهند مثل شقائق الـنعمان الذى يلوح بشعيراته آملاً أن يصطاد سحابة آمنة ليأكلها، ثعبان شـفاف تعلـوه بقع، له لسان مفروق كالشوكة يطفو بعرض السماء، ثم جـندي رومانـي شـفاف يركـب حصاناً مبقعاً، أغرب ما في الجنود الرومانيين فـي الروايات الكوميدية، وفقا لراهيل، كان مقدار الإرهاق الـذى يصـيبهم من جراء دروعهم وخوذاتهم. ثم بعد كل هذا يتركون أرجلهـم عارية، بلا إحساس تماماً، سواء كانوا مدركين لتقلبات الطقس أم لا.
حكـت لهـم آمـو قصة يوليوس قيصر، وكيف أن الذى طعنه هو أعز أصدقائه، في مجلس الشيوخ وكيف أنه سقط علي الأرض والخناجر في ظهـره وقـال، "حتى أنت يا بروتاس؟" ثم سقط قيصر. قالت آمو، "هذا يوضـح لكما أنكما لا تستطيعان الوثوق بأي إنسان، أم، أب، أخ، زوج صديق حميم، لا أحد."
قالـت (عـندما سألاها) هذا لم يتبين بعد مع الأطفال، قالت إنه من الممكـن جـداً علي سبيل المثال ــ أن يكبر إيستا ويصبح ذكر خنزير شيفوني.
فـي اللـيل، كـان إيستا يقف علي سريرة وهو يلف نفسه بملاءته ويقول، حتى أنت يابروتاس؟ ثم يسقط قيصر"! ويرتمي مرتطماً بسريره دون أن يثني ركبتيه، كأنه بالفعل جثة صرعتها الطعنات. كوتشو ماريا التـي تـنام علي الأرضية فوق حصيرة، كانت تقول إنها سوف تشكو لماماتشـي. كانـت تقـول، "قولا لأمكما أن تأخذكما إلي منزل أبيكما،

وهناك تستطيعان تحطيم أي عدد تريدان من الأسرة هذه ليست أسرتكما، هذا ليس بيتكما."

كان ايستا ينهض من موته، يقف علي سريره ويقول، "حتى أنت؟ يا كوتشوماريا؟ ثم يسقط ايستا!" ويموت ثانية.

كانت كوتشوماريا واثقة أن عبارة حتى أنت؟ **Et toi** عبارة بذيئة بالإنجليزية، وكانت تنتظر فرصة مناسبة لتشكو ايستا إلي ماماتشي.

كانت المرأة في السيارة المجاورة تقضم قطعاً من البسكويت في فمها، كان لدي زوجها ميل نحو تدخين سيجارة بعد البسكويت، زفر خطين من الدخان من فتحتي أنفه. وللحظة خاطفة بدا وكأنه يشبه خنزيرا بريا. سألت مدام خنزير راهيل عن اسمها بصوت طفولي، تجاهلتها راهيل وأخذت تنفخ فقاقيع لعاب غير مقصودة. كانت أمو تكره أن تراهما ينفخان فقاقيع اللعاب. كانت تقول إن هذا يذكرهما ببابا — أبوهما — قالت إنه كان معتادا نفخ فقاقيع اللعاب ورعش رجليه.

ووفقا لأمو، فالمستخدمين فقط هم الذين يمارسون هذا السلوك وليس الارستقراطيين.

الأرستقراطيون أناس لا ينفخون فقاقيع اللعاب ولا يرعشون أرجلهم، أو يغرغرون مثل الديوك الرومي.

ورغم أن بابا لم يكن مستخدما، إلا أن أمو قالت إنه كان يمارس هذا السلوك.

كان إيستا وراهيل يمثلان دوري مستخدمين وهما وحدهما، كانا ينفخان فقاقيع اللعاب ويرعشان أرجلهما ويغرغران مثل الديوك الرومي، تذكرا أباهما الذى عرفاه بين الحروب، ذات مرة أعطاهما نفسا من سيجارته وانزعج لأنهما مصاها وبللا فلترها بلعابهما قال بغضب "إنها ليست حلوي حمراء!"

تذكرا غضبه وكذا غضب أمو. تذكرا أنهما كانا يُدفعان في الغرفة ذات مرة من آمو لبابا إلي أمو إلي بابا كأنهما كرات بلياردو. قالت آمو وهي تدفع ايستا بعيدا، "خذه، عليك أن تقوم بتربية أحدهما لا أستطيع الاعتناء بكليهما." فيما بعد عندما كان ايستا يسأل آمو عن هذا، كانت تضمه إلي صدرها وتنصحه بالا يتخيل مثل هذه الأشياء.

في الصورة الوحيدة التي شاهداها له (التي سمحت امو لهما بمشاهدتها ذات مرة)، كان يرتدي تي شيرت أبيض ونظارة، كان يبدو مثل لاعب كريكت ماهر وأنيق. كان يمسك إيستا علي كتفة بإحدي ذراعيه، كان إيستا يبتسم ويضم راهيل إليه بذراعه الأخري، كانت تبدو منزعجة وعصبية من جراء رجليها الطفولتين المدلاتين، شخص ما كان قد لون خدودهما بنقط وردية.

قالت آمو إنه كان يجملهما فقط من أجل التقاط الصورة. وفيما عدا ذلك كان ثملا حتى أنها كانت ترتعد مخافة أن يسقطهما أرضا، قالت آمو أنها كانت واقفة خارج الصورة تماما، متحفزة للإمساك بهما إذا اسقطهما، ما زال ايستا وراهيل يعتقدان أنها صورة جميلة لو لا خدودهما.

"ألا تكفين عن هذا!" قالت آمو بصوت عال حتى أن موليداران الذى كان قد وثب بعيدًا عن الصورة ليحدق خارج السيارة، تراجع للخلف بقدمين ترتجفان فزعا.

"ماذا؟" قالت راهيل، لكنها عرفت علي الفور ماذا. فقاقيع لعابها. "آسفة يا أمو." قال ايستا، "أسف لا تعيد الميت للحياة."

قال تشاكو، "آه هيت لك! ليس بإمكانك فرض وصاية علي ما تفعله بلعابها!"

نهرته أمو قائلة، ما شأنك وهذا."

إيستا بحكمته فسر الأمر لتشاكو قائلاً، "إن هذا ينبش الذكريات."

ارتدت راهيل نظارتها، أصبح العالم غاضب اللون.

قالت آمو، "اخلعي هذه النظارة المضحكة!"

خلعت راهيل نظارتها المضحكة.

قال تشاكو، "من الفاشية أن تعاملي طفليك بهذه الطريقة، بالله عليك، حتى الأطفال لهم بعض الحقوق!"

قالت بيبى كوتشاما، "لا تستخدم اسم الله هباء". قال تشاكو، "ليس هباء إنني استخدمه في أمر هام للغاية."

قالت آمو، "كف عن التظاهر بأنك مخلص الأطفال العظيم، عند الانصراف إلى الأمور المهمة لا تبالي بهما أو بي.

قـــال تشـــاكو، "أولزاما علي؟ أهما مسئوليتي؟" قال، إن آمو وإيستا وراهيل ثقل من الحجارة في عنقه ينوء بحمله."

صـــارت مؤخــرة رجلـــي راهيل مبللة بالعرق، انزلق جلدها علي الجلـــد المـــنجد بالاســـفنج بمقعد السيارة كانت وايستا يعرفان عن ثقل الأحجـــار في التمرد علي النعمة **Muting on the Bounty**، عندما كانت الناس تموت في البحر، كانوا يلفون في ملاءات بيضـاء ثم يلقي بهم في الــبحر بعد ربط ثقل حجري حول أعناقهم حتى لا تطفو جثثهم، لم يكن إيســتا واثقاً من عدد الأثقال الحجرية التي يقررون أخذها معهم قبل بدأ رحلتهم البحرية.

كان ايستا يضيع رأسه في حجرة.

نفشة شعره كانت تفسد.

تســـرب دوي قطــــار من بعيد. من الطريق المبقع بالضفادع، بدأت أوراق الـــيام علي جانبي شريط السكة الحديد، تومئ متمايلة معلنة عن موافقة عامة. نعم نعم نعم نعم.

بدأ الحجاج ذوو الرؤوس الصلعاء حجا آخر في بينامول.

قالـــت بيبي كوتشاما بورع، "أعرفكم إن هؤلاء الهندوس ليس لديهم أي إحساس بالخصوصية؟"

قـــال تشاكو ساخراً، "إن لهم قروناً وبشرة محرشفة، لقد سمعت أن أبناءهم يفقسون من البيض،"

كـــان لراهـــيل نـــتوءان في جبهتها، قال عنها ايستا إنهما سيكبران ويصبحان قرنين. علي الأقل أحدهما

سيصـــبح قـــرناً لأنها نصف هندوسية، لم تكن سريعة البديهة بما يكفي لتسأله عن قرنه هو، لأنه نصف هندوسي أيضًا.

مـــر القطـــار مدويًا بصخبه تحت عمود كثيف من الدخان الأسود، اثـــنان وثلاثون عربة مرت، كانت مداخل الأبواب مزدحمة بشباب لهم قصـــات شـــعر تشبه الخوذات، كانوا في طريقهم إلي حافة العالم ليروا مـــاذا حـــدث للذين سقطوا. بعضهم ممن تطاولوا بأعناقهم ليروا سقطوا أيضاً من علي الحافة في ظلام مدو فانقلبت قصات شعورهم رأسا علي عقب.

مضـــي القطـــار ســـريعاً حتى أنه كان من الصعب أن تتخيل أن الجمـــيع انتظروا وقتاً طويلاً من أجل لحظات قصيرة، ظلت أوراق اليام تومـــئ متمايلة لفترة طويلة بعد مرور القطار، كما لو كانت توافق تماماً وليس لديها من شك علي الاطلاق.

هـــوت بطانية مهلهلة من غبار الفحم مثل نعمة قذرة، وبرقة طوقت المرور المنتظر.

أدار تشاكو محرك البليموث، حاولت بيبي كوتشاما أن تبدو مرحة، فبادرت بأغنية:

هناك نوع حزين من الطنين
يأتي من ساعة الحائط في الصالة
والأجراس في منارة الكنيسة.
طائر صغير.
مضحك.
جحظت عيناه ليقول،

نظرت لإيستا وراهيل، منتظرة أن يقولا "**كوكو**".

لم يفعلا.

هب نسيم شديد مع تحرك السيارة، تطايرت الأشجار الخضراء وأعمدة الهاتف عبر النافذة لم تزل الطيور تتزلق علي الأسلاك المتحركة، كأنها أمتعة في المطار لا صاحب لها.

تدلـــي قمـــر نهاري شاحب في السماء ومضي حيث مضوا، كان ضخماً بحجم بطن رجل يداوم علي احتساء البيرة.

-3-

لالنين الرجل الكبير.

مومباتي الرجل الصغير.

ضــربت القــذارة حصـــارا على منزل أيمينيم كأنها جيش من جيوش العصور الوسطي يرحف على قلعة عدو. تكتلت في كل شيء وتجمدت ملتصقة بزجاج النوافذ.

كــان الذبــاب يطــن في أباريق الشاي. حشرات ميتة ترتمي في المزهــريات الخاويــة.المفصلات، ومقابض الأبواب النحاسية صارت كئيــبة وملوثــة بالشـــحم بحيث لا يمكن لمسها. نادرا ما كانت فوهات الخراطــيم المســتخدمة تسد بواسطة القاذورات المتراكمة.كانت لمبات الإضـــاءة مغطـــاة بغشـــاء من الزيت. الأشياء الوحيدة التي ظلت براقة كانــت الصراصــير العملاقة التي تنطلق في محيط المكان وكأنها ثنايا لامعة في شريط عرض سيمائي.

توقفــت بيبــي كوتشـــاما عن ملاحظة هذه الأشياء منذ زمن بعيد. كوتشوماريا التي لاحظت كل شيء كفت عن الاهتمام والعناية.

الشـــيزلونج الذى تضجع عليه بيبى كوتشاما كان متسخا بنثار قشر الفستق الذى كان يحشو شقوق تتجيده انبالي.

بحركة واعية نتجت عن ديمقراطية فرضتها مشاهدة التلفزيون كان كلا مــن الســيدة وخادمـــتها ينبشان فى نفس طبق الفستق دون النظر إليه. كوتشـــو ماريـــا كانت تقذف حبات الفستق فى فمها. بينما بيبي كوتشاما تضعها فى فمها بتأنق مؤدب.

فـــي برنامج **أجمل ما فى دوناهو** ***BEST OF DONAHUE*** كان جمهور الأستوديو يشاهد جزء من الفيلم فيه كان مغنى أسود يغنى أغنية بعــنوان فـــى مكـــان ما فوق قزح فى محطة لمترو الأنفاق. كان يغنى بجديـــة شـــديدة، كأنه يصدق كلمات الأغنية. بيبى كوتشاما كانت تغنى

معه. صوتها الرفيع المتهدج وقد أغلظه معجون الفستق الذى فى فمها.تبتسم إذ تعاودها الأغاني ثانية.نظرت إليها كوتشوماري وكأنها قد جنت، وكبشت نصيبا أكبر من حقها في الفستق. ألقى المغنى برأسه للوراء عندما عُزفت النغمات العالية (حيث مكان ما). وملأ سقف فمه المحرشف ذا اللون الوردي شاشة التلفزيون كان حشناً مسننا مثل نجمة صخرية، لكن سنته الساقطة وشحوب بشرته المرضى، كانا يتحدثا ببلاغة عن حياة من الحرمان واليأس. كان عليه أن يوقف الغناء فى كل مرة يأتي فيها القطار أو يرحل، وكثيرا ما كان يحدث.

ثم، ارتفعت الأضواء فى الأستوديو وقدم دوناهو نفس الرجل، الذى بدا، بإشارة متدفق عليها، الغناء ثانية بالضبط من نفس النقطة التى اضطر للتوقف عندها (بسبب انقطار) ــ بمهارة محققا نصرا للغناء على المترو.

فى المرة التالية، فيل دوناهو هو الوحيد الذى قاطع المغنى عندما وضع ذراعه حوله وقال، "شكرا لك. شكرا جزيلا."

أن يقاطعه فيل دوناهو فهذا بالتأكيد مختلف تماما عن أن يقاطعه دوى قطار المترو. مقاطعة دوناهو له تمثل مجداً، سعادة.

بدا الجمهور متعاطفا معه وصفق له.

بدا المغنى متوهجا وهو فى أوج سعادته، وللحظات قليلة، تراجع الحرمان إلى الوراء. فقد كان حلمه على حد قوله أن يغنى فى دوناهوشو غير مدركا أنه قد سُلب لتوه من ذلك أيضا.

هناك أحلام كبيرة، وأخرى ضئيلة. والرجل الكبير الصاحب لاتين، الرجل الكبير الموميانى، هكذا اعتاد عامل عجوز من بيهارى، كان يقابل المشتركين فى رحلة مدرسة إيستا فى محطة القطار (عام بعد أخر دون انقطاع) أن يقول عن الأحلام.

الرجل الكبير المنارة. الرجل الصغير عصاة الشحم.

الرجل الهائل الأضواء المتواترة، تراجع ليقول. والرجل الضئيل محطته مترو الأنفاق.

لاتين الرجل الكبير، مومباي الرجل الصغير.

كـــان المدرســـون يساومونه عندما كان يمشى متثاقلاً خلفهم حاملاً أمـــتعة الطلاب، رجلا المقوستان تزداد تقوساً، تلاميذ المدرسة الشرسين كانوا يقلدون مشيته. كانوا يقولون خصيتان بين الأقواس.

كـــان ينســـى تماماً ليقول، أصغر الرجال أوردة مصابة بالدوالي، عندما يتقلقل بعيداً بنصف الأجر الذي طلبه وأقل من عشر ما يستحقه.

بالخـــارج توقف المطر. تخثرت السماء الرمادية، وتفتت الغيم إلي كتل صغيرة، كأنه نوع رديء من حشو المراتب.

ظهـــر إيســـتابن على باب المطبخ، مبللاً (أكثر حكمة من حقيقته). خلفـــه كـــان العشب الطويل يلمع. الكلب الصغير يقف إلى جواره على درجات المدخل.قطرات المطر تنزلق في القاع المقوس للميزاب الصدئ على حافة السطح، كأنها حبات خرز براقة على محيط تاج.

رفعت بيبى كوتشاما عينيها عن التلفزيون.

"هـــا هـــو قادم" أعلنت لراهيل، وهى غير مهتمة بخفض صوتها. شـــاهدى الآن. لن يقول أي شئ. سوف يمضى مباشرةً لغرفته. شاهدي فقط!"

انتهز صغير الكلب الفرصة، وحاول أن يتدبر دخولاً بصحبته إيستا بعـــنف ضربت كوتشو ماريا الأرض بكفيها، وقالت، "هب! هب! بوداا باتى!"

لذا تراجع الكلب بهدوء. بدا وكأنه معتاداً على هذا الروتين.

قالـــت بيبـــي كوتشـــاما وقـــد بدت مثارة،" شاهدي! سوف يمضى مباشرة صوب غرفته ويغسل ملابسه. إنه مفرط في النظافة... لن يقول كلمة!"

كـــان يعـــتريها سيماء مراقبة صيد، يشير إلى حيوان في العشب. مفتخرة بقدرتها على التنبؤ بحركاته. بمعرفتها الفائقة بعاداته وميوله.

شعر إيستا كان يلتصق أملس في خصلات، كأنه أوراق مقلوبة في زهـــرة. يتخلـــله شقوق تظهر بياض فروته. خطوط مائية تجرى أسفل وجهه ورقبته.مضى إلى غرفته.

ظهرت هالة تشفٍ حول رأس بيبى كوتشاما. قالت، "أرأيت؟"

انـــتهزت كوتشـــو ماريا الفرصة لتغيير القنوات ومشاهدة لقطة من أجساد أصلية.

تبعت راهيل إيستا إلى غرفته. التى كانت ذات مرة غرفة آمو.

كانـــت الغــرفة تــنطوي علـــى أسراره. لا تفشى شيئا. لا فى فوضى مــلاءات منعكشـــة، ولا فى الإهمال الذى يٌخلع به حذاء، أو فى منشفة مــبللة غلقــت علـــى ظهر كرسي. أو كتب نصف مقروءة. كانت تشبه غـــرفة فـــى مستشـــفى كانت الممرضة قد رتبتها تواً. الحوائط بيضاء، الأرضية نظيفة. الدولاب مُغلق. الأحذية مرتبة. سلة المهملات فارغة.

كانـــت نظافة الغرفة مثيرة للإعجاب هي العلامة الإيجابية الوحيدة من إيستا على الإرادة. الافتراض الباهت الوحيد أن لديه، ربما، تصميم حياتي ما.فقط، إفضاء بامتناع عن العيش على ما يقدمه له الاخرون من فـــتات. على الحائط بجوار النافذة، كانت هناك مكواة، وترابيزة مكواة. كومة من الملابس المكرمشة المطوية تنتظر الكي.

كان الصمت يتدلى فى الهواء كأنه حيرة خفية.

الأشباح المفزعة للدمى التى لا يمكن أن تُنسى تجمعت على خوّص مروحة السقف. منجنيق. دب أسترالي صغير (من الأنسة ميتن) سقطت أزرار عينـــيه. إوزة مطاطية كانت تُنفخ (التى قد فجرتها سيجارة رجل بولـــيس). قلمـــان عليهما مناظر ساكنة لشوارع تطفو عليها ــ باصات لندن الحمراء جيئة وذهاباً.

فـــتح إيستا الصنبور، وسال الماء مقرقعا فى الدلو البلاستيكي. كان عاريـــا فى الحمام المضاء. خلع نفسه من بنطاله الجينز المبلل. متصلباً. غـــامق الـــزرقة. مـــن الصعب خلعه. سحب تى-شيرت بلون الفراولة المهروســـة الـــذى يصـــطبغ بـــه علـــى رأسه.مرٌ بذراعيه الذكوريتين الملفوفتين الناعمتين على جسده. لم يسمع أخته وهى على الباب.

شـــاهدت راهـــيل بطنه وهى تسقط للداخل، وقفصه الصدرى يعلو كلمـــا قشـــر الـــــ تى-شيرت المبلل عن جسده، تاركاً إياه مبللا وبلون العســـل. وجهـــه ورقبته، والمثلث الذى أخذ شكل Vعند قاعدة حنجرته، كـــانوا أغمق من بقية جسده. ذراعاه أيضا كانتا ذات لون ككككككككك.

أكثر شحوبا عند انتهاء أكمام الـ تي ـ شيرت. رجل بني غامق في ملابس شاحبة بلون الغسل. صياد سمك في حمام مبلط بالأبيض، بأسرار بحر في عينيه. أوقد رآها؟ هل هو حقا مجنون؟ أكان يعرف أنها هناك؟

لم يكن لديهما مطلقا شعور بالخجل تجاه جسديهما. لم يشعر أيهما مُطلقا بالخجل من جسد الأخر. غير أنهما لم يكونا كبارا بما يكفي (معا) ليعرفا معنى الخجل.

الآن كبار بما يكفي.

كبار.

في عمر قابل للموت.

كم كانت كلمة كبار مضحكة في ذاتها، تأملت راهيل، وقالتها لنفسها: "كبـــار."

راهيل على باب الحمام. ضامرة الردفين. (قال طبيب نساء ثمل لزوجها بينما كانا في انتظار باقي نقوده في محطة الغاز، "أخبرها انها سوف تحتاج عملية قيصرية".) سحلية فوق خريطة على تي ـ شيرتها الباهت. شعر بري طويل تضمخه لمعة حمراء من الحناء، يرسل خصلات جامحة أسفل مستدق ظهرها. الماسة تومض على فتحة أنفها. أحيانا. وأحيانا لا. رؤوس ثعابين رفيعة ذهبية تبرق كأنها طوق برتقالي حول معصمها. ثعابين رفيعة تتهامس، رأسا في رأس. خاتم زواج أمها المصهور. الخطوط الحادة في ذراعيها الرفيعتين تلين لأسفل.

للوهلة الأولى بدت وقد أخذت لون بشرة أمها. عالية كانت عظام وجنتيها. غمازات عميقة تظهر عندما تبتسم. كانت أطول، أكثر صلابة، ورقة، أكثر نحولة من امو. أقل جمالا، ربما بالنسبة لهؤلاء الذين يحبون الاستدارة والليونة في النساء. عيناها فقط كانتا بلا جدال أكثر جمالا. واسعتان، براقتان. مُغرقتان، كما قال لاري ماك كاسلين واكتشف لبليته.

لالتين الرجل الكبير، مومباتي الرجل الصغير.

تفحصت راهيل عري أخيها بحثا عن علامات تخصها. في شكل ركبتيه. تقوس ظاهر قدميه. انحدار كتفيه. الزاوية التي يتماس عندها مرفقه وبقية ذراعه. الطريقة التي تميل بها أظافر قدميه للأمام عند الأطراف. الفجوات المنحوتة على الجانبين أعلى فخذيه المشدودين الرائعتين. ثمار خوخ يانعة. أرداف الرجال لا تنمو مطلقا. مثل الحقائب المدرسية التي تبعث ذكريات لحظية من الطفولة. علامتي تطعيم الجدري تلمعان على ذراعيه كأنما عملات معدنية،علامتيها كانتا على فخذيها.

علامات التطعيم في البنات دائما تكون على الفخذين، هكذا اعتادت امو أن تقول

كانت راهيل تتفحص إيستا بفضول أم تتفحص ابنها البليل. أخت أخ. امرأة رجل. توأمة توأم.

طيرت هذه الطيارات الورقية العديدة معاً في لحظة واحدة.

كان غريب عار قابلته في لقاء عارض. كان الشخص الذي عرفته قبل بدء الحياة. الشخص الذي قاد (سباحتها) عبر فرج أمها الجميل.

كلا الشيئين لا يمكن احتمال تقاطبهما. لا يمكن احتمال تباعدهما الشاسع الخصامي.

برقت قطرة مطر على طرف شحمة أذن إيستا. كثيفة، فضية في الضوء، مثل حبة زئبق ثقيلة. مدت يدها لمستها. أزاحتها بعيدا.

لم ينظر إيستا إليها. تراجع متقوقعا في استكانة أعمق. كما لو أن لجسده القوة على اختطاف حواسه للداخل (معقودة على شكل بيضة)، بعيدا عن سطح جلده كهف ما أكثر عمقا واستغلاقا على الدخول.لملم الصمت أطرافه وانزلق، كأنه امرأة عنكبوتية، أعلى حائط الحمام الزلق.

وضع إيستا ملابسه المبللة في دلو وبدأ في غسلها بصابون أزرق مفتت براق.

-4-

أبهيلاش توكيز

أعلنـــت أبهــيلاش توكــيز عن نفسها كأول صالة عرض سينمائي في كــيرالا بشاشـــة 70 مليمتر سكوب. ولتبلغ جوهر المسالة، فقد صممت واجهــتها على هيئة طبقة أسمنتية لها شاشة سينما سكوب منحنية. على قمــتها (كــتابة أســمنتية، إضـــاءة نـــيون تقول أبهيلاش توكيز باللغة الإنجلـيزية واللغـــة المالايــالام. كتــب على الحمامات للرجال **HIS** والســيدات **HERS. HERS**. لآمــو، راهيل وبيبى كوتشاما. **HIS** (حمامات الرجال) لإيستا فقط، لأن تشاكو كان قد ذهب ليتابع إجراءات الحجز في فندق ملكة البحر Sea Queen.

قالت أمو باضطراب، "هل ستكون على ما يرام؟"

أوما إيستا موافقًا

كانت راهيل تتبع أمو وبيبى كوتشاما إلى حمام السيدات **HERS**، عــبر الــباب الأحمر الفورمايكا الذي ينغلق ذاتيًا ببطء. استدارت لتلوح بيديها عبر الأرضية الملساء، المرمرية لإيستا وحده (ومعه مشط)، وهو يرتدى حذاءه البيجى المدبب. انتظر إيستا بمفرده مع المرايا التي تراقبه حــتى أخذ الباب الأحمر أخته بعيدًا للداخل. حينئذ استدار وخطا صوب حمامات الرجال **HIS**.

فـــي حمام السيدات، اقترحت آمو على راهيل ألا تجلس، وتتوازن فـــي الهـــواء لتبول. قالت إن المراحيض العامة قذرة. مثل أوراق النقد. فأنـــت لا تعرفيـــن مطلقـــا مـــن الـــذي لمسها. المجزومين. الجزارين. ميكانيكي السيارات. (قيح. دم. شحم).

عـــندما أخذتها كوتشوماريا إلى الجزار، ذات مرة، لاحظت راهيل ورقـــة الـــنقد فئة الخمس روبيات التي أعطاها لها. كان عليها نطفة من -

اللحـــم الأحمر. أزالت كوتشوماريا النطفة بإبهامها. تركت العصارة بقعة حمراء. وضعت الورقة في ستيانها. نقود تفوح برائحة دم اللحم.

كانـــت راهيل قصيرة بحيث لا تستطيع أن تتوازن دون أن تجلس علـــى قـــاعدة الحمـــام، لذا قامت آمو وبيبي كوتشاما بمساعدتها، تعلقت رجـــلا راهـــيل على أذرعهما. لقدميها أصابع كأصابع أقدام الحمام في صـــندل من إنتاج باتا معلقة في الهواء بعد أن أنزلت سروالها التحتاني. لا شـــئ حدث للحظة، نظرت راهيل لأعلى صوب أمها عمتها الكبرى بعلامات استفهام شقية "الآن ماذا؟"سألت عينيها.

قالت آمو، "هيا، سسسسسس..."

سسسسسسسسسسس لصوت السو ـــ سو. إممممممممممممم لصوت الميووووزيك.

قهقهت راهيل. قهقهت آمو. قهقهت بيبي كوتشاما. عندما بدأ سيلان المـــاء، قامـــتا بتعديل وضعها الهوائي. لم تكن راهيل متحرجة. انتهت وأمسكت آمو بورق التواليت.

قالت بيبي كوتشاما لآمو، "أنت أم أنا؟"

"كما تفضلين"، قالت آمو.

"تفضلي أنت".

أمســكت راهـــيل حقيـــبة يدهـــا. رفعت بيبي كوتشاما ساريها ذا الكرانـــيش. تفحصـــت راهـــيل رجل عمتها الكبرى الهائلتين. (بعد ذلك بســنوات وأثـــناء قراءة درس للتاريخ في المدرسة ـــ كان للإمبراطور بابور بشرة قمحية اللون وفخذين على هيئة عمودان ـــ كان هذا المشهد أمـــام عينيها. توازنت بيبي كوتشاما على قاعدة الكبينيه دون أن تلمسها كأنهـــا طائـــر ضخم فوق إصيص من الفخار. أوردة زرقاء مثل جدائل مغـــزولة تجـــري أعلـــى مقـــدم ساقيها الشفافتين. ركبتان سمينتان بهما غمـــازات. مكســـوتان بالشـــعر. قدمان واهنتان ضئيلتان لرفع كل هذا الـــثقل!) انـــتظرت بيبـــي كوتشاما لنصف لحظة. برأس متحفز للأمام. ابتسامة حمقاء. صدر يتأرجح لأسفل. لب بطيخ في بلوزة. مقعدة لأعلى وللخـــارج. عـــندما بـــدأ صوت فوران وكركرة الماء، أنصتت بعينيها. جدول ماء أصفر يصدر خريره من خلال ممر جبلي.

كانت راهيل تحب هذا كله. إمساك شنطة اليد. كل واحد يبول امام الآخـــر. مثل أصدقاء. لم تكن، حينئذ، تعرف شيئًا عن مدى روعة هذا الشـعور. مـثل أصدقاء. لن يجتمعوا معًا بهذا الشكل ثانية. آمو، بيبي كوتشاما وهي.

عـندما انتهـت بيبي كوتشاما، نظرت راهيل في ساعتها. وقالت، "بيبي كوتشاما. لقد أخذت وقتًا طويلا، الساعة الآن الثانية إلا عشرة."

رابا ــ داب داب (سرحت راهيل)،
ثلاثة نساء في حمام
تلكأ لبرهة يُقال بطئ (Slow)

كانت تعتقد أن بطئ (Slow) اسم لشخص ما. سلوكوتين. سلوكوتي.

رابا ــ داب داب. قرع الطبول.

سلو مول. سلو كوتشاما.

سـلو كوتــي. فاست فرجيس. آند كورياكوس. ثالثة اخوة مرضى بقشر الشعر.

تبولــت آمـو بهمـس. علـى جانب التواليت حتى أنك لم تستطع سماعها.

صرامة أبيها كانت قد غادرت عينيها، وكانت عينا آمو ثانية عندما تبتسـم يبزغ لها غمازتين عميقتين، ولم تعد تبدو غاضبة. بسبب فيليوتا أو فقاعات اللعاب.

تلك كانت علامة خير.

إيستا وحده كان في الحمام الرجالي HIS؛ لزامًا عليه أن يبول علي كـريات النفثالين وأعقاب السجائر في المبولة. من الهزيمة أن يتبول في التواليـت. وكـان قصيرًا جدًا بحيث لا يستطيع التبول في المبولة. كان بحاجة لارتفاع يقف عليه. بحث عنه؛ وفي أحد أركان الحمام الرجالي؛ وجـده. مكنسـة قذرة؛ زجاجة شربات ممتلئة حتى نصفها بسائل لبني (فينـيل) تطفـو علـيه أشـياء سوداء بداخلها. ممسحة أرضيات هشة؛ وعلبتيـن صـدئتين فارغتين. ربما كانت العلبتان من منتجات مخللات

الجـنة. قطـع أناناس في مشروب ؛ أو شرائح أناناس. شعوره بالمجد تجـدد بعلب منتجات جدته؛ إيستا وحده نظم العلب الصدئة الفارغة أمام المـبولة. وقـف فوقهـا، إحدى قدميه على علبة والثانية على الأخرى، وتـبول بحـذر، بأقل قدر من التذبذب. مثل رجل. أعقاب السجائر التي كانـت مـبللة فـيما قبل، صارت مبللة الآن، وتمور مع تدفق الماء في المـبولة. مـن الصـعب إشـعالها. عندما انتهي، نقل إيستا العلب الي الحوض أمام المرآة. غسل يديه وبلل شعره. ثم شعر بالتقزم حيال حجم مشـط آمـون الـذي كان ضخمًا بالنسبة له، أعاد تصفيف نفشة شعره بعـناية. مشطه للخلف، ثم سحبة للأمام وفي النهاية هزة يمينًا ويسارًا. أعـاد المشـط إلـي جيـبه. نزل من علي العلب الصفيح وأعادها مع الـزجاجة والممسـحة والقشـة. انحنى لهم جميعًا. المجموعة بأسرها. الزجاجة، المقشة، ممسحة الأرضيات الهشة.

"انحـناءة،" قـال، وابتسـم، لأنه حينما كان أصغر من ذلك، كان يعـتريه انطـباع يُقـر بحتمية أن تقول، "انحناءة"، عندما تنحني محييًا. حتمـية أن تقولها هو أن تفعلها. كانوا يقولون، "انحني محييًا، يا إيستا." وكـان ينحنـي ويقـول، "انحـناءة" وكـانوا ينظرون لبعضهم البعض ويضحكون، بينما ينتابه القلق.

إيستا وحده ذو الأسنان غير المستوية.

بالخـارج، انـتظر أمه، أخته، وبيبى كوتشاما عمته الكبرى. عندما خرجوا، قالت آمو، "أوكاي إيستابن؟"

رد أيسـتا، "أوكاي،" وهز رأسه بحرص حتى يحافظ علي تصفيفة نفشة شعره.

أوكـاي؟ أوكاي؟ أعاد المشط ألي حقيبتها. شعرت آمون بمسة حب مفاجئة تجاه ابنها الصغير المتحفظ المبجل الذي يرتدي حذاءه البيجـي المدبـب. الذي قد أنجز لتوه أولي مهامه البالغة. فمررت أصابع حنونة في شعره. مما أفسد تصفيفة شعره.

قـال الـرجل ذا البطارية المعدنية الـ "إيفر ريدي" أن العرض قد بـدأ، كي يسرعوا. كان عليهم أن يسرعوا صاعدين الدرجات الحمراء المغطاة بالسجادة الحمراء القديمة. درابزين أحمر. بقع لعاب حمراء في

الركــن الأحمـــر. عصر الرجل ذا البطارية قضيبه وثناه تحت خصيته، علـــي الناحية اليسرى. أثناء صعوده، تصلبت عضلات ساقه تحت جلده المتسـلق كأنهـا قذائف رهيبة كان يمسك البطارية بيده اليمني. مهرولا بعقله.

"لقد بدأ منذ وقت طويل"، قال.

لهـذا، فقـد فاتــتهم البداية، فاتتهم الستارة القطنية المتموجة وهي تــرتفع، مع مصابيح الإضاءة. في عنا قيد_الشراشيب الصفراء. لأعلي بـبطء، حيـث الموسـيقي يعزف مشية صغير الفيل **Elephant Walk** مـن هاتــاري **Hatari** أو مظاهــرة الكولونيل بوجي **Colonel Bogey's March**

أمسـكت آمـو يد إيستا. وأمسكت بيبي كوتشاما أثناء صعودها يد راهـيل. كانت بيبي كوتشاما المثقلة بـ "لب" البطيخ، لا تعترف لنفسها أنهـا تتطلع لمشاهدة العرض. كانت تفضل الشعور بأنها تفعل هذا فقط لأجـل الأطفال. كانت تحتفظ في عقلها بتقييم مرتب مفصل للأشياء التي قد فعلتها لأجل الآخرين والأشياء التي لم يفعلها الآخرون لأجلها.

كانــت تتماهى في عشق أدوار الراهبة القديمة، وتأمل عدم لسيانهم لتلك الأدوار. وضحت آمو لإيستا وراهيل أن الناس دائمًا يحبون جدًا ما يقـترنون بـه أكـثر. تصورت راهيل أنها تقترن أكثر بـ "كريستوفر بلامـر" الـذي لعـب دور كابتن فون تراب*. لم يكن تشاكو ليقترن به مطلقا وأطلق عليه كابتن فون المتحذلق.

راهـيل كانــت تشبه بعوضة مشدوهة علي مقود. تتطاير. لا وزن لها. صاعدة درجتين. هابطة مثلهما. صعدت سلسلة من خمسة دراجات حمراء في مقابل درجة صعود واحدة من بيبي كوتشاما.

أنا بوبي البحار	**دام دام**
أعيش في كارافان	**دام دام**
افتح الباب	

* أحد أفراد جمعية رهبانية مسيحية كاثوليكية لا يتكلم أبدًا ويعيش حياة قاسية. (المترجم).

واسقط علي الأرض
أنا بوبي البحار دام دام
لأعلي درجتين. لأسفل درجتين.
لأعلي واحدة. قفز أقفز.

"راهيل"، قالت آمو، "لعلك لم تتعلمي درسك بعد. أليس كذلك؟"
لقد فعلت راهيل:

الدهشة دائمًا تؤدي إلى الدموع. دام دام

وصـــلوا ردهة دائرة الأميرة. مروا بكنتين المرطبات. حيث كانت عصائر البرتقال تنتظر. وكذا تنتظر مشروبات الليمون. والبرتقال أيضًا بـرتقال. واللــيمون أيضًــا ليمون. والشيكولاتة كذلك ذائبة. فتح رجل الــبطارية الــباب الثقيل لردهة دائرة الأميرة علي طنين مروحة، عتمة تمضــغ الفــول الســوداني. كانت تنضح برائحة أنفاس الناس وزيوت الشــعر. وســجادات قديمــة. رائحة سحرية *لصوت الموسيقى* تذكرته راهيل واكتنزته في عقلها، وعبأته في زجاجة بعيدًا للأجيال القادمة.

كان إيستا يحمل التذاكر. رجل ضئيل. كان يعيش في كارافان.
دام دام.

صــوب رجــل البطارية ضوء بطاريته على التذاكر وردية اللون. صف رقم J مقاعد 20,19,18,17 إيستا، آمو، راهيل، بيبي كوتشاما. حشــروا أجســادهم مرورًا بأناس منفعلين يحركون أرجلهم هنا وهناك ليوســعوا لهم طريقًا. كان لزامًا أن تُسحَب مقاعد الكراسي لأسفل لحين صــعودها للجلــوس عليها. لم تكن ثقيلة بما يكفي، لذا طواها الكرسي داخلــه مــثل حشو ساندوتش، وكانت تشاهد العرض من بين ركبتيها. ركبــتان ونــافورة. إيستا برزانة أكثر هكذا هكذا، كان يجلس على حافة مقعده.

كانــت ظــلال المسراوح علــى جانبي الشاشة حيث لم تكن هناك صورة.

مع انطفاء البطارية. يبدأ الوورلد هيت **World Hit**.

حلقــت الكامــيرا لأعلى في الأزرق السماوي (لون السيارة) سماء نمساوية بصوت حزن صافٍ لأجراس الكنيسة.

بعــيدًا لأسفل، على الأرض، في ساحة الدير، كانت أحجار رصيف الطــريق تلمــع. والراهبات تعبرنه. مثل سيجار بطيئ. راهبات هادئات تجَمّعْــن بهدوء حول أمهن المبجلة التي لم تقرأ خطاباتهن أبدًا. يتجمعن مثل نمل حول شريحة توست. لفافات سيجار حول السيجارة الملكة. بلا شــعر فــي ركبهــن. لا لب بطيخ في بلوزاتهن. أنفاسهن مثل النعناع. محمليــن بشــكاوي يــردن طــرحها على أمهن المبجلة. شكاوي تُغنّي بطـــرب. مــن حــول آندروز، لم يزل في الأقاصي على التلال، تغني التلال تحيا مع صوت الموسيقى وكانت، ثانية متأخرة عن القداس.

تتسلق شجرة وتفرك ركبتيها.

الراهبات تسللن بشكل موسيقي.

بفستانها مزق
وترقص الفالس وهي في الطريق بيقداس
وتطلق صفيرًا على السلم

كان جمهور المشاهدين يتلفتون حولهم.

"هش،هش!" قالوا

هش هش هش!!

وتحت خمارها
معاقص يلتف حولها الشعر!

ثمــة صوت كان يأتي من خارج العرض. كان نقيا وحقيقيًا، يشق طنين المــروحة، والظلمــة التي تسحق الفول السوداني. كان هناك راهبة بين الجمهــور. اســتدارت الرؤوس متلفتة كأنها أغطية زجاجات. مؤخرات الــرؤوس التـــي كانــت مغطاة بالشعر الأسود قد أصبحت وجوه بأفواه

وشـــوارب. أفواه بأسنان مثل أسماك القرش تصدر هسيسًا. كثير منهم، مثل ملصقات على كارت.

قالوا جميعا، "هش!"

إيســتا هــو الــذي كان يغني. راهبة لها نفشة شعر. راهبة! إلفيس بلفيس. لم يستطع أن يمتنع.

"أخــرجوه مــن هــنا!"، قـــال الجمهور عندما اكتشفوا أنه مصدر الصوت "اخرس أو أخرج. أخرج أو اخرس."

الجمهور كان رجل كبير. إيستا كان رجل صغير، معه التذاكر.

"اصمت يا إيستا، بحق السماء"، قالت آمو بهمس عنيف.

لذا سكت إيستا. استدارت الأفواه والشوارب بعيدًا. لكن بعدئذ، وبلا إنذار، عاد الغناء ثانية، ولم يستطع إيستا أن يوقفه.

"امــو، هل يمكننى الخروج واستكمال الغناء بالخارج؟"، سأل إيستا (قبل أن تعنفه) "سأعود بعد الأغنية."

"لكــن لا تــتوقع مطلقا أن أخرج بك ثانية،" قالت آمو. "إنك أثرت إزعاج الجميع."

غــير أن إيستا لم يستطع الامتناع عن الأغنية نهض ليمضي. مارًا بالغاضــبة آمــو. براهيل التي تركز بين ركبتيها. مرورًا بيبي كوتشاما. مــرورًا بالجمهور الذي كان لزامًا عليه أن يحرك السيقان ثانية. في هذه الناحية وتلك.

كانــت اللوحــة الحمراء أعلى الباب تقول، "خروج" بضوء أحمر. خرج إيستا.

في الردهة، كانت عصائر البرتقال تنتظر. عصائر الليمون تنتظر. الشــيكولاته الذائــبة تنــتظر. الكنبة الكهربائية المنجدة بالجلد المطاطي الأزرق كانت تنتظر. صور البوستر التي تعلن عن العرض القادم كانت تنتظر.

وحــده إيســتا كــان يجلــس على الكنبة الكهربائية المنجدة بالجلد المطــاطى الأزرق، فــي ردهة دائرة الأميرة بأبهيلاش توكيز، ويغني بصوت راهبة، صاف مثل الماء الرائق.

ولكن كيف جعلتها تمكث
وتنصت لكل ما تقول؟

استيقظ الرجل الذي كان نائمًا خلف طاولة المرطبات على صف من المقاعد، منتظرًا فترة الاستراحة. رأى، بعينين دقيقتين إيستا وحيدًا، مرتديًا حذاءه البيجي المدبب. ونفشة شعره المنعكشة. مسح الرجل طاولته الرخامية بخرقة متسخة. وانتظر وأثناء انتظاره كان يمسح. وأثناء مسحه كان ينتظر ويشاهد إيستا وهو يغني.

كيف تصون موجة فوق الرمل؟
آه، كيف تحل مشكلة مثل ماري.....ياه؟

"أي! إيدا تشيروكا EdaCherukka"، قال رجل عصائر البرتقال والليمون، بصوت أجش مثقل بالنوم. "ماذا بحق الجحيم تظن أنك فاعل"
كيف تمسك
شعاع قمر
في كفك
غنى إيستا:
"نعم!"، قال بائع شراب البرتقال والليمون. "انظر، هذا وقت راحتي. سوف أضطر بعد قليل للاستيقاظ والعمل. لذا فلا يمكنني أن أسمعك وأنت تغني أغنيات إنجليزية هنا. كف عن هذا". كانت ساعة يده الذهبية مختفية تقريبًا تحت ذراعة الأجعد. سلسلة الذهبية كانت مختفية تحت شعر صدره. قميصه البتريليون الأبيض كان مفتوح الأزرار حتى بداية قبة بطنة. كان يبدو مثل خنزير جهم مرصع بالمجوهرات. خلفه مرايا لينظر فيها الناس على أنفسهم أثناء شراءهم للمثلجات والمرطبات. لتعديل تصفيفات شعرهم وتثبيت كعكات الشعر. كانت المرايا تشاهد إيستا.
"بإمكاني كتابة شكوى ضدك،" قال الرجل لإستا. "ما رأيك في هذا؟ شكوى مكتوبة؟"

توقف إيستا عن الغناء ونهض متجهًا للدخول ثانية.

"الآن، طالما أنني استيقظت،" قال بائع شراب البرتقال والليمون.

"طالمـــا أنـــك أيقظتـــني، الآن، في فترة راحتي، الآن، طالما أنك أزعجتـــني، تعـــالى، وأشـــترى شرابًا على الأقل. هذا أقل ما يمكنك أن تفعله."

كـــان وجـــه الرجل مغبب غير محلوق اللحية. بأسنان تشبه مفاتيح البـــيانو الصـــفراء، يترقب الصغير إلفيس بلفيس. قال إيستا بأدب، "لا، شـــكرًا لـــك عائلـــتي في إنتظارى. وأنا قد أنفقت كل مصروف جيبى **Pocket Money.**

"بروكـــت مونى **Pocket Money**؟"، قال بائع البرتقال والليمون بأســـنانه الـــتى لم تزل في حالة من الترقب. "في البداية أغانى أجنبية، والآن بروكت مونى! أين تعيش؟ على القمر؟!"

استدار إيستا ليمضى.

"إنـــتظر لحظـــة!" قال البائع بحدة. "لحظة فقط!"، قال ثانية بطريقة أكثر تهذبًا. "أعتقد أنني قد سألت سؤالا."

كانـــت أســـنانة الصـــفراء كأقطاب مغناطيس. ترى، تبتسم، تغنى، تشم، وتتحرك. كانت تنوم مغناطيسيًا.

"سألتك اين تعيش،" قال، ضاربًا نسيجه البليد اللعين.

"أيمينـــيم،" قـــال إيســـتا. "أعـــيش في آيمينيم. جدتى تملك مخللات ومعبات الجنة. وهي الشريك النائم."

"أهـــي نائمـــة الان؟" قال بائع شراب الليمون والبرتقال. "ومع من تـــنام؟" ضـــحك ضـــحية بليدة لم يفهمها إيستا. "لا عليك. لن تفهم، تعالى وتناول مشروبًا،" قال، "مشروبات باردة مجانًا. تعالى. تعالى هناك وأخبرنى بكل شئ عن جدتك."

مضى إيستا. مجذوبًا بالأسنان الصفراء.

"هـــنا خلـــف الطاولة،" قال بائع شراب البرتقال والليمون. خافضًا صـــوته إلـــى حـــد الهمـــس. "لابـــد أن يكـــون سرًا لانه غير مسموح بالمشروبات إلا في الفواصل الزمنية. إن هذا مخالفة لتقاليد المسرح.

"مفهوم،" أضاف الرجل بعد فترة صمت.

مضـــى إيستا وراء طاولة المرطبات لتناول مشروبه المجانى. رأى ثلاثـــة مقاعد مرتفعة على هيئة صف كى ينام عليها بائع شراب الليمون والبرتقال.. كان الخشب صقيلاً من جلوسه عليه.

"الآن لـــو أنك ستمسك هذا لي"، قال بائع اليمون والبرتقال، مُخرجا لإيســتا ذكـــره من غطاء حقوه الأبيض الناعم، "سوف أهبك مشروبك. برتقال؟ ليمون؟"

أمسكه إيستا لأنه كان مضطرا لذلك.

"برتقال؟ ليمون؟" قال الرجل. "ليمون برتقال؟"

رد إيستا بادب، "ليمون، من فضلك."

أخذ زجاجة باردة وماصة. لذا أمسك الزجاجة بإحدى يديه، والذكر بالآخرى. صلب. ساخن. كثير الأوردة. ليس بشعاع قمر.

ضغط بائع مشروبات البرتقال والليمون على كف إيستا. كان ظفر إبهامـــة طويـــلا مثل ظفر امرأة. حرك يد إيستا أعلى وأسفل. ببطء في البداية. ثم بسرعة.

كان شراب اليمون باردًا وحلوًا. العضو الذكرى كان ساخنا صلبا. مفاتيح البيانو كانت تترقب.

"إذن جدتك تدير مصنعا؟" قال بائع شراب البرتقال والليمون.

"أى نوع من المصانع؟"

"منـــتجات عديـــدة،" قـــال إيستا، دون أن ينظر، والماصة في فمه. "عصائر، مخللات عديدة، مربات، مسحوق كاري. شرائح أناناس."

"حسنا،" قال بائع شراب البرتقال واليمون. "ممتاز."

قبض كفه بقوة على كف إيستا. أقوى ومعروق. ومازال أسرع.

سريعًا أسرع وجع

لا تدعه يسترح

حتى يصبح السريع أسرع

والأسرع وجع

عـــبر الماصة الورقية المبتلة (وقد صارت مسطحة، بسبب اللعاب والخـــوف)، كانت حلاوة اليمون السائلة تعلو. محتسيًا من خلال الماصة (بيـــنما يـــده الأخـــري تتحرك)، كان إيستا ينفخ فقاعات في الزجاجة.

فقاعـــات لـــيمون حلوة لزجة من الشراب لم يستطيع أن يشتريها. وفي رأسة قوائم بمنتجات جدته.

مخللات	عصائر	مربات
مانجو	برتقال	موز
فلفل أخضر	عنب	فواكه مشكلة
يقطين مر	أناناس	مربى جريب فروت
ثوم	مانجو	
ليمون مملح		

حينـــئذ تلوى الوجه الغضروفي المكسو بشعر كاالإبر، وصار كف إيستا مبـــتلا. ســـاخنا ولـــزجا. عليه بياض بيضة. بياض بيضة أبيض. شبه ساخن.

كـــان شـــراب الليمون مثلجًا وحلوًا. الذكر كان رخوًا متغضنا مثل كيس نقود جلدي فارغ. مسح الرجل كف إيستا الآخر بخرقته البالية.

"لتنتهي الآن من شرابك"، وربت على أحد جانبي مقعدة إيستا برفق وود. ثمـــار برقوق منتقاة في أنابيب تصريف. وحذاء بيجى مدبب. "لا يجـــب عليك أن تفقدها،" قال. "فكرفي كل الفقراء ممن لا يملكون طعامًا ولا شـــرابًا. أنـــت ولد ثري محظوظ، لديك بروكت مونى ومصنع جدة سترثه. لابد أن تشكر الله لأنك بلا مخاوف. لتنتهى الآن من شرابك."

وهكذا، خلف طاولة المرطبات، في ردهة دائرة الأمير بـــ"أبهيلاش توكيز"، في القاعة مع أول شاشة سينما سكوب مقاس 70 مليمتر، أنهى إيســـتيان يـــاكو زجاجـــة خـــوف مجانـــية بـــنكهة اللـــيمون ذات الهســـيس. ليمونه الجد ليمون. الجد مثلج. الجد حلو. صعد الهسيس إلى أنفـــه. سوف يمنح زجاجة أخرى توا (خوف له هسيس، مجانًا) غير أنه لم يكن بعد يعرفه. أعرض بيده الأخري اللزجة بعيدًا عن جسده.

لم يكن من المفترض أن تلمس أي شئ.

عندما أنهي إيستا شرابه، قال رجل شراب البرتقال شراب الليمون، "هل انتهيت من الشراب؟ ولد طيب".

أخذ الزجاجة الفارغة والماصة التى صارت مسطحة، وأعاد إيستا ثانية إلى صوت الموسيقى.

ثانية داخل العتمة المفعمة بزيت الشعر، ثبت إيستا يده الأخرى بحرص (الأعلى، كأنه يمسك برتقالة مُتخيلة.) إنسل مارًا بالجمهور (سيقانهم تتحرك متباعدة هنا وهناك)، مارًا ببيني كوتشاما، مارًا براهيل (التى لم تزل مائلة للخلف) مارًا بآمو (التى لم تزل غاضبة) جلس إيستا، لم يزل مُثبتا برتقالته اللزجة.

وهناك كان الكابتن فون كلاب ــ تراب. كريستوفر جلامر. متعجرفا. قاسي القلب. بفم مثل الكوة المستطيلة. وصافرة بوليس لها صوت معدني صاخب. كابتن لديه سبعة أطفال. أطفال أنقياء مثل باقة من النعناع. كان يتظاهر بأنه لايحبهم، غير أنه كان عكس ذلك. يحبهم. يحبها (جولي أندراوز) هي تحبه، يحبان الأطفال، الأطفال تحبهم. الجميع يحبون بعضهم البعض. كانوا أنقياء، أطفال بيض، وكان لأسرتهم الحفة محشوة بزغب العيدر.

المنزل الذي كانو يعيشون فيه له بحيرة وبساتين، درابزين واسع، أبواب ونوافذ بيضاء، وستائر منقوشة بالأزهار.

كان الأطفال البيض الأنقياء يرتعدون خوفًا من الرعد، حتى الكبار منهم. زلكي تهدئ من روعهم وضعتهم جولي أندراوز في سريرها النظيف، وغنت لهم أغنية عن قليل من أشياءها المفضلة. تلك كانت قليل من أشياءها المفضلة:

١ــ فتيات يرتدين فساتين بيضاء بقماطات منقوشة بالأزرق.

٢ــ إوز بري يطير والقمر على أجنحته.

٣ــ غلايات نحاسية براقة.

٤ــ أجراس باب وأجراس عربات جليد وقطع لحم بالعصائبية.

٥ــ إلخ.

وحينئذ تفجرت بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات في ذهن توأم ثنائي اللقاح من جمهور أبهيلاش توكيز. مثل:

أ ــ هل كان كابتن فون كلاب ــ تراب يرعش ساقه؟

لم يكن يفعل.
ب ــ هــل كان كابتن فون كلاب ــ تراب ينفخ فقاقيع اللعاب؟ هل فعل؟
بالتأكيد لم يكن يفعل.
ج ــ هل كان يغرغر؟
لا.

آه، كابتــن فون كلاب تراب، كابتن فون كلاب تراب، أتستطيع أن تحب الرفيق الصغير الذي يحمل برتقالة في القاعة المفعمة بالروائح؟
لقــد كــان لتوه يمسك ذكر بائع شراب البرتقال والليمون بيده، لكن أما زلت تستطيع أن تحبه؟
وأخـته التوأم؟ الماثلة للأمام بنافورة شعر مربوطة بتوكة الحب ــ في ــ طوكيو؟ اتستطيع أن تحبها أيضًا؟
كان لدى كابتن فون كلاب تراب بعض الأسئلة:
أ ــ هل هما من الأطفال البيض الأنقياء؟
لا. (لكن صوفي مول ملهم.)
ب ــ هل ينفخان فقاعات اللعاب؟
نعم. (لكن صوفي مول لا تفعل هذا.)
ج ــ هل يرعشون سيقانهما؟ مثل الموظفين؟
نعم. (لكن صوفي مول لا تفعل هذا.)
د ــ وهــل أحدهما أو كلاهما قد أمسك الأعضاء الذكورية للغرباء من قبل؟
لا ...... لا نعم. (لكن صوفي مول لم تفعلها.)
"إذن معــذرةً"، قــال كابتــن فون كلاب تراب. "هذا لا يحتاج إلى سؤال. لا أستطيع أن أحب أيًا منهما. لا يمكن أن أكون بابا لهما. آه لا."
كابتن فون كلاب تراب لا يستطيع.
مال إيستا برأسه في حجره.

"مـــاذا بـــك؟" قالت أمو. "إذا ما كنت ستمتعض ثانية، فسوف آخذك للبيـــت مباشرةً. اعتدل في جلستك. وشاهد. هذا ما قد أتيت بك إلى هنا لأجله."

لتنتهي من الشراب.
شاهد العرض.
فكر في كل الفقراء من الناس.
ولد ثري محظوظ لديه بوركيت مونـي. لا مخاوف.

اعتدل إيستا في جلسته وشاهد. شعر بتقلبات في معدته. كان لديـــه شعور طاف لا قرار له، محدد، بحر معشوش، ثقيل، ماء كثيف، دوار متجدد.

"أمو؟" قال.

"مـــاذا هذه المرة؟" كلمة ماذا كانت كالمقذوف، خاطفة النبرة تغلفها جفوة.

"أشعر بالقيء" قال إيستا.

"مجرد إحساس أم انك تريد أن تتقيأ؟" كان صوت امو قلقا.

"لا أعرف."

"هل نذهب ونحاول؟" قالت آمو. "إن هذا سيجعلك في حالة أفضل."

"أوكاي"، قال إيستا.

"أوكاي؟" أوكاي.

"إلى أين تذهبان؟" أرادت بيبي كوتشاما أن تعرف.

"إيستا ذاهب في محاولة للتقيؤ" قالت آمو.

سألت راهيل، "إلى أين تذهبان؟"

رد إيستا، "اشعر بالقيء."

"أيمكنني أن آتي وأشاهد؟"

"لا." ردت آمو.

مـــرورًا بـــالجمهور ثانية (السيقان تتباعد هنا وهناك لتوسع طريقا) المرة الماضية كانت للغناء. هذه المرة في محاولة للتقيؤ.

الخروج عبر باب الخروج.

بالخـــارج في الردهة المرمرية، كان بائع شراب البرتقال و الليمون يأكل قطعة حلوى. كان خده ناتئًا متعجرًا بالحلوى التي تتحرك في فمه. كان يُصدر صوتًا ناعمًا ماصًا مثل ماء يرشح من طست.

علـــى الطاولـــة كان هناك غلاف حلوى (باري الأخضر) الحلوى كانـــت بالمجـــان لهـــذا الرجل. كان لديه صف من الحلوى المجانية في زجاجـــات قاتمـــة. مسح الطاولة الرخامية بخرقته المتسخة التي يُمسكها بـــيده المكسوة بالشعر التي يلبس فيها الساعة. عندما رأى المرأة البراقة ذات الأكـــتاف اللامعـــة و الطفل الصغير، انسل ظل عبر وجهه. حينئذ ابتسم ابتسامة البيانو المتنقل الذي يحمله في وجهه.

"بالخارج ثانية على الفور؟" قال.

كـــان إيستا يهم بالتجشؤ فعلا. سندته آمو إلى حمام دائرة الأميرة. حمام السيدات **HERS**.

كـــان إيســـتا محشورًا يعترض طريق الحوض المتسخ وجسد آمو. مـــتهدل فـــي مشيته. كان للحوض حنفيات معدنية، وعليه تراكمات من الصـــدأ. والشـــباك نســـيج بُني اللون من طقطقات منابت الشعر، مثل خريطة للطرق لمدينة شاسعة معقدة التفاصيل.

انـــتفض إيســـتا متقيـــئًا، غير أنه لم يتقيأ شيئًا. مجرد أفكار كانت تطفوللخـــارج ثـــم تعـــود لتطفو للداخل. أفكار لم تستطع آمو أن تراها. كانـــت تحـــوم مـــثل سحب عاصفة فوق مدينة ساحلية. غير أن رجال ونساء المدينة الساحلية يمضون في أعمالهم الساحلية. سيارات ساحلية، باصات ساحلية لم تزل تنطلق بأزيزها حياة ساحلية مستمرة.

"لا؟"، سألت آمو.

"لا."، أجاب إيستا.

لا؟ لا.

"لتغسل وجهك إذن،" قالت آمو "الماء دائمًا يساعد في هذه الحالات. اغسل وجهك ولنذهب لتناول شراب ليمون بالصودا."

غســـل إيســـتا وجهـــه ويديه، ويديه ووجهه. صارت رموشه مبتلة والتصقت ببعضهما.

طوى بائع شراب الليمون والبرتقال غلاف الحلوى الأخضر وضغط عليه بظفر إبهامه. وبمجلة مطوية صفع ذبابة ونفضها برقة من فوق حافة الطاولة إلى الأرض. انقلبت مستلقية على ظهرها مُلوحة بساقيها الضعيفتين.

"هذا ولد جميل." قال لأمو، "ورائع الغناء"

"إنه ابني،" قالت آمو.

"صحيح؟" قال بائع شراب البرتقال والليمون، وهو يحدق في آمو بأسنانه.

"صحيح لست كبيرة بما يكفي!"

"إنه ليس على ما يرام"، قالت آمو. "أعتقد أن شراب بارد سيجعله يشعر بتحسن."

"بالطبع،" قال الرجل "طبعًا، قطعًا. برتقال ليمون؟ ليمون برتقال؟"

سؤال رهيب، مفزع.

"وأنت؟" سأل بائع شراب الليمون والبرتقال آمو.

"كوكاكولا فانتا؟ آيس كريم روز ميلك؟"

"لا. ليس لي. شكرًا"، قالت آمو. امرأة عميقة الغمازتين، براقة. قال الرجل وفي يده حفنة من الحلوى، كأنه مضيفة جوية كريمة، "تفضلي، هذه لطفلك الصغير."

"لا، شكرًا" قال إيستا وهو ينظر لأمو.

"خذها يا إيستا"، قالت آمو. "لا تكن وقحًا."

أخذها إيستا.

"اشكره." قالت آمو.

"شكرًا لك"، قال إيستا. (على الحلوى، على زلال البيض الأبيض.)

"عفوًا"، قال بائع شراب البرتقال والليمون بالإنجليزية.

"إذن!" قال. "يقول الصغير أنك من آيمينيم؟"

"نعم،" قالت آمو.

"آتي إلى هناك كثيرًا" قال بائع شراب البرتقال والليمون. "أهل زوجتي من آيمينيم. أعرف مكان مصنعكم. مخللات الجنة. أليس كذلك؟ صغيرك أخبرني."

عـرف أيـن يصيب إيستا. هذا ما كان يحاول أن يقول. كان هذا تحذيراً.

رأت آمو عيني ابنها وقد اعترتهما بدايات حُمى.

"لابد أن نذهب."، قالت "لابد ألا يتعرض للحُمى. فابنة خالهم سوف تصل غداً،" وضحت للعم. ثم أضافت، بطريقة غرضية (من لندن).

"مـن لـندن؟" ظهر بريق جديد من الاحترام في عيني العم. لأنها عائلة لها أقارب في لندن.

"إيسـتا، لتـبقى هنا مع العم سوف أحضر بيبي كوتشاما وراهيل" قالت آمو.

"لا، يا آمو! لا، يا آمو، لا! أريد أن آتي معك!"

اعـتذرت آمـو لـبائع شـراب البرتقال والليمون، وهي مندهشة للإصرار الحاد الذي لم تعتده من ابنها الهادئ دائمًا.

"هو ليس بهذه الطباع عادةً. تعالى إذن يا إيستابن."

رائحـة القاعة. ظلال المراوح. مؤخرات رؤوس. أعناق. ياقات. شعر. كعكـات شعر. ضفائر شعر على هيئة ذيل الحصان. نافورة من الشعر مربوطة بتوكة الحب – في – طوكيو. بنت صغيرة وراهبة سابقة.

أطفـال كابتن فون تراب كلاب السبعة المفعمين بالنعناع وقد أخذوا حمـامهم النعناعـي، وكـانوا يقفـون في خط نعناعي وشعرهم ينسدل لأسـفل، يغـنون بأصـوات نعناعية مطيعة للمرأة التي تزوجها الكابتن تقريبًا. البارونة الشقراء التي تسطع وكأنها جوهرة.

التلال تحيا

مع صوت الموسيقى.

قالت آمو لبيبي كوتشاما وراهيل، "لابد أن نمضي."

قالـت راهيل، "ولكن، يا آمو حتى الأشياء الرئيسية لم تحدث بعد! فهـو حتى لم يقبلها! إنه حتى لم يقتلع راية هتلر الخاصة بها. إنهم حتى لم يخدعوا رولف ساعي البريد."

"إيستا مريض،" قالت آمو "هيا!"

"حتى الجنود النازيين لم يصلوا بعد!"
"هيا." قالت أمو "انهضي!"
"حتى إنهم لم يغنوا (عاليًا فوق تل، كان هناك راعي ماعز وحيد!)"
"لابد أن يصبح إيستا على ما يرام للقاء صوفي مول، أليس كذلك؟" قالت بيبي كوتشاما.
"لا يهم" قالت راهيل ولكن لنفسها تقريبا.
"ماذا قلت؟" قالت بيبي كوتشاما، وهي ملمة بالنبرة العامة، لكنها لا تعرف ما قيل بالتحديد.
"لا شئ"، قالت راهيل.
"لقد سمعتك،" قالت بيبي كوتشاما.

بالخارج، كان العم يعيد ترتيب زجاجاته القائمة. ماسحا بخرقته المتسخة بقع الماء دائرية الشكل التي تركوها على طاولة المرطبات الرخامية استعدادا للفاصل الزمني بين أجزاء العرض. العم بائع شراب البرتقال والليمون نظيف. إن بداخله قلب مضيفة جوية مسجون في جسد خنزير.
"راحلون أذن؟" قال.
"نعم" قالت آمو. "من أين نستطيع أن نأخذ تاكسي؟"
"خارج البوابة، أعلى الطريق، على اليسار،" قال وهو ينظر لراهيل. "لم تخبريني أبدا أن لديك صغيرة جميلة أيضا". وأخرج حفنة أخرى من الحلوى "تفضلي يا صغيرتي ــ هذه لك."
"خذي حلوتي" قال إيستا بسرعة، غير راغبٍ في أن تقترب راهيل من الرجل.
لكن راهيل كانت قد بدأت في التحرك نحوه بالفعل. عندما اقتربت منه، ابتسم لها وشئ ما في ابتسامة البيانو المحمول تلك، شئٌ في نظرته المباشرة التي طوقها بها، جعلها تنقبض منه. كانت ابتسامته أقبح ما رأته في حياتها. استدارت للخلف وهي تنظر لإيستا.
تراجعت بعيدا عن الرجل المشعر.

دس إيستا حلو باري في يدها فشعرت بأصابعه الساخنة المحمومة ذات الأطراف الباردة برودة الموت.
"إلى اللقاء يا صغيري" قال العم لإيستا. "سأراك في أيمينيم ذات يوم."
إذن، درجات السلم الحمراء ثانية. هذه المرة راهيل متلكئة. بطيئة. لا، لا أريد أن أمضي. طن من حجارة البناء على مقود. "
"فتى طيب، بائع شراب البرتقال و الليمون هذا" قالت أمو.
"تشهي!" قالت بيبي كوتشاما.
"إنه لا يبدو كذلك، لكنه كان طيبا مع إيستا بطريقة تثير الدهشة." قالت امو.
"إذن لماذا لا تتزوجين منه؟" قالت راهيل بنزق.
توقف الوقت على السلم الأحمر. إيستا توقف. بيبي كوتشاما توقفت.
"راهيل!" قالت أمو.
تجمدت راهيل. كانت آسفة على ما تفوهت به دون جدوى. لم تكن تعرف من أين تأتي بهذه الكلمات. لم تكن تعي أنها تختزن هذه الكلمات بداخلها لكنها قد خرجت الآن، ولن تعود للداخل ثانية. توقفوا على ذلك السلم الأحمر مثل موظفي الحكومة. بعضهم واقف. والبعض جالس ويرعش ساقيه.
"راهيل،" قالت آمو. "أتدركين ماذا فعلت لتوك؟"
عينان فزعتان، ونافورة شعر استدارا للنظر إلى آمو.
"لا شيء، لا تفزعي" قالت أمو. "فقط أجيبيني. هل تدركين؟"
"ماذا؟" قالت راهيل بأخفض نبرة صوت لديها.
"أتدركين ما فعلت لتوك؟" سألت أمو.
عينان مفزوعتان ونافورة شعر استداروا للنظر إلى آمو.
"هل تعرفين ماذا يحدث عندما تجرحين الناس؟" قالت آمو. "عندما تجرحين الناس، يبدءون في التقليل من حبهم لك. هذا ما تفعله الكلمات الطائشة. إنها تجعل الناس يقللون من مقدار حبهم لك."

فراشـــة بـــاردة بذوائب ظهرية كثيفة على غير العادة حطت بخفة علـــى قلب راهيل. حيث لمستها أرجلها، صار لها نتوءات إوزية. ست نتوءات إوزية على قلبها الطائش. صارت أمها تحبها أقل قليلاً مما قبل.

وهكذا، خارج البوابة، أعلى الطريق، وإلى اليسار توقف التاكسي.

أم مجـــروحة راهبة سابقة. طفل ساخن وطفلة باردة. ست نتوءات إوزية وفراشة.

كـــان التاكسي ينضح برائحة النوم. ملابس قديمة متكومة. مناشف مبتلة.

كـــان التاكســـي بعد كل هذا منزل سائق يعيش فيه. هذا هو المكان الوحـــيد الـــذي يعبـــئ فيه روائحه. المقاعد مقتولة، ممزقة. شريحة من الإســـفنج الأصـــفر القـــذر تهتز مفترشة المقعد الخلفي كأنها كبد ضخم مصـــاب باليرقان. كان السائق لديه يقظة نشطة كأنه جرذ صغير. أنفه رمادية معقوفة، وشاربه شارب ريتشارد صغير. كان ضئيلاً لدرجة أنه كـــان يتحرى الطريق من خلال عجلة القيادة. التاكسي يبدو لمن يمرون بـــه وكأنـــه ملـــئ بالركاب لكن بلا سائق. كان يقود بسرعة وشراسة، يـــزرق بســـرعة فـــي المســـاحات الخالية، مضطرًا السيارات الأخرى للخـــروج مـــن حاراتهـــا علـــى الطريق. مسرعًا صوب عبور الحمير الوحشية. أضواء متقافزة.

"لمـــا لا تســـتخدم وسادة أو مسند، أو شئ من هذا القبيل؟" اقترحت بيبـــي كوتشـــاما بصـــوتها الودود. "وسوف تكون قادرًا أن ترى بشكل أفضل."

"لمـــا لا تهتميـــن أنـــت بما يخصك، أيتها الأخت؟" اقترح السائق بصوته المحتد.

أطل إيستا برأسه خارج نافذة التاكسي. عند مروره بالبحر ذا اللون الحـــبري تـــذوق النســـيم الساخن المالح بفمه. كان يشعر به وهو يرفع شـــعره. كـــان يُـــدرك أنـــه إذا ما اكتشفت آمو ما فعله مع بائع شراب الـــبرتقال واللـــيمون، فإنهـــا سوف تقلل من مقدار حبها له. ستحبه أقل كثـــيرًا عمـــا قبل. انتابه الشعور بالمرض المخزي المتمخض المتموج

المتقلب في معدته. انتابه شعور بالاشتياق للبحر. لأن الماء يساعد كثيرًا في هذه الحالات.

اندفع ضوء النيون اللزج عبر نافذة التاكسي كان ساخنًا داخل التاكسي، وهادئًا. بدت بيبي كوتشاما متوهجة ومنبهرة. لم تكن تحب أن تكون سببًا في أي شعور مؤلم. بين الحين والأخر، وكلما شرد كلب إلى الطريق، كان السائق يبذل جهدًا مضنيًا لقتله.

الفراشة التي حطت في قلب راهيل بسطت أجنحتها المخملية فزحفت قشعريرة البرد مقتحمة عظامها.

في ساحة انتظار السيارات في فندق سي كوين، كانت البليموث السماوية تغط في القيل والقال مع السيارات الأخرى، الأصغر.

سيدة ضخمة في حفل لسيدات صغيرات. زعانفها الخلفية ترفرف.

"غرفة رقم 313 و 327" قال موظف الاستقبال. "دون تكييف هواء. أسرة للتوأم. المصعد مغلق للإصلاح."

البل بوي (الشيال) الذي صعد معهم لم يكن بوي (ولد) ولم يكن لديه بل (جرس). كانت عينيه قاتمتين؛ بمعطفٍ أحمر داكن مهترئ بزرارين مقطوعين. فظهر من تحته قميصه المتسخ. كان لزامًاعليه أن يرتدي قلنسوة الشيال الحمقاء التي تميل علي كلا جانبي رأسه، كان حزامها البلاستيكي الضيق يغوص في لغده المتدلي. بدا قاسيًا أن تجبر رجل عجوز علي ارتداء قلنسوة تغطي كلا جانبي رأسه بهذا الشكل وإعادة ترتيب الطريقة التي اختارها العمر ليتدلى من ذقنه.

هناك عدد أكبر من درجات السلم الحمراء للصعود. نفس السجادة الحمراء كانت تتبعهم من قاعة السينما. بساط سحري طائر.

كان تشاكو في غرفته. قبض عليه وهو يستمتع بأطيب الطعام. دجاج مشوي، بطاطس مقلية، ذرة سكرية وشربة دجاج، آيس كريم بالفانيليا مع صلصة شيكولاتة. صلصة في قارب صلصة. كثيراً ما قال تشاكو أنه يطمح في الموت من جراء التخمة. قالت ماماتشي أن هذه علامة مؤكدة علي تعاسة مكبوتة. ورد عليها تشاكو أن الأمر ليس هكذا. قال أنها علامة علي الجشع المطلق.

تضـــايق تشاكو إذ راى الجميع يعودون مبكرًا جدًا، غير أنه تظاهر بالعكس. واستمر في تناول طعامه.
كـــان الترتيـــب الأصلي يتضمن نوم إيستا مع تشاكو، وراهيل مع آمو وبيبـــي كوتشاما. لكن الآن طالما أن إيستا لم يكن علي ما يرام والحب وقد أعيد تقسيم حصته (أمو تحبها أقل مما قبل)، فراهيل ستضطر للنوم مع تشاكو، وايستا مع آمو وبيبي كوتشاما.
أخرجت آمو بيجامة راهيل وفرشاة أسنانها من حقيبتها ووضعتهما علي السرير.
"تفضلي،" قالت آمو.
تكتين لإغلاق الحقيبة.
كليك. وكليك.
"آمو" قالت راهيل، "هل سأحرم من العشاء كعقاب لي؟"
كانـــت لديهـــا رغبة في استبدال العقوبات. لاعشاء، في مقابل أن تحبها آمو كما كانت من قبل.
"كمـــا ترغبيـــن،" قالـــت آمو. "لكني أنصحك بتناول العشاء. إذا ما كانت لديك الرغبة في النمو. ربما تستطيعين نصيبًا في دجاجة تشاكو."
"ربما، وربما لا" قال تشاكو.
"ولكن ماذا عن عقابي؟" قالت راهيل. "إنك لم تنزلين بي عقابا،"
"بعـــض الأشياء تأتي مع ما تستحق من أشكال العقاب،" قالت بيبي كوتشـــاما. كمـــا لو كانت تفسر مجمل قول لم تستطيع راهيل أن تفهمه.
بعـــض الأشـــياء تأتي مع ما تستحقه من أشكال العقاب. مثل غرف نوم بدولايـــب مبنـــية داخل الحائط. جميعهم سيعرفون على الفور كثيرًا عن العقـــاب ذلـــك لأنهم أتوا بأحجام مختلفة. ذلك أن بعضهم ضخام الحجم كأنهم دواليب شيدت داخلها أسرة. بإمكانك أن تقضي عمرك كله داخلها متجولا بين كوتشاما راهيل، تركت على خدها قليل من اللعاب. مسحته بكتفها.
"تصـــبحين علـــى خـــير،" قـــال إيستا، وهو مريض جدًا بحيث لا يســـتطيع أن يحـــب أختـــه. راهيل وحدها رأتهم يمضون في كوريدور

الفندق مثل شبحين صافين لكنها حقيقيين. الثاني كبير، الأول صغير، يرتدى حذاء بيجى مدبب. امتصت السجادة الحمراء اصوات خطواتهما.
وقفت راهيل علي عتبة الغرفة، يملؤها الحزن.
كان بداخلها الحزن الذي سيجلبه مقدم صوفي مول. الحزن الذي جلبه لها حب امو الذي قل قليلاً تجاهها.
رياح قارسة هبت على عينها الجافتين المتالمتين.
وضع تشاكو رجل دجاجة وبعض أصابع البطاطس المقلية في طبق مربع لراهيل.
"لا، شكرًا لك،" قالت راهيل آملة أن تستطيع إلى حدٍ ما إنزال العقاب بنفسها، كيما تلغي امو عقابها.
"ما رأيك في آيس كريم بصلصة الشيكولاتة؟" قال تشاكو.
"لا، شكرًا لك،" قالت راهيل.
"حسنا" قال تشاكو. "لكنك لا تعرفين أنك تخسرين."
أكل الدجاجة كلها ثم قضى على الآيس كريم.
غيرت راهيل ملابسها وارتدت البيجاما.
"من فضلك، لا تخبريني عن السبب الذي تعاقبين لأجله،" قال تشاكو. فانا لا أستطيع التحمل." كان يقضي على آخر ما في وعاء صلصة الشيكولاتة. حلوى ما بعد الحلوى المقززة. "أي سبب هذا؟ هل قمت بحك لسعات البعوضة حتى نزفت؟ ألم تقولي [شكرًا] لسائق التاكسي؟"
"شئ أسوأ من هذا،" قالت راهيل، "يخص آمو".
"لا تخبريني،" قال تشاكو. "لا أريد أن أعرف."
دق الجرس لاستدعاء سرفيس الغرف، فيدخل نادل مرهق ليأخذ الأطباق والعظام. حاول أن يمسك بروائح العشاء، لكنها كانت قد هربت وصعدت منزوية في ستائر الفندق البنية المهلهلة.
ابنة أخت بلا وجبة عشاء وخال متخم بوجبة العشاء قاما بغسل أسنانهما معها في حمام فندق سي كوين. هي، مجرم قصير بائس في بيجامة مقلمة و نافورة شعر مربوطة بتوكة الحب — في — طوكيو. هو، يرتدى صديري وسرواله التحتانى القطنيتين. صدرته، مشدودة

أنــيقة ممتدة على بطنه المستديرة وكأنها بشرة ثانية، ترتخي على هبوط سرته.

عــندما أمسكت راهيل فرشاة أسنانها المغطاة بزبد المعجون الثابتة وحركت هي أسنانها بدلاً من تحريك الفرشاه، لم يقل لها هذا خطأ ولابد أن يحدث العكس.

لم يكن فاشستيًا.

تــبادلا البصــق بــالحوض كل بدورة. تفحصت راهيل بعناية زبد معجــون البــيانكا الذي تبصقه وهو ينزلق على جانبي الحوض ببطء، لــترى مــا تستطيع أن تراه. أي ألوان ومخلوقات غريبة قد طُردت من فراغات أسنانها؟

لا شئ الليلة. لا شئ غير معتاد. فقط فقاعات معجون البيانكا.

أطفأ تشاكو المصباح الكبير.

فــي السرير، خلعت راهيل توكة شعرها، الحب ـ في ـ طوكيو وضــعتها إلى جوار نظارتها الشمسية. تهدلت نافورة الشعر قليلاً، لكنها متصلبة متماسكة.

فــي الســرير استلقى تشاكو في بؤرة ضوء من مصباحه الجانبي. رجل بدين على خشبة مسرح معتمة. تناول قميصه المتكوم على طرف سريره. أخرج منه حافظته الجلدية، ونظر في صورة صوفي مول التي أرسلتها له مارجريت كوتشاما قبل عامين.

شــاهدته راهــيل بيــنما فراشتها الباردة تبسط جناحيها ثانيًا ببطء للخارج ـ ببطء للداخل. طرفة عين كسولة من وحش كاسر.

كانت الملاءات خشنة، لكنها نظيفة.

أغلــق تشــاكو حافظته وأطفأ النور. في عمق العتمة أشعل سيجار تشــارمينار وتأمل ما ستكون عليه ابنته الآن. عمرها تسع سنوات. آخر مــرة رآها عندما كانت قطعة لحم حمراء متغضنة. إنسان بالكاد. بعدها بــثلاثة، أسابيع، مارجريت زوجته، حبه الوحيد، صرخت، أخبرته عن جو.

أهيلاش توكيز

قالـــت مارجريت لتشاكو أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه. أخبرته أنها تريد المساحة الخاصة بها. كما لو كان تشاكو يستخدم أرففها ليضع فيها ملابسة. التي، لمن يعرفه، من المحتمل أنه كان يستخدمها.

طلبت منه الطلاق.

فـــي تلـــك الليالي الأخيرة الناضحة بالعذاب، قبل أن يتركها، كان تشـــاكو ينسـل مـــن ســـريره ومعه بطارية وينظر على الطفلة النائمة. ليـــتعرف علـــيها ليطبع ملامحها في ذاكرته. ليتأكد عندما يفكر فيها، أن الطفلـــة التي قد استحضرها هي طفلته. تذكر الزغب البني في جمجمتها الطـــرية. شكل فيها المتشنج الذي يتحرك باستمرار. الفراغات التي بين أصـــابع قدمـــيها. افترض وجود شامة. ثم دون داعي لذلك، يجد نفسه يفحـــص طفلته الرضيعة بحثًا عن أي آثار لـــ"جو" فيها. فتمسك الطفلة إصـــبع الســـبابة وهو يمضى في فحصه المجنون، اليائس تحت أضواء البطارية. كانت سرتها ناتئة عن بطنها يضع الصقيلة المكتظة كأنها أحد الآثـــار المقبـــبة فـــوق تل. كان تشاكو يضع أذنه على بطنها، ويستمع بذهول للهمهمات المنبعثة من الداخل. رسائل تنبعث هنا وهناك. أعضاء جديـــدة تـــتآلق مـــع بعضها البعض. حكومة جديدة تقرر أنظمتها. تنظم توزيع المهام، تقرر من سيقوم بأداء ماذا.

كانت تنضح برائحة الحليب والبول. أصيب تشاكو بالذهول، فكيف لمخلـــوق ضـــئيل جدًا ولا هوية له، غامض الملامح. تمامًا، يستطيع أن يستقطب اهتمام وحب ورشد رجل ناضج.

عـــندما رحـــل، شـــعر أن شيئًا ما قد انتزع من داخله. شيئًا ما من الضخامة بحال.

لكن جو الآن ميت. مات في تصادم سيارة. ميت مثل مقبض باب. ثقب في الكون على هيئة جو.

في الصورة التي يحملها تشاكو، كانت صوفي مول في السابعة من العمـــر. بيضـــاء و زرقاء. وردية الشفتين، ومسيحية سورية في مكان مجهول. رغم أن ماماتشى وهي تحدق في الصورة، أصرت أن لها أنف باباتشى.

"تشـــاكو؟" قالـــت راهــيل، من السرير المعتم. "أيمكنني أن أسألك سؤالاً؟"

"اثنين،" قال تشاكو.

"تشاكو. هل تحب صوفي مول أكثر من أي شئ في العالم؟"

"إنها ابنتي،" قال تشاكو.

فهمت راهيل هذا.

"تشـــاكو؟" هل من الضروري أن يحب الناس أطفالهم أكثر من أي شئ في العالم؟"

"ليس هناك قواعد،" قال تشاكو. "ولكن الناس عادة ما يفعلون هذا."

"تشـــاكو، على سبيل المثال،" قالت راهيل. "فقط على سبيل المثال، هـــل من الممكن أن تحب آمو صوفي مول أكثر منى ومن إيستا؟ أو هل بإمكانك أن تحبني أكثر من صوفي مول مثلاً؟"

"كـــل شـــئ ممكن في الطبيعة البشرية،" قال تشاكو بصوته القرائي الجمهـــوري. موجهـــا كلامه الآن للعتمة، لا مباليًا بابنة أخته الصغيرة ذات نافورة الشعر. الحب. الجنون. الأمل. المتعة اللانهائية.

ضمن الأشياء الأربعة الممكنة في الطبيعة البشرية، اعتقدت راهيل أن المـــتعة النهائـــية لها أكثر الأصوات حزنًا. ربما بسبب الطريقة التي نطقها بها تشاكو.

المـــتعة اللانهائـــية. مـــع صوت كنيسة. مثل سمكة تعيسة مغطاة بالزعانف، فراشة باردة رفعت ساقًا باردة.

تلـــوي دخـــان الســـيجارة في الليل. واستلقى الرجل البدين والبنت الصغيرة يقظين صامتين.

على بعد عدة غرف، كان ايستا يقظًا، بينما العمة الكبري بيبى تغط في الشخير.

كانـــت آمـــو نائمـــة وبدت جميلة في ضوء الشارع الأزرق الذى تقطعه القضبان ويدخل من النافذة المسيجة بقضبان زرقاء. على وجهها ابتسامة نائمة تحلم بالدلافين. والزرقة العميقة المسيجة. كانت ابتسامة لا تنبئ أن صاحبها قنبلة على وشك الانفجار.

مشـــى إيســتا وحــده إلى الحمام ينتابه شعور بالمغص. تقيأ سائل ليمونـــي، براق، حرير، له هسيس. المذاق اللاذع لما تبقى في الفم. هو طعم الصدام الأول لرجل صغير مع الخوف. دام دام.

شــعر بقلــيل من التحسن. ارتدى حذاءه وخرج من الغرفة. رباط حذائــه يجرجر على الارض، أسفل الكوريدور، وقف بهدوء على باب راهيل.

وقفت راهيل علي كرسي وفتحت المزلاج له.

لــم يرهق تشاكو نفسه بسؤالها عن كيفية معرفتها بأقل من الممكن ان يكــون الواقف الباب هو ايستا. فقد اعتاد تصرفاتهم الغريبة هذه من حين لآخر.

كان يرقد مثل حوت علي الساحل في سرير الفندق الضيق وتساءل عبــثا مــا اذا كان فيليوتا هو حقيقة الرجل الذي رأته راهيل. لم يرجح هــذا. لقد كان فيليوتا كثير الذهاب له. كان بارفان له مستقبل. تساءل ما إذا كــان فيليوتا قد أصبح حامل لبطاقة الحزب الماركسي؛ وما إذا كان قد رأي الــ "رفيق ك. ن. م. مؤخرًا

في أوائل العام، حدث لطموحات الرفيق بيلاي السياسية طفرة غير مـتوقعة. اثنيــن من الأعضاء المحليين في الحزب، الرفيق جــ. كاتو كــاران والرفيق جوهان مينون قد طردا من الحزب لما حام حولهما من شكوك تقول بأنهما ناكاليتيين. أحدهما ــ الرفيق جوهان مينون ــ أُخبر ســرًا بأنـــه ســيكون مرشــح الحــزب عن كوتايام بانتخابات المجلس التشــريعي خـــلال مــارس القادم. وخلق طرده من الحزب فراغا جعل عــددا من الطموحين يناورون لملأ هذا الفراغ. من بينهم الرفيق ك. ن. م بيلاي.

بــدأ الرفيق بيلاي يراقب سير الأمور في مخللات الجنة عن كثب وكأنـــه أحــد البدلاء في مباراة كرة قدم. إقامة اتحاد عمال جديد، رغم صغره، آملا أن تكون فيها دائرة الانتخابات في المستقبل، سيكون بداية ممتازة لرحلة صوب المجلس التشريعي.

حتى ذلك الحين، أصبحت كلمة رفيق! رفيق! (كما أقرتها آمو) لا تــتجاوز كونهــا لعــبة تسـلية خارج ساعات العمل. لكن إذا ما زادت

المخاطـــر، وانتزعت عصا القيادة من يد تشاكو، فالجميع يعرفون (فيما بعد تشاكو) أن المصنع، الغارق فعلاً في الديون، سيدخل في أزمات أقل مــن الحــد الأدنى من المعدلات التي حددتها اللجنة النقابية. بالطبع كان تشاكو نفسه هو الذي وضح هذه المسالة للعمال، ووعدهم أنه بمجرد أن تتحسن الأوضاع، سيتم مراجعة أجورهم. اعتقد أنهم يثقون به ويعرفون أنه يحمل في قلبه أجمل آمالهم.

لكـــن، هناك شخص ما كان يعتقد في العكس. كل مساء، بعد انتهاء ورديـــة المصـــنع، كـــان الرفيق ك. ن. م بيلاي يعترض طريق عمال مصنع مخللات الجنة ويقودهم إلى مطبعته. وبصوته المزماري الزاعق كـــان يستحثهم على الثورة. واستطاع في خطاباته أن يحقق مزيجًا رائعًا مــن القضـــايا المحلية السديدة والبلاغة الماوية العظيمة التي لها صدى عظيمة باللغة المالايالام.

"يـــا شـــعوب العـــالم"، كان يصرصر، "كونوا شجعان، لا تخشوا القـــتال، تجاوزوا الصعاب، وتقدموا موجة بعد أخرى. ساعتها سيصبح العالم ملكا للشعب. سوف تدمر كل أنواع الوحوش. لا بد أن تطالبوا بما لكـــم من حقوق. علاوات سنوية، صندوق ادخار، تأمين ضد الحوادث،" وطالمـــا كانـــت هـــذه الخطابات جزئيًا عبارة عن مران لإلقاء خطبة، كعضـــو محلـــي فـــي المجلس التشريعي، لأن الرفيق بيلاي عندما كان يخاطـــب الملاييـــن المحتشـــدة، كـــان هـــناك شئ غريب في طبقاتهم أونـــبرانهم. كان صوته متخمًا بحقول الأرز الخضراء والألوية الحمراء ترفـــرف مقوســـة بعرض سماوات زرقاء بدلاً من حجرة صغيرة حارة ورائحة حبر الطابعة.

لم يعترض الرفيق ك. ن. م بيلاي أبدًا على تشاكو صراحة. عندما كـــان يشـــير إليه في خطاباته كان حريصًا على تجريده من أي خواص إنســـانية مميزة، وطرحه في صورة تجريدية.لموظف في سياق خريطة أكثر اتساعا بناء نظري. بيدق في المخطط البرجوازي المتوحش لإفساد الـــثورة. لـــم يشر إليه أبدًا بالاسم، لكن دائمًا على أنه "الإدارة". كما لو كان تشاكو عدد كبير من الناس. بعيدًا عن كونه أصح ما يمكن القيام به مـــن الناحـــية التكتيكـــية، ساعد هذا الفصل بين الرجل ووظيفته الرفيق

بيلاي في أن يحتفظ بصفاء وعيه فيما يخص تعاملاته التجارية الخاصة مـــع تشـــاكو. فتعاقده على طباعة كل ملصقات مخللات الجنة كان يدر عليه دخلا هو في أمس الحاجة إليه.

أقـــنع نفسه بأن تشاكو العميل وتشاكو الإدارة مختلفين عن بعضهما تمامًا. وبالطبع منفصلين تماما عن تشاكو الرفيق.

فيليوتا كان هو العائق الوحيد في خطط الرفيق ك.ن.م بيلاي. فبين جمـــيع العمـــال فـــي مخللات الجلة كان هو الوحيد الذي يحمل بطاقة عضـــوية للحزب، مما منح الرفيق بيلاي حليفًا لم يكن بحاجة إليه. كان يعرف أن كل العمال من غير طبقة المنبوذين في المصنع يستاءون منه لأســـباب قديمة خاصة بهم. كان الرفيق بيلاي يخطو بحرص حول هذه المشكلة، مترقبًا فرصة مناسبة لتسويتها.

ظل على اتصال مستمر بالعمال. جعل معرفة كل ما يدور بالضبط فـــي المصـــنع شـــغله الشـــاغل. كـــان يسخر منهم لقبول الأجور التي يتقاضونها، بينما حكومتهم، حكومة الشعب، تعتلي السلطة.

عـــندما كان بوناتشن، المحاسب الذي يقرأ الصحف لمماتشي، يأتي بأخـــبار عـــن أحاديـــث بيـــن العمال يطالبون فيها برفع الأجور، كانت مماتشـــي تستشـــيط غضبًا. "قل لهم اقرءوا الصحف. نحن على أبواب مجاعـــة. ليس هناك وظائف. الناس يتضورون جوعًا. عليهم أن يكونوا شاكرين على ما لديهم من عمل."

عـــندما كـــان أي شـــئ يحـــدث في المصنع، كانت الأخبار تُنقل لماماتشـــي وليس لتشاكو. ربما لأن ماماتشي كانت تتوافق وبشكل ملائم مـــع النصـــاب المألوف للأشياء. كانت المودالالي. كانت تلعب دورها، رغـــم فظاظتها، كانت مباشرة ومتوقعة. تشاكو على النقيض، ورغم أنه كان رجل البيت، ورغم أنه كان يقول، "مخللاتي، مرباتي" وبنفس صفة الملكـــية مـــع مســـاحيق الكاري، كان مشغولا بمحاولة تغيير الأعراف لدرجة أنه طمس خطوط المعركة.

حاولت ماماتشي أن تحذر تشاكو. كان يستمع لما تقول، لكنه حقيقة لـــم ينصت لما كانت تقوله. لذلك برغم دوي الامتعاض المبكر من مبنى

مخلـــلات الجـــنة، فقـــد استمر تشاكو، كإعادة للثورة، يلعب لعبة رفيق! رفيق!

فـــى تلك الليلة، وعلى سريره الضيق في الفندق، فكر بهدوء نائم فـــي الاستيلاء على الرفيق بيلاي عن طريق تنظيم عماله في نوع مـــن الاتحاد العمالي الخاص. كان سيعقد انتخابات لهم. ويدعوهم للتصـــويت. وباســـتطاعتهم تبادل الأدوار في انتخاباتهم كممثلين. ابتســـم لفكرة عقد مائدة مفاوضات مستديرة مع الرفيق سوماتي ، أو، الأفضل منه، الرفيق لوسي كاتي صاحب الشعر الأكثر جمالاً.

عادت أفكاره إلى مارجريت، كوتشاما وصوفي مول. أطواق حـــب شرسة ضاقت على صدره حتى أنه كان يتنفس بالكاد. ظل يقظا يعد الساعات المتبقية لهم قبل المغادرة للمطار.

علـــى السرير المجاور، ابنة أخته وابن أخته ينامان ودراعي كل منهما تطوقان الآخر. توأم ساخن وتوأم بارد. هو وهي. نحن. "US" إلـــى حد ما ليسا غير مدركين تمامًا لشارة الهلاك وكل ما ينتظرهما فى الأمكنة القصية.

كانا يحلمان بنهرهما.

بأشجار جوز الهند التي تميل فيه، وتشاهد بعيون جوز الهند، القـــوارب وهـــي تمـــر مفلســـة. أعلى المجرى كل صباح. أسفل المجـــرى كـــل مســـاء. والصوت الكئيب الجهم لأعمدة المراكبين المصنوعة من البامبو وهم يضربونها بجسم القار بالقاتم المضمخ بالزيت.

كان دافئا، الماء، أخضر قاتم. مثل حرير نمنم متموج.

والسمك في خضنمه.

وفي الليل، القمر الأصفر المهشم في غياهبه.

عـــندما ســـأما الانـــتظار، صعدت روائح العشاء متسللة للستائر، وانزلقـــت عبر نوافذ الـــ سى الـــ سي كوين لتراقص الليل بعيدًا على البحر المفعم برائحة العشاء.

كانت الساعة تقترب من الثانية إلا عشر.

-5-

موطن الإله

بعـــد هـــذا بسنوات، عندما عادت راهيل إلى النهر، حياها بابتسامة من جمجمـــة شـــاحبة، بهـــا ثقوب كانت من قبل أماكن للأسنان، ويد واهنة ترتفع ملوحة من سرير مستشفى.

كلا الشيئين قد حدث.

النهر قد تقلص. وهي قد كبرت.

أســـفل النهر، أقيم خزان للماء المالح. في مقابل استقطاب أصوات لوبـــي مزارع الأرز المؤثر. الخزان قد نظم تدفق الماء المالح من المياه الخلفـــية المفـــتوحة علـــى الـــبحر العربـــي. لذلك فهم الآن يحصدون المحصول مرتين بدلاً من مرة واحدة. أرز أكثر، في مقابل ثمن النهر.

رغـــم الحقيقية التي تقر بأننا في يونيو، والجو مطير، النهر لم يعد الآن ســـوى مصـــرف مياه منتفخ: شريط نحيل من المياه الكثيفة تلتف بضجر حول الضفاف الطينية على الجانبين، مزرقش بمنحدر فضي من الســـمك الميت. كان مختنقا بسبب العشب الغضن الذي تشابكت جذوره البنـــية المغطـــاة بفـــرو مثل شعيرات لامسة رفيعة تحت الماء. خباب الزنبق بأجنحته البرونزية كان يمشي عبره. حذراً بأقدامه المفلطحة.

ذات يـــوم كـــان لديه القدرة على أن يبعث على الخوف. أن يغير الحـــيوات. لكـــنه اليوم قد غاصت أسنانه، وتلاشت روحه. أصبح فقط مجـــرد شـــريط مـــن المرج المخضوضر الموحل الذي يعبر بفضلات الطعـــام الآســـنة إلى البحر. أكياس بلاستيكية لامعة تهب متطايرة عبر ســـطحها العشـــبي المقـــزز كأنهـــا أشجار شبه استوائية طائرة. الدرج الحجـــري الـــذي كـــان يقـــود المستحمين ذات يوم لأسفل حيث الماء، وصـــيادي الســـمك للسمك، أصبح عارياً تماما ويقود من المجهول إلى

المجهول، مثل أثر ناتئ سخيف لا يحيي ذكرى شئ. السرخس يندفع موغلاً فى الشقوق.

على الجانب الآخر من النهر، تغيرت الضفاف الطينية العالية بغتة وتحولت إلى حوائط طينية خفيفة لمخيمات عشوائية. الأطفال يدلون مؤخراتهم على الحافة ويتغوطون مباشرة على الوحل الناعم الموحل للنهر العالي. الأطفال الأصغر سناً يتركون رشرشات من خطوط خردلية لتأخذ طريقها لأسفل. عند المساء، يوقظ النهر نفسه ليقبل عروض النهار ويَعْبُر للبحر، تاركا خطوط متشابكة من الطفح الأبيض الكثيف فى أعقابه. أعلى النهر، الأمهات النظيفات تغسلن الملابس والأواني فى سيول خالية من نفايات المصانع. الناس تستحم. جذوع مبتورة تغسل نفسها بالصابون، مُتراصة مثل صدور على شريط مرج صخري رفيع فى الأيام الدفيئة كانت رائحة البراز ترتفع فوق النهر وترفرف على آيمينيم كأنها مظلة.

بعيداً في عمق اليابسة، قامت سلسلة فنادق خمس نجوم بشراء قلب الظلام بيت التاريخ (حيث تهامس ذات يوم أسلاف تنضح الخرائط بروائحهم) لم يعد من الممكن رؤيته من النهر. لقد أدار ظهره إلى آيمينيم. ضيوف الفندق يُحمَلون عبر المياه الخلفية، مباشرة من كوتشين. يصلون بالقوارب السريعة، التى تفتح أمامها خط من الزبد على هيئة حرف V تاركة خلفها غشاء قُزَحي من الجازولين.

المنظر جميل من الفندق، ولكن الماء هنا سام وكثيف أيضاً. وُضِعَتْ علامات ***ممنوع السباحة*** مكتوبة بخط زخرفي. قاموا ببناء حائط عال ممتد ليحجب الحي الفقير ويمنعه من التجاوز والتعدي على ضيعة كارى سايبو. أما حيال الرائحة فلم يكن لديهم ما يفعلونه.

لكنهم كانوا يملكون حماماً للسباحة. وقوائم طعامهم تتضمن البومفريت تاندورى والكريب سوزيت الطازج.

لم تزل الأشجار خضراء، وكذا السماء زرقاء، مما كان يبرر شيئاً ما. لذا فقد ذهبوا مباشرة وكتموا الجنة المفعمة بالروائح ــ "موطن الإله" كما أطلقوا عليها فى كتيباتهم الإعلانية ــ لأنهم كانوا يعرفون،

أناس الفندق هؤلاء، أن الرائحة الكريهة مثل فقر الآخرين، ليست سوى مجـرد اعتـياد. مسألة مران. مسالة برودة أو تكيف هواء لا شئ أكثر من ذلك.

تـم تجديد وطلاء بيت كاري سايبو. لقد أصبح تحفة تحتل مركز الوسط بـتقاطعات أنـيقة معقـدة ذات قـنوات صناعية وكباري ربط. قوارب صـغيرة تـنقر في الماء. البنكلة* الاستعمارية العتيقة بشرفتها الواسعة العميقة وأعمدتها الدُوْرِيّة**، كانت محاطة بمنازل خشبية، أصغر، أكثر قدمـا ــ بـيوت الأسلاف ــ التي اشترتها شركة الفنادق من العائلات القديمـة ونقلـوا فـي قلب الظلام ألعاب تاريخية لأثرياء السائحين كي يلعـبوا فـيه. مـثل حـزم الأرز فـي حلم جوزيف، مثل جمهور من المواطنيـن الشغوفين يستجدون أحد القضاة الأنجليز، تم تنظيم المنازل القديمـة حـول بيـت التاريخ في أوضاع مختلفة. التراث "هكذا سُمِّيَ الفندق".

كـان موظفـو الفـندق يخبرون نزلائهم أن أقدم المنازل الخشبية، بمخـزنه المحكـم الإغـلاق المصـفح الذي يمكن أن يتسع لأرز يكفى لإطعـام جيش سلويًا، كان منزل الأسلاف للرفيق إ.م.س نامبوديرباد، "ماوتسـى تونج" كيرالا، هكذا كانوا يقولون للسائحين الأجانب. الأثاثات والـتحف الرخيصـة التى أتت مع المنزل كانت معروضة. شمسية من الـبوص، كرسـي هـزاز. صندوق مهر خشبي. هذه الأشياء وصفت بملصـقات كتـب عليها شمسية كيرالا التقليدية وصندوق مهر العُرس التقليدي.

هكذا الأمر حينئذ، التجارة تستعين بالأدب والتاريخ، كورتز وكارل مـاركس وقـد تشـابكت أكفهما لتحية الضيوف الأثرياء حين يغادرون القارب باتجاه الفندق.

---

* بنكلة = بيت من طابق واحدة (المترجم)

** دورية = DORIC نسبة إلى دوريس من بلاد اليونان (المترجم)

بيت الرفيق نامبوديرباد قد تحول إلى مطعم الفندق، حيث سائحون بمايوهات سباحة وبشرات شبه برونزية من لفح الشمس يحتسون ماء جوز الهند الطري (الذى يقدم لهم فى محارة)، والاشتراكيون القدامى يعملون الآن كجرسونات وضعاء يرتدون الملابس الشعبية الملونة، ويتقدمون مطأطأي الرؤوس بإذلال خلف صواني المشروبات التى يحملونها. فى الأماسي (لإضفاء الصبغة المحلية) يدُعى السائحين إلى عروض الكاثاكالى المختصرة المبتورة ("عروض قصيرة" كانت الإدارة توضح للراقصين). لذا فقد بترت القصص التاريخية ومُسخت. ست ساعات من الكلاسيكيات واختزلتها إلى عشرين دقيقة من اللوحات المتنافرة.

كانت العروض تؤدى إلى جوار حمام السباحة. وبينما الراقصون يرقصون والعازفون يقرعون الطبول، كان ضيوف الفندق يمرحون مع أطفالهم فى الماء! بينما كونتى تكشف سرها لكارنا، أزواج من العشاق يدلكون بعضهم البعض بالزيوت الواقية من الشمس بينما الآباء يلعبون ألعابا جنسية مهذبة مع بناتهم العاتقات المراهقات. كان بوثانا يرضع ثدي الصغيرة كريشنا المسم. بينما يبقر بطن دوشاسابا ويغسل شعر دراوبادا فى دمه.

الشرفة الخلفية من منزل التاريخ (حيث التقى مجموعة من الشرطيين لتفقد حالة الأمن حيث انفجرت إوزة مطاطية) قد أغلقت وتحولت إلى مطبخ مكشوف للفندق.

لا شئ أسوأ من الكباب ومهلبية الكراميل يحدث هناك الآن. الفزع قد صار من الماضي، لقد طغت علية رائحة الطعام. أسكتته همهمات الطباخين. التقطيع السريع البهيج للزنجبيل والثوم. بقر بطون الحيوانات اللبونة الأصغر ـ الخنازير، الماعز. تقطيع اللحم على شكل مكعبات. تقشير السمك.

ثمة شئ يستلقي دفينًا في باطن الأرض. تحت العشب. تحت ثلاثة وعشرين عاما من مطر يونيو.

شئ صغير منسي.

لا شئ يفنيه العالم.
الساعة البلاستيكية لطفلة وقد رسم عليها الوقت.
كانت ساعتها تعلن الثانية إلا عشرة.
عصابة من الأطفال يقتفون أثر راهيل فى مشيتها.
"هـــلا، أيـــتها الشــــاذة المستنكرة،" يقولون، خمسة وعشرون عاما متأخرا جدًا.
"ما اسمك؟ ?Whatisyourname"
ثـــم يقذفهـــا شخص ما بحجر، فتتلاشى طفولتها، بذراعين نحيلتين منجرحتين.

فـــى طـــريق عودتهما، دائريًا حول منزل آيمينيم، ظهرت راهيل على الطـــريق الرئيســـي. هنا أيضًا المنازل سرعان ما نمت وزالت، وكانت الحقـــيقة الوحيدة أنها توارت تحت الأشجار، وأن الطرقات الضيقة التى تـــتفرع مـــن الطريق الرئيسي وتؤدى إلى البيوت لم تكن تتسع لمرور الســـيارات، ممـــا منح آيمينيم سمت الهدوء القروي؛ فى الواقع لقد تزايد سكانها بما جعلها فى حجم مدينة صغيرة. فوراء المظهر الهش للخضرة الاصـــطناعية، يعـــيش مجموعـــة مـــن الناس بإمكانهم التجمع فى لمح البصـــر. لضرب سائق باص طائش ضربًا يفضي إلى الموت، لتحطيم الـــزجاج الأمامـــي لســـيارة تجـــرأت على الاقتحام فى يوم تخرج فيه مظاهـــرة احـــتجاج لســـرقة انسولين بيبى كوتشاما المستورد وكعكات الكريمة التى أتت بها من بعيد، من أحسن مخابز كوتايام.
خـــارج لاكي بريس، كان الرفيق ك.ن.م بيلاى واقفاً على السور يتحدث لرجل على الجانب الآخر من السور. كان ذراعي الرفيق بيلاى يـــتقاطعان على صدره، قابضا إبطيه بشدة، كأنما شخص ما قد طلب أن يعـــيرهما له، فرفض لتوه. كان الرجل الواقف قبالته يسلمه مجموعة من الصـــور الفوتوغرافـــية فى جراب بلاستيك باهتمام مدبر. كانت الصور بالـــتحديد لابن الرفيق ك.ن.م بيللاى لينين، الذي يعيش ويعمل فى دلهي ـــ يقـــوم بأعمـــال الدهانـــات، والســـباكة، وأي أعمال كهربائية ـــ في

السـفارتين الهولـندية والألمانـية. ولكي يتحاشى مخاوف عملائه فيما يخـص اتجاهاته السياسية، فقد غير في اسمه تغييرا طفيفاً الآن ليسمى نفسه ب. ليفن.

حاولـت راهيل أن تمر به دون أن يراها. عبثًا تخيلت أنها تستطيع أن تفعل هذا.

"أيسـو، الصـغيرة!" قال الرفيق ك. م. ن بيللاى مدركاً إياها على الفور." أتتذكريني؟ العم الرفيق؟".

"بالطبع" قالت راهيل.

هل تتذكرته؟ حقاً تتذكرته.

لـم يكـن للسـؤال ولا للإجابة مغزى سوى تمهيد مهذب للحوار. كلاهمـا، هو وهى، يعرفان جيداً أن هناك أشياء يمكن أن تنسى. وأشياء لا يمكـن نسيانها ـ تجلس على الأرفف المتربة كطيور منتفخة بعيون خبيثة تحدق يمينًا ويساراً.

"إذن!" قال الرفيق بيلاى "أحسبك فى أمريكا الآن؟"

"لا" قالت راهيل "أنا هنا"

"نعم، نعم"، بدا متعجلاً قليلاً، "ولكن دون ذلك، أعتقد؟"

الرفـيق بـيلاى لـم يفك تقاطع ذراعيه على صدره. حلمتاه كانتا تحدقان فى راهيل من فوق السور مثل عيني سانت برنارد الحزين.

"هـل عرفـتها؟" سـأل الرفيق بيلاى الرجل الذى يحمل الصور، مشيراً بذقنه إلى راهيل. الرجل لم يتعرف عليها.

"مصنع مخللات الجنة القديم ابنة ابنة كوتشاما،" قال الرفيق بيلاى.

بـدا الـرجل مرتـبكاً. الغرابة تبدو واضحة عليه. ليس من أكلى المخللات. حاول الرفيق بيللاى محاولة مختلفة.

"بانـيان كونجو؟" سأل. ظهر بطريرك إنطاكية لبرهة فى السماء ـ ولوح بيده المتيبسة.

بدأت الأشياء تأخذ موضعها لدى الرجل الذي يحمل الصور. فأوما بحمـــاس. "ابـــن بانـــيان كونـجو؟ بينان جون آيب؟ الذى كان يعيش فى ديلهى؟" قال الرفيق بيللاى.

"آيوه، نعم، تذكرت" قال الرجل.

هذه هي ابنة ابنته. فى امريكا الآن.

الـــرجل الـــدي يومئ أوما عندما أتضـح له خط العائلة التى تنحدر مـــنها راهـــيل. آيوه، نعم، تذكرت، في أمريكا الأن، أليس كذلك "لم يكن هذا سؤلا." كان محض إعجاب.

تذكـــر بشـــكل ملتبس فوح فضيحة. لقد نسى التفاصيل، لكنه تذكر أنهـــا كانت تنطوي على جنس وموت. لقد كانت على صفحات الجرائد. بعـــد بـــرهة مـــن الصمت وسلسلة أخرى من الإيماءات الضئيلة، سلم الرجل حافظة الصور للرفيق بيللاى.

تمام إذن، يا رفيق سأمضـى.

كان يريد اللحاق بالباص.

"وهكـــذا!"، اتسعت ابتسامة الرفيق بيلاى وهو يلتفت لراهيل موجهًا كل اهتمامه لها كأنه ضوء بطارية. كانت لثتة وردية رائعة، مكافئة عن حـــياته النباتية التي لم يتراجع عنها طول عمره. نوع من البشر يصعب عليك أن تتخيل أنه كان قد ولد ذات يوم. أو رضـع. كان يبدو وكأنه ولد فى منتصـف عمره. بمنبت شعر منحسر.

"وزوج الصـغيرة؟" كان يريد أن يعرف.

"لم يأت."

"أي صورة له؟"

"لا."

"ما اسمه؟"

"لاري لورانس."

"ياه. لورانس " أوما الرفيق بيلاى وكأنه يوافق على الأسم. كأنه قد منح حق الاختيار، وأن هذا الأسم هو جد الأسم الذى كان سيختاره.

"أهناك أي حدل؟".

"لا"، أجابت راهيل.

"هذا الأمر في طور التخطيط، اعتقد؟ أو متوقع؟".

"لا."

"طفـل واحـد ضـروري ولد أو بنت. أيهما،" قال الرفيق بيلاى. اختيارك هو اثنان بالطبع.

"لقد انفصلنا." تمنت راهيل لو تصدمه فيخرس.

"إنـ ــ فصلتما؟" ارتفع صوته بنبرة اندهاش انهارت معها علامة الإستفهام.حتى إنه نطق الكلمة كأنها أحد أشكال الموت.

"هـذا أسوأ شئ." قال، عندما انتبه. ولسبب ما تراجع الى لغة غير معهودة. "أسوأ شئ."

خطر ببال الرفيق بيلاى أن هذا الجيل ربما كان يدفع ثمن انحداره من أسلاف برجوازيين. الأول مجنون. الثانية مطلقة. وربما عاقر.

ربمـا كانـت **هـذه** هـي الـثورة الحقيقية. لقد بدأ البرجوازيون المسيحيون فى تدمير أنفسهم.

خفـض الرفـيق بيللاى صوته كأن هناك من يتصنت، رغم أنه لم يكن من أحد حولها.

"إيستا؟" تهامس بسرية. "ماذا عنه؟"

"بخير"، أجابت راهيل. "هو على ما يرام."

رائع. هادى وبشرته بلون العسل. يغسل ملابسه بصابون مفتت.

"أيـوو بافـام،" همـس الرفـيق بـيلاى وسقطت حلمتاه بارتياح ساخر."مسكينة.".

تعجبت راهيل، ما الذي جناه بطرح تساؤلاته بحميمة مفرطة، دون أن يعبأ بإجاباتها على الإطلاق. إنه بوضوح لم يكن يتوقع منها الحقيقة، لكن على الأقل لماذا لا يكلف نفسه التظاهر بالعكس؟

"لينيـن فـي نيودلهـي الآن، أخـيرا أعلن الرفيق بيللاى عن هذه الجملـة، دون أن يتمكن من إخفاء شعوره بالفخر. "تصورى. يعمل مع السفارات الأجنبية!"

أعطـــى راهـــيل الحافظـــة السيلوفان. كانت معظمها صور للينين وأســـرته. زوجته، طفله بدراجته الباجاج. كان هناك صورة للينين وهو يصافح رجل أنيق الملبس، رجل بوجه متورد جدا.

"السكرتير المالي الأول." قال الرفيق بيلاى.

بـــدا لينيـــن وزوجته مبتهجين فى الصور. كأنهم قد اشتروا ثلاجة جديدة ووضعوها فى غرفة الصالون، ودفعوا عربون الشقة فى DDA.

تذكـــرت راهـــيل الحادثة التى جعلت لينين يصبح موضع اهتمامها هي وإيســـتا كشخص حقيقي، حيث لم يعد مجرد طية أخرى فى سارى أمة. كانـــت هى وإيستا فى سن الخامسة، ربما كان لينين وقتها في الثالثة أو الـــرابعة من عمره. ألتقوا فى عيادة دكتور فيرجيز فيرجيز (أشهر أطباء الأطفـــال، ورافـــع معنويات الأمهات فى كوتايم). كانت راهيل مع آمو وأيســـتا (الـــذى أصر على مرافقتهما). كان لينين مع أمه، كاليانى. كان كـــلا مـــن راهـــيل ولينين يعانون من نفس الشئ ـ أشياء غريبة تسكن أعلـــى أنفـــيهما. هذا التطابق شاذ، حسبما يبدوا الأن، لكن لم يكن شاذاً هكـــذا حينـــئذٍ. كان غريبا أن تكون الاتجاهات السياسية كامنة حتى فيما يخـــتاره الأطفـــال لحشو أنوفهم. هي، حفيدة عالم الحشرات الإمبريالى، هو أبن الماركسي الصميم. هكذا، هي خرزة زجاجية، وهو نبات ماش.

كانت غرفة الانتظار مكتظة بالناس.

مـــن خلف ستارة الدكتور، أصوات متشائمة تغمغم، يقطعها عويل الأطفـــال المعقوريـــن. رنيـــن زجاج على معدن، وهمس فقاعات الماء المغلـــي. طفـــل يلعـــب بلوحة خشبية كتب عليها الدكتور بالخارج على الحـــائط، يملـــص الإطار النحاس لأعلى ولأسفل. طفل محموم مصاب بالحازوقـــة علـــى ثدى أمة. مروحة السقف البطيئة تقطع الهواء الكثيف المفزوع إلى خطوط لولبية لا نهائية تهبط ببطء للأرض مثل لحاء ثمرة بطاطس لا متناهية. لم يكن هناك من يقرأ المجلات.

من أسفل الستارة الخفيفة التى تمتد عبر مدخل الباب وتقود مباشرة إلـــى الشـــارع تأتى طرقعة متواصلة لقدمان خفيفتين فى شبشب. العالم الصاخب البرئ لهؤلاء الذى لا يحملون فى أنفهم شيئا.

آمـــو وكالـــيانى تـــبادلا الأطفـــال. رفعت الأنوف لأعلى، ومالت الـــرؤوس للخلـــف، وأديـــرت فى إتجاة الضوء لإدراك ما إذا كانت أم ســـتتمكن من رؤية ما فشلت فى رؤيته الأخرى. عندما فشل هذا، لينين، بملابـــس تشـــبه التاكســـي ــ قميص أصفر، شورت سترتش أسود ــ استعاد حجر أمه النايلون (وباكو التشيكلتس). جلس على زهور السارى ومـــن موقـــع القـــوة الآمن هذا استطاع مسح المشهد دون أنفعال. دس ســـبابته اليســـرى عميقاً فى فتحة أنفة الخاوية وتنفس بصخب من فمه. للينيـــن فـــارق جانبـــي لطـــيف. كـــان شعرة مسترسلا مصففا بزيت الآيورفيديك. علبة التشكلتس كانت ليمسكها قبل أن يره الطبيب، ويأكلها فـــيما بعد. كل شئ فى العالم كان على ما يرام. ربما كان صغيراً قليلا بمـــا لا يجعلة يدرك أن الجو فى غرفة الانتظار، بالإضافة إلى الصراخ الـــذى يأتى من خلف الستارة، يبعث منطقياً على تراكم شئ من الخوف الصحى الأعتيادي من الطبيب ف. ف.

فـــأر بأكـــتاف شائكة الشعر كان يقوم بعديد من الرحلات السريعة بين غرفة الطبيب وقاع الدولاب الموجود فى غرفة الإنتظار.

ممرضة تظهر وتختفي من خلال باب الطبيب بستارته المشرشرة. كانـــت تستعمل أدوات غريبة بمهارة. قارورة صغيرة. شريحة مستطيلة مـــن الزجاج عليها بقع دم. أنبوبة إختبار بها بول. صينية من الستانلس ســـتيل عليها إبر معقمة. شعر ساقيها كان مضغوطا مثل أسلاك ملفوفة تحـــت جوربها الطويل الأبيض الشفاف. الكعب المربع لصندلها الأبيض الواطئ كان باليًا من الداخل، مما جعل قدميها تنزلق داخله وتلتفان على بعضـــها. دبابـــيس الشعر السوداء اللامعة التى تشبه الثعابين المشدودة، كانت تضغط كاب الممرضة المنثني على رأسها المدهونة بالزيت.

بـــدت وكـــأن لـــنظارتها فلتر فئران. فلم تبدو وقد لاحظت الفار ذا الأكـــتاف الشـــائكة الشـــعر عـــندما فر هارباً أمام قدميها. كانت تنادى

الأسماء بصوت عميق. "أ. نينان...س. كوشو مالتا...ب. ف. (وشيني.. ن.امبادى. كانت تتجاهل الهواء اللولبى المذعور.

عيني إيستا كانتا مفزوعتان كطبقي فنجان. كان فى حالة تنويم مغناطيسي بسبب اللوحة التي كتب عليها الطبيب بالداخل الطبيب بالخارج.

مد قوامة الشعور بالذعر نما داخل راهيل.

"لنحاول ثانية، يا آمو."

امسكت آمو مؤخرة رأس راهيل بإحدى يديها. وبإبهامها ملفوفاً بمنديلها أغلقت فتحة أنف راهيل التى لم تكن مزدانة بخرزة. كانت كل العيون فى غرفة الإنتظار تحدق فى راهيل. كان هذا بمثابة إنجاز عمرها. استعدت ملامح إيستا لنفض ما فى أنفها. تجمعت الخطوط على جبهته وأخذ نفسا عميقا.

استجمعت راهيل كل ما ملكت من قوة. *يارب، أطردها خارج نفسي*. من أطراف قدميها، من قاع قلبها، نفخت بأنفها لطرد ما بداخله في منديل آمو.

وفى اندفاعه مخاط وراحة، ظهرت. خرزة بنفسجية زرقاء فى سرير لامع من المخاط. متألقة كما لو كانت لؤلؤة فى قوقعة. تجمع الأطفال حولها للمشاهدة. الولد الذى كان يلعب باللوحة كان مشمئزاً.

"بإمكاني أن افعلها بسهولة." صرح الولد.

"حاولها وسترى أي لطمة ستنزل بك" قالت أمه.

"الآنسة راهيل!" قالت آمو للمرضة." لقد لفظتها من أنفها. رفعت منديلها المتكرمش. لم يكن لدى الممرضة فكرة عن ما تقصده.

"كل شئ على ما يرام. سنغادر "قالت آمو. "لقد خرجت الخرزة."

"اللي بعده" قالت الممرضة، وأغلقت عينيها خلف فلتر الفئران.

"إنها تأخذ كل الأنواع" قالت لنفسها. "بن. ف. س. كوروب!"

أطلق الطفل المشمئز عويلا حين دفعته أمه إلى داخل غرفة الطبيب أغوار أنفه وفحصها بأدواته المعدنية الباردة، وتفحصها أمه بأدوات أخرى أكثر مرونة.

هكذا كان لينين وقتئذ.

الآن يمتلك منزلا ودراجة باجاج. زوجة وطفل.

أعادت راهيل جراب الصور إلى الرفيق بيلاى وحاولت أن تمضي.

"دقيقة واحدة" قال الرفيق بيللاي. كان يشبه مصباحَ فوق سور. يستميل الناس بحلمتيه ثم يفرض عليهم صور ابنه. يتصفح مجموعة الصور (دليل مصور لحياة لينين في دقيقة، حتى آخر صورة. *"هل لديك هذه الصورة؟"*

كانت صورة أبيض وأسود. صورة ألتقطها تشاكو بالكاميرا. الروفليكس التى أعطتها له مارجريت كوتشاما كهدية فى عيد الميلاد. أربعتهم كانوا فى الصورة.لينين، إيستا، صوفى مول وهى يقفون أمام الشرفة فى منزل آيمينيم. خلفهم زينة عيد الميلاد تتدلى من السقف على هيئة حلقات نجمة من الكرتون مربوطة فى مصباح. لينين و راهيل وإيستا بدوا مذعورين مثل حيوانات مرتعدة قد باغتها الضوء الأمامى للسيارة. الركب ملتصقة ببعضها، الابتسامة وقد تجمدت على الوجوه، الأذرع تسمرت إلى الجانب، الصدور مشدودة فى مواجهة الصورة. كما لو كأن الوقوف بجنب فى مواجهة الصورة ذنباً.

فقط صوفي مول، بخفة ومهارة العالم المتقدم، قد أعدت نفسها، للصورة التى سيلتقطها والدها البيولوجي. قلبت جفنيها للخارج حتى أن عينيها كانتا تشابهان ورقتا زهرة بعروق وردية (رمادية في صورة بالأبيض والأسود). كان تلبس طاقم ناتئ من الأسنان المستعارة مصنوعة من اللحاء الأصفر لليمونة. كان لسانها محشورا فى سقف أسنانها وبه كشتيان ماماتشى الفضي مثبتا فى طرفة. اختطفته يوم وصولها، وأقسمت أن تشرب فى هذا الكشتبان طول إجازتها.) كانت تمسك بشمعة مضاءة فى كل يد. كانت ترفع إحدى رجلي بنطالها المصنوع من قماش النيم، لتظهر عظمة ركبتها وقد رسم عليها وجه. قبل دقائق من التقاط هذه الصورة، كانت قد انتهت من شرحها المسهب لإيستا وراهيل (داحضة أي برهان على العكس، بالصور أو بالذكريات)

كـيف أن هناك فرصة جميلة رائعة تكمن في كونهما أولاد .،فاح، وما تعنـيه كلمة ابن سِفاح في الحقيقة. وهذا قد اقتصـى وحـ . ...تا، رغم أنه غير دقيق إلى حدٍ ما، للجنس." لتتصور أن ما يفعلاه هو ..."

كان هذا فقط قبل موتها بأيام.

صوفي مول.

التي كانت تشرب في كشتبان.

الحاملة في التابوت عربتها اللعبة.

وصلت على طائرة بومباي ــ كوتشين. مرتدية قبعتها، بنطالها ذا الفتحة أسفله ومثار الحب منذ البداية.

-6-
كانجرو كوتشين

فــي مطـــار كوتشين، كان بنطال راهيل القصير الواسع المنقط لم يزل مفـرودا بكيته. تم التدرب على البروفات. كان هذا هو يوم المسرحية. ذروة الأسبوع الذي ستعرض فيه مسرحية ماذا ستظن صوفي مول؟

صــباحاً في فندق سي كوين **Sea Queen**، آمو ــ التي كانت تحلم لــيلاً بالدلافيــن والــزرقة العميقة ــ ساعدت راهيل في ارتداء فستان المطار الخاص بها. كانت الانحرافات المحيرة في ذوق آمو، سحابة من الدانتــيلا الصــفراء المتصـــلبة بتباريق فضيةٌ صغيرة وقوس على كل كــتف. الجونلــة ذات الكشكشــات كانــت مشبوكة من الداخل بقماش الكــرباس مما جعلها واسعة منفوشة. كانت راهيل قلقة خشية ألا تكون الجونلة، حقيقية، غير لائقة مع نظارتها الشمسية.

أمســكت آمــو البنطال لــ"راهيل". راهيل، واضعة ذراعيها على كــتف آمــو، وارتــدت بنطالها الجديد (الساق اليسرى، الساق اليمنى) ولثمت آمو بقبلة على كلتا غمازتيها (الخد الأيسر، الخد الأيمن). انطبق الأستيك برقة على بطنها.

"شكرا، آمو" قالت راهيل.

"شكرا؟" تعجبت آمو.

"على فستاني وبنطالي،" قالت راهيل

ابتسمت آمو. "مبروك عليك، يا حبيبة قلبي،" قالت، ولكن بحزن.

مبروك عليك، يا حبيبة قلبي.

الفراشـــة الكامـــنة فـــي قلب راهيل رفعت ساقا وثيرة. ثم وضعتها ثانية. باردة كانت ساقها الصغيرة. قلَّ قليلا حب أمها لها.

كانــت الغــرفة فــي فندق سي كوين تنضح برائحة البيض والقهوة المصــفاة. في الطريق إلى السيارة، كان إيستا يحمل ترمُس الصقر وبه

مــاء الصــنبور. كانــت راهيل تحمل تُرمُس النسر وبه الماء المغلي. ترمُســان نسر، عليهما نسران مجوفان، بأجنحة مفرودة، وكرة أرضية فــي مخالــبهما. نسور مجوفة، هكذا ظن التوأمان، يشاهدان العالم طيلة النهار ويطيران حول تُرمُسيهما طيلة الليل. في تمام الصمت
كما يطير البوم، والقمر على أجنحتهما.

كــان إيستا يرتدى قميص أحمر بأكمام طويلة وياقة مدببة وبنطلون اسود. كانت نفشة شعره تبدو متصلبة ومشدوهة. مثل زلال بيض خُفِق جيدا.

إيســتا ــ علــى أساس ما، لابد أن يعترف به- قال أن راهيل تبدو حمقاء في فستان المطار الخاص بها. لذا لطمته راهيل فرد لها اللطمة.

لم يتحدث أيهما مع الآخر في المطار.

تشــاكو، الذي كان عادة ما يرتدي ماندو، كان يرتدى بدلة محبوكة مضحكة وعلى وجهه ابتسامة متأنقة. ضبطت له آمو رابطة عنقه، التي كانت غريبة ومنحرفة جانبا. كانت قد تناولت إفطارها وأحست بالشبع.

قالــت آمــو، "ما الذي حدث بغتة ــ لرجل الشعب والعامة؟" لكنها قالتها بغمازتيها، لأن تشاكو كان في غاية النشاط. في غاية السعادة.

لم يصفعها تشاكو.

لهذا لم ترد له الصفعة.

اشــترى تشــاكو مــن بــائع الزهور في فندق سي كوين وردتان حمراوان وأمسكهما بعناية.

بحرص.

بحب.

ســوق المطــار، الذي تديره، هيئة تنشيط السياحة في كيرالا، كان مكــتظا بتماثيل مهراجا الخطوط الهندية (صغير، متوسط، كبير)، أفيال من خشب الصندل (صغيرة، متوسطة، كبيرة) وأقنعة راقصي الكثاكالي المصنوعة من الورق المقوى (صغيرة، كبيرة، متوسطة).

كانت رائحة خشب الصندل الفواحة ومناشف الإبطين (صغيرة متوسطة وكبيرة) معلقة في الهواء.

في صالة الانتظار، تماثيل أسمنتية لأربعة من حيوانات الكانجرو بالحجم الطبيعي، بجيوب كُتِبَ عليها، "استخدمني". كانت جيوبها محشوة بأعقاب السجائر، وعيدان الثقاب المستخدمة، أغطية الزجاجات، قشر الفول السوداني. أكواب من الورق المقوى وصراصير.

بقع بصاق حمراء تُلطخ بطونها وكأنها جروح الجديدة.

كان الكانجرو يبتسم ابتسامة حمراء الفم.

وآذان لها حواف وردية.

بدا التمثالان كأنهما سيقولان "ماما" بصوت يتردد من بطارية فارغة، إذا ما ضغطت عليها.

عندما ظهرت طائرة صوفي مول في سماء بومباي ـ كوتشين سماوية الزرقة، اندفع الجمهور على القضبان الحديدية لرؤية كل شئ بشكل أوضح. كانت حالة الانتظار مفعمة بالحب والشوق، لأن رحلة بومباي ـ كوتشين هي رحلة الطيران التي يستقلها كان العائدين. أتت عائلاتهم للقائهم. من كل أنحاء كيرالا. في رحلات طويلة بالباص. من رانى، من كوميلى، من فيزنجام، من أوزافور. بعضهم عسكر في المطار لليلة بأكملها، وأحضروا معهم طعامهم.

جميعهم كانوا هناك – الأمهات المصابات بالصمم، المشاكسون، الأباء المصابون بالتهاب المفاصل، الزوجات المشتاقات، الأعمام والأخوال الماكرين، الأطفال. الخطيبات لإعادة تقييمهن. زوج المدرسة في انتظار تأشيرة السعودية الخاصة به. أخوات زوج المدرسة في انتظار مهورهن. زوجة عامل التليفونات الحامل.

"حسالة"، قالت بيبي كوتشاما بعبوس، وأشاحت بوجهها بعيداً، بينما كانت هناك أم لا تريد أن تتنازل عن موقعها الجيد قرب الحاجز الحديدي، تدس ذكر رضيعها المذهول داخل عنق زجاجة فارغة بينما هو يبتسم ويلوح لمن حوله من الناس.

سسس... هسهست أمه. في البداية محاولة إقناعه، ثم بشراسة، لكن رضيعها كان يحسب نفسه البابا. فكان يبتسم ويلوح ويبتسم ويلوح. بينما كان ذكره في الزجاجة.

"لا تنسوا أنكما سفراء الهند"، قالت بيبي كوتشاما لراهيل وإيستا. "إنكما سوف تشكلان أول انطباعاتهما عن بلدكما."

سـفيران توأمان لبويضة ثنائية اللقاح. سعادة السفير إلفيس بلفيس، وأخته السفيرة.

في ثوبها الدانتيلا المنشى ونافورة شعرها المربوطة بتوكة الحب-فـي- طوكـيو، كانـت راهـيل تـبدو مثل جنية مطار مفزعة. كانت مُحاصـرة بـأرداف رطـبة (كأنها ستكون ثانية في جنازة داخل كنيسة صـفراء) وشـوق جارف. لم تزل فراشة جدها تسكن قلبها. استدارت بعـيدا عـن الطائـر المعدني الصارخ في السماء السماوية الزرقة التي صـعدت لهـا ابنة خالها، وهذا ما قد رأته: حيوانات كانجرو لها أفواه حمراء عليها ابتسامات بلون الياقوت تتحرك بشكل أسمنتي عبر أرضية المطار.

على الكعب والأصابع

على الكعب والأصابع

أقدام طويلة مصابة بالفلات فوت.

في خابية أطفالهم الرضع فضلات طعام المطار.

أصـغرهم كانت تمد رقبتها مثل الناس الذين يفكون أربطة أعناقهم بعـد العمـل في الأفلام الإنجليزية. الوسطى تفتش في جيبها بحثا عن عقب سيجارة طويل لتدخنه. فوجدت حبة كاد هندي* في كيس بلاستيكي قـاتم. الكـبرى أخـذت تحـرك اللوحة الواقفة التي تقول: "هيئة تنمية السـياحة في كيرالا ترحب بكم". لوحة أخرى لم تحركها أنثى الكانجرو تقول "مرحبا في ساحل البهار الهندي."

بإصـرار انسـلت السـفيرة راهيل بين المحتشدين متجهة صوب أخيها وسفيرها المشارك.

إيستا أنظر! أنظر يا إيستا، انظر!

لـم ينظر السفير إيستا. لم يكن يريد. كأنه يشاهد الهبوط المحفوف بـالقلاقل والـتُرمُس النسـر الذي يحتوي على ماء الصنبور معلقا في

---

* جوز: شجرة في أمريكا اللاتينية له لُب يؤكل. (مترجم)

رقبـــته، شعور غامر لا حدود له: بائع شراب البرتقال والليمون يعرف أين يجده. في المصنع بأيمينيم. على ضفاف الميناتشال.

كانت آمو تشاهد بحقيبة يدها.

تشاكو بالورود التي يحملها في يده.

بيبي كوتشاما بحلقات اللحم التي تُطوق رقبتها.

حينـــئذ خــــرج ركــــاب طائرة بومباى- كوتشين. من الهواء البارد للهواء الساخن. ناس متكتلة تفتت وتتناثر إذ يمضى كلٌ منهم إلى طريقه في صالة الوصول.

وهــناك كــان المغـــتربون العـــائدون، يرتدون بدل (اغسل والبس Wash an Wear) ونظـــارات شمســـية قزحية الألوان. قادمون بحل ســـاحق للفقر في حقائب سفرهم الأرستقراطية. بأسقف أسمنتية لمنازلهم ذات الأســطح القـــش، وســـخانات لحمامـــات آبائهم. بأنظمة للصرف الصـــحي، وصــــهاريج للتفســـيخ. بفساتين الماكسي وأحذية ذات كعوب عالـــية. أكمـــام منفوشـــة وأصــــابع شــفاه. خلاطات مطابخ وفلاشات أتوماتيكـــية لكامـــيراتهم. بمفاتـــيح يعدونها ودواليب يحكمون إغلاقها. باشـــتهاء لأكلاتهم الشعبية التي لم يرونها على موائدهم منذ وقت طويل. بحـــب ومســـحة خزي من عائلاتهم التي قد أتت لمقابلتهم بهيئاتهم الرثة للغايـــة.لاحـــظ طريقة لبسهم! بالتأكيد لديهم ملابس أجمل للمطار! لماذا أهل الملايو لهم مثل هذه الأسنان المريعة؟

والمطار نفسه! يشبه إلى حد كبير مستودع الأتوبيس المحلى. براز الطيور على المبنى! آه بصاق على تماثيل الكانجرو!

آه! الهنـــــد تُباع للكلاب.

عـــندما قوبلـــت رحلات الباص الطويلة وليالي المبيت في المطار بالحب ومسحة الخزي، ظهرت شقوق صغيرة اتسعت، واتسعت قبل أن يعـــرفونها، ونصـــب للمغتربين العائدين مخبأ خارج بيت التاريخ، وقد اجترت أحلامهم.

وقتـــئذ كانـــت صـــوفي مـــول، بين البدل الووش، آند وير (إغسل والبس) وحقائب السفر اللامعة.

الشاربة في الكشتبان.

الحاملة لعربتها اللعبة في التابوت.

كانـــت تمشـــي أسفل الممر، رائحة لندن تفوح من شعرها. بنطالها الأصـــفر ذا الفـــتحة الواسعة أسفله يتراجع مهفهفاً حول مفصل قدمها. شـــعرها الطويل يطفو منساباً من تحت قبعتها القش. إحدى يديها في يد أمـها. الأخرى تتأرجح كيد جندي (شما، شما، شمال يمين).

كانت هناك
فتاة
طويلة
نحيلة
شعرها
شعرها
لونه رقيق
كلون الزنـــ ـ نجبيل (شمال شمال، يمين)
كان هنا
فتـــــــاة ـ

أمرتها مارجريت كوتشاما بأن تكف عن هذه الأغنية.
فتوقفت عن الغناء.
تلفتـــت حولهـــا بحـــثاً عـــن ابنتها ذات البنطال المنشى التي تُناجى الجيوب الأسمنتية. ذهبت وأحضرتها بتعنيف. قال تشاكو أنه لا يستطيع أن يحمل راهيل على كتفيه لأنه يحمل شيئا فى يده. وردتان حمراوان. بعناية.
عـــندما دخلـــت صوفي مول صالة الانتظار، راهيل، يلفها إحساس بالإثـــارة والغيظ، قرصت إيستا بشدة. جلده بين أظافرها. فأعطاها إيستا اســـورة صـــينية، لاويًا جلد معصمها يمينًا ويساراً بكلتا يديه. مما آلمها وتـــرك أثـــر الضغط أحمر على جلدها. عندما لعقت مكان الكدمة كان طعم جلدها مالحا. وكان اللعاب على معصمها بارداً مريحا.
لم تلحظ آمو مطلقا ما حدث.

عبر الحاجز الحديدي الذي يفصل العائدين عن القادمين للقائهم، المحيين عن المشمولين بالتحية، تشاكو، مبتهجًا، مندفعا في بدلته ورابطة عنقه المنحرفة جانبا، انحنى لابنته الجديدة وزوجته السابقة.

قال إيستا، في عقله، "انحن ."

"مرحبا، ياسادة،" قال تشاكو بصوته القرائي الجهوري (صوت ليلة أمس الذي قال به، الحب، الجنون، الأمل، المتعة اللانهائية.)

"وكيف كانت رحلتكما،"

وكان الهواء متخمًا بأفكار وأشياء تنتظر الإعلان عنها. لكن في مثل هذه الأوقات، الأشياء الصغيرة دائمًا هي التي تعلن. بينما الأشياء الكبيرة تبقى بالداخل، كامنة، غير معلنة.

قولي أهلا، وكيف حالك؟" قالت مارجريت كوتشاما لصوفي مول.

"أهلا، وكيف حالك؟" قالت صوفي مول عبر الحاجز الحديدي، لكل فرد على حدة .

"واحدة لك والأخرى لك؟" قال تشالكو بورديته.

"وشكرا لك؟" قالت مارجريت كوتشاما لصوفي مول.

"وشكرا لك؟" قالت صوفي مول لتشاكو ساخرة من علامة استفهام أمها.

هزتها مارجريت كوتشاما قليلاً لوقاحتها.

"مرحباً بكما،" قال تشاكو. " والآن اسمحوا لي بتقديم الجميع." ثم، إرضاءً للناظرين والمنصتين، لأن مارجريت كوتشاما لم تكن بحاجة للتقديم، حقيقة، "زوجتي، مارجريت."

ابتسمت مارجريت كوتشاما ولكزته بوردتها. زوجتك السابقة، يا تشاكو. رغم أنها لم تنطق بالكلمات مطلقا، ألا أنها صاغتها بشفتيها.

أي شخص استطاع أن يدرك أن تشاكو كان سعيدًا فخورًا لما كان لديه من زوجة مثل مارجريت بيضاء. ترتدي فستانًا منقوش بالزهور تبين ساقيها اسفل طرفه. و مش بني على ظهرها. وكذا نمش على ذراعيها.

لكن حولها، كان الهواء حزينا، إلى حدٍ ما. وخلف الابتساق التي تبين في عينيها، كان الأسى يافعا يسطع بالأزرق بسبب حادثة السيارة المفجعة. بسبب ثقب في الكون على هيئة جو.

"أهــلا بكــم جميعا،" قالت." أشعر وكأنني اعرفكم منذ سنوات". وأبنتي صـــوفي، قـــال تشاكو، واطلق ضحكة قصيرة عصبية، قلقة، خشية أن تقــول مارجريـــت كوتشـــاما، ابنك السابقة؛ لكنها لم تفعل. ضحكة كان يســـهل فهمها. ليست مثل ضحكة بائع شراب البرتقال والليمون التي لم يفهمها إيستا.

"هلا" قالت صوفي مول

كانــــت أطـــول مـــن إيستا. وأكبر، كانت عيناها زرقاوان قاتمتان. بشرتها الشاحبة كانت بلون شاطئ رملي. ونعم (أخ نعم!) كان لها أنف باباتشي تنتظر داخل أنفها. أنف عالم حشرات أمبريالي داخل أنف. أنف عاشقة للفراش. كانت تحمل حقيبة الـــ go-go الإنجليزية الصنع التي كانت تحبها.

"وأختي آمو" قال تشاكو

قـــال آمـــو أهـــلا بشكل ناضج لمارجريت كوتشاما وأهلا طفولية لصوفي مول.كانت راهيل تترقب بعين صقر محاولة أن تتحرى الى أي مدى أحبت آمو صوفي مول، لكنها لم تستطع.

دوى الضـــحك فـــي صالة الإنتظار وكلأنه نسيم مباغت. آدوور بازي، الممـــثل الكومـــيدي الشعبي والمحبوب في السينما المالايالام، قد وصل لـــتوه (بومـــباي- كوتشـــين). مثقلا بعدد من الطرود التي من الصعب التحكم فيها، وتملق شعبي مطمئن، شعر أنه مضطرٌ للتمثيل. استمر في تنزيل الطرود التي كان يحملها.

أطلق إيستا ضحكة إبتهاج صاخبة.

"انظـــري يـــا آمـــو! آدوور بازي يُنزل أشياءه!" قال إيستا "إنه لا يستطيع حتى أن يحمل أشياءه!.

"إنـــه يفعـــل هـــذا عمداً" قالت بيبي كوتشاما بلهجةبريطانية غريبة وجديدة عليها. "تجاهلوه فقط"

"إنـــه ممثل سينمائي" وضحت لمارجريت كوتشاما وصوفي مول، جاعلـــة مـــن آدوور بـــازي ممثلا يلعب أدواره صدفة" "يحاول فقط أن يجـــذب الأنتباه" قالت بيبي كوتشاما، رافضة بصرامة أن توليه اهتماما.

"عمتي بيبي" قال تشاكو.

تحـيرت صـوفى مول. حدقت فى بيبى كوتشاما بعينين متحجرتين. فقـط كانــت تعرف البقرة البيبى والكلب البيبى، والحنزير البيبى– نعم. (بعـد قليل كانت ستحدث راهيل عن الخفاش البيبى). لكن الغمة البيبى هذه قد أختلطت عليها.

قلبـت بيــبى كوتشـــاما "أهلا، مارجريت، و أهلاً؟، صوفى مول." قالت صوفى مول جميلة حتى أنها ذكرتها بعفريت غابة.بآريل.

"أتعرفين من هو آريل؟" بيبى كوتشاما سألت صوفى مول.

"شخصية آريل فى العاصفة؟"

أجابت صوفى مول بأنها لا تعرف

"حيث النحلة تلعق، ألعق أنا؟" قالت بيى كوتشاما.

أجابت صوفى مول بأنها لا تعرف

"أنا من يرقد فى زهرة أقحوان أصفر؟"

أجابت صوفى مول بأنها لا تعرف

"العاصفة، مسرحية شكسبير؟، أصرت بيبى كوتشاما

كـــل هـــذا بالطـــبع كـــان لـــتقديم أوراق إعـــتمادها لمارجريـــت كوتشاما.لتنأى بنفسها بعيدا عن الحثالة.

"إنهـــا تحـــاول أن تـــتفاخر"، همـــس السفير إ.بلفيس فى أذن أخته الســفيرة. فــرت قهقهـــة راهيل فى فقاعة خضراء مزرقة (لون ذبابة الفاكهة) وانفجرت فى الهواء الساخن. بففففت! كان صوت قهقهة راهيل.

رأتها بيبى كوتشاما، وأدركت أن أيستا هو الذى بدأها.

"والأن جـــاء دور الـــ VIPS" قال تشاكو (مازال يستخدم صوته القرائي عالي النبرة").

"إيستابن، ابن أختى."

"وإلفـــيس بريســـلى"، قالت بيبى كوتشاما منتقمة. "أخشى أن نكون متخلفين عن الزمن هنا"، نظر الجميع الى إيستا وضحكوا.

ارتفـــع شعور غاضب من نعل الحذاء البيجى المدبب للسفير إيستا وتوقف حول قلبه.

"كيف حالك يا إيستا؟"، قالت مارجريت كوتشاما.

"بخير شكرا"، رد إيستا بصوت مُتَجَهم.

"إيســتا"، قالت آمو بصوت ودود. "عندما يقول لك أحد كيف حالك؟ مـــن المفترض أن ترد قائلاً كيف حالك؟ وليس "بخير، شكراً" هيا، قل كيف حالك؟"

نظر السفير إيستا الى آمو.

"تفضل"، قالت آمو لإبستا. "كيف حالك؟"

عينيّ إيستا الناعستين كانتا عنيدتين.

قالت آمو باللغة المالايالام، "هل سمعت ما قالته لك؟"

شـــعر السفير إيستا بعينين زرقاوين قاتمتان تحدقان فيه، وأنف عالم حشرات إمبريالي. لم لديه عبارة تقول كيف حالك؟

"وإيســتابذ"، قالت آمو وشب داخلها إحساس غاضب وتوقف حول قلــبها. شديد الغضب بشكل تجاوز الغضب العادي. شعرت بالهوان إلى حـــد ما من جراء هذا التمرد العام في منطقة ولايتها. كانت تريد تحقيق إنجـــازا سلســـا.جائـــزة لطفلهـــا وطفلتها في مسابقة السلوك الهندو ـــ بريطانية.

قال تشاكو بالمالايالام، "من فضلك. فيما بعد، ليس الآن."

قالـــت عينـــي آمو الغاضبتان المحدقتان في إيستا، "*وهو كذلك.فيما بعد*."

أصبحت عبارة ***فيما بعد*** *مفزعة*،مثيرة للقلاقل والرهبة.

فيما بعد.

كأنهـــا صوت جرس مدوٍ في بئر يغطيه الطحلب.مرتعشة، مبطنة بالفرو كأنها قدم فراشة.

صارت المسرحية سخيفة؛ كأنها مخلل في اليسارة.

"وابنة أختي" قال تشاكو. "أين راهيل؟"، تلفت حوله لكنه لم يجدها. الســفيرة راهيل، لفت نفسها داخل ستارة المطار القذرة وكأنها قطعة من السجق، لعدم قدرتها على التوافق مع التغيرات التي تتأرجح في حياتها، ولـــن تخـــرج، قطعة سجق ترتدي صندل من باتا. "فقط تجاهلوها" قالت آمو. "إنها فقط تحاول لفت الأنظار".

كانـــت آمـــو مخطئة للغاية. لقد كانت راهيل فقط تحاول ألا تلفت الانتباه بقدر ما تستحق.

"أهلاً، راهيل" ، قالت مارجريت كوتشاما لستارة المطار القذرة.

"كيف حالك؟" أجابت ستارة المطار القذرة مغمغمة

"ألـن تخرجـي وتقولـي أهلا؟"، قالت مارجريت كوتشاما بصوت مُدرسـة ودود. (مـثل صـوت الأنسة ميتن قبل أن ترى الشيطان في عينيهما.)

لـم تخـرج السفيرة راهيل من الستارة لأنها لم تستطع. لم تستطع لأنها لم تستطع. لأن كل شئ كان خطأ. وحالا ستكون هناك عبارة فيما بعد لكلاهما هى وإيستا.

مليـئة بالفراشـات المُغـراه والفراشات المتجمدة. وأجراس عميقة الرنين. وطحلب،

وبومة المخازن.

ستارة المطار القذرة كانت راحة كبيرة، وظلمة، وحامية.

"فقط تجاهليها"، قالت آمو وابتسمت بحرقة.

كان ذهن راهيل متخما بصُوات لها عيون زرقاء رمادية الزرقة.

الآن آمـو تحـبها أقـل كثيرا. وأما تشاكو قد عكف على الأمور الجوهرية في الموضوع.

"هاهي الأقنعة!"، قال تشاكو مبتهجا. سعيدا لأنه أنتهى من الأمر.

"هيا، صوفيكينز، لنحضر حقائبكم."

صوفيكينز.

ترقـب إيسـتا بيـنما مشوا بطول الحاجز الحديدى، مندفعين بين الحشود المتزاحمة التى تحركت جانبا، تُرهبهم بذلة تشاكو ورابطة عنقه المنحرفة جانبا وسلوكه المندفع بوجه عام. بسبب حجم بطنه، بدا تشاكو طـيلة الوقـت وكأنه يمشى أعلى تل.متغلبا بتفاؤله على شدة الإنحدار، علـى المـنحدرات السزلقة للحياة. كان يمشى بطول جانب من الحاجز الحديـدى بيـنما مارجريت كوتشاما تمشى بطول الجانب الآخر ومعها صوفى مول.

صوفيكينز

فـزع الـرجل الجالس ذا الكاب والكتافات عند رؤيته بدلة تشاكو ورابطة عنقه المائلة جانبا، فسمح له بدخول قسم المستحقات.

حين لم يبقى هناك حاجز حديدى بينهم، قام تشاكوبتقبيل مارجريت كوتشاما، ثم حمل صوفي مول.

ٰواخر مرة حملتك فيها أبتل قميصى جزاءً لى على ما فعلت"، قال تشاكو ضاحكاً.

ضـــمها إلـــى صدره مُعانقاً ومُحتضنا إياها. قبل عينيها الزرقاوين رماديتا الزرقة، وأنفها أنف عالم الحشرات، وشعرها الكستنائي الرابض تحت قبعة.

حينـــئذ قالت صوفي مول لتشاكو، "مممممم ..... معذرة؟ هل تفضلت وأنزلتـــنى الآن؟ إننـــي م م م مـــم ......في الواقع غير معتادة على أن يحملني أحد."، لذا انزلها تشاكو.

رأى الســـفير إيســـتا (بعينين عنيدتين) أن بدلة تشاكو صارت بغتة فضفاضة أكثر و أقل اندفاعا.

وبيـــنما كان تشاكو يجمع الحقائب، من النافذة ذات الستارة القذرة، فيما بعد أصبحت الآن.

Twins for tea
It would bea

"وهو كذلك"، قالت آمو."كفاكما. أخرجي من عندك يا راهيل!"

داخـــل الســـتارة، أغلقت راهيل عيناها وفكرت فى النهر الأخضر، في السمك الهادئ السابح فى الأعماق، وفرفور الماء بأجنحته التى تشبه خـــيوط العنكـــبوت (التى يمكن أن ترى عبرها) فى الشمس. فكرت فى صـــفارتها المحظوظة التى صنعها فليوتا لها. كانت من البامبو الأصفر ومزودة بهماز يهتز غاطسا فى الماء كلما جذبت الصنارة سمكة حمقاء. فكرت فى فليوتا وتمنت لو كانت معه.

حينئذ كشف ايستا الستار عنها. كانت حيوانات الكانجرو الأسمنتية تترقب.

نظـــرت آمو إليهما. كان الجو ساكنا إلا من نبض شامة رقية بيبى كوتشاكا.

"هكذا"، قالت آمو.

وحقيقة كانت الكلمة سؤالا. أهكذا؟

ولم يكن لها إجابة.

طأطـــأ السفير ايستا رأسه، ورأى أن حذائه (من حيث تشب لأعلى مشـــاعره الغاضـــبة) كان بيجى ومدبب. طأطأت السفيرة راهيل رأسها

ورأت أن أصـــابع قدمهــا فـــي صندل باتا كانت تحاول أن تنفصل عن بعضها. تتخلع رغبة في الانضمام لقدميّ شخص آخر. وأنها لا تستطيع أن توقــف اخــتلاجها. عما قريب ستصبح بلا أصابع أقدام، وستصبح بعصابة مثل المجذوم الجالس عند المزلقان.

"ولــو أنك ثانية"، قالت آمو، "أعنى هذا، ثانية، ثانية على الإطلاق عصـــيتني أمـــام الناس، فتأكدي أنني سأرسلك بعيداً إلى مكان ستتعلمين فيه تماماً السلوك السليم.واضح؟"

كانــت آمـــو أثناء غضبها، تقول تماما جداً. عبارة تماما جداً كانت تعني كما ينبغي مشمولة بأناس موتى في حياتها.

"واــ ضـــ ـــ ح ؟" قالت آمو ثانية.

عيناها مفزوعتان ونافورة استداروا للنظر إلى آمو.

عينان ناعستان ونفشة شعر مذهولة استداروا للنظر إلى آمو.

رأسان أومأتا ثلاث مرات.

نعم وا ـــ ضح.

لكـن بيبـــي كوتشاما لم تكن ممتنة بإهدار موقفا كان ممتلئا للغاية. شمخت برأسها."كما لو كان؟" قالت.

كما لو كان؟

اســتدارت آمـــو لهـــا، وكانت استدارة رأسها سؤالا."لا جدوى من هـــذا"، قالـــت بيبـــي كوتشاما. "إنهما ماكران. سمجان. مخادعان. إنهما يشبهان وحشين. ليس بإمكانك السيطرة عليهما."

التفتــت آمو ثانية لإيستا وراهيل وكانت عيناها جوهرتان قاتمتان. "الجمـــيع يقولون إن الأطفال بحاجة إلى بابا. وأنا أقول لا. ليس أطفالي. أتعرفان لماذا؟"

رأسان أومأتا

"لماذا.أخبراني،" قالت آمو.

ليسا معا، لكن تقريبًا في نفس الوقت، قال ايستا وراهيل: "لأنك آمو وبابا ولأنك تحبيننا ضعف الحب العادي."

"أكـــثر مـــن الضـــعف،" قالت آمو."لذا تذكرا ما قلته لكما. مشاعر الناس غالية.وحين تعصيانني أمامهم، يكون انطباع الجميع عنكما خطأ."

"يالكما من سفراء ونصف؟"

نكس السفير أ.بلفيس والسفيرة س. أبسكتي رأسيهما.
"والشـــيء الآخـــر،يا راهـــيل،" قالت آمو، "أعتقد أنه قد آن الأوان لمعرفة الفرق بين نظيف وقذر. خاصة في هذا البلد.
نظرت السفيرة راهيل لأسفل.
"إن فســتانك يكون ــ كان ــ نظيفًا"، قالت آمو. "تلك الستارة قذرة. حيوانات الكانجرو هذه قذرة. يداك قذرتان.
فزعــت راهــيل للطــريقة الــتى قالت بها آمو كلمة نظيفة وقذرة بصوت عالٍ. كأنها كانت تتحدث الى شخص أصم.
"والآن، أريدكمـــا أن تذهــبا وتقولا أهلا بشكل مناسب"، قالت آمو. هل ستفعلان هذا أم لا؟"
رأسان أومأتا
مضى السفير إيستا والسفيرة راهيل صوب صوفي مول.
"إلــى أيــن، علــى حد اعتقادك، يرُسل الناس ليتعلموا السلوك كما ينبغي؟"
همس إيستا فى أذن راهيل متسائلا.
"إلى الحكومـة"، همست راهيل رداً عليه، لأنها كانت تعرف.
"كيف حالك؟"، قال إيستا لصوفى مول بصوت مرتفع بما يكفى لكي تسمعه آمو.
"تمامـــا مثل قطعة لادو وقطعتان من اليابس"، همست صوفى مول رداً على إيستا. "لقد تعلمت هذا من فصل باكستاني."
نظر إيستا لآمو.
قالت نظرة آمو، "لا تبالى بها طالما أنك قد فعلت الشئ الصحيح."
فــي طريقهم عبر جراج السيارات التابع للمطار، تسلل طقس حار إلــى ملابسهم ورطب البنطال المنشي. تخلف الأطفال عن اللحاق بهم، ليشقوا طريقهم بين السيارات والتاكسيات المركونة في الجراج.
"هل يضربكما" سألت صوفي مول.
راهيل وإيستا لم يقولا شيئا، لعدم تأكدهما من مغزى هذا السؤال.
"إنـــه يضــربني،" قالت صوفي مول باستهزاء، "بل ويلطمني على وجهي."
"لا يفعل،" قال إيستا بإخلاص.

"محظوظ،" قالت صوفي مول.
ولد ثري محظوظ لديه مصروف (بوركيت موني). ومصنع سيرثه عن جدته ولا مخاوف.
مروا بنقابة عمال مطار الدرجة الثالثة التي قامت بإضراب رمزي عن الطعام لمدة يوم واحد.
ومروا بالناس التي تشاهد الناس.
لوحة صفيح صغيرة على شجرة تين البنغال ضخمة كُتب عليها **اتصل بدكتور و.ك. جوي في حالة الشكوى من أمراض الزهري الجنسية.**
"من هو أكثر شخصية تحبينها في الدنيا؟" راهيل سألت صوفي مول.
"جو" قالت صوفي مول دون تردد. "دادي. مات قبل شهرين. لقد جئنا إلى هنا لنُشفى من الصدمة."
"لكن تشاكو هو أباك."، قال إيستا.
"إنه فقط والدي الحقيقي،" قالت صوفي مول. "جو هو دادي. لم يضربني أبدًا. لم يفعلها مطلقًا."
"كيف له أن يضربك إذا كان ميتًا؟" سأل إيستا بتعقل.
"أين أباكما؟" أرادت صوفي مول أن تعرف.
"إنه ... " ونظرت راهيل لإيستا كي يساعدها.
"... ليس هنا." قال إيستا.
"هل أخبرك بترتيب قائمتي؟"، راهيل سألت صوفي مول.
"إن شئت،" أجابت صوفي مول.
كانت 'قائمة' راهيل محاولة لترتيب الفوضى. راجعتها مرارًا، وتكرارا، متأرجحة بين الحب والواجب. كانت بلا شك تقييمًا حقيقيًا لمشاعرها.
"أولاً آمو ثم تشاكو،" قالت راهيل. "ثم مماتشي ــ"
"جدتنا،" وضح إيستا.
"أكثر من أخيك." سألت صوفي مول.
"نحن لا نعده في القائمة،" قالت راهيل. "وعلى أي حال فربما يتغير حسبما تقول آمو."

"كيف تعنيه؟ يتغير لماذا؟" سألت صوفي مول.
"إلى ذكر خنزير شوفوني،" قالت راهيل.
"ليس ممكنا على الإطلاق" قال إيستا.
"على أي بعد مماتشي، فيليوتا ثم —"
"من يكون فيليوتا؟" أرادت صوفي مول أن تعرف.
"رجل نحبه"، أجابت راهيل "وبعد فيليوتا، أنت" قالت راهيل.
"أنا؟ لماذا تحبينني؟" قالت صوفي مول.
"لأنــنا أولاد عمومة من الدرجة الأولى، لذا فلزامًا عليّ أن أحبك"، قالت راهيل برزانة
"ولكنك حتى لا تعرفينني" قالت صوفي مول "وعلى أي حال فأنا لا أحبك."
"ولكنك ستحبينني عندما تعرفينني جيدًا"، قالت راهيل بثقة.
"أشك في هذا." قال إيستا
"لما لا؟" قالت صوفي مول.
"لأنها،" قال إيستا "وعلى أي حال من المرجح أن تصبح قزمًا" كما لو كان حب قزم مسألة غير مطروحة للتساؤل على الإطلاق.
"أنا لست قزمًا" قالت راهيل.
"بل أنت كذلك"، قال إيستا
"أنا لست كذلك"
"بل أنت"
"أنا لا"
"أنت كذلك، نحن توأم"
قال إيستا موضحًا لصوفي، "انظري إلى أي حد هي أقصر."
بشــكل مســعف أخذت راهيل نفسًا عميقًا. ألقت بصدرها للخارج ووقفــت ظهرًا لظهر مع إيستا في ساحة انتظار السيارات بالمطار، كي ترى صوفي مول بالتحديد إلى أي مدى هي أقصر.
"ربمــا ستكونين قصيرة،" افترضت صوفي مول، "طولك يتجاوز القزم ويقل عن طول الكائن البشري."
كــان الصــمت رفضًــا وعدم ثقة في هذه الترضية الوسطية. في مدخل صالة الوصول، سيلويت شبحي على هيئة حيوان كانجرو. أحمر

الفم يلوح ببراثن أسمنتية لراهيل وحدها. قبلات أسمنتية حامت مزفزفة في الهواء وكأنها طائرات هليكوبتر صغيرة.

"أتعرفان كيفية المشي بانسياب؟" أرادت صوفي مول أن تعرف.

"لا، في الهند نمشي رهوًا"، رد السفير إيستا.

"حسنًا نحن نفعل في إنجلترا"، قالت صوفي مول "كل الموديلات يفعلون في التليفزيون، انظرا إنه سهل."

ومشى ثلاثتهم رهوًا بقيادة صوفي مول، في ساحة انتظار سيارات المطار، متمايلين مثل عارضي الموضة، ترموسي النسر وحقيبة الـ go go الإنجليزية الصنع يتخبطون حول أردافهم. أقزام مبتلة تمشي متطاولة.

تتبعتهم الظلال. نفاثات فضية في سماء كنيسة زرقاء، مثل فراشات في شعاع ضوء.

ابتسمت البليموث سماوية الزرقة بزعانفها لصوفي مول. ابتسامة سمكة قرش مترعة بلون الكروم.

ابتسامة سيارة مخللات الجنة.

قالت مارجريت كوتشاما، عندما رأت الحامل المرسوم عليه زجاجات المخللات وقائمة منتجات الجنة، "آه، يا عزيزي! أشعر كما لو كنت في إعلان!" قالت آه يا عزيزي! كثيرًا. آه يا عزيزي! آه يا عزيزي! آه يا عزيزي!

"لم أكن أعرف أنك تنتج شرائح الأناناس!" قالت. "صوفي مول تحب الأناناس، أليس كذلك صوفي؟"

"أحيانًا"، قالت صوفي. "وأحيانًا لا."

انسلت مارجريت كوتشاما داخل الإعلان بنمش ظهرها ونمش ذراعيها وفستانها المزركش بالأزهار ذي الرجلين أسفله.

جلست صوفي مول في المقدمة بين تشاكو ومارجريت كوتشاما، فقط قبعتها هي التي كانت تطل أعلى المقعد. لأنها كانت ابنتها.

راهيل وإيستا جلسا في المقعد الخلفي.

الأمتعة كانت في حقيبة السيارة.

حقيبة السيارة كانت كلمة جميلة. عُتُل (صلب) كانت كلمة مفزعة.

بالقـــرب مـــن إيـــتومانور، مـــرورًا بهيكل فيل ميت، صعقه سلك الضـــغط العالـــي الذي سقط على الطريق. كان هناك مهندس من البلدية يشرف على تصريف الجثة. الحص كان أمرًا ضروريًا لأن القرار كان سيســتخدم كســابقة يُقتدي بها في تصريف كل جثث الحيوانات غليظة الجلد من قِبَل الحكومة في المستقبل. لم يكن أمرًا يستهان به. كان هناك ســيارة إطفـــاء وبعــض رجال الإطفاء المرتبكين. موظف البلدية كان يحمل ملفًا ويصرخ كثيرًا. كان هناك عربة أيس كريم جوي ورجل يبيع الفول في قراطيس ضيقة صُممت بعناية حتى لا تمتلئ بأكثر من ثماني أو تسع حبات من الفول السوداني.

قالت صوفي مول، "انظروا، فيل ميت"

توقـــف تشـــاكو ليســـأل ما إذا كان هذا الفيل مصادفة هو كوتشو ثومبان (الفيل الصغير) فيل معبد أيمينيم الذى أتى إلى منزل أيمينيم ذات شهر طالبًا جوز الهند. فقالوا ليس هو.

اســـتراحوا لمعـــرفة أنـــه فـــيل غريب وليس الفيل الذي يعرفونه، ومضوا بسيارتهم.

"شُجْرًا للرب". قال إيستا.

"شكرًا للرب يا إيستا،" صححت له بيبي كوتشاما.

في الطريق تعلمت صوفي مول أن تتعرف على أول فوحة لرائحة كـــريهة تصــدر من المطاط الخام، وأن تُحكِم إغلاق فتحتي أنفها لفترة طويلة بعد مرور الشاحنة التي تحملها.

اقترحت بيبي كوتشاما أغنية في السيارة.

كـــان لـــزامًا على إيستا وراهيل الغناء بأصوات مُطيعة. بانشراح صـــدر. كأنهمـــا لم يستمرا في التدرب عليها طيلة الأسبوع. السفير إ. بلفيس، والسفيرة س إنسكت.

ابتهج بالإله دا ـــ ـــ دائمًا

وثانية أقول ابتـــ ـــ هج

نطقها كان في غاية الكمال.

اندفعت البليموث في قيظ الظهيرة الأخضر، مروحة المخللات على ســـقفها، والســـماء سماوية الزرقة في زعانفها. تمامًا على حدود أيمينيم اقتحموا فراشة كرنبية خضراء، (أو ربما هى التي اقتحمتهم).

-7-

كراسات تمارين الحكمة

فـــي حجــرة مكتب باباتشي، أنواع من العثة المثبتة بمسامير، وفراشات مفتــتة علـــي هيــئة كومات صغيرة من الرماد القزحي. الذي تناثر في قــيعان صـــناديق عرضها الزجاجية، تاركة الدبابيس التي كانت تثبتها عارية مقوسة. كانت الغرفة معبأة بالفطر والتعفن والإهمال.

مصباح نيون أخضر قديم يتدلى معلقًا في وتد خشبي علي الحائط، هالة ضخمة من النور ساقطة علي وجه قديس. سرب من النمل الأسود اللامــع يمشـــي بعــرض عتبة نافذة، مؤخرات النمل تميل لأعلى، مثل صف من كورال بناتي لطيف يرتدين قبعات من الفرو في إحدى حفلات بركلي الموسيقية.تنعكس كسيلويت علي وجه الشمس. برتقالي جميل.

راهـيل (علـــي كرسي فوق المنضدة) كانت تفتش في دولاب كتب بـــألواح زجاجية متسخة وكئيبة. كانت آثار قدميها الحافيتين واضحة في التراب الذي يغطي أرضية الغرفة. تقود من الباب إلي المنضدة (باتجاه رف الكتـــب)، إلي الكرسي (باتجاه المنضدة التي رفع عليها الكرسي). كانـــت تبحث عن شئ ما. الآن، قد صار لحياتها حجمًا، وشكلاً. صار لديها أهلة تحت عينيها وفريق من الغيلان السفلية في أفقها.

أعلي الرف، الغلاف الجلدي لمجموعة باباتشي الثروة الحشرية في الهـــند **The Insect Wealth of India** وقـــد فزعـــن كتاب وانثنى مثل الإسبستوس الملتوي. حشرة السميكة حفرت نفقًا في الصفحات، وانتقلت عمـــدًا من نوع لآخر، محولة المعلومات المرتبة المنظمة إلى شبكة من الدانتيلا الصفراء.

تحسست راهيل ما وراء صف الكتب وأخرجت الأشياء الخبيئة.

صدفة بحر ملساء وأخرى خشنة.

جراب بلاستيك للعدسات اللاصقة. مرشف برتقالي.

صليب فضي ملضوم في خيط من الخرز. مسبحة بيبي كوتشاما.
رفعتها الضوء كبشت كل خرزة جشعة نصيبها من الشمس.
أحـــد الظلال سقط قاطعا مستطيل ضوء الشمس في غرفة المكتب.
التفتت راهيل صوب الباب بخيط ضوئها.
"تخيل لم تزل هنا. أنا سرقتها. بعد أن أعاودك"
انزلقـــت تلـــك الكلمة بسهولة. "أعاودك". كأنما قد خلق التوأم لهذا.
لكي يُعاروا ويُعادوا مثل كتب المكتبة.
لـــم ينظر إيستا إلي أعلي. كان ذهنه متخمًا بالقطارات. كان يحتجز الضوء الآتي من الباب ثقب في الكون علي هيئة إيستا.
خلـــف الكتب، اصطدمت أصابع راهيل الحائرة بشيء آخر. طائر عقعق وقد كانت تتملكه نفس الفكرة. أخرجته
وأزاحـــت عـــنه الـــتراب بكم تي ــ شيرتها. كانت علبة مسطحة ملفوفة في بلاستيك شفاف قد لصق بالسوليتب.
داخلها قصاصة من الورق الأبيض كتب عليها إيستا وراهيل. بخط آمو.
كـــان بداخلهـــا أربع كراسات قديمة مهترئة. كتب علي أغلفتها **كراسات تماريـــن الحكمة** ومربع الاسم، المدرسة/الكلية، الفرقة، المادة. كراستان يحملان اسمها، وكراستان باسم إيستا.
داخـــل الغـــلاف الخلفي لكراسة منها، كان هناك شئ مكتوب بخط طفولـــي. الجهـــد الشاق في صياغة كل حرف والمسافات المتغيرة بين الكلمـــات تعكـــس كفاحاً من أجل السيطرة على القلم الرصاص الضال الطائش.
علـــى النقـــيض من ذلك كان الشعور واضحا: أكره الآنسة ميتن، واعتقد أن بنطالها ممزق.
علـــى الغلاف الأمامي للكراسة، قام إيستا بسمح لقبه بريقه، ممزقاً معه نصف الورقة. فوق المساحة المتسخة كلها.
كتـــب بالقلم الرصاص مجهول. إيستابن مجهول. (كان لقبه مؤجلاً حتى ذلك الوقت، عندما كانت آمو تفاضل بين اسم زوجها واسم أبيها.)
بجانب الفرقة كتب: ٦ سنوات. بجانب المادة كتب: كتابة قصة.

جلست راهيل واضعة ساق على أخرى (على الكرسي فوق المنضدة).

"إيستابن المجهول" قالت. فتحت الكراسة وقرأت بصوت عالي.

وعندما عاد عوليس للبيت. أتى ابنه وقال كنت أعتقد أنك لن تعود يا أبي. كثير من الأمراء جاءوا وجميعهم كانوا يريدون الزواج من بن لوب، لكن بن لوب قالت إن الرجل الذي يستطيع أن يطلق سهمه خلال الاثنتى عشر حلقة سيمكنه الزواج مني. وأتي عوليس للقصر في ملابس شحاذ وطلب المحاولة.

ضحك عليه كل الرجال وقالوا طالما لم نستطع نحن فلن تستطع أنت. أوقفهم ابن عوليس وقال دعوه يحاول.

وأخذ قوسه وصوب مباشرة في الحلقات الأثنتي عشر.

تلوى الضحك حول حواف صوت راهيل. "أولا. الحذر"، قرات.
أمو قد رسمت خطا متموجا لأسفل بطول الصفحة بالقلم الأحمر وكتبت في الهامش، "وخط مشبك فيما بعد. من فضلك!"

"عندما نمشي في شارع داخل المدينة. أستمر السرد في قصة إيستا الحريص، يجب علينا دائما أن نمشي على الرصيف. إذا ما مشيت على الرصيف فلن تجد مرورا يؤدى إلى الحوادث، لكن على الطريق الرئيسي، هناك ازدحام بالمرور الخطر الذي يمكن أن يصدمك بسهولة ويجعلك *فاقد الوعي أو معوق*. اذا ما تهشمت رأسك أو عمودك الفقري، فسوف تكون تعسا للغاية. الشرطيون يستطيعون توجيه المرور لتجنب ازدياد عدد المعتلين الذين يُنقلون إلى المستشفى. عندما ننزل من الباص، يجب أن نفعل هذا فقط بعد أن نطلبه من *الكمساري* وإلا فسوف نتعرض للإصابة *بالجروح* ونزحم وقت الأطباء، وظيفة السائق خطرة للغاية. دائمًا تكون أسرته في غاية القلق. لأن السائق يمكن أن يموت بسهولة......"

"ولد سوداوي"، قالت راهيل لإيستا. عندما قلبت الصفحة ثمة شئ اقتحم حلقها، احتجز صوتها، هزه وأخفضه، وأعاده ولكن بدون حوافه الضاحكة. كانت قصة إيستا التالية بعنوان ***الصغيرة آمو:***

"يوم السبت الماضي ذهبنا إلى المكتبة في كوتايام لشراء هدية لأمو لن عيد ميلادها في ١٧ نوفمبر اشترينا لها أجندة يوميات. أخفيناها في الدولاب، ثم حل الليل، عندئذ سألناها هل تريدين رؤية هديتك فقالت نعم أحب أن أراها. وكتبنا على الورقة الصغيرة أمو مع الحب من ايستا وراهيل وأعطيناها لأمو وقالت يالها من هدية رائعة إنها بالضبط الشئ الذي كنت أريده ثم تحدثنا لفترة وتحدثنا عن أجندة اليوميات ثم قبلناها وذهبنا إلى السرير.

تحدثنا سويا وذهبنا لننام. فحلمنا حلمًا صغيرًا.

بعد فترة استيقظت وكنت في غاية العطش وذهبت لغرفة آمو وقلت أنا عطشان جدًا يا آمو. أعطتني امو الماء وكنت في طريقي للسرير عندما نادتني آمو ورحت في النوم. بعد فترة قصيرة استيقظت وتحدثنا ثانية بعد ذلك أقمنا احتفال في منتصف الليل. تناولن البرتقال والقهوة والموز. بعد ذلك أتت راهيل بإصبعين آخرين من الموز وأكلنا ولثمنا أمو بقبلة لأنه كان عيد ميلادها. وبعد ذلك غنينا لها هابى بيرث داى. ثم أعطتنا آمو ملابس جديدة في الصباح كرد للهدية كانت راهيل مهرانى وكنت أنا الصغير نهرو."

صححت آمو الأخطاء الهجائية، وكتبت أسفل المقال: "إذا ما كنت أتحدث إلى شخص ما، فبإمكانك مقاطعتي إذا ما كانت الحاجة لذلك مُلحة. وعندما تفعل، من فضلك قل معذرة. سأعاقبك بقسوة شديدة إذا ما عصيت هذه التعليمات. من فضلك استكمل تصحيحاتك.

الصغيرة آمو.

التي لم تستكمل تصحيحاتها أبدًا.

التي اضطرت لتعبئة حقائبها لترحل. لأنها لا تملك حق المثول أمام القضاء لأن تشاكو قال أنها بالفعل قد خربت بما يكفى.

التي عادت إلى أيمينيم بالربو وخشخشة في صدرها ولها صوت يشبه رجل يزعق من بعيد.

لم يرها إيستا في هذه الحالة أبدًا.

هائجة، مريضة، حزينة.

آخر مرة عادت فيها آمو إلى آيمينيم، كانت راهيل قد طردت لتوها من دير الناصرة (بسبب تزينها للروث وصفقها للمشرفات). فقد فقدت آمو آخر وظائفها المتتالية ـ كموظفة استقبال في فندق رخيص ـ لأنها كانت مريضة وتغيبت عن العمل لأيام كثيرة. لم يستطيع الفندق تحمل غيابها، أخبروها بهذا. كانوا بحاجة إلى موظفة استقبال في حالة صحية أحسن.

في تلك الزيارة الأخيرة، قضت آمو الصباح مع راهيل في غرفتها. كانت قد اشترت لابنتها هدايا صغيرة لفتها في ورق بني ولصقت عليه قلوب ملونة. بآخر ما تبقى لديها من راتبها الضئيل. علبة سجائر حلوى، صندوق صفيح به أقلام رصاص ماركة فانتوم، وبول بانيان ـ إحدى الكلاسيكيات الكوميدية المصورة.

كانت هدايا لطفل في السابعة من العمر، بينما كانت راهيل في سن الحادية عشر تقريباً. كما لو كانت آمو تعتقد أنها لو رفضت الاعتراف بمرور الزمن، لو أنها أرادته أن يتوقف في حياة توأميها فانه سيستجيب.

كأن الإرادة المحضة كانت كافية لتعليق طفولة طفليها حتى تتمكن من أخذهما للعيش معها. حينئذ سيبدأان من حيث توقفا، يبدأان ثانية من عمر السابعة. آمو أخبرت راهيل أنها قد اشترت رواية كوميدية لايستا أيضاً، لكنها أخفتها بعيدا عنه حتى تستطيع الحصول على وظيفة أخرى لتكسب ما يكفي لاستئجار غرفة ليقيموا جميعاً بها. حينئذ ستذهب إلى كاليكوت لإحضار إيستا، ليتمكن من أخذ روايته الكوميدية.

قالت أن هذا اليوم ليس ببعيد. سيكون ممكناً في أي يوم. عما قريب لن يمثل الاستئجار أي مشكلة. قالت إنها قدمت طلبت وظيفة في الأمم المتحدة وأنهم سيعيشون في لاهاي مع أسرة هولندية لتعتني بهم. أو على الجانب الأخر قالت آمو. ربما تقيم في الهند وتفعل ما خططت له من قبل ـ العمل في مدرسة. الاختيار بين العمل في التعليم ووظيفة الأمم المتحدة ليس سهلا، قالت ـ لكن الحقيقة الواضحة كانت هي الميزة العظيمة في امتلاكها القدرة على الاختيار. لكن حتى هذا الوقت.

قالت: "حتى تتخذ قراراها"، كانت تخفي هدايا. ربما تقيم في الهند وتفعل مــا خططــت له مــن قبل- العمل في مدرسة. الاختيار بين العمل في التعليم ووظيفة الأمم المتحدة ليس سهلاً، قالت ــ لكن الحقيقة الواضحة كانــت هي الميزة العظيمة في امتلاكها القدرة على الاختيار. لكن حتى هذا الوقت. قالت: حتى تتخذ قراراها، كانت تخفي هدايا يستا بعيداً عنه. طــوال ذلــك الصباح كانت آمو تتحدث بلا انقطاع. كانت تطرح على راهــيل بعض الأسئلة، دون أن تعطيها فرصة الرد أبداً عليها يستا بعيداً عــنه. طــوال ذلك الصباح كانت آمو تتحدث بلا انقطاع. كانت تطرح على راهيل بعض الأسئلة، دون أن تعطيها فرصة الرد أبدا عليها ذا ما حاولــت راهــيل أن تقــول شيئاً، كانت آمو تقاطعها بفكرة جديدة. بدت مفزوعة من الشيء البالغ الذي يحتمل أن تقوله أبنتها فتذيب وقتا كان قد تجمد جعلها الخوف ثرثارة كانت تبعده بالثرثرة

كانــت مــتورمة من جراء الكورتيزون مستديرة الوجه ليست الأم الرشــيقة التــي عرفتها راهيل جلدها كان ينبسط على خديها المنتفشين مــثل النســيج اللامــع للندبة التي تغطي علامات التطعيم ضد الجدري عــندما كانــت تبتسم كانت غمازتيها تبدوان كأنهما متوجعتان. تجعدات شــعرها تــتدلى حول وجها المتورم وكأنه ستارة كئيبة تحمل نفسها في نشــافة زجاجــية داخل حقيبة يديها المهترئة (قتار براون بروفون) كل شــهقة تأخذها كان تشبه حرب ظافرة ضد القبضة الفولاذية التي كانت تحــاول اقــتلاع الهواء من رئيتها رأت راهيل أمها وهي تتنفس في كل شــهيق تصــبح الــتجاويف الغريبة من عظام ترقوتها منحدرة ومتخمة بالظلام بصقت آمو كتلة من البلغم في منديلها وجعلت راهيل تشاهده.

"يجب أن تفحصيه"، همست بصوت أجش كما لو كان البلغم ورقة إجابــة حســابية يجــب مراجعتها قبل أن تسلم "عندما يكون أبيض فهذا يعنــي أنــه لــم ينضج، عندما يكون أصفر وله رائحة نتنة فإنه ناضج ويمكــن بصــقه البلغم مثل الفاكهة ناضجة ونيئة؟ يجب أن يكون لديك القدرة على التمييز.

علــى العشــاء تجشــأت مثل سائق شاحنة وقالت، معذرة بصوت عمــيق غــير طبيعــي لاحظت راهيل وجود شعيرات جديدة كثيفة في

حواجبها طويلة مثل لامسة الحشرة. ابتسمت آمو للصمت الذي يلف المائدة وهي تلتقط سكة إمبرور مشوية من ذيلها. وقالت إنها تحس أنها أصبحت مثل لافتة الطريق تخري عليها الطيور. كانت تحمل بريقا غريبًا محمومًا في عينيها.

سألتها ماماتشي إذا ما كانت تحتسي الخمور واقترحت عيها أن تكون زيارتها لراهيل نادرة وعلي فترات متباعدة قدر الإمكان.

فزت آمو من علي المائدة ورحلت دون أن تنطق بكلمة. ولا حتى إلى اللقاء. "اذهبي وودعيها"، قال تشاكو لراهيل.

تظاهرت راهيل بأنها لم تسمع واستمرت في انشغالها بالسمك.

كانت تفكر في البلغم وهمت بالتقيؤ تقريبا. كانت تكره أمها وقتئذ. *تكرهها.*

ماتت آمو في غرفة كئيبة داخل مسكن ببارات في آليبي، كانت قد ذهبت إلى مقابلة شخصية من أجل الحصول علي وظيفة كسكرتيرة لشخص ما. ماتت وحدها. بصحبة مروحة السقف الصاخبة بالشركة. وليس هناك ايستا ليستلقي علي ظهرها ويتحدث معها. كانت في الواحدة والثلاثين من عمرها لكنها في عمر قابل للموت. كانت تستيقظ ليلا لتهرب من حلم مألوف ومتكرر ترى فيه رجل البوليس يقترب منها بمقص له صرير عالي مزعج يريد أن يجز شعرها. كما يفعلون في كوتايام مع العاهرات اللائي يُقبَض عليهن في البازار. يدمغونهن بعلامة حتّى يعرفهن أي شخص. فيشياس. حتى لا يجد رجال البوليس الجدد في مرورهم في تحديد من يهاجمون منهن. دائما كانت آمو تلاحظهن في السوق. نسوة بعيون فارغة ورؤوس حلقت رغمًا عنهن في بلد كان الشعر الطويل المشبع بالزيت يمثل علامة للمنضبطات أخلاقيا فقط.

في تلك الليلة في المسكن، جلست آمو في السرير الغريب في الغرفة الغريبة في البلد الغريبة. لم تكن تعرف أين هي، لم تكن تعي شيئا مما حولها. فقط كانت مخاوفها مألوفة لديها. بدأ الرجل البعيد الكامن في أعماقها يزعق. هذه المرة لم تكن تتنازل اليد الفولاذية عن إحكام قبضتها وكالخفافيش تجمعت الظلال في التجاويف المنحدرة

بقرب من عظام ترقوتها.

وجدها الكناس في الصباح. أوقف المروحة.

تحت إحدى عينيها حويصلة قاتمة الزرقة كانت منتفخة مثل الفقاعة. كان عينيها كانتا تحاولان أن تفعلا ما عجزت عنه رئتيها. في وقت ما قرب منتصف الليل كف الرجل الذي عاش في صدرها عن الزعيق. فصيلة من النمل حملت صرصاراً ميت بهدوء عبر الباب. مقررة ما يجب أن تفعله بالجثث.

رفضت الكنيسة أن تدفن آمو لأسباب عديدة لذا فقد استأجر تشاكو شاحنة لنقل الجثة إلى المحرق الكهربائي. طواها في ملاءة سرير قذرة ووضعها علي نقالة. اعتقدت راهيل أنها تشبه سيناتور روماني. حتى أنت يا آمو وابتسمت متذكرة إيستا.

كان شاذا أن تقاد شاحنة في شوارع مزدحمة وبها سيناتور روماني ميت في أرضيتها. لقد غير هذا السماء الزرقاء وجعلها أكثر زرقة. خارج نوافذ الشاحنة، أناس يشبهون العرائس الورقية، يعيشون ما يشبه حياة العرائس الورقية. الحياة الحقيقية كانت تكمن داخل الشاحنة. حيث الموت الحقيقي. كان جسد آمو يترجرج وينزلق فوق النقالة، كلما عبرت الشاحنة فوق المطبات الصرصارة، وحفر الطريق.

ارتطم رأسها بمسمار حديدي في الأرضية، لم تنقبض أو تستيقظ. ثمة طنين كان يسكن رأس راهيل، وكان على تشاكو بقية اليوم أن يصرخ فيها إذا ما أراد أن يُسمِعها ما يقول.

المحرق ينضج بنفس الهواء النتن الذي يهب علي محطة القطار، فيما عدا هذا كان مهجوراً. لا قطارات. لا زحام. لا أحد من الموتى يحرق هناك سوي الشحاذين، والمهمشين وخفراء الشرطة. من ماتوا دون أن يكون هناك من يستلقي علي ظهورهم ويتحدث معهم. عندما جاء دور آمو. قبض تشاكو علي يد راهيل. لم تكن تريده أن يمسك يدها، لذا استخدمت عرقها الذي تفصد عنه جلدها بسبب المحرق لتتملص من قبضته. لم يكن هناك أي فرد من العائلة.

ارتفع الباب المعدني للمحرق وأصبح الأزيز الخافت للنار الدائمة

دويـا أحمر. وثب القيظ عليهما كأنه وحش جائع. ثم ألقيت له آمو (آمو راهيل). شعرها، جلدها، ابتسامها. صوتها. الطريقة التي كانت تستخدم كيبلنج كي تدلل طفليها قبل أن تضعها في السرير: "نحن من دم واحد أنتما وأنا. قبلة "تصبحان علي خير". الطريقة التي كانت تمسك بها وجهيهما مباشرة بيد واحدة (خدود مقعوسة، أفواه سمكية) بينما تنفصل وتصفف شعرها باليد الأخرى. الطريقة التي كانت تمسك بها البنطال لراهيل كي ترتدي. الرجل اليسري الرجل اليمني. كل هذا ألقي طعاماً للوحش، وقد شبع.

كانت لها آمو وبابا وقد أحبتها حبا مضاعفا.

صخ باب الأتون منغلقا. ليس ثم من دموع.

مسئول المحرق مضي أسفل الطريق ليشرب كوبا من الشاي ولم يرجع قبل عشرين دقيقة. الفترة التي كان علي تشاكو وراهيل انتظارها لاستلام الإيصال الوردي اللون الذي يخول لهما الحق في جمع بقايا آمو. ورمادها. الجراشة من عظامها. الأسنان من ابتسامها. كلها قد أحرقت واختزلت فيما يملأ وعاءً صغيراً من الفخار. إيصال رقم Q49873 .

راهيل سألت تشاكو كيف يمكن لإدارة المحرق أن تميز رماد هذا من رماد ذاك. قال لها تشاكو لابد وأن لهم نظام عمل.

لو كان إيستا معهما لحفظ الإيصال. لقد كان حافظ السجلات. القيم الطبيعي علي تذاكر الباصات، إيصالات البنوك، التقارير النقدية، كعوب دفتر الشيكات. رجل صغير. كان يعيش في كارا ــ فان. دام دام.

لكن إيستا ليس معهما. الجميع قرروا أن الأمر أحسن بهذا الشكل. وبدلاً من انتظاره كتبوا له. قالت ماماتشي أن راهيل لابد أن تكتب له أيضاً. "تكتب ماذا؟ عزيزي إيستا، كيف حالك؟ أنا بخير. بالأمس ماتت آمو."

لم تكتب له راهيل أبدا. ثمة أشياء لا يمكنك القيام بها مثل كتابة رسالة لجزء منك. لقدميك أو لشعرك. أو لقلبك.

في حجرة مكتب باباتشي، راهيل (ليست كبيرة، ليست صغيرة)، علي قدميها تراب الأرضية، رفعت عينيها عن كراسات تمارين

الحكمة، فرأت أن إيستابن مجهول قد مضى.

نزلت (من علي الكرسي، فوق المنضدة) وخرجت إلي الشرفة.

رأت ظهر إيستا وهو يختفي عبر الباب.

كـــان منتصـــف الصـــباح وكان المطر علي وشك الهطول ثانية. الخضرة ــ في اللحظات الأخيرة للضوء الغريب البراق، ضوء ما قبل رذاذ المطرــ كانت شرسة.

صـــاح ديـــك في البعيد وكان صوته منفصلا إلي اثنين. مثل نعل ينسلخ من حذاء.

وقفـــت راهـــيل هناك بكراسات الحكمة المهترئة. أمام شرفة منزل قديم، تحت رأس ثور مزرر العينين، حيث عرضت منذ سنوات مضت، يـــوم أن وصلت صوفي مول، مسرحية مرحبا بحبيبتنا صوفي مول في وطنها.

الأشياء يمكن أن تتغير في يوم واحد.

-8-

مرحبًا بحبيبتنا صوفي مول في وطنها

مـــنزل آيمينـــيم، منزل ضخم وقديم، لكنه يبدو منعزلا متباعدا. وكأنه لا يملـــك مـــا يفعلـــه مع ساكنيه. مثل رجل عجوز يراقب بعينين ناعستين أطفـــالا يلعـــبون، ولا يـــرى فقـــط سوى الزوار في زهوهم الصاخب واحتفائهم العارم بالحياة. السقف القرميدى المنحدر قد أصبح قاتما يعتليه الطحلب من جراء الزمن والمطر. البراويز الخشبية المثلثة المثبتة على حـــائط الجلمـــون إلتون منقوسة، الضوء المائل الذى يمر عبرها ويسقط علـــى الأرض آخذا أشكالا مختلفة كان متخما بالأسرار. ذئاب. أزهار. حـــيوانات إجوانا. شكله عندما تتحرك الشمس في السماء. ويتلاشى في موعـــده، عـــند الغســـق. لم يكن للأبواب درفتين، بل اربعة من الخشب بـــبراويز معدنية حتى يتثنى للسيدات، في الأيام الغابرة أن يتركن الأرفة الســـفلية مواربـــة ويتكأن بمرافقهم على الحافة ويساومن الباعة الجائلين دون أن يفضحن أسفل خصرهن. فنيا، يشترين السجاجيد أو الخلاخيل، و هن مستوري الأثداء بينما تكون مؤخرتهما عارية فنيا.

تســـع درجـــات ســـلم منحدرة تقول من ممر السيارة لأعلى حيث الشرفة الأمامية الإرتفاع أعطى الشرفة جلال خشبية المسرح وكل شئ حـــدث هناك أخذ هالة وهيئة العرض المسرحى. كانت تطل على حديقة الزينة غطاءه أمريكية أستوائية طويلة متسلقة.

صـــنيع يـــد بيبـــي كوتشاما، وممر السيارة المعبد بالحصى الذى يلتف حولها، وينحدر صوب أسفل التل الضئيل الذى يقف أعلاه المنزل.

كانـــت شـــرفة عمـــيقة الأتساع، باردة في منتصف النهار، عندما تكون الشمس في أوج قيظها.

عـــندما غطت الأرضية بالأسمنت الأحمر، دهنوها بزلال ما يقرب من تسعمائة بيضة. فأخذت الأرضية ورنيش عالي البريق.

تحت رأس الثور الأمريكي المحشوة، المزررة العينين، التي علق على جانبيها لوحتين زيتيتين لحما وحماة مماتشى، كانت مماتشى تجلس على كرسي خفيض من الخيرزان أمامه منضدة من الخيرزان أيضا عليهما مزهرية خضراء من الزجاج بها ساق واحدة من الزجاج بها سق واحدة من السحلب الأرجواني تنحني خارجها.

الظهيرة كانت حارة وساكنة. كان الهواء ينتظر.

أمسكت ماماتشى بكمنجة براقة تحت ذقنها. نظارتها الشمسية الثقيلة القائمة موديل الخمسينات كانت سوداء مائلة العدسات، محلاه بأحجار الراين عند أركان الإطار. سار بها كان مكوياً ومعطر. مزهر وذهبي. قرطها الماس كان يلمع في أذنيها كأنه شمعدان صغير. كان قرطها الياقوتي يتدلى طليقا. بشرتها الشاحبة الجميلة كانت متغضنة مثل القشدة على سطح حليب فاتر. تنتثر عليها شامات صغيرة حمراء. كانت جميلة. عجوز، مختلفة، ملكية.

أرملة أم مكفوفة لديها كمنجة.

في سنوات شبابها، ولسابق خبرتها وحسن تصرفها، كانت تجمع ما يسقط من شعرها في كيس صغير مطرز كانت تصنعه على تسريحتها. عندما يتجمع لديها العديد منه، كانت تصنع منه كعكة شعر شبكية وخفيها في مامن مع مجوهراتها. منذ عدة سنوات سابقة، عندما بدأ شعرها يتساقط بكثيرة ويتلون بالمشيب، كانت ترتدى كعكة شعرها الفاحمة السواد كي تمنحه كثافة المعهودة وتثبتها في رأسها الصغيرة التي اصبحت طاعنة في المشيب. من وجهة نظرها، كان هذا مقبولا تماما. كانت تسمح لحفيدتها أن يقومان بتضفير ما تبقى من شعرها في ذيول رفيعة محكمة، رمادية مشبعة بالزيت مربوطة بشريطة مطاطية عند طرفها. كان أحد حفيديها يجدل شعرها، بينما كان الأخر يقوم بعد شاماتها اللامعدودة. كان يتبادلان الأدوار. كان لدى مماتشى حواف على شكل أهلة في فروة رأسها، واراتها بعناية تحت شعرها الخفيف. أثار العلق من زوجها الغابر. اثار مزهريتها النحاسية.

مرحبًا بـ ـــحبيبتنا صوفي مول في وطنها

كانت تعزف حركة لينتيمنت من المؤلف الموسيقي الأولى موسيقي الماء لهاندل. كانت تغلق عينها المكفوفتين خلف نظارتها الشمسية المائلة، غير أنها كانت تستطيع أن ترى الموسيقي وهي تخرج من كمنجتها وتعلوا مقتحمة الظهيرة وكأنها الدخان.

داخل رأسها، كأنما غرفة ملفوفة بجوخ قاتم يحجب عنها نهارا مشرقاً.

ذهنها كان يتراجع للوراء، وهي تعزف، متجولاً في ثنايا الغابر عبر السنوات حيث أول كمية مخللات تنتجها للتسويق. كم كانت تبدو رائعة! معبأة في زجاجات ومحكمة الإغلاق، متراصة على منضدة إلى جوار سريرها، لذا فقد كانت مخللاتها هي أو شئ ستلمسه في الصباح عندما تستيقظ. ذهبت للسرير مبكراً. في تلك الليلة، لكنها استيقظت بعد منتصف الليل بقليل. تحسستها، فعادت بأصابعها القلقة وهي مغطاة بغشاء من الزيت. كانت زجاجات المخللات تقف في حوض ملئ بالزيت. زيت في كل مكان. يغطى المنضدة المجاورة لسريرها تماماً. المانجو المخلل قد أمتص الزيت وتضخم، مما جعل الزجاجات تنشع.

استشارت مماتشي الكتاب الذى اشتراه لها تشاكو، معيار المعلبات المنزلية، لكنه لم يأتي بحل. حينئذ كتبت خطاباً إلى أخو زوج آناماتشاندى، الذى كان يعمل مديراً فرعياً لمخللات باداما في بومباي. فاقترح عليها أن تزيد من نسبة المادة الحافظة التي تستخدمها. والملح. لقد ساعد هذا في حل المشكلة، لكنها لم يقضى عليها كلية. حتى للأن، بعد كل هذه السنوات، مازالت زجاجات مخللات الجنة تنشع قليلا بشل لا يُذكر، لكنها لم تزل تنشع، وفي الرحلات الطويلة يصبح المُلصق الذى يحمل اسم مخللات الجنة على الزجاجة شفافاً من تشبعه بالزيت. المخللات نفسها كانت تقل في الجانب المملح.

تساءلت مماتشى ما إذا كانت ستتقن فن التعليب الدقيق، وما إذا كانت صوفي مول ستحب بعض الكروم المهروس المثلج. بعض العصير الأرجواني البارد في كوب.

ثم فكرت في مارجريت كوتشاما، فصارت نغمات هاندل السلسة الرقيقة صاخبة وغاضية.

مماتشي لم تقابل مارجريت كوتشاما أبدا. لكنها كانت تحتقرها على أي حـال. إبنة صاحب دكان ـــ هذا ما كانت مارجريت كوتشاما تمثله فـي ذهن مماتشي. عالم مماتشي كان مرتبا بهذه الطريقة. إذا ما دُعيت لحضور زفاف في كوتايام، كانت تقضي الوقت كله في التهامس مع من يذهـب معها، جد العروس لأمه كان نجار أبي. كونجوكوتي إيبق؟ أخت جدته الكبرى كانت مجرد قابلة في تريكاندرُم. عائلة زوجي كانت تمتلك التل كله.

بالطـبع كانـت مماتشي ستكره مارجريت كوتشاما حتى لو كانت وريـثة عـرش إنجلترا. لم يكن مجرد انحدارها من طبقة عاملة هو ما جعـل مماتشـي تزدريها. كانت تكره مارجريت كوتشاما لكونها زوجة تشـاكو. كانت تكرههما لأنها تركته. لكنها كانت ستكرهها أكثر حتى لو ظلت معه.

يوم أن قام تشاكو بمنع باباتشي من ضربها (وبدلاً من ضربها دمر باباتشـي كرسـيه)، جمعـت مماتشي أمتعتها الزوجية وعهدت بها الى تشـاكو. مـنذئذ فصـاعدا أصبح هو القيم على كل مشاعرها النسوية. رجلها. حبها الوحيد.

كانـت مـتخوفة من علاقاته الفجة الخليعة مع نساء المصنع، غير أنهـا كفـت عن التخوف من تلك العلاقات. وعندما كانت بيبي كوتشاما تطـرح الموضـوع، تصبح مماتشي مطبقة الفم ومتوترة. ولايمكن أن يـتخلص من احتياجاته كرجل، كانت تقول بتزمت من المذهل، أن بيبي كوتشاما ما قبلت هذا التفسير، وحازت فكرة احتياجات الرجال الغامضة المـبهجة سراً اجتماعياً واضحاً في منزل آيمينيم. لم ترى مماتشي ولا بيبـي كوتشـاما أي تعـارض بيـن عقلية تشاكو الماركسية وشهوانيته الإقطاعـية. كانتا متخوفتان فقط من الناكالتيين، الذين عرف عنهم إجبار رجال العائلات المحترمة على الزواج من الخادمات اللائي حملن منهم. بالطـبع لـم يساورهم ولو شك بعيد الاحتمال، أن القذيفة عندما تطلق، القذيفـة التـي ستدمر وتبيد أسم العائلة المحترمة للأبد، ستأتي من جهة غـير متوقعة تماماً. أمرت مماتشي بإقامة مدخل منفصل لغرفة تشاكو، عـند الطـرف الشرقي من المنزل، حتى لا تتعب أغراض "احتياجاته"

نفســها بالمشي داخل المنزل للوصول إلى غرفته. كانت مماتشي تضع لهــن الـنقود خلســة حتى تسعدن. كن يأخذن للنقود لاحتياجهن لها. فلديهــن أطفــال وآباء مسنين. أو الأزواج ينفقون كل أجورهم في بارات الــتودى. هــذا النظام كان يلائم مماتشى، لأن من وجهة نظرهم، الأجر وضح الأشياء، فصل الجنس عن الاحتياجات عن المشاعر.

لكــن، ماجريــت كوتشــاما، كانــت من نوع مختلف تماماً. تمنت مماتشى ألا يكون حضور مارجريت كوتشاما بغرض استئناف علاقتهما الجنســية مع تشاكو، طالما لم يكن لديها وسيلة لأكتشاف دليل على ذلك (رغــم انهــا حاولــت ذات مرة أن تقنع كوتشو ماريا بفحص ملاءات الســرير بحثاً عن أى بقع). وبينما كانت مارجريت كوتشاما في آيمينيم كانــت مماتشــى تكــبح مشاعرها العكسية الطائشة بأن تضع نقوداً في جــيوب فساتينها التي تركها في دن الغسيل. لم تعيد مارجريت كوتشاما الــنقود أبــداً ذلك لأنها لم تجدها على الأطلاق. لآن أنيان الغسالة كان تفــرغ جــيوب الفساتين من النقود بشكل روتيني. كانت مماتشى تتدرك هــذا، لكــنها فضلت تفسير صمت مارجريت كوتشاما على أنه موافقة ضــمنية علــى الدفع في مقابل على المعروف الذى تسدية لأبنها حسبما توهمــت مماتشــى. لذلــك شــعرت بالأمتنان لأنها اعتبرت مارجريت كوتشاما مجرد عاهرة أخرى، بينما كانت أنيان الغسالة سعيدة بالبقشيش الــيومى الــذى كانــت تحصل عليه، وبالطبع ظلت مارجريت كوتشاما غافلة عن الأمر كله.

غراب ينعق هوووب هوووب وهو يحرك جناحيه البنين بحمرة من عشه على البئر.

صــيحة نعــيق اختلســت بعض الصابون الذى كان يغطى منقار بفقاقــيع. فــي المطبخ القاتم المدخن، كانت كوتشاماريا القصيرة تقض علــى أطــراف أصابعها لكي تبرد التورتة الشاهقة ذات الطبقتين التي صــنعت بمناسبة مرحباً بحبيبتنا صوفي مول في وطنها. بالرغم من أنه حتى في تلك الأيام كان معظم المسيحيات السوريات قد بدأن في ارتداء الســاري إلا أن كوتشاماريا كانت ترتدي تشاتا بيضاء سادة بنصف كم وفــتحة مثلــثة علــى الرقــبة والماندو الأبيض الذى كان ينطوي ذيله

كمروحة قماش. كانت مروحة كوتشو ماريا تلك تحتفي قليلاً أو أكثر تحت مريلة المطبخ ذات المربعات الزرقاء والبيضاء، المكشكشة المتناقضة بشكل سخيف، تلك التي كانت مماتشي تجربها على ارتدائها داخل المنزل.

كان لها ساعدين غليظين، قصيرين، مثل السجق الكوكتيل، وأنف سمينة كبيرة بفتحتي أنف واسعتان مستديران. طيات عميقة من جلدها كانت تربط أنفها بكل جانبي ذقنها، وتفصل هذا الجزء من وجهها عن بقيته، مثل خطم الخنزير. كان رأسه كبير جداً على حجم جسمها. بدت كجنين مُعبأ في زجاجة وقد هرب من قنينة الفورما لديها يد في معمل أحياء وأصبح رخوا وسميكا مع مرور الوقت.

كانت تجمل أوراق نقدية مبتلة في ستيانها الذى شدته بإحكام حول صدرها لتضغط ثديها الغير مسيحيين. حلقها الكانوكو كان غليظا ومصنوع من الذهب. شحمتي أذنيها قد تمددت وصارت ليتين متقلتين تتارجحان حول عنقها، وبهما فردتي حلقها مثل أطفال فرحين لركوبهم الدوارة.؟ شحمة أذنها اليمنى مفتوحة وحكيت مع بعضها ثانية عند الطبيب فيرجيز فيرجيز. لم تستطيع كوتشوماريا التوقف عن ارتداء قرط أذنها الكانوكو لأنها إذا ما فعلت هذا، فكيف الناس سيعرفون أنها، برغم وظيفتها المنخفضة الراتب (خمسة وسبعون روبية في الشهر) كطباخة، مسيحية سورية، مار تومايت؟ وليست واحدة من البلايا، أو البولايا ، أو بارفان. لكنها من طبقة المقربين، الطبقة المسيحية، المهيمنة(التي تغلغلت فيهم المسيحية وتسربت إليهم مثل الشاي الذى يتسرب ويرشح من حقيبة مملوءة به). شحمة أذن مشقوقة تعاد خياطتها ثانية كان أفضل بكثير.

لم تكن كوتشو ماريا قد عرفت بعد إدمان التليفزيون الكامن بداخلها. إدمان هولك هوجان. لم تكن رأت بعد جهاز تليفزيون لم تكن تعتقد أصلاً أن التليفزيون موجود. لو أن شخص ما صرح أنه موجود ، لكانت كوتشاماريا كانت يقظة ومُتحرسة من أنماط الناس في العالم الخارجي. أغلب المرات، كانت تعتبرهم إهانة معلنة ومعايرة لها على جهلها وأميتها وسهولة خدعها(فيما مضى). الآن، كوتشوماريا، وفي

تـــناقض حمـــيم لطبيعـــتها الغريزية، لا تصدق، كسياسة، أي شئ على الإطـــلاق يخـــبرها بهـــا أي إنسان. فمنذ عدة شهور مضت، في يوليو، عـــندما أخـــبرتها راهـــيل بـــأن هـــناك رائد فضاء أمريكي يدعى نيل آرمستونج قد مشي على سطح القمر، ضحكت باستهزاء وقالت أن هناك لاعـــب أكـــروبات مالايالي يُدعي و.موتاتشن قام بأداء عدة وثبات على يـــده فـــوق ســـطح الشمس. وهو يحمل أقلام رصاص فوق أنفه. كانت مســـتعدة تُعـــر بمصداقية أن الأمريكيين موجدون رغم أنها، مطلقا، لم تـــري أحدهـــم. حتى لقد كانت مستعدة أن تصدق أن نَيل آرمسترونج، على حد تصورها، نوع ما سخيف من الأسماء، لكن حكاية المشي على القمـــر؟ لا يـــا سيدي. ولا هي تثق في الصور الرمادية الغامضة التي كانت تظهر في صحيفة مالايالام بانوراما التي لم تكن تستطيع قراءتها.

ظلـــت متأكدة أن إيستا، عندما يقول، وحتى أنت يا كوتشو ماريا!، فإنـــه يوبخها بالإنجليزية. كانت تعتقد أن هذه العبارة تعني شيئا ما مثل "أنـــت يا كوتشو ماريا، يا قزم أسود دميم." كانت تترقب فرصة مناسبة لتشكو منه.

انتهت من تزين التورتة الطويلة. ثم مالت برأسها للخلف ودست ما تبقي من الكريمة إلى فمها. على لسان كوتشاماريا الوردي اللون كريات لا متناهـــية مـــن معجـــون أسنان الشيكولاتة. عندما نادتها مماتشى من الشـــرفة ("كوتشـــوماريا! إننـــي أسمع صوت السيارة!") كان فمها ملئ بالكـــريمة ولـــم تستطيع الرد عليها. عندما انتهت، مسحت أسنانها بأن مـــرت بلســـانها علـــيها، ثم صدر من لسانها أصوات مصمصة قصيرة نتيجة ارتطامها بسقف حلقها كانها قد أكلت توا شيئا حامض.

أصـــوات ســـيارة سماوية الزرقة تأتي من بعيد (مرورا بموقف الباص، بالمدرســـة، بالكنيســـة الصفراء وعلى الطريق الأحمر الملئ بالمطبات عـــبر أشـــجار المطاط) أرسلت همهمة في ساحة مخللات الجنة القائمة الملطخـــة بالســـناج. التخـــيل (والهـــرس، والتقطيع، والغلي، والتقليب، والبشر والتمليح، وتجفيف ووزن وإغلاق الزجاجات) قد توقف.

"وصـــل تشاكو،" تطاير النبأ الهامس. السكاكين التي تقوم بالتقطيع وُضعت جانباً. تُركت الخضروات، قبل الانتهاء من تقطيعها،على ألواح معدنـــية ضخمة. اهملوا القرع، لم يكملوا تقطيع شرائح الأناناس. خلعوا قفـــازاتهم (براقة، بهيجة، مثل جوارب سميكة) المطاطية الملونة. غسلوا أيـــاديهم المخللـــة ونشـــفوها في مرايل المطبخ الزرقاء القاتمة. أعيدت خصـــلات الشعر المتطايرة ثانية إلى أسرتها تحت الإيشاربات البيضاء. المـــاندو الـــذى كـــان قد تسمر تحت المريلة أنزل ثانية. أبواب المصنع الجرارة ذات المفصلات الزنبركية، قد أغلقت وحدها بصخب.

وعلـــى أحـــد جانبي مدخل السيارة، بجوار البئر القديم، تحت ظل شـــجرة ضـــخمة، جـــيش صامت من المرايل الزرقاء القاتمة تجمع في القيظ الأخضر ليشاهد.

بمـــرايل زرقـــاء، وكابـــات بيضـــاء، مثل كتلة من الأزرق الأنيق والأعلام البيضاء.

أتشو، جوسى، ياكو، إليان، كوتان، فيجايان، فاوا، جوى، سوماتى، آمـــال، آناما، كاناكاما، لاتا، سوشيلا، فيجاياما، جوليكوتى، لوسيكوتى، بيـــنامو (فتـــيات بأسماء باصات). اختفي دوى الامتعاض المبكر تحت غطاء سميك من الولاء.

انعطفـــت الســـيارة داخله البوابة وصرصرت فوق ممشاها المُعبَد بالحصـــى وهـــى تـــدك الأحجـــار الصغيرة الحمراء والصفراء. خرج الأطفال مندفعين.

نافورات شعرهم هابطة منهارة.

نفشات شعرهم منعكشة.

بـــنطال أصـــفر بفـــتحات واسعة أسفله وحقيبة go-go المحبوبة، مرهقيـــن فـــي مشـــيتهم ومتيقظين الكاد. ثم الكبار ذوى كعوب الأقدام المنتفخة. يمشون ببطء من فترة جلوسهم التي طالت.

"هـــل وصـــلتم؟" ســـألت مماتشى، ملتفتة بنظارتها القاتمة صوب الأصوات الجديدة: صفع أبواب السيارة، الخروج. أنزلت كمنجتها.

"مماتشـــي!" قالت راهيل لجدتها الجميلة المكفوفة. " لقد تقيأ. إيستا! في منتصف صوت الموسيقي..."

لمســت أمــو ابنــتها بلطــف. فــي كتفها. لمستها كانت تعني هشش...... تلفتت راهيل حولها وأدركت أنها في مسرحية. لكن دورها صغير جدا.

إنها تمثل فقط المنظر الطبيعي. ربما زهرة. أو شجرة.

وجه من الجمهور. أحد أفراد الكومبارس.

لم يقل أحد أهلا لراهيل. ولا حتى الجيش الأزرق الواقف في القيظ الأخضر.

"أيــن هــي؟" سألت مماتشى أصوات السيارة. أين حبيبتي صوفي مول؟ تعالي هنا ودعيني أراك."

عــندما تحدثــت. تداعـــى اللحن الذى يظللها مثل مظلة فيل المعبد وهوى بخفة مثل الغبار.

تشــاكو كـــان يقــود مارجريت كوتشاما وصوفي مول بزهو وهو يصـــعد الدرجات التسع الحمراء كأنها أمارتى إنتصار في مبارة تنس قد فــاز فيها مؤخرا، وهو يرتدي بدلة: ماذا حدث لرجل الشعب؟ ورابطة العنق المتخمة بالطعام.

ومــرة ثانية الأشياء الصغيرة هى التي قيلت. الأشياء الكبيرة ظلت كامنة ولم يجرها بها."أهلا، مماتشى،" قالت مارجريت كوتشاما بصوتها المعلمــة (الــذي يكون أحيانا مقهورا واهنا) العطوف. "شكرا لاستقبالك لنا. كنا بحاجة ماسة للسفر والابتعاد".

تشــممت مماتشـــى فوحة من عطر رخيص كانت حوافها امتزجت بعــرق رجلة الطيران. (هى نفسها تملك زجاجة من عطر ديور Dior في علبتها الجلدية الرقيقة الخضراء وتخفيها بعيدا في خزنتها.)

أخـــذت مارجريت كوتشاما يد ماتشى. كانت أصابعها طرية، بينما كانت خواتمها الياقوت صلبة.

"أهلا، مارجريت،" قالت مماتشى (دون وقاحة، دون أدب)، مازلت تــرتدى نظارتهــا القاتمـــة."مرحبا في آيمينيم. معذرة لأنني لا أستطيع رؤيتك، فإنها تقريبا مكفوفة، كانت تتحدث بشكل مقصود.

"آه وهو كذلك،" قالت مارجريت كوتشاما. "على أى حال، أنا واثقة أنني أبدو قريعة." ضحكت بطريقة متذبذبة غير واثقة من صحة ردها.

"خطـــأ." قال تشاكو. أستدار لمماتشي، وعلى وجهة ابتسامة فخر لم تستطيع أمة أن تراها."إنها رائعة كما كانت دائماً."
"كنـــت فـــي غايـــة الحزن لما سمعته عن.....جو." قالت مماتشي. كانت نبرتها تعكس حزناً خفيفاً. وليس غاية الحزن.
ثمة صمت من الحزن ـــ على ـــ جو.
"أيـــن حبيبتي صوفي مول؟" قالت مماتشي."تعالى هنا ودعي جدتك تنظرك."
مضـــت صـــوفي مـــول صوب مماتشي. دفعت مماتشي نظارتها الشمســـية القائمـــة لأعلـــى فوق شعرها. عدستي النظارة كانتا تنظران لأعلـــى مثل عيني قطة منحرفتين على رأس الثور المتكرجة. قال الثور المتكرج، "لا، مُطلقاً لا." بلغة ثيران متكرجة.
حتى بعد ترقيع القرنية، لم تعد مماتشي تستطيع أن ترى إلا الضوء والظـــل فقـــط. إذا ما كان هناك شخص يقف عند مدخل الباب. لكنها لا تســـتطيع تحديد هويته. كانت تستطيع أن تقرأ شيك أو أيصـال، أو ورقة نقـــد فقـــط إذا مـــا كانت قريبة جداً تلامس رموش عينيها. وقتئذ كانت تمسكها مباشرة، وتحرك عينها عليها. منتقلة بها من كلمة إلى أخرى.
أهـــل الـــبلدة (في فستانها البديع) رأوا مماتشي تجذب صوفي مول وتقربها من عينيها لتنظر إليها. لتقرأها كما تقرأ الشيك. لتتفحصهما مثل ورقـــة الـــنقد. مماتشـــي (بعيـــنها الجيدة) رأت شعر بني ضارب إلى الحمـــرة(لا...تقريـــبا أشقر)، انعطافه خديها الممتلئان المنمشان (لا لا لا... تقريباً وردية)، عيون زرقاء رمادية الزرقة.
"أنـــف باباتشـــي." قالت ماماتشي."اخبريني. هل أنت فتاة جميلة؟" سألت صوفي مول.
"نعم." أجابت صوفي مول
"وطويلة؟"
"طويلة بالنسبة لسني." قالت صوفي مول.
"طويلة جداً." قالت بيبي كوتشاما."أطول بكثير من ايستا."
"هي أكبر سناً." قالت آمو.
"ماز الت..." قالت بيبي كوتشاما.

علـــى مـــبعدة قريـــبة، كان فيليوتا يمشي أعلى الطريق المختصر عبر أشجار المطاط. عاري الجسد. ربطة من السلك الكهربي المعزول كانت تلـــتف فوق كتفه. كان يرتدي الماندو المطبوع ذا اللون الأزرق الغامق والأسود بشكل فضاض وقد شمره أعلى ركبته. على ظهره ورقة حظه من شجرة وحمته (التي تجعل الرياح الجنوب غربية الموسمية تهب في موعدها). ورقية الخريفية ليلاً.

قبل أن يظهر من خلال الأشجار ويخطو على ممشى السيارة، رأته راهيل فانسلت خارج المسرحية وذهبت إلية.

آمو رأتها تمضي.

خـــارج خشـــبه المسرح، رأتهما يؤديان تحيتهما الرسمية المتأنقة. فيلـــيوتا طأطـــأ رأسه محييًا إياها كما تعلم، فانبسط الماندو الذى يرتديه كأنـــه جونلـــة، مـــثل التبانة الإنجليزية في إفطار الملك. انحنت راهيل (وقالـــت"انحـــناءة"). ثـــم شَـــبكوا أصابعهم الصغيرة وتصافحا بسمت محافظي البنوك في المؤتمرات.

في ضوء الشمس الساطعة الذى يُصغي عند مروره خلال الأشجار الخضـــراء القاتمـــة، شاهدت آمو فيليوتا وهو يرفع ابنتها بلا عناء كأنها طفل مطاطي منفوخ، مصنوع من الهواء. عندما كان يقذف بها لأعلى، وتهـــبط فـــي، رأت آمو على وجه راهيل السعادة المفرطة التي تعتري وجه فرخ يصعد في الهواء.

رأت نـــتوءات عضلة بطن فيليوتا وهى تتصلب وترتفع تحت جلدة كأنهـــا تقسيمات على عمود من الشيكولاتة. محددة وقوية. جسد سباح. جسد بخار سباح. دُهن بورنيش جسد عالي اللمعة.

رجل بعظام عالية في الخدين، وابتسامة بيضاء مباغتة.

ابتســـامته هي التي ذكرت آمو بـــ "فيليوتا" عندما كان طفلاً. وهو يســـاعد فيليا بابن في عد جوز الهند. وهو يقدم لها الهدايا الصغيرة على راحـــة يـــده المنبسطة حتى تستطيع أن تأخذها دون أن تلمسه. قوارب، صناديق، طواحين رياح صغيرة. كان يناديها بآموكوتي. آمو الصغيرة. رغـــم أنها كانت أصغر منه بكثير الآن، عندما نظرت إليه، لم تستطيع

أن تتوقف عن التفكير في أن التشابه بين الطفل الذى كان والرجل الذى صار بات طفيفا. ابتسامته في قطعة المتاع الوحيدة التي حملها معه من صباه إلى رجولته.

بغـتة تمنت آمو لو كان هو الرجل الذى رأته راهيل في المظاهرة. تمنت لو كان هو الذى قد رفع علمه وعقد زراعة في غضب. تمنت لو كـان يأوى تحت عباءة بشاشته الحذرة، كائنا حيا، يتنفس الغضب ضد العالم المختال المنظم تشعر حياله بالحنق.

تمنى لو كان هو.

كانت مندهشة من مستوي الارتياح الجسدى الذى بلغته ابنتها معه. مندهشة لما صار لدى ابنتها من عالم فرعي ينحيها تماما. عالم ملموس مـن الابتسـامات والضحك، ليس لها، أمها نصيب فيه. أدركت آمو أن أفكارهـا مغلفـة بمسحة أرجوانية رقيقة من الحسد. لم تسمح بنفسها أن تفكـر مـن الذى تخص بالحسد. الرجل أم ابنتها. أم أنه فقط عالمها ذا الأصابع الصغيرة المقعوصة والابتسامات المباغتة.

الـرجل الواقـف في ظل أشجار المطاط حملا عملات معدنية من الشـمس الساطعة الراقصة على جسده، محتويا ابنتها بين ، نظر لأعلى ولمـح آمـو وهـى تُحدق. لقد ضُغطت قرون في لحظة وحيدة عابرة الـتاريخ كان مخطئ القدمين، محاصر بالحراسة. مسلوخ من جلده مثل حـية عجـوز. علاماتـه، آثاره، جروحه التي خلفتها الحروب القديمة، وأيـام التراجع للخلف جميعها تساقطت متداعية. في غيابه تارك هالة، بـريق ملموس كان واضح لمن ينظر كأنه الماء في نهر أو الشمس في السـماء. واضـحا لمـن يستشعره كأنه القيظ في يوم حار، أو انجذاب سمكة على خط مشدود. واضح جداً لدرجة أن أحد لم يلاحظه.

فـي تلك اللحظة القصيرة، نظر فيليوتا لأعلى ورأى أشياء لم يرها مـن قـبل. أشـياء كانت خارج حدوده تماما، أخفتها غمامات التاريخ. أشياء بسيطة.

مثلا، رأى أن أم راهيل، امرأة.

وأن لهـا غمازتيـن عميقتيـن تظهران حين تبسمها، وتظلان في وجههـا طويلا بعد أن يرحل تبسمها عن عينيها. رأى أن ذراعها النبرة

كـــان ملفوفا، وكزا ورائعا. أن كتفيها يلمعان، لكن عينها كانتا في مكان ما آخر. رأى ذلك عندما كان يعطيها التي لم تعد بحاجة إلى أن تقدم لها منبســطة علـــى راحـــته حـــتي لا تضر إلى لمسه. قواربه وصناديقه. طواحيـــنه الهوائية الصغيرة. رأى أيضا أنه ليس ضروريا ان يكون هو العطاء الوحيد للهداية. وأن لديها من الهدايا ما تمنها إياه أيضا.

انسلت هذه المعرفة داخله بنقاء، كأنها الحد المشحوذ لسكين. باردة وساخنة في ذات اللحظة. انسلت في لحظة واحدة فقط.

أدركـــت آمو انه رأى. نظرت بعيدا. وكذا فعل هو. عادت عفاريث التاريخ تطلبهما. لتعيد تضليلهما في إهابه* المقترح بالندب وتعيدهما إلى حيـــث يعيشـــان فعـــلا. حيث قرأت قوانين العشق من ينبغي أن يحب. وكي. وعلى أي مدي.

صعدت آمو إلى الشرفة، عائدة إلى المسرحية. مهتزة.

نظـــر فيلـــيوتا على السفيرة س. إنسكت في ذراعية. أنزلها. مهتزا كذلك.

"وأنظـــر إلـــيك!" قال، محدقا في فستانها الخفيف المضحك." جميلة جدا! عروس على وشك الزواج؟"

وثبت راهيل على إبطيه وأخذت تقرصه بلا رحمة . آيكيلي آيكيلي آيكيلي!

"رأيتك بالأمس،" قالت.

"أين؟" جعل فيليوتا نبرة صوته عالية ومندهشة.

"كـــذاب،" قالـــت راهيل."كذاب ومدعي. لقد رأيتك فعلا. لقد كنت شيوعا ترتدي قميصا وتحمل علما. وقد تجاهلتني."

"أيـــو كاشتام، قال فيليوتا." أنا أفعل هذا؟ قولي أنت، هل فعل فيليوتا هذا أبدا؟ لابد وأنه توأمي التائه منذ وقت طويل."

"أي توأم لك تائه منذ وقت طويل؟"

"أرمـــبان مـــن؟" حينئذ رأى الوميض."كذاب! ليس لك أخ توأم! إنه أنت!"

---

* إهاب: جلد الساد قبل دبغه (المترجم)

ضحك فيليوتا. كان يطلق ضحكة جميلة عن عمد.

"لم يكن أنا" قال."لقد كنت طريح الفراش."

"فهمـــت. أنـــت تبتسم!" قالت راهيل."بما يعني أنه أنت التبسم يعني "أنه أنت؟"

"هــذا في الإنجليزية فقط!" قال فيليوتا. "في المالايالام كان مدرسي دائمايقول، "التبسم يعني أنه ليس أنا"

أخــذت راهــيل لحظة لكي تضع ذلك الأمر جانبا. ثم وثبت عليه ثانية.

آيكيلى آيكيلى آيكيلى!

مــازال يضـــحك، نظر فيليوتا في المسرحية بحثا عن صوفي."أين حبيبتـــنا صـــوفي مول؟ لننظر إليها. هل تذكرت أن تحضريها، أم أنك تركتها خلفك؟"

"لا تنظر هناك،" قالت راهيل بإلحاح.

وقفت على الجسر الأسمنتي الذى يفصل أشجار المطاط عن ممشي السيارة، ووصفت بيدها على عيني فيليوتا.

"لماذا؟" قال فيليوتا.

"لأنني،" قالت. "لا أريدك أن تفعل."

"أيــن الفتي إيستا؟" سأل فيليوتا، والسفيرة (تتنكر في صورة حشرة لاصقة تتنكر في صورة جنية مطار) تتشبث بظهره ملتفة بساقيها حول خضرة، عاصبة عينيه بكفيها الصغيرتين اللزجتين.

"لم أراه."

"آه لقــد بعناه في كوتشين،" قالت راهيل بابتهاج." اشترينا بدلا منه كيس أرز. وكشاف."

كـــان تطريز فستانها المتيبس يضغط ظهر فيليوتا بأزهار خشنة من الدانتيلا. أزهار دانتيلا وورقة حظ أزهروا على ظهر أسود.

لكـــن عـــندما فتشت راهيل في المسرحية عن إيستا، رأت أنه ليس هناك.

فـي الـوراء داخـل المسـرحية، وصلت بيبي كوتشاما، خلف كعكتها الطويلة.'وصلت الكعكة' قالت، بنبرة عالية قليلاً، لمامتشي.

كانت كوتشو ماريا بنبرة عالية قليلاً تتحدث مع ماماتشي أن النظر الضعيف يؤثر أوتوماتيكيا على الحواس الأخرى.

"كـاندو، كوتشـوماريا،" قالـت كوتشـاماريا بنبرة أكثر ارتفاعا.

"أراهـا." ابتسمت لصوفي، ابتسامة اكثر اتساعا. كان بالضبط في طول صوفي.

أقصر من مسيحية سورية، رغم جهودها المقننة.

"إنها في لون أمها" قالت كوتشو ماريا.

"وأنف باباتشي،" أردفت ماماتشي.

"لا أعـرف أدرك هـذا، لكـنها فـي غايـة الجمـال،" صرخت كوتشوماريا.

"ساندراي كوتي. إنها ملاك صغير."

الملائكـة الصـغار كـانوا يلون الشاطئ ويرتدون بناطيل بفتحات واسعة أسفلها.

العفاريـت الصغار بنين بلون الوحل يرتدون عباءات مطر جميلة ولهـم مطبات في جباههم من المحتمل ان تتحول إلى قرون. بنافورات شعر مربوطة بتوكة الحب ــ في ــ طوكيو. ولديهم عادات القراءة من الخلف للأمام.

وإذا ما أمعنت النظر، يمكنك أن ترتدي الشيطان في عيونهم.

أخذت كوتشوماريا كفي صوفي في كفيها، ورفعتهما لأعلي صوب وجهها واستنشقت بعمق.

"مـاذا تفعل؟" أرادت صوفي مول أن تعرف. كفين رقيقين من لندن في كفين غليظين من آيمينيم."من هذه المرأة ولماذا أتشمم يدي؟"

"إنها الطباخة،" أجاب تشاكو."تلك هى طريقتها في تقبيلك."

"شئ مريع!" قالت مارجريت كوتشاما."إنه نوع من الشم"! هل يفعل النساء والرجال هكذا مع بعضهم البعض؟"

لـم تكـن تعني هذا بالضبط بهذا السؤال، لذا أحمر وجهها خجلا. ثقب في الكون على هيئة مدرسة تلاميذ مرتبكة.

"آه دائمـــا!" أجابــت آمو، وخرجت إجابتها بصوت أعلى قليلا من الغمغمة الساخرة بأطفال."

لم يصفعها تشاكو.

لذا لم ترد له الصفعة.

غير أن الهواء المعلق صار غاضباً.

"اعــتقد أنــك تدينيــن باعتذار لزوجتي،" قال تشاكو، بنبرة حماية وتهلــك، (آملاً ألا تقول مارجريت كوتشاما." إنه خطأي! ما قصدت أبدا أن يصــل الســؤال بهــذا المعني...ما قصدته كان ــ أعني شئ جذاب ومثير أن تظن أن ــ"

"إنـــه ســؤال مشروع تماما،" قال تشاكو."و أعتقد أن آمو يجب أن يعتذر."

"ألــزاما علينا أن نتصرف كقوم ملعونين مدحورين اكتشفوا لتوهم؟" سألت آمو.

"آه يا عزيزتي!" قالت مارجريت كوتشاما.

في القيظ الأخضر الاستكانة الغاضبة المتوترة للمسرحية(لم يزل الجيش الأزرق يشـــاهد في القيظ الأخضر)، عادت آمو إلى البليموث، وأخذت حقيبــتها، وصــفعت الباب، ومضت إلى غرفتها، بكتفين لامعين. تاركة الجميع يتساءلون.

من أين لها بهذه الوقاحة.

وحقيقة يجدر ذكرها، لم يكن أمرا تافها يثير الدهشة والتعجب.

لأن آمـــو لـــم تتلقـــي من التعليم، ولم تقرأ أنواع الكتب، ولم تقابل نمـــاذج الناس، التي تكون قد أثرت عليها لتفكر بهذه الطريقة. فقط كانت هذا النوع من الحيوانات.

عـــندما كانـــت طفلة، تعلمت بسرعة شديدة أن تحتقر قصص الأب الخـــنزير والأم الخنزيرة التي اعطيت لها لتقرأها. ففي نصوصها، كان الأب الخـــنزير يضرب الأم الخنزيرة بالمزهريات النحاسية. كانت الأم الخنزيرة تعاني تحت وطأة الضرب باستسلام مذعن.

مرحبًا بـــحستنا صوفي مول في وطنها

أثناء سنوات نشأتها. شاهدت آمو أباها وهو يغزل نسيجه العنكبوتي الكريه.

كـــان ساحرا حضريا مع الزوار ويكف لتوه عن تملقهم إذا ما كانوا بـــيض البشرة. كان يتبرع بالمال للملاجئ ومصحات الجُذام. كان يبذل قصاري جهده في الاهتمام بواجهته العامة كرجل أخلاقي كريم ومهذب لكن وحده مع زوجته وأطفاله يتحول إلي ثور شكوك ومتوحش، بطريقة خبيـــثة رذيلـــة. كـــانوا يضـــربون، يُذلون، ثم يلاحقهم حسد الأصدقاء والأقارب على ما لديهم من زوج وأب رائعين.

كثـــيرا ما تحملت آمو الليالي الشتوية القارصة في دلهي مختفية في الســـياج النباتي المحيط بمنزلهم(خشية أن يراهم أحد من أفراد العائلات المحـــترمة) لأن باباتشـــي قـــد عـــاد من عمله ممتعضا، وضربها هي وماماتشي و طردهما خارج البيت.

فـــي إحـــدي هذه الليالي، كانت آمو، وهي في التاسعة من عمرها، مختـــبأة مـــع أمها في السياج، تراقب سيلويت باباتشي الأنيق الهندام في الـــنافذة المضـــاءة، وهو يزرق من الغرفة لأخري. غير ممتن لضربة زوجـــته وابنـــته (كان تشاكو بعيد في مدرسته)، أقتلع الستائر ومزقها، ركل كل ما قابله من أثاث وحطم أباجورة مائدة. بعد هذا بساعة، انقطع التيار الكهربائي، فتسللت الصغيرة آمو عائدة للمنزل عبر فتحة التهوية، غـــير مكترثة بتوسلات المذعورة ماماتشي، لإنقاذ حذائها المطاطي ذى الساق الطويلة الذي اشترته مؤخرا، الحذاء التي كانت تحبه أكثر من اي شـــئ آخر. وضعته في حقيبة ورقية وتسللت عائدة إلى غرفة الجلوس، وقتئذ عاد التيار الكهربائي بغتة.

كـــان باباتشـــي يجلـــس على كرسيه الهزاز المصنوع من خشب الماهوجني، يؤرجح نفسه. في سكون مُعتم. عندما أمسكها لم يقل كلمة. جلدهـــا بســـوط ركـــوب الخيل ذا اليد المصنوعة من العاج (الذى كان يضعه على حِجره في صورته بالأستوديو). لم تصرخ آمو عندما انتهي مـــن جلدهـــا، أجبرها أن تُحضر مقص مماتشي المشرشر من صندوق أدوات الخياطة. بينما وقفت آمو تترقب، كان عالم الحشرات الإمبريالي يمـــزق حذائهـــا بمقص أمها المشرشر. سقطت شرائط المطاط الأسود

مرحبًا بـــحبيبتنا صوفي مول في وطنها

علـــى الأرض. كـــان المقص يصدر صر صرة صاخبة. تجاهلت آمو وجـــه أمهـــا الساهم المفزوع الذى كان يظهر في النافذة. استهلك تمزيق حذائها المفضل عشر دقائق كاملة.

عـــندما ســـقطت آخر مزقة متموجة على الأرض، نظر لها أبوها بعينيـــن حادتيـــن باردتيـــن، وهـــو علـــى كرسيه الهزاز وأخذ يتأرجح ويتأرجح ويتارجح. محاطا ببحر من الثعابين المطاطين الملتوية.

عندما كبرت آمو، تعلمت آمو أن تعيش مع هذه القسوة الباردة الخبيـــثة تربي داخلها الإحساس المتكبر بالظلم والمسحة الطائشة العنيدة التي تنمو في شخص صغير عند يتنمر عليه شخص كبير. لم تفعل شيئا تحديـــدا لتتجنـــب الشجار والصدام. بل يمكن الزعم بأنها كانت تنشدها، ربما كانت حتى تستمتع بها.

"هل ذهبت؟" سألت ماماتشي الصمت المحيط بها.

"لقد ذهبت،" قالت كوتشاماريا بصوت عال.

"هـــل مـــن المـــباح لكم أن تقولوا كلمة "ملعون" في الهند؟" سألت صوفي مول.

"من الذى قال" ملعون"؟" سأل تشاكو.

"هـــي،" قالـــت صـــوفي مـــول. "آنتي آمو. قالت،" قوم مدحورين ملعونين".

"قطعي التورتة و أعطي قطعة لكل فرد،" قالت ماماتشي.

"لأنه غير مباح لنا أن نقول،" قالت صوفي مول لتشاكو.

"أن تقول ماذا؟" قال تشاكو.

"أن نقول مـــ لـــ عـــ و ن،" قالت صوفي مول.

نظـــرت ماماتشـــي بعمـــاء في الظهيرة الساطعة."هل الجميع هنا؟" ســـألت "نعـــم، كوتشـــاما،" حقـــال الجـــيش الأزرق الواقف في القيظ الأخضر."جميعنا هنا.

خارج المسرحية، قالت راهيل لفيليوتا: "نحن لسنا هنا، أليس كذلك؟ نحن لا نمثل حتي."

"هـــذا صحيح جدا،" قال فيليوتا."نحن لا نمثل حتى. لكن ما اريد أن اعرفه، أين الفتي إيستا بابيتشاتشن كوتاابين بيتر؟"

وأصبح إيستا بهذا الاسم، إيقاعاً بهيجاً متواصلاً راقصاً بين أشجار المطاط.

آه أيها الفتي إيستا بابيتشاتشن كوتابين بيتر مون.
أين، آه أين ذهبت؟
ومــن هــذا الإيقــاع انتشرت أغنية بين عشب القنبس القرمزي.
نفتش عنه هنا، نفتش عنه هناك.
في تلك الأعشاب. تفتش عنه في كل مكان.
هل هو في الجنة؟ هل هو في الجيم؟
عن نصف الإله المخادع هذا -إيستا؟

قطعت كوتشوماريا نموذج من التورتة لتريها لــ "ماماتشي."

"قطعــة لكل فرد، ماماتشي أخبرت كوتوماريا، وهى تتحسس القطعــة بخفــة بأصــابعها المطوقة بخواتم الياقوت، لتري ما إذا كانت صغيرة بما يكفي.

قطعت كوتشو ماريا باقي التورتة بإهمال وفوضوية، وبإجهاد، كانــت تتنفس من فمها، كأنها كانت تقطع كتلة من الضأن المشوي إلى شرائح. وضعت قطعة التورتة على صينية فضية كبيرة. كانـــــت ماماتشـــي تعــزف "لحــن مرحباً حبيبتنا صوفي مول في موطنها" على الكمــنجة. لحــن مُتخم بالشيكولاتة. حلو لزج، وبني ذائب. موجات من الشيكولاتة على ساحل بلون الشيكولاتة.

فــي منتصف اللحن، رفع تشاكو صوته على النغم الشيكولاتة. "ماما!" قال (بصوته القرائي المرتفع). "ماما! كفي! كفي عزفًا!"

توقفــت ماماتشي عن العزف ونظرت في اتجاه تشاكو، كان القوس يتزن بثبات في اتجاه كَبِدِّ السماء.

"كفي؟" هل تعتقد أن هذا يكفي، يا تشاكو؟"

"أكثر مما يجب،" قال تشاكو.

"كفي كفي." غمغمت ماماتشي لنفسها. "اعتقد أنني سأتوقف الآن."

كما لو كان قد واتتها بغتة.

وضعت كمنجتها بعيدا في صندوقها الأسود المصمم على هيئة كمنجة. كان يُقفل مثل حقيبة السفر. وأقفل على الموسيقي مع الكمنجة.كليك. وكليك.

ارتدت ماماتشي نظارتها القاتمة ثانية. وشددت الستائر على اليوم القائظ.

ظهرت أمو من المنزل ونادت راهيل.

"راهيل! اريدك أن تأخذي قسطك من نوم الظهيرة! ادخلي بعد الانتهاء من أكل التورتة!."

غاص قلب راهيل. نوم الظهيرة. كانت تكره هؤلاء.

عادت أمو إلى داخل البيت.

أنزل فيليوتا راهيل. وقفت تعسة على حافة ممشي السيارة، على المحيط الخارجي للمسرحية، نوم ظهيرة يلوح ضخما كريها في أفقها.

"وكف عن التباسط مع ذلك الرجل، من فضلك!" قالت بيبي كوتشاما لراهيل.

"متباسطة؟" قالت ماماتشي."من هذا: يا تشاكو؟ من المتباسط؟"

"راهيل،" قالت بيبي كوتشاما.

"من تباسط معها؟"

"مع من هى تباسطت،" صاح تشاكو لأمه.

"وهو كذلك، مع من تباسطت هى؟" سألت ماماتشى.

"حبيبك فيليوتا — مع من غيره؟" قالت بيبى كوتشاما لتشاكو —

"اسأله أين كان بالأمس. لنقوم بعمل جرئ مرة، ولمصلحة الجميع."

ليس الآن،" قال تشاكو

"ماذا تعنى كلمة متباسط؟" صوفي مول سألت مارجريت كوتشاما التي لم تجيب.

"فيوليتا؟ هل فيوليتا هنا؟ هل أنت هنا؟" وجهت ماماتشى سؤالها للظهيرة.

"نعم، كوتشاما." خطا داخل المسرحية خارجًا من الأشجار.

"هل اكتشفت موقع العطل؟" سألت ماماتشي. "الحوض فارغ الآن."

"الســير الذى في قاعدة الصمام،" قال فيليوتا. "لقد غيرته. وكل شئ على ما يرام الان."

"قم بتشغيله إذن،" قالت ماماتشي. "الحوض فارغ الآن."

"ذلــك الــرجل ســوف يكــون إله الانتقام منا وعقابنا،" قالت بيبي كوتشــاما لــيس لأنهــا عارفة بالغيب ولديها ومضة نبوءة مباغتة. فقط لتجلب عليه المتاعب. لم يُعرها أي شخص أدني اهتمام.

"اهتموا بما أقول،" قالت بمرارة.

"هــل نظريــتها؟" قالــت كوتشــاماريا عندما بلغت راهيل بصينية الــتورتة. كانــت تعنــي صــوفي مــول." عندما تكبر، ستكون حبيبتنا كوتشــاما، وسوف ترفع مرتباتنا، وتعطينا بلوزات ساري من النايلون. "كانــت كوتشــاماريا تجمع بلوزات الساري، رغم أنها لم ترتديها أبدا، وربما لن.

"ومــا أهمية ذلك؟" قالت راهيل. "وقتئذ سأكون قد انتقلت للعيش في أفريقيا."

"أفريقــيا؟" قالت كوتشاماريا بضحكة مكتومة."أفريقيا مليئة بالزنوك القبيحين والعوض."

"أنــت القبيحة الوحيدة،"قالت راهيل، وأضافت (بالإنجليزية)"حمقاء متقزمة!"

"مــاذا قالــت؟" قالــت كوتشــاماريا مهددة. "لا تقولي. أعرف لقد سمعت. سأخبر ماماتشي. انتظري وسترين!"

مضــت راهيل إلى حيث البئر القديم حيث يوجد عادة بعض النمل الصغير الذي تقتله. نمل أحمر تصدر عنه رائحة حامضة كريهة عندما يهرس. تبعتها كوتشاماريا بصينية التورتة.

قالت راهيل أنها لا تريد شيئاً من هذه التورتة الغبية.

"كاشــومبي" قالــت كوتشــاماريا. الغــيورون يذهبون مباشرة إلى الجحيم."

"من الغيور؟"

"لا أعــرف، أخبرينــي أنــت،"قالــت كوتشــاماريا، ذات المريلة المكشكشة والقلب الخل.

ارتــدت راهيل نظارتها الشمسية ونظرت للخلف داخل المسرحية.
كــل شــئ كــان يلــون الغضب. صوفي مول، الواقفة بين مارجريت كوتشــاما وتشــاكو، بدت كأنها لابد وان تصفع. وجدت راهيل سريان كــاملا مــن الــنمل السمين. كان في طريقة للكنيسة. جميعهم يرتدون الأحمر. لابد أن يقتل كله قبل الذهاب إلى هناك. يهرس ويدهس بحجر.
لا يمكنك أن تري نمل له رائحة في الكنيسة.
كــان الــنمل يصدر عنه صوت جرش خافت عندما تفارقه الحياة. مثل قُطرُب يأكل توست أو بسكويت مقرمش.
الكنيســة النملــية ستكون خاوية والقس النملي سينتظر في ملابس القــس النملــية المضــحكة، وهو يؤرجح البخور في وعاء فضي. ولن يصل أحد.
بعــد أن ينتظر لقدر نملي معقول من الوقت، سوف يعتري جبهته عبوس القساوسة، وسوف يهز رأسه بحزن.
سوف ينظر إلى زجاج النوافذ اللامع الملطخ بالنمل. وعندما ينتهي مــن النظر إليه، سوف يغلق الكنيسة بمفتاح ضخم فيعتمها. عندئذ سوف يذهــب إلى زوجته في البيت، و(إن لم يكن ميتاً) فسيأخذان سنه من نوم الظهيرة.
صــوفي مــول، بقبعــتها، وبــنطالها ذا الفــتحات الواسعة أسفله، اســتقطابها لحــب الجميع من البداية، مشت خارج المسرحية لتري ما الــذي تفعلــه راهيل خلف البئر. لكن المسرحية ذهبت معها. مشت أنا مشــت، توقفت أنا توقفت. تتبعها ابتسامات مغرمة. حركت كوتشوماريا صــينية التورتة خارج طريق ابتسامتها المعجبة المنحدرة عندما جثمت فــي وحــل البــئر (بنطالها الأصفر بفتحاته الواسعة أسفله، الآن مبتلاً بالطين).
تفحصت صوفي مول التشوه الناضح برائحة باستقلالية هادئة. كان الحجــر مكســورا بجثــث حمراء مهروسة وأرجل قليلة تلوح بضعف.
كانت كوتشوماريا المغرمة تترقب بإعجاب.
فتاتين تلعبان.
رائعتين.

واحدة بلون الشاطئ.
واحدة بنية اللون.
واحدة محبوبة.
واحدة محبوبة أقل قليلا.

"لنترك واحدة حية حتى تعيش وحيدة،" اقترحت صوفي مول.

تجاهلتها راهيل وقتلت النمل كله. ثم جرت بعيدا، في فستانها الدانتيلا الخاص بالمطار وبنطاله المماثل (لم يعد منشيا) ونظارتها الشمسية الغير لائقة مع الفستان. اختفت في القيظ الأخضر. ظلت الابتسامات المغرمة ثابتة على صوفي مول، مثل بؤرة ضوء، تظن ربما، أن بنتي الخال والخالة يلعبان أستغماية، كما يفعل أبناء وبنات الأخوات والأعمال المتآلفين غالبا.

-9-

مدام بيلاي، مدام آيبن، مدام راجاجوبلان

رشحت خضرة النهار من الأشجار. انحدرت أوراق نخيل قاتمة وكأنها أمشاط شعر تتدلى على سماء البسارة. وقد انسابت الشمس البرتقالية بين أسنانها الحادة المنحنية.

سرب من خفاش الفاكهة ينسابق عبر العتمة.

في حديقة نباتات الزينة المهجورة، كانت راهيل تترقب بجوار الأقزام المتراخية وتمثال لملاك مدحور، استعمره المستنقع الآسن، فشاهدت ضفادع الطين تتقافز من حجر إلى حجر مكسو بالزبد. ضفادع جميلة قبيحة.

أمراء قتلهم الحنين، يشتاقون للقبَّل حبيسة داخلهم. طعام للثعابين الكامنة في حشائش يونيو الطويلة. خشخشة. اندفاع. لا ضفادع لتتقافز من جحر إلى جحر أخر مكسو بالزبد. لا أمير ليتلقى القبل.

تلك كانت اول ليلة بلا مطر منذ أن وصلت.

الآن تقريبًا، فكرت راهيل، "لو كنت في واشنطن، لكنت في طريقي للعمل. ركوب الباص. أضواء الشوارع. أدخنة الغاز. أنفاس الناس على زجاج كبينتي الواقية من الرصاص. قعقعة العملات المعدنية في الصينية. رائحة النقود في أصابعي. السكير المنضبط في مواعيده بعينيه المتزنتين الذي يصل بالضبط في العاشرة مساء. "هاي، أنت! أيتها العاهرة السوداء! مصي ذكري!"

كانت تمتلك سبعمائة دولار. وإسورة منة الذهب تتدلى منها رؤوس ثعابين. لكن بيبي كوتشاما قد سألتها فعلاً عن طول المدة التي ستقضيها. وعن خططها بخصوص إيستا؟

لم يكن لديها أي خطط.

لا خطط.

لاحق لها للمثول أمام القضاء.

نظرت للخلف على الثقب الجملوني الضخم الذي يأخذ هيئة منزل في الكون، وتخيلت الحياة في الحوض الفضي الذي ركبته بيبي كوتشاما على السطح. بدا واسعًا بما يكفي لأن يعيش فيه الناس. بالتأكيد كان أكبر من بيوت كثير من الناس. أكبر، على سبيل المثال، من كوتشو ماريا الضيق.

إذا ما ناما هناك، هي وإيستا، والتفا حول بعضهما مثل جنينين في رحم معدني ضحل، ماذا سيفعل هولك هوجان وبام بام؟ لو احتّل الدش، أين سيذهبان؟ هل سينزلقان عبر المدخنة إلى حياة وتليفزيون بيبي كوتشاما؟ هل سيهبطان على البوتجاز القديم بصرخة قوة وعنف! بعضلاتهما وملابسهما البراقة الموشاة بالترتر؟ هل ستنزلق الناس النحيفة ــ ضحايا المجاعات واللاجئين ــ عبر شقوق الأبواب؟ سينزلق جينوسايد من عبر قرميد الحوائط؟

السماء كانت متخمة بالتليفزيون. لو ارتديت نطارة من نوع خاص، فبإمكانك أن تراها تتسلل إليك بين الخفافيش والطيور الزاجلة ــ شقراوات، حروب، مجاعات، كرة قدم. عروض أغذية، انقلابات، تصفيفات شعر متصلبة بفعل رشات المثبت. صدريات مصممي الأزياء. الكل ينساب صوب أيمينيم مثل غواصي السماء. يصوغون نماذج في السماء. طواحين هواء، أزهار متبرعمة وغير متبرعمة.

صرخة قوة وعنف!

عادت راهيل لتمعن النظر في ضفادع الطين.

سمينة. صفراء. من حجر إلى حجر يكسوه بالزبد. لمست إحداها بلطف. فحركت أهدابها للأمام. واثقة بنفسها بشكل مضحك.

بغشاء رامش **Nictitating membrane**، تذكرت أنها قضت يوما كاملاً هي وإيستا يقولان هذه الكلمة. هي وإيستا وصوفي مول.

Nictitating

ictitating

titating

itating

ating
ting
ing

ثلاثـــتهم كـــانوا يرتدون الساري (بلوزات قديمة،ممزقة من نصفها) في ذلـــك الـــيوم، كان إيستا هو خبير طي الثوب. ثني طيات صوفي مول. ضـــبط وضـــع بلـــوزة راهـــيل، وهندم بلوزته. كانوا يعصبون جباههم بأربطـــة حمـــراء. فـــي إطـــار محاولة إزالة كحل آمو الممنوع، قاموا ولطخـــوا بـــه عيونهم كلها، وعلى وجه العموم، فقد بدوا مثل ثلاثة من حيوانات الراكون يحاولون انتحال شخصية سيدات هندوسيات. كان هذا بعد وصول صوفي مول بأسبوع تقريبًا. أسبوع قبل موتها.

وقتـــئذ، كانـــت قد أجادت دون تعلثم وتحت حكمة التوأم وتجاوزت كل توقعاتهم .

فقد:

١ـ أخبرت تشاكو بأنها تحبه أقل مما كانت تحب جو، حتى بالرغم مـــن أنه والدها الحقيقي ـــ (الشيء الذي تركه مباحًا ـــ حتى لو لم يكـــن مـــيالاً ـــ لأن يكـــون أبـــا بديـــلا لتوأم ثنائي اللقاح شرهين لعاطفته).

٢ـــ رفضـــت عـــرض ماماتشي بأن تحل محل إيتسا وراهيل في وظـــيفة المضفر الليلي المميز لضفائر شعرها التي كانت تأخذ هيئة ذيل الفأر، والعداد الذي يقوم بعد شاماتها.

٣ـــ (والأهـــم مـــن هـــذا كله) ـــ قدرت بمكر الطبع المميز، ولم تـــرفض فقـــط، لكـــنها رفضت مباشرة وبوقاحة شديدة، كل محاولات الصداقة والاغراءات الصغيرة من بيبي كوتشاما.

وكـــأن هذا كله لم يكن كافيًا، فقد كشفت عن ذاتها كآدمية. ذات يوم عـــاد الـــتوأم مـــن رحلـــة سرية للنهر (لم تكن تتضمن صوفي مول) ووجداهـــا في الحديقة غارقة في دموعها، وهي تجلس على أعلى نقطة وحـــيدة؛ فـــي حديقة بيبي كوتشاما. في اليوم التالي أخذها إيستا وراهيل معهما لزيارة فيليوتا.

قاموا بزيارته وهم يرتدون بلوزات الساري، كان يمشون بجلبة في الوحــل الأحمــر والعشب الطويل. (Nictitating ictitating tatinting ating ting ing). وقدمــوا انفســهم على انهم مدام ببيلاي، مدام إيبن ومدام راجاجوبالان. قدم لهم فيليوتا نفسه وقدم لهم أخوه المُعاق. كوتابن (رغــم انه كان سريع النوم) حياهم بتهذب شديد. ناداهم جميعا بكوتشاما وأعطــاهم عصــير جوز هند طازج. تحدث معهم عن الطقس. النهر. حقــيقة وجهة نظره التي تؤكد أن أشجار جوز الهند صارت اقصر هذا العــام ـــ مــثل السيدات في ايمينيم. قدمهم لدجاجاته الشرسة. عرض عليهم معدات النجارة ليشاهدونها. ونحت لكل منهم ملعقة من الخشب.

الآن فقــط، في هذه السنوات اللاحقة عرفت راهيل بإدراك بعدى بــالغ حــلاوة تلــك الإيماءة. رجل كبير بالغ يمتع بثلاثة من حيوانات الــراكون، يعــاملهم مــثل سيدات حقيقيات. متواطئاً بتلقائية مع حاكه خيالهم من تامر مكترثا الا يهدر عشرة بطيشه البالغ. أو عاطفته.

من السهل بعد كل هذا أن ندمر قصة. أن نحطم سلسلة من الأفكار. أن ندمر شظية من حلم حُمّلت بعناية مثل قطعة من البورسلين.

أن نجعلهــا درساً، نسافر معها، كما فعل فيلبوتا، هو أصعب شيء يمكن فعله.

ثلاثــة أيام قبل الفزع، نركهم يطلون أظافره بطلاء أظافر كانت أمو قد استغنت عــنه. كان ذلك هو اليوم الذي زارهم فيه التاريخ في الشرفة الخلفــية. نجارٌ له أظافر زاهية الألوان. نظر عليهم مجموعة من رجال الشرطة وضحكوا، ما هذا؟ قال أحدهم.

رفع آخر حذاءه وبه دودة الفية ملفوفة حول حروف نعله بنية قائمة بمليون ساق.

انسل آخــر شعاع ضوء من كتف تمثال الملاك. فالتهمت العتمة الحديقة بأكملها. مثل أصلة* فأضئ المنزل بالأنوار.

---

* أصلة: ثعبان كبير جدا (اسم جنس).

مدام بيلاي، مدام ايبن، مدام راجاجوبلان

رأت راهــيل ايستا في غرفته، يجلس على سريره المُرتب. كان يـنظر للخــارج عبر النافذة المسيجة على الظلام. لم يكن براها، وهى تجلس بالخارج في العتمة. وهى تنظر على الضوء بالداخل.

اثــنان مــن الممثلين حبيسان في مسرحية غامضة لا إشارة فيها لســرد أو حــبكة. يتعــثران في دوريهما، يلتزمان بالعناية حيال محنة لشخص اخر. يتأسيان لمأساة شخص آخر.

غــير قادريــن، على تغيير الأدوار. أو شراء، بأجر، نوع رخيص مــن التعاويذ من مستشار على درجة من المعرفة، بإمكانه أن يجلسهما ويقــول، بشــكل مــن الأشــكال؛ لستما مذنبان. بل إن الإثم قد ارتكب ضدكما. لقد كنتما محض طفلين. ولم يكن لدكهما قدرة على التحكم في الأمور. أنتما الضحايا ولستما الجناة.

لــو استطاعا إنجاز تلك القفزة، لتمكنا من مساعدة أنفسهما. لو كان بإمكانهمــا فقــط أن يــرتديا، ولــو مؤقــتا، مأساوية كونهما ضحايا. لاستطاعا، إذن، أن يضعا وجهًا عليها، واستحضرا العنف والثورة على مــا قــد حــدث. أو ينشدا التعويض والإصلاح. وأخيرًا، ربما يطردان الذكريات التي اقتنصتهما.

لكــن الغضــب لم يكن مباحًا ولم يكن هناك وجه ليضعاه على هذا الشــئ الآخــر الذي يقبضان عليه في اليد اللزجة الأخرى، كأنه برتقالة وهمــية. لم يكن هناك مكان لوضعه. لم يكن بوسعهما إلقائه بعيدًا. كان لزامًا أن يقبض. بعناية وللأبد.

إيســتابن وراهيل كلاهما كان يعرف أن هناك عدة جناة (بالإضافة لهمــا) فــي ذلك اليوم. لكن هناك ضحية وحيدة له أظافر مطلية باللون الأحمــر الدموي، وورقة نبات على ظهره تجعل رياح البسارة تهب في موعدها.

ترك خلفه ثقبًا في الكون انسكبت منه العتمة كأنها القطران السائل. انســكبت منه أمهما دون تلويحة وداع. تركتهما خلفها يعيسون الظلام، بلا مراسي، في مكان لا معالم له.

بعـد ساعات، سطع القمر وحمل الأصلة الكئيبة على إعادة كل ما كانت قـد التهمـته. عادت الحديقة للظهور ثانية. اجتُرَّت بأكملها. وبها راهيل جالسة.

تغـير اتجـاه النسيم وحمل لها صوت الطبول. هدية. وعد بقصة. كان يا مكان، يحكى أن، كان يعيش هناك ....

رفعت راهيل رأسها وأنصتت.

فـي الليالـي الصافية، كان صوت التشاندا يسافر مرفرفا أكثر من كيلومترًا من معبد آيمينيم، معلنًا عن عرض للكاثاكالي.

مضـت راهـيل، مجذوبـة بذكـرى الأسطح المنحدرة والحوائط البيضـاء. ذات المصابيح النحاسية المضاءة والمطفأة، والخشب المشبع بالزيـت. مضـت على أمل مقابلة فيل عجوز لم تصعقه الكهرباء على طـريق كوتايـام ــ كوتشين السريع. وقفت بجوار المطبخ لأجل ثمرة جوز الهند.

فـي طريق خروجها، لاحظت أن أحد أبواب المصنع قد انخلع من مفصلاته واستند مدخل الباب. حركته جانبًا وخطت للداخل. كان الهواء مثقلا بالرطوبة، رطبًا بما يسمح لسمكة أن تسبح فيه.

الأرضـية تحـت حذائها كانت ملساء بسبب زبد البسارة . خفاش صغير قلق كان يزرق بين دعامات السقف.

أحـواض المخلـل الأسمنتية الخفيفة التي كان سيلويتها ينعكس في العـتمة مما جعل أرضية المصنع تشبه مقبرة داخلية للجثث الأسطوانية الشكل.

الأطلال الأرضية الباقية من مخللات ومعلبات الجنة.

حيـث، منذ زمن طويل، يوم وصلت صوفي مول، قام السفير إ ــ بلقـيس بهز إناء يحتوي على مربى قرمزية وخطر بباله فكرتين. حيث تـم تخلـيل سـر على هيئة ثمرة مانجو طرية حمراء، وأحكم إغلاقه ووضع بعيدًا.

حقيقة. الأشياء يمكن أن تتغير في يوم واحد.

-10-
النهر في القارب

أثـناء عـرض مسرحية مرحبا حبيبتنا صوفي مول في وطنها ووزعت كوتشـو ماريـا الـتورتة على الجيش الأزرق في القيظ الأخضر. قام السفير إ. بلفيس/س. كوبرة الثعلب S.Pimpernel (بنقشة شعره) صاحب الحـذاء البيجـي المدبب، بدفع الأبواب المعدنية لمصنع مخللات الجنة ودخل ساحته التي تنضح بالرطوبة ورائحة التخليل. مشي بين أحواض التخلـيل الأسمنتية العملاقة بحثا عن مكان يفكر فيه. آوزاء الهامة* التي تعيش على دعامة مطلية بالأسود بالقرب من المثوَر (وأسهمت مصادفة في نكهة منتجات بعينها من منتجات الجنة)، رأته وهو يمشي.

مـارا بالليمون الأصفر الذي يطفو في محلول ملحي يحتاج التقليب مـن وقت لأخر (أو جزر أخرى من الفطر الأسود يأخذ هيئة الماشروم المخرم في حساء صافي).

مارا بالمانجو الأخضر، المقطع والمحشو بالكركم ومسحوق الفلفل الأحمر ومربوط ببعضه بخيط مِصيص. (لم يكن يحتاج إلى عناية لفترة من الوقت).

مارا ببراميل زجاجية لها سدادات من الفلين مليئة بالخل.

مارا بأرفف البكتين♦ والمواد الحافظة.

مـارا بصـواني القـرع، عليها سكاكين وأعداد من واقي الأصابع الملونة.

مارا بأكياس كبيرة من الخيش منتفخة بالثوم والبصل الصغير.

مارا بكومات حب الخردل الطازج الأخضر.

---

* الهامة = بومة المخازن Barn owl (المترجم)

♦ بكتين = مركب كيماوي سكري يوجد في بعض الفواكه. (المترجم)

مـــاراً بـــتل مـــن قشـــر المـــوز على الأرضية (تم حفظة كعشاء للخنازير).
ماراً بدولاب الملصقات المليء بالملصقات.
ماراً بالغراء.
ماراً بفرشاة الغراء.
مـــاراً بحـــوض مـــن الفولاذ ملئ بزجاجات فارغة تطفو في ماء بصابون.
ماراً بعصير الليمون.
ماراً بعصير العنب.
وإيابا.
كـــان الجو معتما بالداخل، مُضاء فقط بالضوء الذي يتخلل الأبواب المعدنـــية المتكـــتلة، وشعاع مترب من ضوء الشمس (لم تكن تستخدمه أوزا) يدخـــل من المنور. رائحة الخل والحتليت◆ تلسع فتحتي أنفة، لكن إيستا كان معتاداً عليها ويحبها. المكان الذي وجده ليأوي إليه ويفكر كان بيـــن الحـــائط والمـــرجل الأســـود الذي كانت تسوي فيه العجينة (غير القانونية) لمربي الموز لتبريدها ببطء.
كانـــت المربي لم تزل ساخنة وعلى سطحها القرمزي اللزج، طبقة ســـميكة مـــن الزبد الوردي تتلاشى ببطء. فقاعات موز صغيرة تتجذب للغوص في خضم المربي وليس هناك من يُغيثها.
بإمكـــان بـــائع شراب البرتقال والليمون أن يتمشي في أي لحظة. ويركـــب باص كوتشين ــ كوتايم ويأتي إلى هناك. وكانت آمو ستقدم له كوب من الشاي. ربما عصير الأناناس الأصفر بالثلج في كوب.
بالمِحـــراك الفـــولاذي الطويل. قلبَ إيستا المربي الطازجة غليظة القوام.
الزبد المتلاشي صنع أشكال زبدية مُتلاشية.
ديك له جناح مهروس.
مِخلب دجاجة مثبتة بمسمار.

◆ الحتليت = نوع من الصمغ يستخرج من جذور بعض النباتات وكان يستخدم كعلاج للتشنج (المترجم)

هامة (ليس أوزّا) منقوعة في المربي المغثية.
دوامة مثيرة للكآبة.
وليس هناك من يُغيث.

وبينما كان إيستا يُقلب المربي الغليظة القوام خطرت بباله فكرتان، والفكرتان اللتان خطرتا بباله، كانتا كالآتي:
١ــ بالأمكان أن يحدث أي شئ لأي شخص.
٢ــ الأفضل أن تكون مستعدا .
كان إيستا وحده سعيداً بما لديه من بوادر حكمة عندما واتته فكرتين كهاتين.
أثناء تقليب المربي الأرجوانية، أصبح إيستا بارع في التقليب بنفشة شعر مُنعكسة وأسنان غير مستوية، ثم عرافات مكبث.
النار تضطرم، فتظهر فقاقيع الموز.

سمحت امو لــ "إيستا" أن ينسخ وصفة ماماتشي لمربي الموز في كتاب الوصفات الجديد الخاص بها، ذي الغلاف الأسود في أبيض.
بالفعل كان مدركا للمعروف الذى منحته إياه، أستخدم إيستا أحسن خط يد لديه.

مربي الموز (بخط يده القديم)
هرس الموز الناضج. يضاف الماء حتى يغطيه ويطهى على نار شديدة حتى تصبح الفاكهة لدنة.
يُصفى العصير في قطعة من الشاش.
وزن كمية متساوية من السكر وتوضع جانبا.
يُسوي عصير الفاكهة حتى يصبح قرمزي اللون وكذا يتبخر نصفه.
إعداد الجيلاتين (بكتين) كما يلي:
النسبة ١:٥

مـثال: أربـع ملاعـق شاي من البكتين: عشرين معلقة شاي من السكر.

كـان إيسـتا يعتقد دائمًا أن البكتين هو الأخ الأصغر لثلاثة من الأخوة يحملـون جواكـيش، بكتيـن، هيكتين وأبيدنيجو. تخيلهم يقومون ببناء سـفينة من الخشب في ضوء شحيح تحت رذاذ المطر. مثل أبناء نوح. اسـتطاع أن يـراهم بوضـوح فـي مخيلته. يسابقون الزمن. أصوات جواكيشـهم كئيبـة تحـت السـماء المشحونة بعواصف تترقب فرصة الهـبوب. وعلـى مقـربة فـي الغابة، في الضوء المنتفخ بالعواصف، اصطفت الحيوانات في أثنين، أثنين:

بنت ولد.

بنت ولد.

بنت ولد.

بنت ولد.

لم يكن مسموحا بالتوائم.

باقـي الوصفة كُتِبَ بخط إيستا الجديد الجميل. زاو، ناتئ. بميل للخلف كمـا لـو كانـت الحـروف مُضربة عن صياغة الكلمات مضُربة عن الدخول في جمل:

إضافة البكتين للعصير المُركز. يوضع على النار لعدة (٥) دقائق.

استخدام نار قوية، لتسخين جميع الجوانب بشدة في وقت واحد.

إضـافة السـكر. يوضع على النار حتى يتم الحصول على القوام المطلوب.

التبريد يتم ببطء.

أتمني أن تستمتعوا بهذه الوصفة.

بغـض الـنظر عـن الأخطاء الهجائية. كان السطر الأخير. أتمني لكم الاسـتمتاع بهـذه الوصـفة هو الإضافة الوحيدة لـ"إيستا" على النص الأصلي.

تدريجـياً، وأثناء تقليب إيستا للموز، صار قوام مربي الموز غليظ وبــردت، وشـــبت الفكـــرة رقم ثلاثة من تلقاء نفسها من حذائه البيجي والمدبب.

كانت الفكرة رقم ثلاثة.

(٣) قارب.

قـــارب لنـــبحر فيه بعرض النهر. أكارا. الضفة الأخرى. قارب ليحمل المــؤن. الــثقاب. الملابس. الأوعية. والأواني. أشياء كانوا بحاجة إليها ولا يمكنهم السباحة بها.

كـــان شعر يد إيستا منتصباً. تقليب المربي أصبح تجديف لقارب. التقليــب الدائـــري أصبح تجديف للخلف والأمام. في نهر لزج قرمزي اللون. أغنية من سباق قوارب أونام ملأت المصنع ***Thaiy thiy thaka thaiy thyaiy thome!***

إنداء دا كورا نجاشا غترا تيجانادو؟

(هاي سيد قرد الإنسان، لماذا مؤخرتك حمراء جداً؟)

بادنديل توران بويابول نيراكاموتيري نيرانجي نجان.

(ذهبت إلى مدراس لأخرى، وحككتها حتى نزفت.)

طفـــى صـــوت راهيل على الأسئلة والإجابات الفجة إلى حد ما لأغنية القارب في المصنع.

"إيستا! إيستا! إيستا!"

لم يرد إيستا. كان كورس أغنية القارب يهسهس فى المربى غليظة القوام.

تييومى

تيتومى

تاراكا

تيتومى

تيم

الـباب المعدني أصدر صريراً، ونظرت والشمس خلفها بالداخل. جنية مطـــار لهـــا نتوءات علي هيئة قرون، ونظارة شمسية بلاستيكية حمراء ذات إطـــار أصــفر. كان المصنع ملوناً بالغضب. الليمون الممنح كان أحمـــر. المـــانجو الطـــري أحمر. دولاب الملصقات كان أحمر. شعاع المنور (الذي لم يستخدمه أوزا أبداً كان أحمر.)

انغلق الباب المعدني.

وقفــت راهــيل فـــي ساحة المصنع الخاوي ومعها نافورة شعرها المـــربوطة بــتوكة الحب ــ في ــ طوكيو. سمعت صوت راهبة يترنم بأغنــية القـــارب. نغمات صافية من سوبرانو ترفرف فوق أبخرة الخل وأحواض التخليل.

التفتــت إلـــي إيســتا المنحنـــي علي الحساء القرمزي في المرجل الأسود.

"ماذا تريدين؟" سأل إيستا دون أن ينظر إليها.

"لا شيء"، أجابت راهيل

"لماذا أتيت إلي هنا إذن؟"

لم ترد راهيل. ثمة فترة قصيرة من الصمت العدواني

"ولماذا تجدف في المربي؟" قالت راهيل

"الهند بلد حر"، قالت إيستا.

لا أحد يشك في هذا.

الهند كانت بلد حر.

بإمكانك أن تستخرج ملحاً. وتقلب مربي، إذا ما أردت ذلك.

بإمكـــان بـــائع شراب البرتقال والليمون أن يدخل تواً عبر الأبواب المعدنية.

إذا ما أراد.

وسوف تقدم له أمو عصير أناناس. بالثلج.

جلست راهيل علي حافة الحوض الأسمنتي (أطراف الدانتيلا والكرباس الخفــية مغموسة برقة في مخلل المانجو الطري) ولبست واقي الأصابع المطاطي. ثلاث زجاجات زرقاء كافحت بضراوة ضد الأبواب المعدنية

رغبة في الدخول. وأوزا، الهامة، كانت تترقب الصمت الناضج برائحة التخليل الجاثمة بين التوأمين كأنه شرخ.

كانــت أصــابع راهــيل ملونــة بالأصفر، والأخضر، والأزرق، والأحمر، والأصفر.

مربي إيستا قد قُتِلت.

نهضت راهيل لتمضي. لتأخذ سنة من نوم الظهيرة.

"وأين أنت ذاهبة؟"

"صوب مكان ما."

خلعــت راهــيل أصــابعها الجديدة، وعادت إليها أصابعها بألوانها القديمــة. ليست صفراء، ليست خضراء، ليست زرقاء، ليست حمراء. ليست صفراء.

"وإننــي ذاهب إلي أكارا"، قال إيستا. دون أن يرفع عينيه. "إلي بيت التاريخ."

توقفــت راهــيل وتلفتت حولها، وفي قلبها، فراشة قاتمة لها ذؤابات ظهر تشذ عن العادة بسطت أجنحتها المفترسة.

ببطء للخارج.

ببضء للداخل.

"لماذا؟" سألت راهيل.

"لأن أي شــيء ممكــن أن يحــدث لأي إنســان"، قال إيستا. "ومن الأفضل أن أستعد."

لا يمكنك أن تشك في هذا.

لم يعد أي إنسان يذهب إلي منزل كاري سايبو. فيليا بابن ادعى أنه كــان آخــر إنسان يلقي بنظره عليه. قال إنه أصبح مسكوناً بالأرواح. حكــى للتوأميــن قصــة صراعه مع شبح كاري سايبو. حدث هذا قبل عاميــن، قال. لقد ذهب عبر النهر، بحثاً عن شجرة جوز الطيب ليصنع معجون جوز الطيب والثوم الطازج لزوجته، تشيلا، لأنها كانت طريحة الفــراش مــن جــراء السل. بغتة، شم دخان سيجار (تعرف عليه علي الفور، لأن باباتشي كان معتاد علي تدخين نفس الصنف). دار فيليا بابن حــول نفسه وقذف بمنجله علي الرائحة. ثبت الشبح بالمسامير في جذع

شـجرة مطـاط مقطوعة بالمنجل، نزفت دماً كهرمانيا صافيا، وتشهي السـيجار لم يجد فيليا بابن شجرة جوز الطيب أبدا، وكان لزاما عليه أن يشـتري مـنجلاً جديـداً، لكنه كان ممتنا بإدراكه أن رد فعله الخاطف (بالـرغم مـن عينه المرهونة) وحضور ذهنه قد وضعا نهاية للتجوال المتعطش للدم، الذي يقوم به شبح شاذ يميل إلي مجامعة الغلمان.

الـذي لا يعرفه فيليا بابن (الذي يعرف معظم الأشياء) هو ان بيت كاري سايبو هو بيت التاريخ (ذا الأبواب المغلقة والنوافذ المفتوحة) وأن بداخلـة خارطـة تنضح بأسلاف لهم رائحة أظافر أقدام صلبة يهمسون للسـحالي علـي الحوائط. بيت التاريخ هذا كان يستخدم الشرفة الخلفية لينجز اتفاقاته. ويجبي مستحقاته. أدي هذا الاختيار إلي عواقب وخيمة. إنــه في اليوم الذي اختاره التاريخ أن التخلف عن السداد اختاره التاريخ لتسوية حساباته، حفظ إيستا إيصال المستحقات التي دفعها فيليوتا.

لم يكن لدي فيليا بابن فكرة بأن الذي يأسر الأحلام ويجترها أحلاما هـو كـاري سـايبو. أنــه هو الذي يقتلعها من أذهان المارة كما يلتقط الأطفـال حـبات الكرز من التورتة. وأن أكثر الأحلام التي اشتهي أن يجـترها لـيحلم بهـا ثانـية هي الأحلام الرقيقة لتوأمين من بويضتين منفصلتين.

لـو أن المسكين فيليا بابن العجوز، كان يعرف وقتئذ أن التاريخ قد اخـتاره نائـباً له، أن دموعه هي التي بادرت بنشر الفزع، ربما لم يكن ليتبخـتر مثل ديك صغير في سوق آيمينيم، متفاخراً بالطريقة التي سبح بهـا فـي الـنهر ممسـكا بمنجله في فمه (حامضة رائحة الفولاذ علي لسـانه). كـيف وضعه علي الأرض لمدة دقيقة واحدة فقط بينما انحني ليغسـل عـن عينه المرهونة جراشة النهر (أحيانا ما كان النهر يحمل بعـض الجراشــة، تحديداً في الأشهر المطيرة) عند أمسكت أنفه بأول فوحـة من دخان السيجارة، وكيف التقط منجله، واستدار وقطع بمنجله الـرائحة التـي ثبتـت الشـبح للأبد. كل هذا في حركة واحدة خاطفة ورياضية.

وقـبل أن يسـتوعب دورة في مؤامرات التاريخ كان قد تأخر عن اقتفاء أثره ثانية، فقد طمس بنفسه آثار أقدامه. إذ تراجع حبسوا بمقشة.

في المصنع، حط الصمت مرة أخري منقضاً وشد وثاقه حول التوأمين. لكن هذه المرة، كان نوعاً مختلفاً من الصمت. صمت نهر عجوز. صمت الصيادين والجنيات الشمعية.

ولكن الشيوعيون لا يعتقدون في الأشباح، قال إيستا، كأنهما يواصلان حوار يتحرون فيه عن حلول لمشكلة الشبح. جواراتهم كانت تعلق وتهبط مثل مجاري المياه الجبلية. أحياناً تبلغ مسامع الآخرين وأحيانا لا.

"هل سنصبح شيوعيين؟" سألت راهيل

"وربما نضطر لهذا"

"إيستا العملي"

أصوات متصدعة بغنات التورتة وخطوات جيش أزرق يقترب حملت الرفيقان علي إحكام الإغلاق علي السر.

ثم تخليله، وإغلاقه بإحكام وإخفائه. سر علي هيئة ثمرة مانجو طرية حمراء في حوض. أشرفت عليه الهامة، آوزا.

ثم وضع تفاصيل جدول الأعمال الأحمر واتفق عليه:

ستذهب الرفيقة راهيل لتأخذ قسطها من نوم الظهيرة، ثم تستلقي يقظة حتى تنام أمو تماماً.

سوف يجد الرفيق إيستا للعلم (الذي حملت بيبي كوتشاما علي التلويح به)، وينتظرها إلي جوار النهر ونهاك سوف:

(ب) يستعدان كي يتحضران ليبلغان أهبة الاستعداد.

الفستان البديع المهجور (شبه مخلل) يقف متصلبا بنفسه في في منتصف أرضيه غرفة آمو المعتمة.

بالخارج، كان الهواء ساخناً، لامعاً ويهب هبوباً خفيفاً. راهيل راقدة إلي جوار أمو، في بنطال المطار المماثل للفستان وفي كامل يقظتها. كانت تري صورة الأزهار المتقاطعة الغرز من فرش السرير الأزرق ذا الغرز المتقاطعة علي خد آمو. كانت تسمع الظهيرة الزرقاء متقاطعة الغرز.

مروحة السقف البطيئة. الشمس وراء الستائر.

الدبور الأصفر يرف علي زجاج النافذة مصدراً دززززز خطرة.

نظرة جحود من سحلية.
دجاج يتواثب لأعلي في الحوش.
صـوت الشـمس إذ يصـدر حفيفا حين احتكاكه بالغسيل. ملاءات سـرير بيضاء متموجة. بلوزات ساري منشاة متصلبة. بيضاء ضاربة إلي الصفرة وذهبية.
نمثل أحمر علي أحجار صفراء.
بقرة حارة تشعر بالحر. آمووو . في البعيد.
ورائحـة شـبح ماكـر لـرجل إنجليزي، مثبته بمسامير في شجرة مطاط، وهو يطلب سيجار بتأدب.
"أم م .... أسـتميحك عـذرا؟ هل لي أن أعثر لديك علي ام م م .... سيجار، هل يمكن؟"
بصوت مدرس تلاميذ عطوف.
آه يا عزيزي.
وإيسـتا فـي انتظارها. إلي جوار النهر. تحت شجرة جوز الجندم التـي أحضـرها الكاهـن المبجل إ. جون آيب للمنزل من زيارته إلي مائدالامي.
علي ماذا كان إيستا يجلس؟
علـي مـا يجلسون عليه دائما تحت شجرة جوز الجندم. شيء قائم ومخطط بالرمادي. مغطي بالريم وتحقق الحجر، مطمور في السرخس. شيء ادعت الأرض ملكيته. ليس بجذع شجرة. وليس بصخرة.
نهضت راهيل وجرت، قبل أن تكمل الفكرة.
عـبر المطـبخ، مرورا بنوم كوتشو ماريا العميق. منحته بالتجاعيد مثل خريت متعجل يرتدي مريلة مطبخ منقوشة.
مرورا بالمصنع.
قدم حافية تتعثر في القيظ الأخضر، يتتبعها دبور أصفر.
كان الرفيق إيستا هناك. تحت شجرة جوز الجندم. مع العلم الأحمر المـزروع فـي الأرض إلي جواره. جمهورية متنقلة. ثورة توأمية لها نفشة شعر.
وما الذي كان يجلس عليه؟

شيء مغطي بالطحلب، ومختفى بالسرخس.
لتطرق عليه كيما يصدر صوت طرقات أجوف.
السكون كان يعلو وينخفض وينقبض ويتلوى علي شكل الرقم ثمانية.
حشرا فرفور الماء المرصعة بالجواهر كانت تحوم مثل أصوات صاخبة.
الأطفال في الشمس.
أصابع لها ألوان الأصابع تصارع السرخس، تحرك الأحجار تمهد الطريق ، ثمة صراع ينز عرقاً من أجل حافة يمكن التشبث بها. وواحد اثنين و.
الأشياء يمكن أن تتغير في يوم واحد.
كان قارباً. Yallom خشبي صغير.
القارب الذي بحث عنه إيستا ووجدته راهيل.
القارب الذي كانت أمو ستستخدمه لعبور النهر. أن تحب ليلا الرجل الذي أحباه طفليها نهاراً.
قارب قديم جدا لدرجة أن رسخ في الارض. تقريبا.
نبات قارب قديم قائم، له أزهار قارب وثمار قارب. وتحته، مساحة من العشب الذابل علي هيئة قارب. عالم قاربي مسرع وخاطف.
معتم وجاف وبارد. بالأسقف الآن. ومكفوف.
نمل أبيض في طريقه للعمل.
خنافس بيضاء ومنقطة الأجنحة في طريقها للبيت.
خنافس بيضاء تخفي نفسها عن الضوء.
جراد أبيض بكمنجات من الخشب الأبيض.
موسيقي حزينة بيضاء.
دبور أبيض. ميت.
جلد ثعبان أبيض هش، يحمي في الظلام، ويتداعى في الشمس.
لكن هل سيجر، ذلك الـ Yallom الصغير؟ أيحتمل أن يكون قديما جداً؟ ميتاً تماماً؟ هل أكارا بعيدة جدا عليه؟
توأم ثنائي اللقاح أطلا عبر نهرهما.

الميانتشل.

أخضـــر قاتم. في خضمه سمك السماء والأشجار فيه. وفي الليل، القمر الأصفر المهشم فيه.

عندما كان باباتشي صبياً، وأثناء عاصفة سقطت شجرة تمر هندي عجـــوز في النهر لم تزل هناك. شجرة ملساء بلا لحاء، سوداء من فرط انهمار الماء الأخضر. خشب منجرف بلا انجراف.

الثلـــث الأول من النهر كان صديقهما. قبل أن يبدأ العمق الحقيقي. كانـــا يعــرفان الطحلـــب البحري الذي يهمي للداخل من المياه الخلفية القادمـــة مـــن كوماراكوم. كانا يعرفان الأسماء الأصغر حجماً. البالائي الحمقاء المسطحة. البارال الفضية الكوري بشواربه المحتالة، الكاريمين التي تأتي أحياناً.

هنا علمهما تشاكو السباحة (التطبيش حول بطن الخال الكبيرة دون مســاعدة). هـــنا قد اكتشفا وحدهما المتع المتقطعة في الطنين في العمق تحت الماء.

هـــنا قد تعلما صيد السمك. أن يشبكا الطعم الأرجواني المتكور في الخطاطـيف العلقــة في صنارات الصيد التي صنعهما لهما فيليوتا من أعواد البامبو الأصفر الممشوقة.

هـــنا تفصـــحا الصــــمت، (أطفال الصيادين)، وتعلما اللغة البراقة لفرفور الماء.

هـــنا تعلما التروي. الترقب، أن يناقشان الأفكار دون البوح بها. أن يـــتحركان مـــثل الومـــيض حيـــنما يتقوس لأسفل البامبو الأصفر المنحني.

لهذا كان يعرفان هذا الثلث من النهر جيداً. أكثر مما يعرفان الثلثين الآخرين.

الثلـــث الثانـــي حيث يبدأ العمق الحقيقي. حيث كان التيار منتظماً ومباشراً (أسفل التيار حين اللامد، أعلي التيار، مندفعاً من المياة الخلفية حين المد).

الثلث الثالث يعود للضحالة ثانية. الماء بني وعكر. ملئ بالأعشاب والطحالـــب الـــبحرية والإنكليس بحركته الخاطفة ووحل بطيء ينز بين

أصـــابع الأقــدام مثل معجون الأسنان.كان التوأمان يعومان مثل عجلا بحـــر وتحت إشراف تشاكو عبر النهر عدة مرات، وعادا لاهثان بحول فـــي عيونهما من فرط التعب، يحملان حجرا، غصنا أو ورقة نبات من الصفة الأخرى كدليل علي عملهما البطولي. لكن منتصف نهر كبير، أو الضـفة الأخـرى، لـيس مكانا لتسكع الأطفال، أو الاسترخاء أو تعلم الأشـياء. اسـتطاع إيسـتا وراهـيل أن يأمنا الثلث الثاني والثالث من الميناتشـال والاخـتلاف الذي ينطوي عليه. لم تزل، السباحة عبرة لا تمـثل مشكلة. أخذ القارب والأشياء فيه (حتى يستطيعان (بدأن يستعدان كي يتحضران ليبلغان أهبة الاستعداد).

نظـر عـبر الـنهر بعيني قارب قديم. من حيث وقفا لم يتمكنا من رؤيـة بيت التاريخ. لم يكن سوف عتمة خلف مستنقع فحسب، في قلب مزرعة المطاط المهجورة التي يعلو فيها صوت الحدجد.

رفـع إيستا وراهيل القارب الصغير وحملاه إلي الماء. بدأ مندهشا، مـثل سـمكة مخططـة بالرمادي صعدت من العمق للسطح. في حاجة ماسة لضوء الشمس. كان بحاجة للتبطين من الداخل، والتنظيف، ربما، لكن لا شيء أكثر من هذا.

قلـبان صغيران رفرفا مثل طائرات ورقية ملونة في سماء الرزقة. لكـن وقتـئذ، بقبق النهر (والسماء بداخله، والمساء والأشجار بداخله)، بهمسة بطيئة خضراء.

ببطء غاص القارب الصغير واستقر علي الدرجة السادسة.

وقلـبا توأميـن البويضـتين هبطا واستقر علي الدرجة التي تعلو السادسة.

تمطـي السـمك السامج في العمق فمه بزعانفه وضحك سرا علي المنظر.

قـارب عنكبوتي أبيض يطفو بالنهر في القارب، ناضل لفترة قصيرة ثم غـاص. كـيس زلل بيضها انفجر قبل الأوان، فنفش مائة من العناكب الصـغيرة (أخـف من أن تغرق، وأصغر من أن تعوم) السطح الأملس للماء الأخضر، قبل أن ينجرف للبحر. إلي مدغشقر، لبدء نوع جديد من عناكب مالا يالي السباحة.

فـي برهة، كأنهما قد ناقشا الأمر (رغم أنهما لم يفعلا) بدأ التوأمان فـي غسـل القارب في النهر. خيوط العنكبوت، الطين، الطحلب والريم طفـا بعـيدا. عندما أصبح نظيفاً، قلباه ورفعاه علي رأسيهما. مثل قبعة مشتركة يقطر منهما الماء. اقتلع إيستا علمه الأحمر.

موكب صغير (علم ودبور وقارب يمشي علي الأقدام) سلك طريقه المعروف لأسفل الممر الصغير عبر الفراء التحتي. كان الممر يتحاشي أجمـة القراص والخنادق الجانبية المعروفة وكثيبات النمل. كان يطوق مـنحدر المساحة العميقة التي يستخرج منها اللطريط، وهو الآن بحيرة سـاكنة بضـفاف برتقالـية منحدرة، الماء الكثيف اللزج مغطي بغشاء مضـيء مـن الـزبد الأخضـر. مرح مخضوضر خداع، يتكاثر فيه البعوض حيث السمك سمين لكن يصعب اصطياده.

الممـر الـذي يمضي موازياً للنهر، يقود إلي قطعة أرض عشبية خالـية من الأشجار محاطه بأنواع عشوائية من الأشجار : جوز الهند، الكاد الهندي، المانجو، شجر البليمبي. علي حافة لهذه المساحة المجردة مـن الأشـجار، بظهـرها المقـابل للنهر ن كوخ خفيض حوائطه من اللطـريط البرتقالـي المغطـاه بالطين وسقف من القش تقارب أطرافه الأرض، وكأنـه يتصفف علي سر سفلي خافت. حوائط الكوخ الخفيضة كانـت بنفس لون الأرض التي تقف عليها، وبدت كما لو كانت قد نبتت مـن بـذرة بيت مزروعة في الأرض، من حيث قدر ارتفعت الأضلاع اليمنـي للأرضـي وأغلقت الفضاء. ثلاث شجرات موز مزروعة في الحوش الأمامي الصغير المحاط بسياج مضفر من سعف النخيل.

القارب المحمول علي أرجل وصل الكوخ. لمبة زيت مطفأة معلقة علـي الحائط إلي جوار الباب، حيث إكتست بالسناج قطعة الحائط التي ترتكن إليها اللمبة. كان الباب مواربا. كان الداخل معتماً.

دجاجـة سـوداء ظهـرت علـي عتبة الباب. عادت للداخل، غير مكترثة تماماً بزيارات القارب.

لـم يكـن فيليوتا بالبيت. ولا فيليا بابن. لكن كان هناك شخص ما. صـوت رجـل كـان يطفو مرفرفا من الداخل وينتثر صداه علي قطعة الأرض المجردة من الاشجار، مما جعلها تبدو وحيدة.

كـــان الصـــوت يزعق بنفس الشيء، مراراً وتكراراً، وفي كل مرة تصبح نبرته أعلي، نبرة أكثر هيستيرية. كان مناشدة لثمرة جوافة كاملة النضج تهدد بالسقوط وإحداث توسيخ للأرض.

با. بيرا ــ بيرا ــ بيرا ــ بيراكا
(مستر جوجا ــ جوج ــ جوج ــ جوافة.)
إندي بارامبيل ثورالي
(لا تخري هنا في حوشي.)
تشيتندي بارامبيل ثوريكو.
(بإمكانك أن تخري عند الباب المجاور في حوش اخي،)
بابيرا ــ بيرا ــ بيرا ــ بيراكا
(مستر جوجا ــ جوج ــ جوج ــ جوافة.)

كـــان الرجل الذي يزعق هو كوتابن، الأخ الأكبر لفيليوتا. كان معاقاً من مـــنطقة الصدر ولأسفل. يوم بعد أخر، شهر بعد شهر، وبينما كان أحوه بعـــيداً وأبوه في العمل، كان كوتابن يستلقي ممداً علي ظهره وهو يشاهد شـــبابه يـــتهادي مرابه دون أن يتوقف ويقول له أهلاً. طيلة النهار كان يســـتلقي منصتاً لصمت الأشجار المنكمشة وليس بصحبته سوي دجاجة ســـوداء متعجرفة. فقد أمه تشيلا، التي ماتت في نفس الركن من الغرفة الـــذي يرقد فيه الآن. كايير موتها ساعلاً، باصقاً، متوجعاً، بلغمياً. كان كوتابـــن يـــتذكر مشاهدته لقدميها وكيف ماتت قبل أن تموت هي بكثير. كـــيف أن جلـــد قدميها قد صار قاتماً بلا حياة. كيف يفزع شاهد الموت وهـــو يـــزحف عليها من أدناها ولأعلي. ظل كوتابن مترقباً بهلع قدميه الفاقدتـــان للحـــس. بيـــن الحين والأخر ينخسهما آملاً بالعصا التي كان يســـندها إلي الحائط تحسبا لأي ثعبان زائر. لم يكن لديه أي إحساس في قدمـــيه علـــي الأطلاق، فقط الدليل المرئي هو الذي كان يؤكد له أنهما تنتميان لجسده، وأنهما بالفعل تخصانه.

بعـــد أن ماتت تشيللا، نقل إلي ركنها، الركن الذي يخيل كوتابن أنه ركن من بيته قد احتجزه الموت ليدير شئونه المميته ركن للطهي، ركن للملابس، ركن لأغطية وبطاطين الفراش، ركن كي يموت فيه.

تســاءل كم من الوقت سيبقي، وماذا يفعل الناس ممن يمتلكون في بيوتهم أكثر من أربعة أركان بما تبقي من اركانهم. هل هذا يمنحهم حق اختيار أركان للموت فيها؟

زعــم أنــه، ليس دون مبرر، سيكون الأول بين أفراد العائلة الذي سيكون في أعقاب أمه. سيدرك العكس. حالاً. حالاً جداً.

أحيانا (بحكم العادة، بحكم فقده لها)، كان كوتابن يسعل كما اعتادت أمـــه أن تفعل، وكان الجزء الأعلي من جسده ينتفض ويثبت مثل سمكة تـــم اصطيادها تواً، كان الجزء الأسفل من جسده يستلقي كأنه تقاعد عن العمل، كأنه يخص شخص آخر. لشخص ميت روحه حبيسه لا تستطيع الفرار.

علي عكس فيليوتا، كان كوتابن بارافان طيب مسالم. لم يكن يعرف الكـــتابة ولا القـــراءة. فـــي رقدته هناك علي سريره المتيبس، كأن نثار القـــش والجراشــــة تسقط عليه من السقف وتمتزج بعروقه أحيانا ما كان الـــنمل والحشرات الأخري تسقط ايضاً. في الأيام السيئة كانت الحوائط البرتقالية تشبك أيديها وتنحني فوقه، تتفحص مثل أطباء بغضاء، ببطء، وعـــن عمـــد، مقـــتلعه أنفاسه متحملة علي الصراخ. أحيانا تتراجع عن موضـــعها، فتصبح الغرفة التي يرقد فيها واسعة بشكل مستحيل، فتفزعة بشبح ضألته ودونيته. هذا أيضاً كان يجعله يصرخ فزعاً.

الخـــل والجـــنون كان يحوم علي مقربة منه، مثل نادل شغوف في مطعـــم غالـــي الثمن (يشعل السجائر، ويعيد ملأ الاكواب). كوتابن كان يـــنظر بعين الحسد علي المجانين، الذين يستطيعون المشي. لم يكن لديه من شك حيال عدالة الصفة، عقل ورشد، في مقابل ساقين عاملتين.

وضع التوأمان القارب، وقوبلت القعقعة بصمت مفاجئ من الداخل.

لم يكن كوتابن ينتظر أحداً.

دفع إيستا وراهيل الباب ودخلا. صغيران كما كانا، كان عليهما أن ينحنيا قليلاً ليدخلا، انتظر الدبور بالخارج علي اللمبة.

وإنه نحن.

كانت الغرفة معتمة ونظيفة. تتضح برائحة السمك بالكاري ودخان الخشب. القيظ موغل في الأشياء كأنه الحمي الفظة. لكن الأرضية الطينية كانت باردة تحت قدمي راهيل الحافيتين. كان فراشي فيليوتا وفيليا بابن مطويان ومركونان علي الحائط. الملابس معلقة علي حبل.في مطبخ خفيض من الخشب فوقه أواين التراكوتا المغطاة، مغارف من قشر جوز الهند، وثلاثة أطباق مسطحة مزخرفة بحواف زرقاء غامقة منمقة. بإمكان رجل بالغ أن يقف في منتصف الغرفة، لكن ليس بموازاة جوانبها. باب خفيض آخر يؤدي إلي حوش خلفي حيث يوجد عدد أكبر من أشجار الموز، يلمع خلف أوراقها النهر. وقد أقيمت ورشة نجار في الحوش الخلفي.

لم يكن هناك مفاتيح ولا دواليب لتغلق.

الدجاجة السوداء مضت عبر الباب الخلفي، وأخذت تنبش بشرود في الحوش حيث تتناثر نشارة الخشب مثل صلعة الشعر الأشقر.

يتراءى من سلوكها، أنها تبدو وقد تربت علي غذاء من الأدوات المعدنية.

رزات وضبات ومسامير ومسامير برمة قديمة.

"وآيسوو، يا بني! يا ابنتي ! ماذا تظنان؟ أن كوتابن عاجز تماماً!" قال صوت مشدوه خفي.

أخذ التوأمان برهة لتعتاد عيونهما علي الظلام. بعدئذ تحلل الظلام وظهر كوتابن علي فراشة، جني لامع في القمة. بياض عينية كان ضارب إلي الصفرة القاتمة. باطن قدميه (الرقيق من طول مدة رقاده) يبرز من تحت القماش الذي يغطي ساقيه. ما زالت قدماه مبقعتان باللون البرتقالي الشاحب من سنوات مشبه حافياً من الوحل الأحمر. تيبسات رمادية علي كاحلية من احتكاك الحبل الذي يربط به أي بارافان عن تسلقة أشجار جوز الهند.

كان الحائط خلفه كان هناك تقويم يشتمل علي صورة رقيقة ليسوع باصبع شفاه وروج، بقلب ممتقع مرصع بالجواهر مضيء تحت ملابسه. كان المربع السفلي من التقويم (الجزء المطبوع عليه التاريخ)

مكشكشا مثل الجونلة. يسوع يرتدي ميبي. إثنتي عشر طبقة لاثني عشر شهر في السة. لم يقطع منها واحدة.

هناك أشياء أخري من منزل ايمينيم منهما ما قد أعطي لهم أو أنقذ مـن صـندوق القمامة. أشياء ثمينة في منزل فقير. ساعة معطلة. علبة منقوشـة علـيها أزهار كانت تستعمل كسلة للورق. حذاء ركوب الخيل الخـاص بباباتشـي (بنـي، علـيه فطر أخضر) ولم يزل بداخلة قالب الإسـكافي. علـب بسـكويت علـيها صـور فحمـة للقلاع والسيدات الإنجليزيات بأردافهن المستعارة وحلقات شعرهن.

بوسـتر صغير (خاص بيبي كوتشاما ن تخلصت منه لابتلال جزء مـن الصورة) معلق إلي جوار يسوع. كان البوستر صورة لطفلة اشقر يكتـب خطابا، والدموع تنهمر علي وجنتيه. كتب أسفل الصورة : إنني أكتب لأقول أنك وحشتيني.

كانـت تـبدو وكأن شعرها محلوقا، وأن الحليقات المجزوزة التي تتطاير حول حوش فيليوتا الخلفي كانت من رأسهما.

أنـبوبة بلاستيكية شفافة تخرج من تحت الملاءة القطنية البالية التي تغطـي كوتابـن إلي زجاجة بها سائل أصفر اختطف بصيص الضوء الذي دخل عبر الباب، وقمع سؤالا، كان قد تراءي لراهيل. أحضرت له المـاء مـن الزير الفخار في كوز معدني. كانت تبدو متآلفة مع المكان حولها. رفع كوتابن رأسه وشرب. تساقط بعض الماء علي ذقنه.

جـثم الـتوأمان علي أردافهما، مثل الأمهات الناضجات في سوق أيمينيم.

جلسـوا فـي صـمت لـبرهة. كوتابـن مرتبك بالخجل، التوأمان مشغولان بأفكار القارب.

"وهل وصلت إبنه تشاكو" سأل كوتابن

"ولابد وأنه وصلت أجابت راهيل بإيجاز

"وأين هي؟"

"ومن يدي؟ لابد وأنها هنا أو هناك. لا ندري"

"وهل ستحضرانها هنا كي أراها؟"

"ولا يمكن"، قالت راهيل.

"لما لا؟"

"لــزاما عليها ان تظل داخل البيت. انها رقيقة جداً. إذا ما اتسخت فسوف تموت.

"فهمت"

ولــيس مســموح لنا بإحضارها الي هنا ... وعلي اي حال، فليس هــناك شيء لتراه، أكدت راهيل لكوتابن. ولها شعر، ساقين، أسنان ــ تعــرف ــ العادي ..... فقط هي أطول قليلاً، وهذا هو الامتياز الوحيد لديها.

وهــل هذا هو كل شيء؟ "قال كوتابن، مستوعباً الفكرة لتوه. وأين إذن الهدف من رؤيتهما؟"

"لا هدف" قالت راهيل.

"كوتابن، إذا ما كان القارب يسرب الماء هل من الصعب اصلاحه؟ "سال إيستا.

"لا يجــب" قــال كوتابن" هذا يتوقف. لماذا، قارب من الذي يسرب الماء؟ "

"قاربنا ــ الذي وجدناه. اتريد ان تراه؟"

خــرجا وعادا بالقارب المخطط بالرمادي ليفحصه الرجل المعاق. حملاه فوقه كانه سقف. نزّ الماء فوقه.

"أولا ســنبحث عــن الأماكــن التــي يتسرب إليه منها الماء"، قال كوتابن. وثم سيتوجب علينا أن نسدها".

"ثم الصنفرة" قال إيستا. "ثم الورنيش"

"ثم المجاذيف" وافق إيستا.

"ثم يجر بعيداً" قالت راهيل.

"إلي أين؟" سأل كوتابن.

"فقط هنا أو هناك" قال إيستا باستخفاف.

"ويتوجــب علكما الحذر" قال كوتبان. ونهرنا هذا ــ ليس دائما كما يبدو ظاهره".

"ماذا يبدو ظاهره؟" سألت راهيل.

"آه .... ســيدة عجــوز تذهــب للكنيســة، هادئة ونظيفة .....
للإفطار، للغداء. في حالها. لا تنظر يمينا أو يسارا"
"وهي في الحقيقة ....؟"
"وفــي الحقــيقة شيء متوحش .... إنني أسمعها ليلا ـ تنطلق
خاطفة في ضوء القمر، دائماً مسرعة. يتوجب علكما أن تحذراه."
"وما الذي تأكله فعلا؟"
"تــأكل فعــلا؟ آه .... Stoo ...." فـتش عــن شيء باللغة
الإنجليزية يأكله النهر الشرير.
"شرائح أناناس .... "اقترحت راهيل
"هذا صحيح ! شرائح أناناس و Stoo. ويحتسي ويسكي ".
"وبراندي."
"وبراندي. حقيقي."
"ويتلفت يمينا ويسارا."
"وفعلا."
"ويتلصص علي ما يخص الآخرين .... "
ثبــت إيستابن القارب الصغير علي الأرض الترابية الغير مستوية
بعــده كــتل مــن الخشب وجدها في ورشة فيليوتا في الحوش الخلفي
"أعطــي راهيل مغرفة طهي مكونة من يد خشبية مثبته في نصف قشرة
جوز هند مصقولة.
صــعد الــتوأمان إلــي داخل القارب وجدفا في كمية الماء الكبيرة
المتلاطمة.
مــع ثــاي ثــاي ثاكــا ثايــي ثومي. ويسوع يترقب وهو موشي
بالمجوهــرات لقد مشي علي الماء. ربما لكن هل كان بإمكانه أني سبح
علي سطح اليابسة؟
وهــو يــرتدي بنطال من نفس قماش فستان المطر؟ ونافورة شعره
مــربوطة بــتوكة الحب ـ في ـ طوكيو؟ بحذائه البيجي المدبب ونفشة
شعره؟ هل، كانت لديه القوة؟
عاد فيليوتا ليري ما إذا كان كوتابن بحاجة إلي أي شيء. من بعيد
سمع الغناء الأجش. أصوات شابة تؤكد علي متعة دراسة الغائط.

هاى مستر مانكي مان
لماذا مؤخرتك حمراء هكذا؟
ذهبت إلي مدراس لأخري
وحككتهما حتي نزفت!
مؤقــتا، وللحظـــات قلــيلة كف بائع شراب البرتقال والليمون عن ابتســـامته الصفراء وتباعد متلاشيا. غاص الخوف واستقر في قاع الماء العمـــيق. نائما نوم كلب. مستعدا لأن يخصص ويعكر صفو الأشياء في طرفة عين.

ابتســـم فيلـــيوتا عندما راي العلم الماركي زاهيا شامخا مثل شجرة بالخارج أمام مدخل بيته. كان عليه أن ينحني تماما كي يدخل بيته.

إســـكيمو مـــداري. عـــندما رأي التوأمين، انقبض شيئاً بداخله. لم يســـتطع فحصـــه. كان يراهم كل يوم. كان يحبهم دون أن يخامره هذا الشيء.

لكنه اختلف بغته. الآن. بعد أن شب التاريخ برداءة. لم يكن ثم من قبضة تعتصر داخله من قبل.

أطفالها، همسة مجنونة وسوست له.

عيناها، فمها، أسنانها.

بشرتها اللامعة المضيئة.

طـــرد الفكرة بعيداً بغضب. تراجعت وجلست خارج جمجمته. مثل كلب.

"هـــا!،" قـــال لضـــيفيه الصـــغيران "ومـــن، ألي أن أسأل، هؤلاء الصيادين؟"

"إيستا بابيتشاتيش كوتابن بيترمون. سيدي وسيدتي سعيد بمقابلتكم"، مدت راهيل المغرفة كي يصافحها محييا.

صافحها محييا. هي، ثم إيستا.

"وإلي أين، ألي أن أسأل، سيتجهون بقاربهم؟ "

"إلي إفريقيا !"صرخت راهيل.

"كفي صراخا "قال إيستا.

مشي فيليوتا حول القارب، أخبراه أين وجداه.

ولهــذا فهو لا يخص اي شخصـي "قالت راهيل وهي يساورها شك خفـيف، لأنها خامرها للخطة أنه ربما يخص شخص ما "أكان يتوجب علينا أن نبلغ به البوليس؟ "

"لا تكوني حمقاء"، قال إيستا.

نقر فيليوتا علي الخشب ثم كشط قطعة صغيرة لينظفها بظفره.

"خشب جيد" قال

"إنه يغوص" قال إيستا، "ويسرب".

"أيمكنك إصلاحه لنا، فيليوتا باباياتشاتشن بيترمون؟"

سألت راهيل

"وسـنري إمكانـية هـذا" قال فيليوتا "لا اريدكما أن تمارسا ألعاب خطره علي النهر".

"لا، لن نفعل. نعدك. سوف نستخدمه فقط وأنت معنا ".

"أولا، علينا أن نعرف أماكن الثقوب ..."، قال فيليوتا

وثم علينا أن نسدها !، صرخ التوأمان، كما لو كان هذا هو السطر الثاني في قصيدة شعر معروفة.

"كم من الوقت سنستهلك؟"، سأل إيستا.

"يوم"، قال فيليوتا.

"يوم ! كنت أعتقد أنك ستقول شهراً!"

هـام عقـل إيسـتا من الفرح، ووثب علي فيليوتا، وطوق خصره بساقيه وقبله.

ثـم تقسـيم ورق الصـنفرة إلـي أنصاف متساوية تماماً، وانهمك التوأمان في العمل بكل ما أوتيا من تركيز فنسيا أي شيء آخر.

تطايـر غـبار القـارب حول الغرفة واستقر علي الشعر ورموش الأعين. علي كوتابن مثل غيمة، علي يسوع كأنه هبة. كان علي فيليوتا أن يبعد ورق الصنفرة عن أصابعهما.

"ليس هنا" قال بصرامة "بالخارج "

رفـع القـارب وحمله للخارج. تبعه التوأمان، بعيون مثبته علي قاربهما بتركيز لا يكل، كلاب صغيرة تتضور جوعاً في انتظار تقديم الطعام.

فيليوتا نصب القارب لهما. القارب الذي بحث عنه إيستا ووجدته راهيل وتبيـن لهما كيف يزيلان بزور الخشب. بدأ لهما عملية الصنفرة. عندما عاد إلي داخل المنزل، تبعته الدجاجة السوداء، مصممة ألا تمكث حيث يكون القاربز
غمس فيليوتا فوطة صغيرة من القطن في وعاء فخاري مليء بالماء. عصرها من الماء (بقوة، كأنها فكرة غير مرغوب فيها) وأعطاها لكوتابن ليمسح الجراشة عن وجهه ورقته.
"هل قالا شيئاً؟"، سأل كوتبان "عن رؤيتك في المظاهرة؟"
"لا"، قال فيليوتا "ليس بعد، مع ذلك سوف سيفعلان. إنهما يعرفان"
"أكيد؟ "
هز فيليوتا كتفيه غير مكترثا وأخذ الفوطة ليغتسل. ليتشطف ويضرب. ويعصر. كما لو كانت عقله العاصي المضحك.
حاول أن يكرهها.
إنها واحدة منهم، قال في نفسه. مجرد واحدة أخري منهم لم يستطع.
لها غمازتين عميقتين عندما تبتسم. عيناها كانتا دائما في مكان ما آخر.
انسل الجنون للتاريخ مخشخشا. لم يأخذ أكثر من لحظة واحدة.
ساعة كاملة في الصنفرة، تذكرت راهيل قسطها من نوم الظهيرة. فنهضت وجرت. متعثرة في قيظ الظهيرة الأخضر. يتبعها توأمها ودبور أصفر.
مستجدية، آملة، ألا تكون آمو قد استيقظت واكتشفت أنها مضت.

-11-

إله الأشياء الصغيرة

في تلك الظهيرة، سافرت آمو لأعلى عبر حلم رأت فيه رجلا بشوشا مبتهجا بذراع واحدة يخاصرها على ضوء لمبة زيت. لم يكن لديه ذراع أخرى ليصارع بها الظلال التي تناثرت حوله على الأرض.

الظلال فقط هي ما كان يستطيع أن يرى. عضلات بطنه كانت تعلو تحت جلده كأنها تقسيمات على عمود من الشيكولاته.

كان يضمها اليه بقوة، في ضوء مصباح الزيت، وضاء كان وكأنه مطلي بورنيش فائق اللمعة.

كان يستطيع أن يفعل شيئا واحدا في وقت واحد.

إذا ما ضمها، لم يكن يستطيع أن يقبلها. إذا ما قبلها، لم يكن يستطيع أن يراها. إذا ما رأها لم يكن يستطيع أن يشعر به.

كان بإمكانها أن تلمس جسده بخفة أصابعها، وتشعر بجلده الناعم حين تعتريه القشعريرة. كان بإمكانها أن تترك أصابعها تشرد حتى تبلغ أسفل بطنه المنبسطة. دونما اكترث، فوق حواف الشيكولاته المصقولة. وتترك آثار متماثلة من قشعريرة متباينة الحدبات على جسده، مثل طباشير منبسط على سبورة، مثل رباط من النسيم على حقل أرز. مثل خطوط سوداء في سماء كنيسة زرقاء. كان بإمكانها أن تفعل ذلك بسهولة بالغة، لكنها لم تفعل. كان بإمكانه أن يلمسها أيضا. لكنه لم يفعل، لوجود أناس بنظارات شمسية محدوبة مرصعة بأحجار الراين، يترقبون وهم يجلسون على كراسي معدنية قابلة للطي، وضعت على هيئة حلقة، في الظلال، في العتمة، خلف لمبة الزيت. جميعهم كانوا يحملون كمنجات صقيلة تحت ذقونهم، أقواسها مصوبة تجاه زوايا متطابقة.

جميعهم يضعون ساقا على الأخرى، اليسرى فوق اليمنى، وكل سيقانهم اليسرى كانت تهتز.

بعضهم كانوا يحملون صحفا، وبعضهم لا. بعضهم كانوا ينفخون فقاعات اللعاب، وبعضهم لا. لكن على عدساتهم جميعا الانعكاسات المتراقصة للمبة الزيت.

حلقة الكراسي المعدنية التي تطوي، شاطئ تفترشه زجاجات زرقاء مهشمة، كانت الأمواج الساكنة تحمل زجاجات زرقاء جديدة لتتهشم. أصوات خشنة مسننة تصدر عن ارتطام الزجاج بالزجاج على الزجاج. على صخرة، ناتئة عن البحر، في بصيص من الضوء الأرجواني. كان هناك كرسي هزاز من الماهوجني. محطم.

اسود كان البحر، أخضر كان الزبدالذي يتقيؤه.

السمك يتغذى على الزجاج المهشم.

كان مرفق الليل يتكأ على الماء، الساقطة ترتد خاطفة عن زجاجة المتناثر.

الفراشات تضيئ السماء. ليس ثم من القمر.

سبح، بذراع واحدة. سبحت بذراعيها.

بشرة جسده كان لها طعم الملح. وبشرتها أيضا.

لم يترك آثار أقدام على الرمل، لا تموجات على سطح الماء، لا خيالات في المرايا.

كان بإمكانها أن تتحسسه بأصابعها، لكنها لم تفعل. فقط وقفا معا. ساكنين.

بشرة قبالة بشرة.

نسمة ملونة كالرذاذ رفعت شعرها وطيرته مثل شال متموج حول كتفين بلا ذراعين ينتهيان بغتة مثل جرف صخري.

ظهرت بقرة حمراء نحيلة بعظام حوض ناتئة، واتجهت مباشرة وسبحت في البحر دون أن تبلل قرنيها، دون أن تلتفت للوراء.

طارت آمو في حلمها على جناحين ثقيلين مرتعدين، وتوقفت لتستريح، تحديدا تحت جلد حلمها.

ضغطت على ورود من غطاء فراشها الأزرق ذا الغرز المتقاطعة المنبسط على خدها.

شعرت بوجهي طفليها يتدليان فوق حلمها، مثل قمرين قلقين معتمين، ينتظران الإذن بالدخول.

"هل تعتقد أنها تحتضر؟" سمعت راهيل تهمس لإيستا.

"إنه أحد كوابيس الظهيرة" أجاب إيستا الدقيق."إنها تحلم كثيرا".

إذا ما لمسها، لم يكن يستطيع أن يحدثها، إذا ما حبها، لم يكن يستطيع أن يغادر، إذا ما حدثها، لم يكن يستطيع أن ينصت، إذا ما حارب، لم يكن يستطيع أن ينتصر.

من يكون هذا الرجل ذا الذراع الواحدة؟ أي رجل يحتمل أن يكون؟ إله الخسارة؟ إله الأشياء الصغيرة؟ إله القشعريرة الإوزية والابتسامات المباغتة؟ إله الروائح المعدنية الحامضة ـ مثل قضبان الباص المعدنية ورائحة يدي الكمسري من الامساك بها؟

"أنوقظها؟"، سأل إيستا.

انسل رنين ضوء العصاري إلي الغرفة عبر الستائر وسقط على ترانزيستور آمو النارنجي الشكل الذي كانت تأخذه دوما معها إلى النهر. (على هيئة ثمرة أيضا، الشئ الذي حلمه إيستا إلي صالة عرض صوت الموسيقى في يده الأخرى اللزجة.)

قضبان مضيئة من ضوء الشمس انعكست على شعر آمو المنعكس. انتظرت، تحت جلد حلمها، غير راغبة في السماح لتوأميها بالدخول.

"إنها تقول لا ينبغي أبدا أن نوقظ من يحلم فجأة، قالت راهيل "وإنها تقول أنه من الممكن ـ هذا الحالم ـ أن يصاب بسهولة بأزمة قلبية".

قررا فيما بينهما أن يزعجاها بهدوء وتحفظ، أفضل من أن يوقظاها فجأة. لذا فتحا فجأة. لذا فتحا الأدراج، تنحنا، تهامسا بصوت عال، دندنا بلحن صغير. نقلا الأحذية. ووجدا باب يزيق في الدولاب.

آمو مستكينة تحت جلد حلمها، لاحظتها وتوجعت بحبها لهما.

طفأ الرجل ذا الذراع الواحدة لمبته ومضى على الشاطئ المسنن بشظايا الزجاج، بعيدا موغلا في الظلال التي لا يرى سواها.

لم يترك آثار أقدام على الشاطئ طويت الكراسي القابلة للطي. هدأ البحر القاتم. استكانت الأمواج المتجمدة. عاد الزبد معبأ في زجاجة. إنسدت الزجاجة بغطاء من الفلين.

تأجلت الليلة لحين إشعار آخر.

فتحت آمو عينيها.

لقد كانت رحلة طويلة تلك التي خاضتها، من عناق الرجل ذا الذراع الواحدة حتى عودتها لتوأميها المختلفين الشبه.

"كنت تحلمين بأحد كوابيس الظهيرة" أخبرتها إبنتها.

"لم يكن كابوسا" قالت آمو."كان حلما".

"وظن إيستا أنك تحتضرين".

"وكنت تبدين حزينة جدًا" قالت إيستا.

"كنت سعيدة" قالت آمو، وأدركت أنها كانت سعيدة بالفعل.

"لو أنك سعيدة في حلم، يا آمو، فهل ذلك يعتد به؟"، سأل إيستا.

"يعتد بماذا؟"

"السعادة ـــ هل يعتد بها؟"

كانت تعرف بالضبط ما الذي يعنيه، ابنها بنفشة شعره المتهدلة.

لأن الحقيقة هي أن ما يعتد به قابل للتفسير.

حكمة الأطفال البسيطة التي لا تحيد.

إذا ما أكلت سمكا في حلم، فهل هذا يعتد به؟ أهذا يعني أنك قد أكلت سمكا بالفعل؟

الرجل البشوش البهيج الذي لا آثار أقدام له ـــ هل يعتد به؟

تحسست آمو في الظلام بحثا عن الترانزيستور النارنجي الخاص بها، وادارته. كان يذيع أغنية من فيلم اسمه تشيمين.

كان يحكي قصة فتاة فقيرة حلمت على الزواج من صياد سمك من الساحل المجاور، بالرغم من أنها كانت تحب شخصا آخر. عندما علم الصياد بالحبيب القديم لزوجته الجديدة، خرج للبحر في قاربه الصغير رغم علمه بهبوب عاصفة. كان الجو معتما، والرياح عالية. علت

دوامــة مــن قــاع المحيط. كان هناك غيقاع عاصف، وغرق الصياد، انجرف لقاع البحر في الذار الهائج للدوامة.

العاشــقان عقدا اتفاقية انتحار، ووجدا في الصباح التالي، مغسولان علــى الشــاطئ وكلاهمــا يطوق الآخر بذراعيه. وهكذا مات الجميع. الصياد، زوجته، حبيبها، وسمكة قرش لم يكن لها دور في القصة، لكنها ماتت على أي حال. البحر ابتلعهم جميعا.

فــي العتمة الزرقاء المتقاطعة الغرز الموشاة بحواف ضوء بورود مــتقاطعة الغرز على خدها النائم، آمو وتوأميها (توأم على كل جانب)، برقة مع الترانزيستور النارنجي.

الأغنــية التــي غنــتها الصــيادة للعــريس الشاب الحزين عندما كانوا يضفرون شعرها ويجهزونها كي تزف لرجل لا تحبه.

باندورو ماكوفان موثينو بوياى،

(ذات مرة خرج صياد للبحر)

بادينجران كاتاثو مونجي بوباي،

(فهبت الرياح الغريبة وابتعلت قاربه)

عــباءة مطــار بديعــة تنتصب على الأرض، متصلبة من تلقاء نفسها بالخــارج فــي الميتام، صفوف من بلوزات الساري المنشية، وقد نشتها فــي الشــمس. لونهــا ذهبــي، وأبيض ضارب إلى الصفرة. حصوات صــغيرة ســاكنة فــي تمويجاتها المنشية، لذا فلزاما أن تنفض قبل أن تطوى البلوزات وترسل للكي.

آرياتي بينوبيزاتشو بوياي،

(ضلت زوجته على الشاطئ)

أحرقــت جثة الفيل المصعوق (ليس كوتشو ثومبان) في إيتومانور. أقيم غــوط عمــلاق علــى الطريق السريع. قام مهخندسو البلدية المختصة بتقطــيع أنياب الفيل وتقاسموها بشكل غير رسمي. بشكل غيى متساو. ثمانون صفيحة من السمن سكبت على الفيل لتغذية النار.

ارتفـع الدخـان على هيئة قنار كثيف متصاعد آخذا اشكال معقدة ملأت السـماء. احتشد الناس على مسافة آمنة، لقراءة المعاني الكامنة في هذه الأشكال.

كميات هائلة من الذباب كانت هناك.

آفاني كادالاما كوندو بوياي

(لذا أعلن المحيط الأم عن مدة وابتلعه.)

فـي الأشجار حطت طيور الحدأة، لتشرف على إدارة الطقوس الأخيرة الخاصـة بالفـيل الميت. آملة في، ليس دون مبرر، تتانيف من أحشاء البطن العملاقة. ربما، مرارة هائلة الحجم. أو طحال ضخم متفخم.

لم يبلغوا حد اليأس. ولا منتهى الامتنان والشبع.

لاحظـت آمـو أن كلا توأميها يغطيهما رماد خفيف، كان لراهيل حلـيقة شقراء تسكن حليقات شعرها السوداء. حليقة من نشارة الخشب في الحوش الخلفي عند فيليوتا. التقطتها آمو.

"أمرتك من قبل" قالت. "ألا تذهبي إلى بيته. إن هذا لن يجلب سوى المتاعب."

أي متاعب، لم تتذكر. لم تكن تعرف.

إلـى حد ما، دون ذكر اسمه، كانت تعرف أنها قد أغرقته في الحميمية الفوضـوية لـتلك الظهـيرة المـتقاطعة الغـرز وأغنية الترانزيستور النارينجي. دون ذكر اسمه، أحست باتفاقية قد عقدت بين حلمها والعالم. وان دايـات تلـك الاتفاقية، هم، او سيصبحون، توأميها المتربين بغبار المنشار، توأميها نتاج البويضتين المنفصلتين.

كانـت تعرف من هو ــ إله الخسارة، إله الأشياء الصغيرة. بالطبع كانت تعرف.

أوقفـت الـراديو النارينجي. في صمت الظهيرة (الموشي بحواف الضـوء)، تكـوم طفلـيها في دفئها. في رائحتها. انسلا برأسيهما تحت شـعرها. أحسـا إلى حد ما أنها تسافر بعيدا عنهما في نومها. الآن قاما باسـتدعائها بـراحات أكفهمـا الصـغيرة المنبسطة على جلد منتصف

جذعها. ما بين بلوزتها وجيبتها. كانا معجبان لأن لون ظهور أكفهما له بالضبط نفس اللون البني لبطن أمهما.

"إيستا، انظر"، قالت راهيل، متجاسرة على خط الزغب الناعم الذي يمتد جنوبا من سرة آمو.

"هنا ركلناك" تتبع إيستا باصبعه علامة ممتدة فضية ومتعرجة.

"هل كان هذا في الباص: يا آمو؟"

"على طريق المزرعة المتعرج"

"عندماتحتم على بابا أن يمسك بطنك".

"أكان يجب عليكما قطع تذاكر؟"

"هل آلمناك؟"

ثم كان سؤال راهيل، مستمرة في التحدث بصوتها التلقائي: "أتعتقدين أنه فقد عنواننا؟"

فقط إشارة توقف في إيقاع تنفس آمو جعل إيستا يلمس إصبع راهيل الأوسط بإصبعه. وإصبع أوسط إلى إصبع أوسط، على منتصف جذع أمها الجميل، تجاهلا هذا الخط من التساؤلات.

"تلك رفسة إيستا، وهذه رفستي"، قالت راهيل "..وهذا خاص بإيستا وتلك لي".

تقاسما العلامات الفضية السبعة الممتدة بينهما. ثم وضعت راهيل فمها على بطن آمو ورضعته، جاذبة اللحم الطري في فمها وساحبة رأسها للخلف لتستمتع بالشكل البيضاوي اللامع للعاب واللون الأحمر الباهت لآثار أسنانها على جلد أمها.

تعجبت آمو لشفافية تلك القبلة. كانت قبلة صافية وشفافة كالزجاج. غير مثقلة بغيوم العاطفة والرغبة ـ هذان الكلبان يحفلان بنوم عميق داخل الطفلين، في انتظارهما حتى يكبرا.

كانت قبلة لا تتطلب الرد عليها بأخرى.

لم تكن قبلة غائمة متخمة بالأسئلة التي تنتظر إجابات مثل قبلات الرجال البشوشين المبتهجين ذوي الذراع الواحدة في الأحلام.

سأمت آمو تعاملها الامتلاكي معها. كانت تريد استعادة جسدها إنه ملكها. أبعدت طفليها غير مكترثة بهما أنثى الكلب حين لا تبالي

برضـعها عـندما يكون لديها الكثير منها. نهضت وبرمت شعرها على هيـئة كعكـة عـند قفاها. ثم رفعت ساقيها مغادرة الفراش، مشت إلى النافذة وفتحت الستائر.

سمع التوأمان صوت المزلاج في باب حمام آمو.

كليك.

نظـرت آمو على نفسها في المرآة المعلقة على باب الحمام فلاحت لهـا صورة مستقبلها في المرآة وهي تسخر منها. مخللة. قاتمة. دامعة العينيـن. ورود صـليبية الغـرز على خد غائر مرتخي. نهدين ذابلين يتدلـيان مثل زوج ثقيل من الجوارب. متيبسان مثل عظمة بين ساقيها، خصلة الشعر البيضاء. هزيلة. متقصفة مثل سرخس مهروس.

بشرة مندوقة ومتناثرة مثل الجليد.

ارتعشت آمو.

بذلـك الشـعور البارد على ظهيرة قائظة كانت تعاش الحياة. كان كأسـها ممتلـئا بالغـبار. الهـواء، السماء، الأشجار، الشمس، المطر، الضـوء، العتمة، جميعا تحولوا إلى رمل. ذلك الرمل كان سيملأ فتحتي أنفهـا، رئتـيها، فمهـا، كان سيجزها لأسفل تاركا على السطح دوامة سريعة الدوران مثل التي تتركها السرطانات على شاطئ عندما تغوص مختبئة في الرمال.

خلعـت آمـو ملابسـها ووضعت فرشاة أسنان حمراء تحت أحد نهديهـا، لـترى إذا كانت ستستقر. لم يحدث. كان جسدها مشدودا رقيقا فـي المكـان الـذي تلمـس فيه نفسها. تحت يديها حلمتان متغضنتان ومتيبسـتان مـثل البـندق القاتم، تجذبان الجلد الرقيق على نهديها. خط الزغـب الرفيع من سرتها إلى أعلى المنعطف الرقيق لأسفل بطنها، إلى المثلـث المعـتم. كان مثل سهم يهتدي به مسافر ضل الطريق. عاشق غير متمرس.

فكت شعرها وتلفتت حولها لترى إلى أي مدى بلغ طوله. تدلى في موجـات وحلـيقات وخصلات متجمدة جامحة ـ ناعمة بالداخل، أكثر خشـونة بالخارج ـليبلغ تحديدا بداية انعطاف خصرها القوي الصغير للخارج صوب ردفيها. كان الحمام حارا. حبات عرق صغيرة رصعت

جلدهـا مـثل ماسات. ثم تهشمت وانحدرت. انحدر العرق أسفل الخط المجـوف لعمودها الفقري. بدت مؤخرتها الثقيلة المستديرة منتقدة قليلا. لـم تكـن كبيرة في ذاتها. ليست كبيرة بمفردها (كما كان تاشكو طالب أكسفورد سيظن).

كبـيرة فقـط لأن باقي جسدها كان نحيلا ممشوقا. مؤخرة تخص جسدا آخر أكثر شهوانية.

كـان لـزاما عليها أن تعترف أن ردفيها يحملان فرشاة أسنان على كل واحـدة. ربمـا فرشـتان. ضحكت مقهقهة على فكرة المسي عارية في آيميتيم بعرض لفرش أسنان ملونة تظهر على وجنتي مؤخرتها. أسكتت نفسها بسرعة. رأت مس جنون يفر من زجاجتها ويتواثب مختالا حول الحمام.

تخوفت آمو من الجنون.

قالـت ماماتشـي أنه ينسل في عائلتهم. حتى أنه يحط على الناس بغـته ويسمهم على حين غرة. كانت هناك باثيل آماي، التي كانت في الخامسـة والستين من عمرها حينما بدأت تخلع ملابسها وتجري عارية علـى امتداد النهر، وهي تغني للسمك، كان هناك أيضا ثامبي تشاتشن، الذي كان يفحص برازه كل صباح بإبرة تريكو بحثا عن سنة ذهبية كان قـد ابتلعها قبل سنوات مضت ودكتور موثاتشين، كان هناك آمو ـآمو آيـب. تزوجـت مـن بنغالي. وجنت تماما. ماتت صغيرة. في مسكن رخيص في مكان ما.

قـال تساكو أن تفشي الجنون بكثرة بين المسيحيين السوريين ليس سـوى ثمـنا يدفعونه لتمسكهم بزواج الأقارب. قالت ماماتشس أن هذا ليس صحيحا.

لملمـت آمـو شعرها الكثيف، لفته حول وجهها، وحدقت مستشرقة خط العمر والموت في جدائله المتشققة. كأنها أحد منفذي أحكام الإعدام مـن العصـور الوسـطى يحدق من شقوق العين المائلة لبرنسه الأسود المدبـب على المحكوم عليه بالإعدام. منقذ أحكام عاري، ممشوق القوام بحلمتيـن قاتمتيـن وغمازتيـن عميقتين حينما يبتسم. له سبع علامات

فضـــية ممـــتدة مـــن توأميها الثنائي اللقاح، اللذان أنجبتهما على ضوء الشموع في خضم أنباء بهزيمة عسكرية.

لـــم يكـــن الذي يفزع آمو هو ما ينتظرها في نهاية الطريق بقدر ما أفـــزعها الطريق نفسه. لا معالم ليتضح بها امتداده. لا أشجار مزروعة على جانبيه. لا ظلال مزركشة تظلله. لا سديم يكسوه. لا طيور تطوقه. لا الـــتواءات، لا منحنيات، لا منعطفات حادة تخفي ولو مؤقتا، الصورة الواضـــحة لنهايتها. لقد غلف هذا آمو بفزع بغيض، لأنها لم تكن المرأة التـــي تحب ان تستشرف الآتي. كانت تهابه بل وترهبه كثيرا. لهذا، لو كـــان لها أن تضمن ولو أمنية واحدة صغيرة، ربما لم تكن لتتمنى سوى شـــئ واحد فقط وهو ألا تعرف. ألا تعرف ما ينطوي عليه كل يوم لها. الا تعـــرف أين ستكون، الشهر القادم،العام القادم. بعد عشر سنوات، ألا تعـــرف أين سينعطف بها الطريق، وماذا ينتظرها خلف المنحنى. وآمو كانـــت تعرف. أو اعتقدت أنها تعرف، مما كان رديئا للغاية (لأنه إذا ما أكلـــت سمكا في حلم، فهذا يعني انك أكلت سمكا) وما كانت تعرف آمو (أو اعـــتقدت أنهـــا تعـــرف)، كان ينضح بالرغاء الخلى السخيف الذي يتصـــاعد مـــن الأحواض الأسمنتية بمخللات الجنة. رغاء جعد الشباب وخلل المستقبل.

اســـتندت آمـــو على نفسها في مآة الحمام وحاولت أن تبكي وهي تستتر بشعرها.

على نفسها.

على إله الأشياء الصغيرة.

على القابلتين التوأم المرشوشين بالسكر في حلمها.

تلـــك الظهيرة ـــ بينما كانت الأقدار تتآمر في الحمام لتغير ببشاعة اتجاه طـــريق أمهما الغامض، بينما كان ينتظرها قارب قديم في حوش فيليوتا الخلفي، بينما في كنيسة صفراء، كان هناك خفاش صغير ينتظر الولادة ـــ كان إيستا على مقعدة راهيل واقفا على رأسه في غرفة نوم امه.

غـرفة الـنوم ذات الستائر الزرقاء والدبابير الصفراء التي كانت تعض زجـاج النافذة. غرفة النوم بحوائطها التي ستعرف توا أسرارها المؤلمة المعتمة.

غرفة النوم التي ستحبس فيها آمو في البداية، ثم تحبس نفسها.ببابها الـذي كسره تشاكو الذي أصابه حزنه بالجنون بعد أربعة أيام من جنازة صوفي مول.

"أخرجي من بيتي قبل أن أهشم كل عظام جسدك!"

بيتي، أناناسي، مخللي.

بعـد ذلك بسنوات، كانت راهيل تحلم بنفس الحلم: رجل بدين، بلا وجـه، يقعي على ركبتيه إلى جوار جثة امرأة. يجز شعرها. يهشم كل عظام جسدها. يقضم حتى العظام الصغيرة منها. الأصابع. عظام الأذن تطقطـق مـثل الأغصـان الصـغيرة. القضـم والطقطقة، كان العظام المهشمة.

بيانست يقتل أصابع البيانو. حتى السوداء منها. وراهيل (رغم أنها بعد سـنوات، في المحرق الكهربي، كانت ستستخدم نعومة العرق لتتملص من قبضة تشاكو)، أحبت كلاهما. العازف والبيانو.

القاتل والجثة.

عـندما كسر الباب ببطء كانت آمو تطوي شرائط شعر راهيل التي لم تكن تحتاج إلى طي لتتحكم في ارتعاد يديها.

"أريـد وعـدًا مـنكما بأن يحب كلاكما الآخر دائمًا"، كانت تقول، عندما جذبت طفليها إليها.

"نعـدك"، كان إيستا وراهيل يقولان. دون أن يجدا كلمات ليخبراها أنهما لايملكان كلا، ولا آخر.

علامـتان توأمـان وأمهما. علامتان جامدتان. ما فعلاه سوف يرتد ليفزعهما. لكن هذا سيكون فيما بعد.

فيما بعد. جرس عميق الصوت في جائط طحلبي. مرتعش ومبطن بالفرو مثل ساق فراشة.

فـي ذلـك الوقت، لم يكن هناك سوى التنافر فقط. كان المعنى قد انسـل خـارج الأشياء وتركها متشظية. مفككة. ومضة إبرة آمو. لون

شـــريطة. نسيج الشرشف ذا الغرز المتقاطعة. باب يتحطم ببطء. أشياء مـــنعزلة لا تعني شيئا. كأن الذكاء الذي يحل شفرة أنماط الحياة ــالتي تـــربط بين الانعكاسات والصور، الومضات والضوء، وأنواع الأنسجة والأقمشـــة، الإبر والخيوط، الجوائط والغرف، الجب والخوف والغضب والندم ــ قد تلاشى بغتة.

"لمـــى اشيائك وأذهبي"، قال تشاكو، وهو يخطو فوق الحطام. وهو يظهـــر مهـــددا فوقهـــا. وفي يده مقبض باب المطلي بالكروم. هدأ بغتة وبغـــرابة. مذهـــولا مـــن طاقته. ضخامته. قوته المتنمرة. هول حزنه المفزع.

أحمر كان خشب الباب المحطم.

آمـــو، الهادئة بالخارج، المرتعدة بالداخل، لم تكن لترفع عينيها عن تهذيـــب الحواف الغير ضروري. وعلبة الأشرطة الملونة في حجرها، في الغرفة التي فقدت فيها حق المثول أمام القضاء للمقاضاة.

نفـــس الغرفة التي عبأت فيها (بعد أن أجاب خبير التوائم من حيدر آبـــاد)، آمـــو صـــندوق الملابـــس الصغير الخاص بإيستا وحقيبة سفره القمـــاش الكاكـــي: ١٢ فانلة داخلية من القطن بلا أكمام، ١٢ فانلة قطن نصـــف كم. إيستا، ها هو اسمك مكتوب عليها بالحبر. جواربه. بنطلونه ذا الـــرجل الأنبوبـــية. قمصـــانه بياقتها المدببة. حذائه البيجي والمدبب (الـــذي تنبـــثق مـــنه المشـــاعر الغاضبة). تسجيلات إلفيس. كبسولات الكالســـيوم، والفيداليـــن الشرب. زرافته المجانية (التي جاءت هدية مع الفيدالين). كتبه المعرفية الأجزاء من ١ــ٤ لا، يا حبيبة قلبي، لن يكون هـــناك نهرًا للصيد. الكتاب المقدس ذا الجراب الجلد بالسوستة البيضاء وعلـــى جرار السوستة أحد أزرار الأكمام الأرجوانية التي كانت تخص عالم الحشرات الإمبريالي. المج الخاص به. صابونته. هدية عيد ميلاده مقدمًـــا والتـــي لا يجب عليه فتحها الآن. أربعون ورقة خطاب محلية. "انظر يا إيستا، لقد كتب عليها عنواننا بالحبر. كل ما عليك ان تفعله هو أن تطويها. لترى إذا ما كنت تستطيع طيها بنفسك". وإيستا يطوي ورقة الخطـــاب المحلـــية الخضـــراء بدقة عند الخط المنقط الذي كتب، "عليه إطوي هنا". ورفع عيناه إلي آمو بابتسامة حطمت قلبها.

"هل تعدني بالكتابة؟ حتى لو لم يكن لديك أي أخبار؟"

"أعــدك"، كان إيستا يقول. غير مدركًا تمامًا للموقف. تبلدت الحافة الحادة لإدراكه من جراء الثروة المفاجئة من الممتلكات الدنيوية. جميعها كانــت ملكــه. وعلــيها اسمه مكتوب بالحبر. كانت مقررا أن تعبأ في الصندوق (باسمه المكتوب عليه) الملقى مفتوحًا في أرضية غرفة النوم.

الغــرفة التي عادت إليها راهيل بعد مرور سنوات وشاهدت غريبا صامتا يغتسل. ويغسل ملابسه بصابون أزرق براق ومفتت.

منبسط العضلات، وله لون العسل. في عينيه أسرار البحر. وقطرة مطر فضية على أذنه.

إيستا بابييتشاتش كوتابن بيتر مون.

-12-
كونتشو ثومبان

انتشر صوت التشاندا مرفرفاً فوق المعبد، متجاوزاً صمت الليل الذي يطوق المكان. الطريق المنعزل المبتل. الأشجار المترقبة. راهيل، لاهثة، ممسكة بثمرة جوز هند، خطت داخل حوش المعبد من العتبة الخشبية في الحائط الأبيض الشاهق.

بالداخل، كل شيء كان محاطاً بالأبيض، قرميد مكسو بالطحلب يضيئه القمر. كل شيء كان ينضح برائحة المطر الطازج. كان سادن* المعبد النحيل نائماً على حصيرة في الشرفة العالية. بالقرب من وسادته طبق من النحاس به عملات نقدية؛ كأنه سلسلة صور كاريكاتورية لأحلامه. كان الحوش مفترشاً بالأقمار، قمر في كل بركة وحل. أنهى كونتشو ثومبان جولاته الشعائرية، ورقد مربوطاً في وتد خشبي بجوار كومة من روثه تتصاعد منها الأبخرة. كان نائماً، فمهمته قد انتهت، احشاؤه خاوية، أحد نابيه يتكئ على الأرض والآخر يشير إلى السماء. اقتربت راهيل بهدوء لم يعد *كونتشو ثومبان*. فقد كبرت أنيابه، هو الآن فيليا ثومبان. الفيل الكبير. وضعت ثمرة جوز الهند على الأرض إلى جواره. تنحت تجعيدة جلدية لتكشف عن لمعان سائل بعين الفيل. ثم انغلقت، وعادت أهداب طويلة كاسحة لاستحضار النوم مرةً أخرى. أحد نابيه يتجه صوب السماء.

يونيو موسم كساد بالنسبة للكاثاكالي. لكن هناك بعض المعابد التي لا تمر بها فرقة دون أن تؤدى فيها العروض. لم يكن معبد آيمينيم أحد هذه المعابد. لكن هذه الأيام، شكراً لجغرافيتها، فالأحوال قد تغيرت.

---

* خادم (المترجم)

كـــانوا يرقصـون في آيميتيم كي يتخلصوا من ذلهم في قلب الظلام. عروضـــهم المبتورة على حمام السباحة. اتجاههم للسياحة لتجنب الموت جوعـــاً. وفـــي طريق عودتهم من قلب الظلام، كانوا يتوقفون طلباً لعفو آلهـــتهم. نادمين على ما أفسدوه من قصصهم. على المتاجرة بهوياتاهم. وخيانة وجودهم الحياتي.

فـــي هـــذه المناسبات، كان يحتفي بالجمهور الإنساني، لكن بشكل عرضـــي تمامـــاً. في الكوريدور الفسيح المغطى ـــ الكوثامبالام المعمد المتاخم لقلب المعبد حيث يعيش الرب الأزرق مع أرغوله، كان قارعوا الطـــبول يقرعون الطبول والراقصون يرقصون، وتتحول ألوانهم ببطء فـــي الليل. جلست راهيل واضعة ساق على أخرى، مستندة بظهرها إلى استدارة أحد الأعمدة البيضاء. علبة طويلة مليئة بزيت جوز الهند كانت تلمـــع فـــي الضـــوء المتناثر في المصباح النحاسي. الزيت يزود النور بالوقود. النور يضئ العلبة.

لـــيس مهمـــاً أن العرض كان قد بدأ، لأن الكاثاكالي قد اكتشف منذ وقـــت بعـــيد أن ســـر القصص يكمن في كونها لا تنطوي على أسرار. القصص العظيمة هي تلك التي قد سمعتها وتريد أن تسمعها مراراً. تلك التـــي يمكـــنك أن تدخلهـــا مـــن أي مكان وتأوي إليها مستكيناً. فهي لا تخدعـــك بالإثارة والنهايات المباغتة. فهي لا تصيبك بالذهول والدهشة بمـــا لا تتوقعه. إنها اعتبارية ومألوفة مثل البيت الذي تسكنه. أو رائحة جلـــد حبيبتك. أنت تعرف النهاية مع ذلك تُصغي كأنك لا تعرفها. بنفس الطـــريقة التي تعيش بها كما لو أنك لن تموت أبداً، على الرغم من تمام إدراكـــك بأنك ستموت يوماً ما. في القصص العظيمة تدرك من يعيش، مـــن يمـــوت، مـــن يجد الحب، من لا يجده. ومع ذلك تريد أن تعرف مراراً.

ذلك هو مكمن غموضها وسحر يتها.

هـــذه القصـــص بالنسبة للكاثاكالي هي أطفاله وطفولته. لقد تربى داخلهـــا. إنها البيت الذي شب فيه، المروج التي لعب عليها. أنها نوافذه وزوايـــا رؤيـــته. لذا فهو عندما يحكي قصة، يجمعها ويلملمها كما يفعل

مــع أحــد أطفاله. يضايقه. يعاقبه. يرسله لأعلى مثل فقاعةٍ. ويطرحه أرضــاً ويدعه يمضي ثانيه. يسخر فيه لأنه يحبه. فهو يستطيع أن يطير بــك عــبر عوالم كاملة في دقائق، بإمكانك أن يتوقف لساعات ليتفحص ورقــة ذابلــة. أو يلهــو بذيل قرد نائم. بإمكانه أن يتحول بسهولة من ملحمة الحرب إلى غبطة امرأة تغسل شعرها في مجرى ماء جبلي. من حماس راكشاسا الخبيث بفكرة جديدة إلى ما لايالي وهي تلمظ في القول بفضــيحة يــروجها. من الشهوة الحسية لدى امرأة تحمل رضيعاً على ثديهــا، إلى الغواية الماكرة لابتسامة كريشنا. بإمكانه أن يكشف لك عن جوهر الأسى الذي تنطوي عليه السعادة. سمكة الخزي الخبيئة في بحر من المجد والشهرة.

يحكي قصصاً عن الآلهة، لكنه يغزل نسيج حكيه من القلب الآدمي المتزندق.

الكاثاكالــي هــو الأجمل بين الآدميين. لأن جسده هو روحه. أداته الوحــيدة. فمــن سن الثالثة وهو يُهذَب، ويُلمَع، يُسَخر كلية لمهمة حكي القصــص. ثمــة ســحر داخــل هذا الرجل في قناعه الملون وتنوراته الــدوارة. لكنه قد أصبح هذه الأيام منقرضاً. وغير قابل للتنفيذ. بضاعة كاســدة. أطفالــه يسخرون منه. يرغبون في أن يصبحوا أي شئ إلا ما هــو علــيه. فقد رآهم يكبرون أمامه ليصبحوا موظفون ومحصلو تذاكر باصــات. موظفيــن درجة رابعة غير معينين. بنقابات منفصلة خاصة بهم.

لكــنه هــو ذاته. قد تُرِكَ مُعلقاً في مكان ما بين السماء والأرض، لــيس بإمكانــه أن يفعــل مــا يفعلون. لا يستطيع أن ينسل بين مقاعد الباصــات ليعد "الفكة" ويبيع التذاكر. لا يستطيع أن يلبي نداء الأجراس التــي تستحضــره. لا يستطيع أن يمشي مطأطئاً الرأس خلف صواني الشاي وبسكويت ماري.

من يأسه يتحول للسياحة. يدخل السوق. يتحول لبيع الشيء الوحيد الــذي يمــتلكه. القصــص التي يستطيع جسده أن يحكيها. يصبح لكهة شعبية فلكلورية.

في بيت الظلام سخروا منه بعريهم المتهدل ولطفهم المستورد مع قريناتهم. يكبح جماح غيظه ويرقص لهم بجميع أجره. يسكر. أو يدخن السجائر المخدرة. عشب كيرا لا الرائع. الذي يجعله يضحك. ثم يتوقف عند معبد آيمينيم، هو والآخرين معه، ويرقصون طلباً لغفران آلهتهم.

راهيل (بلا خطط. بلا حق مثول أمام القضاء)، ظهرها يستند أحد الأعمدة، شاهدت كيرنا يصلى على ضفاف الجانجا. كيرنا، أغمد درع الضوء الخاص به. كيرنا، الابن الحزين لساريا، إله النهار. كيرنا الكريم. كيرنا الطفل الهمل. كيرنا أعظم محاربيهم جميعاً.

في تلك الليلة قذف كيرنا بالحجارة. قبيحة كانت تنورته المهلهلة. كان هناك تجاويف في تاجه حيث اعتادت أن ترصعها الجواهر. بلوزته القطيفة قد صارت منحولة من كثرة الاستخدام. كعب حذائه صار مشققاً. رغم أنه يطفئ أعقاب سجائر المخدرات فيه.

لكن لو كان لديه قافلة من عمال المكياج تنتظره في الأجنحة، ووكيل، ونسبة في الأرباح ـــ ماذا سيكون حاله إذن؟ محتال. مدعي ثرى. ممثل يلعب دوراً ـــ هل باستطاعته أن يكون كيرنا؟ وهل سيكون آمنا داخل قرنة ثروته؟ هل كان ماله سيصير حائلاً بين ذاته وقصته؟ هل سيكون قادراً أن يلمس جوهرها، سرها الخفي، بنفس الطريقة كما يفعل الآن؟ ربما لا.

الليلة هذا الرجل خطير. يأسه مكتمل. هذه القصة هي شبكة الأمان التي عليها ينقض ويغوص مثل بهلوان متمرس في سيرك مفلس. إنها كل ما يتحتم الحفاظ عليه من التهشم على أثر السقوط عبر العالم مثل حجر يهوي. إنها لونه ونوره. إنها الوعاء الذي يسكب فيه ذاته. تعطيه شكلاً. وبنية. إنها تسخره. تحتويه. حبه. جنونه. أمله. لذته اللانهائية. ومن مهازل القدر، أن نضاله على النقيض من نضال الممثل ـــ فهو يناضل لا ليلعب دوراً بل ليهرب منه. لكن هذا ما لا يستطيع أن يفعله. ففي هزيمته المهنية يكمن انتصاره الجليل. إنه كيرنا، الذي تجاهله العالم. كيرنا وحده. بضاعة راكدة. أمير غارق في الفقر. ولد ليموت

ظلماً، اعزلا، ووحده على يد أخيه. جليل في يأسه المكتمل. وهو يصلى على ضفافا الجانجا. منزوعاً خارج جمجمته.

ثم ظهرت كونتى. هي ايضاً رجل، لكنه رجل شب ناعما وأنثويا، رجل بنهدين، من تمثيله للأدوار النسائية على مدار سنوات صارت حركاته متميعة. مليئة بالأنوثة ـ كونتى أيضاً، رُجمت وهي ثملة من نصيبها من السجائر المخدرة. أتت لتحكي كيرنا قصته.

مال كيرنا برأسه الجميل وأنصت.

رقصت كونتى له، وهى محمرة العينين. حكت له عن امرأة شابة منحت عطيه. فخاً سريًا يمكنها أن تستخدمه لتختار لها عاشقاً من بين الآلهة. بطريقة ما، بطيش الشباب ووقاحتهم، قررت المرأة أن تتحرى ما إذا كان مؤثراً. كيف وقفت وحدها في حقل خاو، وولت وجهها شطر السماء وتلت تعاويذ الفخ. وما لبثت الكلمات أن فارقت شفتيها الحمقاوين، حتى ظهر ساريا إله النهار-أمامها. فوهبته المرأة الشابة نفسها، وهى مفتونة بجمال الإله الشاب المتلألئ. بعد تسعة أشهر أنجبت ابناً. ولد الرضيع ملفوفاً بالنور، بأقراط ذهبية في أذنيه ودرع صدر على صدره، محفور عليه شعار الشمس.

أحبت الأم الشابة أول مولود لها بتوهج، قالت كونتى، غير أنها لم تكن متزوجة، فلم تستطيع الاحتفاظ به. وضعته في سلة من البوص وألقت به بعيداً إلى النهر. فوجده أديراتا، سائق المركبة الحربية، أعلى النهر. وسماه كيرنا. رفع كيرنا عينيه لينظر على أمه. من هي؟ من هي أمي؟ اخبرني أين هي. خذيني لها.

أومأت كونتى برأسها. هي هنا، قالت. واقفة أمامك.

شعر كيرنا بمزيج من الزهو والغضب على ما تبدى له. رقصة الارتباك واليأس. أين كنت، سألها، عندما كنت في أمس الحاجة لك؟ هل حدث وضممتني بين ذراعيك؟هل أرضعتني؟ هل حدث وبحثت عنى؟ هل سألت عن المكان الذي آوى إليه؟

رداً عليه أمسكت كونتى الوجه الملكي بيديها، أخضر الوجه، احمر العينين، وقبلته أعلى حاجبيه. انتفض كيرنا مبتهجاً. محارب مختزل في

صورة رضيع. نشوة هذه القبلة، أرسلها إلى أطراف جسده. إلى أصابع قدميه. أطـراف أصـابعه. قـبلة أمـه الرائعة. أتعرف إلى أي مدى وحشـتني؟ رأت راهـيل القبلة وهي تسري في عروقه، بوضوح كأنها بيضه تتزلق أسفل عنق نعامة.

قـبلة مسـافرة أنهـت رحلتها بالارتياع عندما أدرك كيرنا أن أمه كشـفت له عن نفسها فقط لتضمن سلامة أبنائها الخمسة الآخرين، التي تحـبهم أكـثر ـ الباندافز ـ الموشكين على حافة حربهم الملحمية مع أبـناء عمومـتهم المائـة. من تسعى كونتي لحمايتهم بإعلان أمومتها لكيرنا. كان عليها أن تستخلص منه وعداً.

لقد استغاثت بقوانين الحب.

إنهـم اخوتـك. من دمك ولحمك. عدني ألا تدخل معهم في حرب. عدنـي بهـذا. كيرنا المحارب لم يستطيع أن يعاهدها بهذا، لأنه إذا ما فعل، فسيتحتم عليه أن ينقض عهداً آخر. غداً سيذهب للحرب، وسيكون الـباندافز أعـداؤه. إنهـم، آرجونا على وجه التحديد، الذين أهانوه علناً لكونـه أبن سائق مركبه حربية حقير. ودوريودانا، الأخ الأكبر للأخوة كورافـا المائـة، هو الذي جاء لإنقاذه بمنحه مملكته خاصة به. وعاهده كيرنا، في مقابل هذا، بالولاء الأبدي له.

لكـن كـيرنا الكـريم لن يخذل أمه فيما أتت بشأنه. لذا قام بتعديل عهده. خاتل. قام بتسوية صغيرة، وتعهد بوعد مختلف بعض الشئ.

أعدك بهذا، قال كيرنا لـ"كونتي" ستحتفظين دائماً بأبنائك الخمسة. يوديشتيرا لن أصيبه بضر. بياما لن يموت على يدي. التوأمان ـ ناكولا وسـاهاديفا ـ لن أمسسهما. لكن آرجون ـ فلن أعد بشيء بخصوصه. سأقتله، أو سيقتلني. أحدنا سوف يموت.

ثمـة شـئ تـبدل في الهواء. فأدركت راهيل أن إيستا قد أتى. لم تسـتدر برأسـها، لكن ثمة ومضة انتشرت بداخلها. لقد أتى، فكرت. إنه هنا. معي.

جلـس إيستا مستنداً أحد الأعمدة البعيدة واستمتعا بمشاهدة العرض بهـذا الشـكل، منفصـلان بعرض الكوثامبالام، لكن تربطهما القصة. وذكرى أم أخرى.

صار الهواء أكثر دفئًا. أقل رطوبة.

ربمـا كـان ذلـك المساء على وجه التحديد سيئًا في قلب الظلام. الرجال في آيمينيم يرقصون كأنهم لا يستطيعون التوقف. مثل أطفال في مـنزل دافـئ فـي مأوى عن العاصفة. يرفضون الخروج والاعتراف بـالطقس. الـرياح والـرعد. الفئران تتسابق عبر المشهد وفي عيونهم علامات الدولار. والعالم يهوي مهشماً حولهما.

خـرجا مـن قصة كيمايادرا بالنبش في أعماق أخرى. من كيرنا شـابادام ــ عهد كيرنا ــ إلى دوريودانا فادام ــ موت دوريودانا وأخوه دوشاسـانا. كانـت الساعة تشير تقريباً إلى الرابعة صباحاً عندما تتبع بايمـا الملعـون دوشاسـانا وقتله. الرجل الذي حاول أن يعري زوجة الـباندافاز دراوبادي، على الملأ، بعد أن فاز عليها الكاورافاز في مباراة نـرد. دراوبـادي (غاضباً بشكل غريب ممن فازوا عليها، وليس ممن خوزقوهـا)، أقسـم علـيها ألا تـربط شـعرها أبداً حتى تغسله في دم دوشاسانا. وأقسم بايما أن يثأر لشرفها.

بايمـا دفـع بدوشاسـانا إلـى ميدان قتال مفترش بالجثث. تبارزا لسـاعة. تبادلا اللعنات والشتائم. تبادلا سرد كل الموبقات التي ارتكبها كـل مـنهما فـي حـق الآخر. عند بدء الضوء المنبعث من المصباح النحاسـي يخبو ويتلاشى، بادرا بالمهادنة. بايما سكب الزيت، دوشاسانا نظـف فتـيل المصـباح المستفحم. ثم عادا لاستكمال الحرب. تسرب عـراكهما اللاهـث إلـى خـارج الكوثامبالام وحط حول المعبد. هاجم كلاهمـا الآخـر عـبر الحوش، بارماً صولجانه المصنوع من الورق المعجـن. رجلان في تنورات منتفخة وبلوزات مجردة من وبر القطيفة، يتواثـبان فوق أقمار متناثرة وكومات تفوق ضخامة فيل نائم. دوشاسانا المشبـحون بالعنـترية لدقـيقة واحدة متقهقر في الدقيقة التي تليها. بايما يتلاعـب بـه. كلاهمـا يقذف بالأحجار. السماء حوض أزهار. الثقب

الرمادي الذي يأخذ هيئة فيل الكون انزعج في نومه، ثم عاد للنوم ثانية. كـان الفجر على وشك البزوغ عندما اهتز البهيم الكامن في بايما. صار صـوت الطـبول أعلـى، لكـن الهواء صار هادئاً ومشحون بالرهبة والتهديد.

مـع نـور الصـباح المبكر، شاهد إيستابن وراهيل بايما وهو ينفذ قسمه لـ"دراوبادى. طرح دوشاسانا أرضاً. ولاحق كل ارتعاشة ضعيفة فـي الجسـد المحتضـر بصولجانه، ضارباً عليها حتى تستكين. حداد يسطح لوحي معدني معوج. وبنظام يسوي كل قطعة وحدبة. أستمر في قـتله وقـتاً طويـلا بعد أن مات. ثم، مزق جسده بيديه. نزع الأحشاء وانسـل لـيلعق الدم مباشرة من وعاء الجثة الممزقة، عيناه المجنونتان تحـدق علـى حافـة الجـثة، وهما تلمعان بالغيظ والكراهية والإنجاز المجـنون. متغرغراً بفقاعات دم شاحبة الحمرة بين أسنانه. تسيل أسفل وجهـه الملـون، رقبته وذقنه. عند اكتفى من شراب الدم، نهض واقفاً، بأمعـاء دامية تلتف حول رقبته كأنها كوفية ومضى ليحضر دراوبادى لتغسل شعرها في الدم المنساب. لم يزل تلفه هالة الغضب والحنق التي لـم يطفأهـا حتى القتل. كان هناك جنون في ذلك الصباح. تحت وعاء الأزهـار. لـم يكـن عرضـاً. إيستا وراهيل يعرفانه. لقد شاهداه وهو يُعْـرَض مـن قـبل. ذات صباح آخر. على مسرح آخر. نوع آخر من الجـنون (بـدود ألفـي على نعل حذائه). التهور الوحشي لهذا يضاهي التدبير الهمجي لذاك.

جلسـا هـناك، الهدوء والخواء، حفريتان متجمدتان من بويضيتن منفصـلتين، لهمـا نـتوءات لـم تكبر وتصبح قرون. يفصلهما عرض كوثامـبالام. حبيسـان في مستنقع قصة كانت ولم تكن تخصهما. قصة بـدأت بتشابه في البناء والنظام، ثم انطلقت صوب الفوضى مثل حصان مفـزوع. اسـتيقظ كونشـو ثومبان، وفتح بهدوء ثمرة جوز الهند التي يتناولها-صباحاً.

تخلـص ممـثلوا الكاثاكالـي مـن مكياجهم ومضوا لمنازلهم كي يضربوا زوجاتهم. حتى كونتى، الرجل الناعم ذا النهدين.

بالخـــارج ودائرياً، اهتزت المدينة الصغيرة المتنكرة في هيئة قرية وعـــادت للحـــياة. استيقظ رجل عجوز وتهادى في مشيته صوب الموقد ليدفئ زيت جوز الهند المفلفل.

الرفيق بيلاى. كاسر البيض وطاهي العجة المحترف في آيمينيم.

هـــو، وبشكل عارض جداً، الذي قدم الكاثاكالى للتوأمين. هو الذي أخذهمـــا مـــع لينين، على غير رغبه بيبى كوتشاما، لحضور عروض تمـــتد طـــوال اللـــيل في المعبد، ويجلس معهم حتى الفجر، ليشرح لغة وحـــركة الكاثاكالى. كانا في السادسة من العمر، عندما شاهدا معه نفس هـــذه القصـــة. إنـــه هو الذي عرفها بـــ راودرابايما ــ المجنون، بايما المـــتعطش للدم الباحث عن الموت والثأر. إنه يبحث عن الوحش الذي يعـــيش بداخلـــه، أخبرهما الرفيق بيلاى ــ الاطفال المفزوعين بعيونهم المتسعة ــ عندما بدأ بايما العادي الطيب يهاجم عدوه ويزمجر.

أي وحـــش بالتحديد، لم يقل الرفيق بيلاى، ربما ما كان يعنيه فعلاً هو البحث عن الرجل الذي يعيش بداخله، لأنه لم يكن هناك بالتأكيد من الحيوانات من جرب فن الكراهية الآدمية المبتكرة المطلقة التي لا حدود لها. ليس هناك من وحش يضاهي مداها وقوتها.

تـــبلد حوض الأزهار وأرسل رذاذا رماديا دافئاً. عندما خطى إيستا وراهـــيل عـــبر بوابة المعبد، التي دخل منها الرفيق ك. فـــ. م. بيلاى، صـــقيلاً مـــن حمـــام الزيت. كان يدهن جبهته بمعجون خشب الصندل. قطـــرات المطر كانت ثابتة على جلده المشبع بالزيت كأنها أزرار زينة. في راحتيه المتكومتين كان يحمل حفنة صغيرة من الياسمين الصابح.

"أوهو!" قال بصوته المزماري، "وأنتما هنا! إذاً فلا تزالان مهتمان بثقافتكما الهندية؟ حسناً حسناً. رائع." التوأمان، ليسا وقحان، ليسا مهذبان، لم يقولا شيئاً. مضيا سوياً للبيت. هو وهي. نحن (للفاعل) و US (للمفعول).

-13-

المُتفائل والمُتشائم

ترك تشاكو غرفته، وقرر أن ينام في غرفة مكتب باباتشي كي تنام مارجريت كوتشاما وصوفي مول في غرفته. كانت غرفة صغيرة، بنافذة تطل على مزرعة مطاط متضائلة ومهملة إلى حدٍ ما، كان المبجل إ. جون آيب قد اشتراها من أحد الجيران. الغرفة كانت ترتبط بالمنزل عبر باب، ولها باب آخر (المدخل المنفصل الذي ابتكرته ماماتشي كي يتمكن تشاكو من ممارسة حاجاته الآدمية سرّاً) يؤدي إلى الميتام الجانبي مباشرةً.

كانت صوفي مول تستلقي نائمة على سرير المعسكر المتنقل الذي وضع خصيصًا لها إلى جوار السرير الكبير. كان أزيز مروحة السقف البطيئة يملأ رأسها. عينان رماديتا الزرقة تتحركان.

بيقظة.

بحياة.

بنشاط.

النوم وقد طرده الصيف.

لأول مرة، منذ موت جو، تفكر في شئٍ آخر غيره عندما استيقظت من نومها.

جالت بعينيها في محيط الغرفة. لم تتحرك، كانت فقط تتلفت بإنسان عينها. جاسوس أسير في معسكر الأعداء، يخطط لهروبها الرائع.

مزهرية بها نباتات خُبّيزة وُضعت بعشوائية على طاولة تشاكو. الكتب تصطف على الحوائط. دولاب مزجج الأبواب يكتظ بطائرات بلزا محطمة. فراشات مهشمة لها عيون تفيض بالتوسل. زوجات خشبيات لملك شرير تقاسين تحت وطأة سحر خشبي أسود.

سجينات.
واحدة فقط، أمها، مارجريت، فرت إلى إنجلترا.

دارت الغرفة حول السنتر الكرومي الهادئ لمروحة السقف الفضية. بُرص بيج اللون، لون البسكويت النئ، كان يشاهدها بعينين محدقتين. فكرت في جو. ثمة شئ ارتج داخلها. أغلقت عينيها.

أخذ السنتر الكرومي الهادئ لمروحة السقف الفضية يدور في رأسها.

جو كان يستطيع أن يمشي على يديه. عندما كان يركب الدراجة أسفل التل، كان يستطيع أن ينفخ قميصه بالهواء.

على السرير المجاور، لم تزل مارجريت كوتشاما نائمة. كانت تستلقي على ظهرها عاقدةً يديها تمامًا تحت قفصها الصدري. بدت أصابعها منتفخة، ولذا ظهر خاتم زواجها ضاغطًا بضيق على أحد أصابعها. لحم خديها تهدل على جانبي وجهها، مما جعل عظمتي وجنتيها تبدوان مرتفعتين وبارزتين، وفمها مسحوبًا لأسفل فتعتريه ابتسامة مغمومة تنطوي فقط على بريق أسنان. كانت قد زججت حاجبيها ــ الكثيفين فيما مضى ــ على الموضة، فأخذتا شكل قوسين رفيعين جدًا في حجم سن القلم الرصاص، مما جعلها تبدو وكأن عليها علامات دهشة خفيفة حتى وهي نائمة. كان وجها متوردًا. جبهتها وضاءة وتحت التورد شحوب. حزن مؤجل.

تهدل القماش البوليستر الممتزج بالقطن لفستانها الأزرق القاتم المنقوش بأزهار بيضاء، والتصق مرتخيًا بثنايا جسدها مما جعل ثدييها يرتفعان وجعل الخط الممتد بين ساقيها الطويلتين القويتين وكأنه أيضًا لم يكن معتادًا على الحرارة وبحاجة ماسة إلى نوم القيلولة.

على الطاولة المجاورة، صورة بالأبيض والأسود في برواز فضي لزفاف تشاكو ومارجريت كوتشاما التقِطت لهما خارج الكنيسة في أكسفورد. كان الجو جليديًا إلى حد ما. رقائق الجليد الأولى كانت

تغطي الشارع والرصيف. كان تشاكو في ملابسه يشبه نهرو. على كتفيه بعض رقائق جليدية وفي عروة الجاكت كان يع وردة، وطرف منديله كان مطويًا على هيئة مثلث يطل من جيب الجاكت العلوي. وفي قدميه حذاء أكسفوردي صقيل. كان يبدو وكأنه يضحك على نفسه وعلى الطريقة التى ارتدى بها ملابسه مثل رجل في حفل تنكري.

مارجريت كوتشاما كانت ترتدي عباءة طويلة منفوشة، وعلى رأسها تاج رخيص فوق شعر رأسها القصير الأجعد. حجابها كان مرفوعًا عن وجهها. كانت طويلة مثله. تعتريهما السعادة. نحيلان مفعمان بالشباب، يتجهمان حين تلتقي عيونهما بالشمس بحاجبين ملتحمين كثيفين قاتمين فيظهر التباين الجميل إلى حدٍ ما مع ملابس العرس البيضاء. غيمة متجهمة لها حاجبان. خلفهما تقف امرأة وقورة لها كاحلان ممتلئان وكل أزرار معطفها تسكن عراويها. أم مارجريت كوتشاما كانت تقف بينما كانت حفيدتاها تقفان إلى جوارها في جوارب طويلة وجونلات ترتان لها كرانيش. كانت تقهقهان وتضعان أيديهما فوق فميهما. أم مارجريت كوتشاما كانت تشيح بوجهها بعيدًا خارج الصورة كأنها لم تكن تريد الحضور.

والد مارجريت كوتشاما رفض حضور الزفاف. كان يكره الهنود ويعتبرهم أناس مخاتلين ومحتالين. لم يصدق أن ابنته كانت في طريقها للزواج من أحدهم. في الركن الأيمن من الصورة رجل يقود دراجته لصق الرصيف، وقد استدار ليلقي نظرة على الزوجين.

مارجريت كوتشاما كانت تعمل نادلة في مقهى في أكسفورد عندما التقت بـ"تشاكو لأول مرة. كانت أسرتها تعيش في لندن. والدها صاحب محل مخبوزات. أمها بائعة في محل للقبعات. وكانت مارجريت كوتشاما قد تركت منزل أسرتها قبل عام لمجرد رغبتها الشابة في التأكيد على استقلاليتها. التحقت بعمل كي تدخر ما يكفيها من المال لتحصل على دورة في إعداد المدرسين، ثم بعدئذٍ تبحث

عن وظيفة في مدرسة. في أكسفورد كانت تسكن في شقة مع نادلة صديقة تعمل في مقهى آخر.

حين نفذت قرار مغادرة بيت الأسرة وجدت مارجريت كوتشاما نفسها تأخذ الصورة التي يرتضيها لها والداها. اصطدمت بالعالم الحقيقي، تمسكت بعصبية بالتقاليد، لم يكن هناك من تتمرد عليه سوى ذاتها. حتى وهي في اكسفورد لم تكن ترفع صوت الجرامافون أكثر من المسموح به في بيت والديها، ظلت تمارس نفس الحياة الصغيرة الضيقة التي تخيلت أنها قد فرت منها. حتى دخل تشاكو إلى المقهى الذي تعمل فيه ذات صباح. كان هذا في صيف عامه الأخير في أكسفورد. وحيدًا كان. أزرار قميصه المكرمش شُبكت في العراوي الخطأ. رباط حذائه لم يكن مربوطًا. شعره كان مصففًا بعناية ومنسدلاً للأمام. كان طويلاً ومن وراء فوضى هندامه (المعطف الرث ورابطة العنق النشاز) استطاعت مارجريت كوتشاما أن تلاحظ قوة بنيانه. كان يحتفظ بجو مرح حوله، طريقة يُضيق بها فتحة عينيه وكأنه يحاول أن يقرأ لافتة بعيدة بعد أن اكتشف نسيانه لنظارته الطبية. أذناه كانت تلتصقان بجانبي وجهه مثل مقبضي إبريق شاي. ثمة شئ كان يتناقض مع بنيانه الرياضي ومظهره الفوضوي. الإشارة الوحيدة لوجود رجل بدين يتخبط داخله، كانت وجنتيه اللامعتين المبتهجتين.

لم يكن لديه من الغموض أو التحرج الذي عادةً ما يلازم الفوضويين، وشاردي الذهن من الناس، كي يبرروا انتفاء النظام من حياتهم. كان يبدو مبتهجًا كأنه برفقة صديق مُتخيل ممتع الصحبة. جلس على مقعد بجوار النافذة مرتفقًا الطاولة بينما كان وجهه متوسدًا كفيه، يبعث بابتسامته حوله في فضاء المقهى الخالي، وكأنه يقيم حوارًا مع أثاثاتها. طلب قهوة بنفس الابتسامة الودودة غير أنه لم يبد وكأنه قد لاحظ النادلة ذات الحاجبين الكثيفين التي تلقت طلبه.

أجفلت حينما وضع ملعقتين كاملتين من السكر في القهوة الممزوجة بمقدار كبير من اللبن.

ثم طلب بيضًا مقليًا على توست. مزيد من القهوة، ومربى الفراولة.
عندما عادت بطلبه، قال لها وكأنه يستأنف حوارًا بدأ منذ فترة، "هل سمعت بالرجل أبي الولدين التوأم؟"
"لا،" أجابته وهي تضع إفطاره ــ ربما بسبب الحذر الطبيعي والتحفظ الغريزي مع الغرباء ــ لم تظهر اهتمامًا حادًا بدا أنه يتوقعه منها فيما يخص ذاك الرجل. بدا تشاكو غير مكترث.
"كان هناك رجل له ابنان توأم،" قال لـ'مارجريت كونشاما'. "بيته وستيوارت. بيته كان متفائلاً، أما ستيوارت فكان متشائمًا."
التقط بعض الفراولة من المربى ووضعها على حافة طبقه. وكوم باقي المربى في طبقة على التوست المبطن بالزبد.
"في عيد ميلادهما التاسع عشر أعطى الأب ساعة غالية الثمن لـ'ستيوارت' ــ المتشائم ــ وعدة نجارة ودراجة."
رفع تشاكو وجهه لينظر إلى مارجريت كونتشاما ليعرف ما إذا كانت تستمع إليه أم لا.
"وملأ غرفة بيته ــ المتفائل ــ بروث الخيل."
رفع تشاكو البيض المقلي على التوست، ووزعه على مربى الفراولة بملعقة الشاي.
"عندما فتح ستيوارت علب هداياه، ظل متذمرًا طوال الصباح. لم يكن يريد معدات النجارة، لم يحب الساعة، أما الدراجة فكانت إطاراتها من نوع رديئ."
توقفت مارجريت كونتشاما عن الاستماع، لأنها انجذبت لطقوسه المثيرة التي يتعامل بها مع طبقه. فقد قطّع توست المربى والبيض المقلي إلى مربعات صغيرة متساوية. أما قطع الفراولة التي التقطها من المربى فقد التقطها الواحدة تلو الأخرى، وقطعها إلى شرائح رقيقة.

"عندما دخل الأب إلى غرفة بيته ـ المتفائل ـ لم يستطع أن يراه، ولكنه سمع صوت جلبة وتجريف مسعور ولهاث مضطرب ثقيل. كان روث الخيل يتطاير في كل أنحاء الغرفة."

بدأ تشاكو يترجرج بضحك مكتوم مسبقا قبل انتهاء النكتة. وبيدين ترتجان من الضحك، وضع تشاكو قطعة فراولة على كل مربع توست يلمع بما عليه من أحمر الفراولة وأصفر البيض؛ جاعلاً الأمر كله يبدو وكأنه وجبة خفيفة براقة تقدمه امرأة عجوز في تجمع للعب البريدج*.

" 'ماذا تفعل بحق السماء؟' صرخ الأب سائلا بيته."

نثر الملح والفلفل على مربعات التوست. وقبل أن يدفع بنهاية النكتة، رفع تشاكو رأسه صوب مارجريت كوتشاما، التي كانت تبتسم للطبق، وهو يضحك.

"انشق الروث عن صوت يأتي من عمقه. 'حسنًا يا أبي،' قال بيته، 'إذا ما كان هناك كثير من الروث، فلابد أن هناك فرس في مكان ما.' "

استلقى تشاكو للخلف على كرسيه، وهو يمسك شوكة وسكين في يديه، في المقهى الخالي من الزبائن، وأطلق وابلاً من الضحك المُعْدِي، من رجل بدين حتى سالت الدموع أسفل خديه. ابتسمت مارجريت كوتشاما التي لم تستمع إلى معظم النكتة. ثم بدأت تضحك على ضحكه. كان ضحك كل منهما يغذي الآخر وتصاعد ضحكهما حتى بلغ ذروته الهيستيرية. عندما ظهر صاحب المقهى، رأى زبونًا (ليس مرغوبًا فيه بشكل كبير)، ونادلة (متوسطة الكفاءة) غارقين في نوبة ضحك صاخبة لا حيلة معها.

في الوقت ذاته، دخل زبون (عادي) دون أن يلاحظه أحد، وجلس في انتظار من يخدمه.

* البريدج: لعبة من ألعاب الورق. (المترجم)

قام صاحب المقهى بتنظيف بعض الأكواب النظيفة أصلا وأصدر رنينًا صاخبًا بتعمده ارتطام الأكواب في بعضها، وكذا أحدث بعض الجلبة على 'الكوانتر' محاولاً أن ينقل استياءه إلى مارجريت كوتشاما. حاولت أن تعدل من هندامها قبل أن تذهب لتلقي طلبات جديدة من الزبون الآخر. لكن الدموع كانت تنساب من عينيها، فكان عليها أن تكبح نوبة القهقهة الجديدة، مما جعل الرجل الجائع الذي كانت تتلقى منه أمرًا بطلباته يرفع عينيه عن القائمة وينظر إليها، وهو يزُم شفتيه الرقيعتين باستياء.

اختلست نظرة على تشاكو الذي نظر إليها وابتسم. ابتسامة جنونية ودودة.

انتهى من إفطاره، دفع الحساب ثم مضى.

تلقت مارجريت كوتشاما قدرًا من التوبيخ وكذا محاضرةً في أخلاقيات المقهى. اعتذرت له. بالفعل كانت نادمة على سلوكها.

في هذا المساء، بعد العمل، فكرت فيما حدث، ولم تكن على وفاق مع نفسها. الاستهتار لم يكن عادتها، ولم تظن أنه من الصحة مجاراة رجل غريب عنها تمامًا في هذا الضحك المنفلت. تساءلت عن السبب الذي جعلها تضحك بهذه الصورة. كانت تعرف أن النكتة بالطبع ليست هي السبب.

فكرت في ضحك تشاكو، فاستقرت ابتسامة دامت طويلاً في عينيها.

بدأ تشاكو في التردد على المقهى بشكل متكرر.

كان دائمًا يأتي في صحبة صديقه الخفي وابتسامته الودودة. حتى عندما يخدمه نادل آخر غير مارجريت كوتشاما، كان يفتش عنها بعينيه ثم يتبادلان ابتسامات خفية تستفز ذاكرة ضحكهما المشترك.

وجدت مارجريت كوتشاما نفسها تتطلع إلى زيارات حيوان الشيهم* الأشعث هذا. دونما قلق، لكن بنوع من العاطفة الزاحفة. عرفت أنه من طلاب رودز* الهنود. وأنه قرأ الكلاسيكيات ويجدف لنادي باليول.

حتى يوم تزوجته، لم تكن لتصدق أنها ستقبل الزواج منه مُطلقا.

بعد عدة أشهر من بداية خروجه معها، بدأ يُهَرِّبْها إلى غرفته التي كان يعيش فيها مثل أمير منفي تعس. بالرغم من الجهد الذي كانت تبذله عاملة النظافة والمرشدة، فقد ظلت غرفته قذرة. كتب، زجاجات خمور فارغة، ملابس داخلية مُتسخة، وأعقاب سجائر على الأرضية. كان من الخطورة بحال المغامرة بفتح الدواليب لأن الملابس والكتب والأحذية كانت ستنهمر مثل شلال؛ وبعض كتبه كانت ضخمة بما يكفي لتسفر عن إصابات حقيقية. حياة مارجريت كوتشاما الصغيرة المنظمة تخلت عن نفسها لتفسح الطريق لهذا الجنون الباروكي المعقد مع التوق الهادئ لجسد دافئ يدخل بحرًا باردًا مرجفا.

اكتشفت أن وراء هيئة الشيهم الأشعث هذا، يوجد ماركسيّ معذب غارق في حرب مع رومانسي ميئوس منه تمامًا؛ رومانسي نسيّ الشموع، وحطم كؤوس النبيذ، خسر رهانه، مارس معها الحب بعاطفة محمومة أتت عليها. دائمًا ما كانت ترى أنها، إلى حدٍ ما، امرأة غير مثيرة؛ فتاة ممتلئة الخصر، منتفخة الكاحلين. لم تكن دميمة. لكنها لم تكن متفردة أيضًا. لكن عندما تكون مع تشاكو، تتراجع الحدود القديمة عن موضعها. وتنفتح الآفاق.

لم تلتقي من قبل برجل يتحدث عن العالم ـــ ماهيته القديمة، الآنية، وأفكاره حول ماهيته في المستقبل، العالم ـــ بنفس الطريقة

---

* الشيهم، النَيْص: حيوان شائك من القوارض. (المترجم.)

* منحة رودز Rhodes الدراسية: واحدة من المنح الدراسية المخصصة في جامعة أكسفورد لفريق مختار من الدومينيونات البريطانية والأمريكية؛ وهؤلاء الطلاب يعرفون بـ Rhodes Scholars، (المترجم.)

التي يتحدث بها رجال آخرون، عرفتهم، عن وظائفهم، أصدقائهم، وعطلاتهم الأسبوعية علي البلاج.

مارجريت كوتشاما كانت تشعر، وهي مع تشاكو، أن روحها قد فرت من حدود وطنها الضيقة بطبيعته الجزائرية، إلى الفضاءات الشاسعة الممتدة لوطن تشاكو. جعلها تشعر كأن العالم ينتمي لهما ــ وكأنه، العالم، يستلقي أمامها مثل ضفدعة مفتوحة على طاولة التشريح، يتوسل إليهما كي يتفحصاه.

في العام الذي تعرفت فيه على تشاكو، قبل أن يتزوجا، اكتشفت شيئًا من السحرية في ذاتها، ولفترة أحست أنها جنية مبتهجة تحررت من سجنها في المصباح. ربما كانت أصغر من إدراك أن ما زعمت أنه حبًا لــ'تشاكو' كان بالفعل قبولها المتردد الجبان لذاتها.

بالنسبة لــ'تشاكو' كانت مارجريت كوتشاما أول صديقاته. لم تكن فقط أول امرأة يجامعها. لكنها أول رفيق حقيقي. أكثر شئ احبه تشاكو في مارجريت كوتشاما كان اكتفاءها الذاتي. ربما لم يكن هذا ملحوظًا في المرأة الإنجليزية العادية، لكنه كان واضحًا عند تشاكو.

أحب في مارجريت كوتشاما أنها لم تتشبث به حقيقة. أنها لم تكن على يقين من عاطفتها نحوه. أنها لم تعرف حتى آخر يوم ما إذا كانت سوف تتزوجه أم لا. أحب هيئتها وهي تجلس عارية في سريره، ظهرها الأبيض الممتد وهو يستدير متباعدًا عنه، وهي تنظر في ساعتها بطريقتها العملية ــ "ياااااه، لابد أن أمضي الآن." احب الطريق التي كانت تتهادى بها إلى العمل كل صباح على دراجتها. كان يشجع اختلافهما في الرأي، ويبتهج داخله لانفجارات غضبها من جراء سلوكياته المتردية بين الحين والآخر.

كان يشكر لها عدم رغبتها في الاعتناء به. لأنها ترفض ترتيب غرفته. لأنها تنازلت عن لعب دور الأم المغلوبة على أمرها. صار معتمدًا على مارجريت كوتشاما لأنها لم تعتمد عليه. عشقها لأنها لم تعشقه.

لم تعرف مارجريت كوتشاما عن عائلته إلا قليلا. نادرًا ما كان يتحدث عنهم.

والحقيقة أنه نادرًا ما كان يفكر فيهم أثناء سنوات دراسته في أكسفورد. أشياء كثيرة كانت تحدث في حياته في وقتٍ كانت فيه أيمينيم بعيدة تمامًا. النهر كان صغيرًا جدًا. السمك كان قليلاً جدًا.

لم يجد لديه من الأسباب التي تحتم عليه الإبقاء عل روابط بينه وبين والديه. فقد كانت منحة رودز من السخاء بحيث لم يكن يحتاج إلى أي إعانات مالية. وكذا كان غارقا في حب مارجريت كوتشاما، فلم يكن في قلبه أي متسع لأي شخص آخر.

ماماتشي كانت تكتب إلي بانتظام، واصفة له بالتفصيل شجارها الخسيس مع زوجها وقلقها على مستقبل آمو. نادرًا ما كان يقرأ رسالة منها حتى نهايتها. أحيانًا لم يكن يفتحها مُطلقا. لم يرد علي أي منها أبدًا.

حتى في المرة التي عاد فيها (حينما أمر باباتشي بالكف عن ضرب ماماتشي بالمزهرية النحاس، حين تهشم الكرسي الهزاز في ضوء القمر)، لم يكن مدركًا تمامًا مدى قسوة أبيه، أو حب أمه المضاعف له، أو الجمال المباغت الذي صارت عليه أخته الصغيرة. لقد أتى ومضى وهو في غَشْيَة، يهدر داخله بالحنين، منذ لحظة وصوله، إلى الفتاة البيضاء بظهرها الممتد التي تنتظره.

مارجريت كوتشاما وتشاكو تزوجا في الشتاء الذي تلى مقدمه من باليول (حيث كانت إجاباته سيئة في الامتحانات) دون موافقة أسرتها، دون علم عائلته.

قررا الانتقال إلى شقة مارجريت كوتشاما (فحل تشاكو محل النادلة الأخرى في المقهى الآخر) حتى وجد لنفسه وظيفة.

توقيت الزفاف لم يكن أسوأ.

أتى الفقر المدقع مرافقا لضغوط الحياة.

لم يعد هناك راتبًا من المنحة الدراسية، وكان لزامًا دفع إيجار الشقة كاملا.

مع نهاية تجديفه لنادي باليول حدث امتداد مفاجئ مبتسر مع انتصاف العمر. أصبح تشاكو رجلاً بدينا، له جسد يضاهي ضحكته.

عام من الزواج، وتلاشى سحر الكسل الطلابي الذي كان ينطوي عليه تشاكو في عينيّ مارجريت كوتشاما. لم يعد يبهجها بقاء الشقة على حالتها القذرة التي تركتها عليها قبل الذهاب للعمل. أنه من المستحيل عليه أن يفكر في ترتيب السرير، أو غسل الملابس والأطباق. أنه لم يكن يعتذر على أعقاب السجائر التي حرقت تنجيد الكنبة الجيدة. أنه غير قادر على تزرير قميصه، ربط رابطة العنق أو رباط الحذاء قبل التقدم للحصول على وظيفة جديدة. خلال سنة كانت قد قررت استبدال الضفدعة المستلقية على طاولة التشريح ببعض الامتيازات العملية الصغيرة. مثل وظيفة لزوجها ومنزل نظيف.

وأخيرًا استطاع تشاكو الحصول على مهمة قصيرة الأجل، ضعيفة الراتب مع قسم المبيعات عبر البحار في هيئة الشاي الهندي. انتقل تشاكو ومارجريت إلى لندن، على أمل أن يؤدي هذا إلى أشياء أخرى. حيث الغرف أقل اتساعًا وأكثر وحشة. رفض والدي مارجريت كوتشاما زيارتها.

كانت قد اكتشفت لتوها حملها في صوفي مول عندما التقت بـ'جو'. كان أحد أخيها في الدراسة. عندما التقيا، كانت مارجريت كوتشاما في أبهى حالاتها الجسدية وأكثرها جاذبية. لقد لون الحمل خديها وأضفى بريقا على شعرها الكثيف الحالك. وعلى الرغم من الاضطرابات الاجتماعية التي كانت تعيشها مارجريت كوتشاما، فقد كانت تتمتع بحالة من الابتهاج الخفي، إعجابها بجسدها الذي غالبًا ما تشعر به النساء الحوامل.

كان جو باحث بيولوجي. كان يقوم بتحديث الطبعة الثالثة من القاموس البيولوجي لدار نشر صغيرة. كان يتمتع بكل ما لم يكن يتمتع به تشاكو.

مستقر، ميفاء، نحيف.

وجدت مارجريت كوتشاما نفسها تنجذب نحوه وكأنها نبات حبيس في غرفة معتمة يومئ لبصيص من النور.

عندما أنهى تشاكو مهمته ولم يستطع الحصول على وظيفة أخرى، كتب لـ'ماماتشي' وأخبرها عن زواجه وطلب منها دعمًا ماليًا. كانت ماماتشي منهارة، لكنها رهنت مجوهراتها سرًا وأعدت المال كي ترسله إلى تشاكو في إنجلترا. لم يكن كافيًا. أبدًا.

عندما وُلدت صوفي مول، أدركت مارجريت كوتشاما حتمية ترك تشاكو لأجلها ولأجل ابنتها. طلبت منه الطلاق.

عاد تشاكو إلى الهند، حيث استطاع الحصول على وظيفة بسهولة. قام لعدة سنوات بالتدريس في كلية مدراس المسيحية، وبعد أن مات باباتشي عاد إلى آيمينيم بآلة إغلاق الزجاجات ماركة بارات، ومجداف باليول وقلبه المنكسر.

رحبت ماماتشي بعودته إلى حياتها مبتهجة. أطعمته، حاكت ملابسه، رأت وجوب وضع أزهار جديدة في غرفته كل يوم. كان تشاكو بحاجة إلى حب أمه له. في الواقع فقد طلبه منها، ومع ذلك احتقرها لأجله؛ وعاقبها بطرق سرية. بدأت في زراعة بدانته وخرابه الجسماني. كان يرتدي قمصان رخيصة من الترلين المشجر فوق الماندو الأبيض وأحقر الصنادل البلاستيك المتاحة في السوق. إذا ما كان هناك ضيوف أو أقارب أو ربما أصدقاء قدامى من دلهي في زيارة لـ'ماماتشي'، كان تشاكو يظهر على مائدة الطعام بما عليها مما لذ وطاب ــ المزينة بنباتات السَّحْلَبِيّة الفاتنة وأجمل الصيني ــ وهو يهرش جربًا قديمًا أو يحك النتوءات اللحمية السوداء التي زرعها في مرفقيه.

أهدافه المميزة كانت ضيوف بيبي كوتشاما ــ القساوسة الكاثوليك أو زوارها من رجال الدين ــ ممن كانوا يزورونها غالبًا لتناول وجبة خفيفة. كان تشاكو يخلع صندله في وجودهم ويعرض على الملأ بثرة مقززة مكتظة بالقيح في قدمه من جراء إصابته بالبول السكري.

"يارب، انزل رحمتك على هذا المجذوم،" كان يقول، بينما كانت بيبي كوتشاما تحاول باستماتة جذب انتباههم بعيدًا عن النظر إليه وذلك بالتقاط نثار البسكويت أو كسرات شيبسي الموز التي كانت تتبقى منتثرة على لحاهم.

لكن أقسى العقوبات السرية التي كان تشاكو يعذب بها ماماتشي، أكثرها قتلاً، كانت عندما يستغرق تشاكو في ذكرياته مع مارجريت كوتشاما. إذ كان يتحدث عنها غالبًا بخيلاء خاص. كأنه عشقها أكثر حين طلبت الطلاق منه.

"لقد تنازلت عني من أجل رجل أفضل،" كان يقول لــ'ماماتشي'، وكانت تجفل وكأنه كان يشوهها هي بدلاً من نفسه.

كانت مارجريت كوتشاما تكتب إليه بانتظام، مُخبرةً إياه عن صوفي مول. أكدت له أن جو أصبح أبًا رائعًا شديد العناية بــ'صوفي مول' وأن صوفي مول تحبه كثيرًا. ــ الحقائق التي بقدر ما أسعدته بقدر ما أشعرته بالتعاسة.

مارجريت كوتشاما كانت سعيدة مع جو. وكانت سوف تتمتع بسعادة أكبر لو لم تنفق تلك السنوات المضطربة الطائشة مع تشاكو. كانت تفكر في تشاكو بولع، لكن دون ندم. لم يحث ببساطة لها أن جرحته بعمق مثلما فعلت، لأنها لم تزل تفكر في نفسها على أنها امرأة عادية، وتفكر فيه على أنه رجل غير عادي. ولأن تشاكو لم يُظهر أبدًا أي أعراض عادية للأسى أو انكسار القلب، فقد افترضت مارجريت كوتشاما أنه أحس بارتكاب خطأ عندما تزوج منها؛ تمامًا

مثلما أحست هي. عندما أخبرته عن جو غادر بحزن لكنه كان هادئًا. مع رفيقه الخفي وابتسامته الودودة.

كانا يتبادلان الخطابات بانتظام، ومع مرور السنوات نضجت علاقتهما. وأصبحت علاقة صداقة وطيدة ومريحة بالنسبة لـ'مارجريت كوتشاما'. أما تشاكو فكان يعتبرها الطريقة، الطريقة *الوحيدة* للابقاء على علاقته بأم ابنته والمرأة الوحيدة التي أحبها في حياته.

عندما أصبحت صوفي كبيرة بما يكفي للالتحاق بالمدرسة، التحقت مارجريت كوتشاما بدورة لإعداد المعلمين ثم عُينت مُدرسة في مَدرسة صغيرة في كلابهام. كانت في أحد الفصول عندما بلغها نبأ مصرع جو. أتاها النبأ مع شرطي شاب تفيض تعبيراته بالموت ويحمل خوذته في يده. بدا هزليًا، وكأنه ممثل رديء في اختبار لقدراته التمثيلية كي يلعب دورًا وقورًا وكئيبًا في مسرحية. تذكرت مارجريت كوتشاما انطباعها الأول حينما رأت الشرطي، إذ كان يتحتم عليها أن تبتسم.

بذلت مارجريت كوتشاما قصارى جهدها كي تواجه المأساة برباطة جأش من أجل صوفي مول إن لم يكن من أجلها هيّ. ولكي تتظاهر بمواجهة المأساة باتزان، لم تتغيب عن وظيفتها. ورأت أن يظل النظام المدرسي لـ'صوفي مول' دون تغيير ـــ ***انتهي من واجبك، كُلي بيضتك. لا، لا نستطيع الذهاب إلى المدرسة.***

أخفت حزنها تحت القناع العملي الرشيق للمُدرسة. تقب صارم في الكون على هيئة مُعلمة التلاميذ (التي أحيانًا ما تُصفع)

لكن عندما دعاها تشاكو لزيارة آيمينيم، ثمة شئ تأوه داخلها وجلس. وعلى الرغم من كل ماحدث بينها وبين تشاكو، لم يكن هناك أي شخص آخر يمكن أن تقضي معه ليلة الكريسماس. فكلما فكرت

أكثر، كان الأمر يغويها أكثر. أقنعت نفسها أن رحلة للهند هي أفضل شئ لصوفي مول.

ولذلك قررت أخيرًا مارجريت كوتشاما أن تنهي وديعتها الادخارية لتشتري تذكرتين طيران. لندن ــ بومباي ــ كوتشين، رغم أنها كانت تعرف أصدقاءها وزملاءها في المدرسة سيستهجنون عودتها المهرولة إلى زوجها الأول بمجرد موت زوجها الثاني.

لقد اقتنصها هذا القرار طيلة حياتها. لقد لازمتها إلى قبرها صورة جسد ابنتها الصغيرة وهو يستلقي على الشيزلونج في غرفة الجلوس بمنزل آيمينيم. حتى من بعيد، كان واضحًا أنها ميتة. ليست مريضة أو نائمة. أهناك ما يمكن أن تفعله مع الطريقة التي ترقد بها. هيئة أطرافها. ما يمكن أن تفعله مع سلطة الموت. استكانته المفزعة.

حورية اسفنجية نسيت كطيف تسبح.

القابضة على كتشبان فضي، للحظ، بكفها الصغير.

الشاربة في كتشبان.

لم تسامح مارجريت كوتشاما نفسها أبدًا على أخذها صوفي مول إلى آيمينيم. على تركها لها وحدها هناك بينما كانت هي وتشاكو في كوتشين لتأكيد موعد تذاكر العودة.

كانت الساعة في حدود التاسعة صباحًا عندما تلقت ماماتشي وبيبي كوتشام أنباء عن طفلٍ أبيض وُجِد طافيًا أعلى النهر حيث يتسع مجرى الميناتشال عند بلوغه المياه الخلفية، إيستا وراهيل ما زرالا في حكم المفقودين.

مبكرًا هذا الصباح لم يظهر الأطفال ـ ثلاثتهم ـ لتناول كوب الحليب الصباحي الخاص بهم. اعتقدت بيبي كوتشاما وماماتشي أنهم ربما ذهبوا أسفل النهر للسباحة، مما كان مقلقًا ذلك لأن المطر قد هطل بغزارة في اليوم السابق وعلى امتداد ساعات طويلة من الليل. كانتا تعرفان أن النهر من الممكن أن يكون خطرًا. بيبي كوتشاما أرسلت كوتشوماريا لتبحث عنهم غير أنها عادت صفر اليدين. في خضم الجلبة التي سببتها زيارة فيليا بابن، لم يستطع أحد أن يتذكر آخر مرة فعليًا رأى فيها الأطفال. لم يكونوا في بؤرة عقل أي أحد. ربما كان فقدانهم قد حدث منذ الليلة الماضية.

لم تزل آمو في غرفتها المغلقة. كانت المفاتيح مع بيبي كوتشاما. حدثتها عبر باب الغرفة المغلقة متسائلةً ما إذا كانت تعرف أي شئ عن مكان وجود الأطفال. حاولت أن تحافظ على انتفاء نبرة الفزع والهلع في صوتها، لتجعل سؤالها يبدو اعتياديًا. ثمة شئ ارتطم بالباب. آمو كانت غير قادرة على التماسك وغير مصدقة لما يحدث بالخارج ـ من جراء حبسها في غرفة مغلقة بعيدًا عن الأسرة وكأنها مجذوب العائلة في بيت من بيوت القرون الوسطى. فقط عندما فتحت بيبي كوتشاما الباب لها لاحقًا، عندما انهار العالم من حولهم، عندما نُقِل جسد صوفي مول إلى آيمينيم، استطاعت آمو أن تخترق أفق الفزع هذا محاولةً أن تتفهم ما حدث. الخوف والإدراك حملاها على أن تفكر بوضوح، ولم تتذكر الكلام الطائش، الذي ردت

به على سؤال إيستا وراهيل وهما يقفان على باب غرفة النوم وسألاها عن سبب حبسها في هذه الغرفة المغلقة، إلا حينئذٍ قط. الكلام الطائش الذي لم تكن تعني حرفًا منه.

"بسببكما!" صرخت آمو. "لولاكما لما كنت هنا الآن! لما حدث أي شئ من هذا! ما كنت هنا! كنت سأتمتع بحريتي! كان لابد أن ألقي بكما إلى أحد الملاجئ حين ولدتكما! أنتما أغلال في رقبتي!"

لم تكن تراهما يربضان في تذلل خلف الباب. بُف مذهول ونافورة في توكة الحب ـــ في ـــ طوكيو. معالي السفراء إ. بلفيس و س. إنسكت.

"فقط اذهبا!" قالت آمو. "لماذا لا تذهبان بعيدًا وتتركاني وحدي؟" لذلك فقد ذهبا.

لكن الإجابة الوحيدة التي تلقتها بيبي كوتشاما عن غياب الأطفال كان ارتطام شئ ما بباب غرفة نوم آمو، جعلتها تمضي بعيدًا. داخلها بدأ الفزع البطئ يشيد نفسه عندما بدأت هي في إقامة علاقات واضحة، ومنطقية وفي تمام الخطأ بين أحداث الليلة السابقة واختفاء الأطفال.

بدأ المطر مبكرًا في ظهيرة اليوم السابق. فجأةً غطت الظلمة على حرارة النهار وبدأت السماء تغمغم وترعد. كوتشو ماريا ذات الحالة المزاجية السيئة بلا سبب، كانت في المطبخ تقف على كرسيها الخفيض وهي تقوم بتنظيف سمكة كبيرة بطريقة همجية. كان الحلق الذهبي في أذنيها يتأرجح بشراسة. القشور الفضية للسمكة تطايرت في أنحاء المطبخ، وحطت على أباريق الشاي، والحولة [1]، وقشارات الخضار، ومقبض فتح الثلاجة. تجاهلت فيليا بابن عندما وصل إلى باب المطبخ، وهو يرتعد بليلا. كانت عينه الحقيقة تنشع دمًا وبدا وكأنه ثملا. وقف على باب المطبخ لمدة عشر دقائق قبل أن تنتبه لوجوده.عندما فرغت كوتشو ماريا من السمكة وشرعت في البصل،

تتحنح وسأل عن ماماتشي. حاولت كوتشو ماريا أن تبعده، غير أنه لم يبتعد. كل مرة يحاول أن يفتح فمه ليتكلم، كانت رائحة شراب العرق في نفسه تضرب بيبي كوتشاما وكأنها جاكوش. لم تره في مثل هذه الحالة من قبل، فانتابها قليل من الخوف. كان عندها فكرة كبيرة عن سبب كل هذا، لذلك قررت في النهاية أنه من الأفضل استدعاء ماماتشي. أغلقت باب المطبخ، وتركت فيليا بابن في الخارج، في الميتام الخلفي، وهو يتخبط ثملاً في المطر المنهمر. بالرغم من أننا كنا في ديسمبر، فقد كان الجو مطيرًا وكأننا في يونيو. *اضطراب إعصاري*، هذا ما قالت عنه الصحف في اليوم التالي. لكن وقتها لم يكن هناك أحد في حالة تسمح له بقراءة الصحف.

ربما كان المطر هو ما دفع فيليا بابن إلى باب المطبخ. من وجهة نظر رجل يؤمن بالخرافات، بدت قسوة هذا السيل وكأنها إشارة للحنق من إله غاضب. أما بالنسبة لرجل خرافي ثمل، فإنه يمثل بداية النهاية لهذا العالم. التي كانت، بطريقةٍ ما، نهاية فعلية.

عندما وصلت ماماتشي إلى المطبخ، في فستانها الفضفاض، وعباءتها ذات اللون الوردي الشاحب بحوافه الريكراك، كان فيليا بابن قد صعد الدرجات صوب المطبخ، وعرض عليها عينه المرهونة. فقد خلعها ووضعها على راحة يده. قال إنه لا يستحقها ويريد أن يردها إليها. جفن عينه كان قد سقط على التجويف الخاوي بغمزةٍ وحشية ثابتة. كأن كل شئ كان على وشك الإفصاح عنه جزء من مزحة متقنة.

"ما هذا؟" سألت ماماتشي وهي تمد يدها معتقدة أن فيليا بابن، لسببٍ ما، كان يُعيد كيلة الأرز الأحمر الذي أعطته إياه صباح اليوم.

"إنها عينه،" قالت كوتشو ماريا لـ'ماماتشي' بصوتٍ عالٍ، عيناها كانت تلمعان بدموع البصل. عندئذ كانت ماماتشي قد لمستْ العين الزجاجية بالفعل. تراجعت عن صلابتها الزلقة، ورخاميتها القذرة.

"هل أنت مخمور؟" قالت ماماتشي بغضب لصوت المطر. "كيف تجاسرت وأتيت إلى هنا في هذه الحالة؟"

تحسست طريقها صوب حوض المطبخ، ونظفت يديها بالصابون من العصائر المشبعة بالماء التي تركتها عين البارافان في يدها. تشممت يديها عندما انتهت من تنظيفهما. كوتشو ماريا أعطت فيليا بابن قطعة قماش قديمة من المطبخ ليمسح بها الماء عن وجهه، ولم يقل شيئًا عندما وقف على أعلى درجة، تقريبًا داخل مطبخها المحرم على المنبوذين، وهو يجفف نفسه؛ آويًا نفسه من المطر تحت السقف المائل المعلق للبيت.

عندما صار أكثر هدوءًا، أعاد فيليا بابن عينه إلى تجويفها الصحيح وبدأ يتكلم. بدأ يعد لـ'ماماتشي' مآثر عائلتها عليه وعلى عائلته. جيل تلو آخر. كيف أن المبجل إ. جون آيب قد أعطى أبيه، كاليني، حق الملكية في قطعة الأرض التي أقاموا عليها كوخهم الآن، قبل أن يفكر الشيوعيون في هذا بوقت طويل. كيف دفعت ماماتشي ثمن تركيب عين زجاجية له. كيف رتبت لـ'فيليوتا' كي يلتحق بالتعليم ويحصل على وظيفة.......

على الرغم من أن ماماتشي كانت تشعر بالضيق من حالته الثملة، إلا أنها لم تكن نافرة من الاستماع إلى قصص ملحمية عنها وعن الإحسان المسيحي الذي تتمتع به عائلتها. لا شئ جهزها لما هي موشكة على الاستماع إليه.

بدأ فيليا بابن في البكاء. نصفه كان يبكي. نشعت الدموع من عينه الحقيقية، ولمعت على خده الأسود. بعينه الأخرى كان ينظر إلى الأمام بتحجر. بارافان عجوز، عاش الأيام الغابرة وشهد مرورها، ممزق بين الولاء والحب.

ثم قبض الفزع عليه وفجر الكلمات خارجه. أخبر ماماتشي بما رأى. قصة القارب الصغير الذي يعبر النهر ليلة بعد أخرى، ومن فيه. قصة رجل وامرأة، يقفان معًا في ضوء القمر. جسد قبالة جسد.

ذهبا إلى منزل كاري سايبو، قال فيليا بابن. لقد دخلها عفريت الرجل الأبيض. لقد كان هذا انتقام كاري سايبو من فيليا بابن جزاء لما فعله به. القارب (الذي أعده إيستا ووجدته راهيل) كان مربوطًا في جذع الشجرة إلى جوار الطريق المنحدر الذي يقود عبر المستنقع إلى مزرعة المطاط المهجورة. لقد رآه هناك. كل ليلة. يتمايل فوق الماء. فارغًا، في انتظار عودة العاشقين. كان ينتظر لساعات. أحيانًا كانا يظهران فقط عبر العشب الطويل في الفجر. لقد شاهدهما فيليا بابن بعينه. آخرون رأوهم أيضًا. القرية كلها عرفت. ومعرفة ماماتشي بالأمر كان مسألة وقت فقط. لذا فقد سارع فيليا بابن إلى ماماتشي كي يخبرها بنفسه. وأنه كـ'بارافان' ورجل في جسده أجزاء مرهونة، فقد اعتبر أن من واجبه طرح الأمر كله على ماماتشي.

العاشقان، اللذان أتيا إلى الحياة عبر أخشائه وأحشائها. ابنه وابنتها. جعلا المستحيل واقعًا، وغير المعقول معقولاً.

استأنف فيليا بابن حديثه. وهو يبكي. يحاول التقيؤ. محركًا فمه. لم تستطع ماماتشي أن تسمع ما كان يقوله. لأن صوت المطر صار مرتفعًا وكان يتفجر في أذنيها. لم تسمع صوتها وهي تصرخ.

بغتة تقدمت السيدة العجوز، ذات العباءة الفضفاضة بحوافها الريكراك وشعرها الخفيف الرمادي المضفر على هيئة ذيل الفأر للأمام ودفعت فيليا بابن بكل قوتها. تراجع للوراء، أسفل درجات سلم المطبخ واستلقى منبطحًا في الوحل. لقد أخذته على حين غرة. فجزء من التابو الخاص بكونه منبوذًا يجعله لا يتوقع مطلقًا تقدمها للمسه. على الأقل ليس في هذه الظروف. وهو منغلق على نفسه في شرنقة جسدية منيعة.

سمعت بيبي كوتشاما الفتنة كلها في مرورها بالمطبخ. وجدت ماماتشي تبصق في المطر، تفو! تفو! ـ تفو! وفيليا بابن يستلقي في الرداغ، بليلاً، باكيًا، ينبطح متذللاً. يعرض قتل ابنه. أن يقطعه إربًا إربا. كانت ماماتشي تصرخ، "كلب ثمل! بارافان منبوذ كذاب ثمل!"

مع الجلبة صرخت كوتشو ماريا بقصة فيليا بابن لـ"بيبي كوتشاما." أدركت بيبي كوتشاما الكارثة الهائلة التي ينطوي عليها الموقف، لكنها دهنت أفكارها بزيوت زلقة. توردت. نظرت إلى الموقف على أنه طريقة الله في عقاب ىمو على ذنوبها، وفي نفس الوقت الانتقام لها (بيبي كوتشاما) من الإذلال على يد فيليوتا والرجال الذين كانوا في المظاهرة ـ لإجبارها على التلويح بعلم. أبحرت على الفور. سفينة خير تحرث بحرًا من الذنوب.

وضعت بيبي كوتشاما ذراعها الثقيلة حول ماماتشي.

"لابد وأن هذا حقيقي،" قالت بصوت هادئ. "إنها قادرة جدًا على هذا. وهو أيضًا. فيليا بابن لا يمكن أن يكذب بشان هذا."

طلبت من كوتشو ماريا أن تُحضر لـ'ماماتشي' كوب ماء وكرسي لتجلس عليه. جعلت فيليا بابن يُعيد قصته، وهي تقاطعه بين الحين والآخر متسائلة عن التفاصيل ـ قارب من ؟ كم مرة؟ منذ متى؟

انتهى فيليا بابن، استدارت بيبي كوتشاما صوب ماماتشي. "لابد وأن يمضي،" قالت "الليلة، قبل أن يتطور الأمر. قبل ان ننهار تمامًا"

ثم ارتعدت ارتعادتها المعتادة حينما كانت تلميذة في المدرسة. عندما كانت تقول، "كيف نوقف هذه الرائحة؟ ألم تلاحظ؟ إن لهم رائحة مميزة هؤلاء المنبوذين البارافان."

انفرط الفزع بهذه التفصيلة الصغيرة المحددة، بتلك الملاحظة الشمية. تحول غضب ماماتشي، الذي كان منصبًا على البارافان العجوز الأعور الذي كان يقف في المطر مُلطخًا بالوحل، إلى ازدراء بارد من ابنتها على ما فعلته. تخيلتها عارية، تعاشر رحلاً لا يتجاوز كونه *كولي** قذر. تخيلتها في صورة جلية: كف البارافان الخشنة على نهد ابنتها. فمه في فمها. خصره يعلو ويهبط بعنف بين ساقيها المتباعدتين. صوت الفاسهماز رائحته المنبوذة المميزة. ***مثل***

* الكولي Coolie : حمّال أو عامل غير بارع. (المترجم.)

الحيوانات، ماماتشي تخيلت، وتقريبًا تقيأت. ***مثل كلب مع داعرة في ذروة الشبق***. لقد أصبح تسامحها مع "الاحتياجات الآدمية" لابنها، وقودًا لحنقها الطائش على ابنتها. فقد لوثت أجيالاً (المبارك الصغير، الذي باركه بطريرك غنطاكية شخصيًا، عالم الحشرات الإمبريالي، طالب منحة رودز الدراسية في اكسفورد) وعفرت العائلة كلها بالتراب. لأجيال قادمة، للأبد الآن، سوف يُشار غليهم في حفلات الزفاف والجنازات. في مراسم التعميد وحفلات أعياد الميلاد. سوف يتهامسون ويختلسون النظرات عليهم. لقد انتهى كل شئ الآن.

لقد فقدت ماماتشي السيطرة على نفسها.

لقد فعلوا ما تحتم فعله، السيدتان الكبيرتان. ماماتشي مصدر العاطفة. بيبي كوتشاما المُخططة. كوتشو ماريا القائم مقام القزمي. حبسوا ىمو (خدعوها وأغلقواعليها باب غرفة النوم) قبل أن يرسلوا فيليوتا. كانت تعرفان أن عليهما أن تحملاه على مغادرة آيمينيم قبل عودة تشاكو. لم يكن لديها توقع أو ثقة فيما سوف يفعله تشاكو.

الخطا كله ليس خطأهما، رغم أن الأمر كله طاش ولم يعد بمقدورهما السيطرة عليه؛ وكأنه رأس اصابه الخُبال، فأخذ يندفع متحرشًا بمن يمرون في طريقه. حتى أن الاوان كان قد فات عندما عاد تشاكو ومارجريت كوتشاما.

صَورةُ

مبُحرًا كان في قاربه، عند الفجر، عند فوهة النهر التي عرفها طيلة حياته. لم يزل النهر مسرعًا ومنتفخًا من جراء مطر الليلة السابقة. ثمة شئ كان يتمايل في الماء مارًا به؛ بألوان خطفت انتباه عينيه. بنفسجي. بُني ضارب إلى الحُمرة. اصفر رملي. شئ يتحرك مع تيار الماء. ارسل الصياد ساريته البامبو ليوقفه ويجذبه إليه. حورية مُتغضنة. حورية طفلة. مجرد طفلة حورية. بشعر كستنائي. وأنف تنتمي لجدها عالم الحشرات الإمبريالي، وكتشبان فضي للحظ،

أحكمت عليه قبضتها. سحبها خارج الماء إلى قاربهز وضع منشفته الخفيفة تحتها، كانت ترقد في قاع القارب مع غنيمة صيده من السمك الفضي الصغير. جدف صوب بيته وهو يفكر في خطأ اي صياد يظن أنه عرف نهره جيدًا. لا أحد يعرف الميناتشال. لا أحد يعرف ما سيأخذه وما سيهبه. أو متى وماذا جعل الصياد يصلي.

في قسم بوليس كوتايام، أمرت بيبي كوتشاما المرتجفة أن تدخل على مكتب مأمور القسم. أخبرت المفتش توماس ماثيو بالظروف التي أدت على طرد احد عمال المصنع بشكل مفاجئ. بارافانز فمنذ عدة أيام حاول أن، أن،......أن يتحش بابنة أخيها، قالت. مُطلقة ولديها طفلان.

لقد سردت بيبي كوتشاما قصة العلاقة بين آمو وفيليوتا بطريقة مغلوطة، ليس لأجل آمو، لكن لتحتوي الفضيحة ولإنقاذ سمعة العائلة في عيني المفتش توماس ماثيو. لم يخطر ببالها أبدًا أن آمو سوف تجلب العار لنفسها — أنها سوف تذهب إلى قسم البوليس وتحاول إعادة الأمور إلي نصابها الصحيح. عندما سردت بيبي كوتشاما قصتها بدأت على الفور في تصديق نفسها.

كان المفتش يريد أن يعرف لماذا لم يتم إبلاغ البوليس في بداية الأمر.

"نحن عائلة عريقة،" قالت بيبي كوتشاما. "وهذه الأمور لم نكن نريد التحدث علــ......."

تراجع المفتش توماس ماثيو للخلف وراء شاربه الهائج، وهو يدرك كل شئ تمامًا. إن لديه زوجة من الطبقة العليا، ابنتان من نفس الطبقة — أجيال برمتها من الطبقة العُليا تنتظر في أرحام من ذات الطبقة............

"اين المجني عليها الآن؟"

"في البيت. لا تعرف أنني أتيت إلى هنا. لم تكن ستتركني آتي. طبيعي — إنها هائجة من قلقها على الأطفالز في حالة هستيرية."

فيما بعد عندما عرف المفتش توماس ماثيو القصة الحقيقية، حقيقة أن البارافان أخذ من مملكة الطبقة العليا، لم يختطف لكنه مُنِحَ، أحس أن الأمر يمسه بعمق. لذلك بعد جنازة صوفي مول، عندما ذهبت إليه آمو ومعها إيستا وراهيل لتخبره عن الخطأ الذي ارتكب، ونقر على نهديها بعصاه، لم تكن تلك مجرد فظاظة من تلقائية من رجل بوليس من جانبه، لقد كان يعرف ما الذي يفعله بالضبط. لقد كانت حركة متعمدة؛ موجهة لإذلالها وإرهابها. محاولة لإعادة النظام إلى عالم مسته الفوضى.

فيما بعد، عندما هدأت عاصفة التراب، ورتب المستندات قام المفتش توماس ماثيو بتهنئة نفسه على الطريقة التي أدار بها كل شيء.

لكنه الآن، يستمع بعناية وأدب إلى بيبي كوتشاما وهي تحكي قصتها. "ليلة أمس وبينما كان الظلام يرخي سُدوله ـ حوالي السابعة مساءً ـ أتي إلى البيت ليهددنا. كان الجو مطيرًا جدًا. انقطع التيار الكهربي، وكنا نشعل المصابيح عندما وصل." قالت بيبي كوتشاما له. "كان يعرف أن رجل البيت، ابن أخي، تشاكو آيد، كان بعيدًا فس كوتشين. كنا ثلاث نساء وحيدات في المنزل." توقفت لتترك للمفتش فرصة كي يتخيل الفزع الذي يمكن أن تسببه زيارة بارافان مسعور جنسيًا لثلاث نساء وحيدات في بيت.

"هددناه بإبلاغ البوليس لو لم يغادر آيميتيم على الفور في هدوء. بدأ قائلاً إن ابنة أخي قد وافقت، هل تتخيل؟ سألنا عن الدليل الذي نملكه على ما سنتهمه به. قال إنه، وفقا لقانون العمل، ليس لدينا ما نستطيع به أن نطرده. كان في غاية الهدوء. 'لقد ذهبت هذه الأيام' قال لنا، 'التي كنتم تركلوننا فيها وكأننا كلاب.....'" حينئذٍ بانت بيبي كوتشاما في تمام الإقناع. جريحة. مجنيًا عليها.

ثم تسيد خيالها على الموقف برمته. لم تصف :كيف فقدت ماماتشي صوابها. كيف أنها اتجهت نحو فيليوتا وبصقت في وجهه. ما قالته له. الصفات التي نعتته بها.

وبدلاً من ذلك، وصفت للمفتش توماس ماثيو كيف أنه *ما قاله* فيليوتا ليس هو ما جعلها تأتي إلى البوليس، لكن *الطريقة* التي تكلم بها. إنه لم يندم مُطلقاً، وذلك ما صدمها أكثر. كأن كان بالفعل *فخوراً* بما فعل. وبدون وعي منها، ألبست فيليوتا ثوب الرجل الذي أذلها أثناء المظاهرة. قامت بوصف الحنق الساخر الذي كان على وجهه. الغطرسة النحاسية التي وشت نبرات صوته مما أرهبها. الذي جعلها واثقة من أن طرده، وخطفه للأطفال ليسا، ولا يمكن أن يكونا، منفصلين.

قالت بيبي كوتشاما إنها تعرف هذا البارافان منذ طفولته. عائلتها هي التي أنفقت على تعليمه، في مدرسة المنبوذين التي أنشأها أبوها، بانيان كونجو (لابد وأن السيد توماس ماثيو يعرف من هو؟ نعم بالطبع.)....... وتعلم النجارة بإنفاق من عائلتها، والمنزل الذي يعيش فيه هو عطية عائلتها لجده. إنه يدين بكل شئ لعائلتها.

"أنتم أيها الناس،" قال المفتش توماس ماثيو. "تفسدون هؤلاء الناس في البداية، تحملونهم فوق رؤوسكم وكأنهم أكاليل غار، وحين يسيئون التصرف تهرعون إلينا في طلب المساعدة"

أحنت بيبي كوتشاما رأسها وهي تسبل عينيها وكأنها طفل يُعاقب. ثم استأنفت سرد قصتها. أخبرت المفتش توماس ماثيو كيف أنها لاحظت في الأسابيع الأخيرة بعض علامات الإنذار، بعض العجرفة، بعض الوقاحة. ذكرت أنها رأته في المظاهرة التي كانت على طريق كوتشين؛ وإشاعات تقول إنه كان أو أصبح ناكاليتي. لم تلاحظ التجعيدة الباهتة التي تركتها هذه المعلومة على جبين المفتش.

لقد حذرت ابن أخيها منه، قالت بيبي كوتشاما، لكنها لم تتخيل أن الأمر سوف يبلغ هذا الحد حتى في أبشع كوابيسها. موت طفلة جميلة. وفقد طفلين.

انهارت بيبي كوتشاما.

أعطاها المفتش توماس ماثيو كوب من الشاي البوليسي. وعندما أحست بتحسن، ساعدها في أن يُثبت كل ما قالته في محضر

التحقيق. أكد لها مدى تعاون بوليس كوتايام. سوف يتم القبض على المجرم قبل انقضاء اليوم، قال لها. بارافان مع طفلين توأم ثنائي اللقاح، تعقبهم التاريخ ـ كان يدرك أنه لا توجد أماكن كافية له كي يختفي فيها.

كان المفتش توماس ماثيو رجلاً شديد الحذر. أخذ جانبًا واحدًا من الاحتياطات. أرسل سيارة جيب لإحضار الرفيق ك. ن. م. بيلاي إلى قسم البوليس. كان يهمه أن يعرف ما إذا كان هذا البارافان يتمتع بأي دعم سياسي أم أنه يعمل وحده. وبالرغم من أنه كان رجل كونجرس، إلا أنه لم يكن يريد أن يغامر بأي اشتباكات مع الحكومة الماركسية. عندما وصل الرفيق بيلاي. أذن له بالجلوس في المقعد الذي كانت تشغله بيبي كوتشاما. دار حوار بين الرجلين. مختصر، سري، محدد الهدف. كأنهما قد تبادلا الأرقام وليس الكلمات. ليس ثم من توضيحات ضرورية. لم يكونا صديقين، الرفيق بيلاي والمفتش توماس ماثيو، ولم يكن بينهما ما يشي بثقة أيهما في الآخر. لكن كلاهما كان يفهم الآخر على أكمل وجه. كانا رجلين غادرتهما الطفولة دون أن تترك أثرًا. رجال بلا فضول. بلا شك. كلاهما كان بالغًا بشكل مفزع وحقيقي في طريقهما. يطلان على العالم ولا يتعجبان أبدًا كيف يعمل، لأنهما يعرفان. *هما* يشغلانه. اثنان من الفنيين يعملان في صيانة الأجزاء المختلفة لنفس الآلة.

الرفيق بيلاي أخبر المفتش توماس ماثيو أنه ملم بأمر فيليوتا، لكنه لم يذكر أن فيليوتا عضو في الحزب الشيوعي، وأنه، فيليوتا، طرق بابه متأخرًا في الليلة السابقة، مما جعل الرفيق بيلاي آخر من رأى فيليوتا قبل أن يختفي. ولم، رغم علمه بكذب الأمر، ينفي ما جاء على لسان بيبي كوتشاما من محاولات فيليوتا لاغتصاب آمو. فقط أكد المفتش توماس ماثيو بقدر استطاعته أن فيليوتا ليس مدعومًا أو محميًا من قبل الحزب الشيوعي. وأنه مسئول عن نفسه.

بعد أن غادر الرفيق بيلاي، اجتر المفتش توماس ماثيو حواره الرفيق مع بيلاي ومرره على عقله محاولاً البحث عن ثغرات،

المتفائل والمتشائم

مُختبرًا منطقيته. عندما أحس أن كل شئ على ما يرام، أعطى رجاله شارة البدء.

في نفس الوقت، عادت بيبي كوتشاما إلى أيميليم. كانت البليموث تقف في ممرها. كانت مارجريت كوتشاما وتشاكو قد عادا من كوتشين.

صوفي مول كانت تستلقي على الشيزلونج.

عندما رأت مارجريت كوتشاما جثة ابنتها، تضخمت الصدمة داخلها وانتفخت وكأنها موجة من التصفيق الشبحي في قاعة اجتماعات فارغة. صعدت لأعلى في نوبة قيئ وتركتها ساكنة بعينين خاويتين. كانت فجيعتها في موتتين، وليست واحدة. مع موت صوفي مول، مات جو ثانية. وفي هذه المرة لم يكن هناك واجب مدرسي يتحتم الانتهاء منه، أو بيض ليؤكل. لقد أتت إلى أيمينيم سعيا في التئام عالمها المنجرح، وبدلا من ذلك فقدته كله. تهشمت كأنها زجاج.

ذاكرتها للأيام التالية كانت مشوّشة. ساعات طويلة من سكون طويل قاتم له لسان غليظ مكسو بالفراء (هذا ما قاله الطبيب فيرغيس فيرغيس على سبيل التوصيف الطبي)، تقطعها شقوق فولاذية حادة من الهستيريا، حادة وقاطعة مثل شفرة حلاقة لم تستخدم.

كان وعيها بتشاكو يشوبه التشوش ـــ الذي كان رقيقا ومهمومًا حينما يكون بجوارها ـــ فيما عدا ذلك فقد كان ساخطًا، ومتفجرًا وكأنه رياح عاصفة تهدر بين جنبات منزل أيمينيم. كان على النقيض تمامًا من الهيشم المضحك الأشعث الذي التقت به ذات صباح بعيد في المقهى في أكسفورد.

تذكرت بشحوب الجنازة في الكنيسة الصفراء. الغناء الحزين. الخفاش الذي ضايق شخصًا ما. تذكرت صوت الأبواب وهي تنغلق،وأصوات النساء الحزانى. وكيف أن الجُدْجُدْ كان يصرصر

ليلاً وكأنه صرير درجات سلم ويطيل الخوف والكآبة اللذان غيما على منزل آيميئيم.

لم تنس أبدًا غضبها الفادح من الطفلين الآخرين اللذين صُفِح عنهما لسببٍ ما. ذهنها المحموم المتشبث بقوة مثل البطلينوس* بفكرة تقول إن إيستا هو المسئول عن موت صوفي مول. غريب، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مارجريت كوتشاما لم تكن تعرف أنه إيستا ـ الساحر المفعم بالحياة، ذو الـ"بُفْ" الذي قلَبَ المربى وفكر فكرتين ـ إيستا الذي تجاوز القوانين وجدف بـ'صوفي مول' وراهيل عبر النهر كل ظهيرة في قارب صغير، إيستا الذي ألغى رائحة مُعثية عندما أبعدها بالتلويح بعلم ماركسي عليها. إيستا الذي أخذ من الشرفة الخلفية لبيت التاريخ بيتًا له بعيدًا عن البيت وأثثه بحصيرة من العشب ومعظم اللعب التي تخصه ـ منجنيق، إوزة مطاطية قابلة للنفخ، كانتاس كوالا بعينين سقطت عنهما الأزرار ـ وأخيرًا، في تلك الليالي المفزعة، إيستا هو الذي قرر أن الوقت قد آن، رغم العتمة والمطر، لهربهما، لأن آمو لم تعد تريدهما.

على الرغم من جهلها بكل هذا، لماذا ألقت مارجريت كوتشاما بكل اللوم على إيستا نتيجة ما حدث لـ'صوفي مول'؟ ربما لأن غريزتها الأمومية افترضت هذا.

ثلاث أو أربع مرات تنهض من نوم عميق تحت تأثير عقاقير منومة، وتطارد إيستا بالفعل وتظل تلطمه حتة تجد من يهدئ من روعها ويأخذها بعيدًا. فيما بعد كتبت لآمو كي تعتذر. حين وصلت رسالتها، كان إيستا قد أعيد، وكانت آمو قد حُمِلت على حزم أمتعتها ورحلت. راهيل فقط هي التي بقيت في آيمنيم لتقبل، نيابة عن إيستا، اعتذار مارجريت كوتشاما. *لا أستطيع أن أتخيل ما الذي طغى عليّ،* كتبت، *فقط أستطيع أن أقول إنني كنت واقعة تحت تأثير العقاقير*

---

* حيوان من الرخويات يلتصق بالصخور (المترجم)

المسكنة. لم أكن مُحِقة في تصرفي بهذه الطريقة، واود أن تعرفي أنني أشعر بالخزي وفي غاية، غاية الأسف.

الغريب، أن الشخص الذي لم تفكر فيه مارجريت كوتشاما هو فيليوتا. فهي لم تكن تذكره على الإطلاق. ولا حتى ملامحه.

ربما كان هذا لأنها بالفعل لم تعرفه أبدًا، ولم تعرف مُطلقا ما الذي حدث له.

إله الخسارة.

إله الأشياء الصغيرة.

لم يكن يترك آثار أقدام على الرمل، لا دوامات على سطح الماء، لا صورة في المرايا.

فوق هذا، فـ'مارجريت كوتشاما' لم تكن مع فصيلة من بوليس الطبقة العُليا عندما عبروا النهر المنتفخ. بشرتاتهم الكاكية الواسعة المُنشاة.

الرنين المعدني للكلبشات التي تثقل جيب أحدهم.

ليس من المعقول أن نتوقع منها أن تتذكر ما لم تعرف أنه حدث.

لم يزل الأسى على بُعد أسبوعين في تلك الظهيرة زرقاء الغُرز، عندما كانت مارجريت كوتشاما تستلقي نائمة بساقين متفجرتين. كان تشاكو، في طريقه لمقابلة الرفيق ك. ن. م. بيلاي، ينسل عبر نافذة غرفة النوم مثل حوت متسلل تسبقه نواياه لاختلاس نظرة على زوجته (*زوجتك السابقة يا تشاكو*) وابنته ليرى ما إذا كانتا يقظتين وفي حاجة إلى أي شئ. في الدقيقة الأخيرة خذلته شجاعته فمضى بعيدًا دون أن ينظر عليهما. صوفي مول (اليقظة، الحية، النشطة) رأته وهو يمضي.

جلست في سريرها وأطلت للخارج على أشجار المطاط. كانت الشمس قد تحركت بعرض السماء ورمت ظلاً كبيرًا للبيت على مزرعة المطاط، ضاربة ستارًا من العتمة على الأوراق القاتمة أصلاً. خلف الظل، كان الضوء ممتدًا ورائعًا. شِقٌ مائل منحرف كان يمتد بعرض اللحاء المبرقش لكل شجرة يسيل عبره حليب المطاط مثل دمٍ أبيض ينزف من جرح، ويتجمع في وعاء، هو في الأصل نصف تجويف لثمرة جوز الهند، مربوط في شجرة على أهبة الانتظار.

نهضت صوفي مول من سريرها، وأخذت تنقب في حافظة أمها التي لم تزل نائمة. وجدت ما كانت تبحث عنه ـ مفاتيح حقيبة السفر الكبيرة المُلقاة على الأرض، وقد لُصِق عليها اسم شركة الطيران. فتحت الحقيبة وأوغلت في محتوياتها. قلبت كومة من الملابس الداخلية رأسًا على عقب، جونلات مكوية، كريمات، شيكولاتة،

سيليونيب، شمسيات، صابون، (وروائح لندنية أخرى في زجاجات) كينين* ، أسبيرين، مضادات حيوية.

"خذي كل شيء" نصحها زملاؤها بنبرات مشددة. "فأنت لم تعرفي أبدًا" تلك كانت طريقته في نُصح زميلة على وشك السفر إلى قلب الظلام **The Heart of Darkness**♦ لأن:

١ــ من الممكن أن يحدث أي شئ لأي شخص.

لذا

٢ــ فمن الأفضل أن تكون على أتم الاستعداد.

في النهاية وجدت صوفي مول ما كانت تبحث عنه. هدايا لأبناء عمتها. أبراج مثلثة من الشيكولاتة (ناعمة ومائلة عند قمتها). جوارب بأصابع منفصلة متعددة الألوان. وزوج من الأقلام الجافة ــ نصفها العلوي ملئ بالماء ومعلق فيه جزء من صورة لأحد شوارع لندن. قصر باكنجهام وساعة بيج بن. محلات وناس. أتوبيس بطابقين دفعته فقاعة هواء فطفا جيئة وذهابًا في الشارع الساكن. ثمة شئ شؤم فيما يخص غياب الضوضاء في صورة الشارع المزدحم في القلم.

وضعت صوفي مول الهدايا في حقيبةالــ'go-go'، وانطلقت صوب العالم. لتوقيع عقد قاس. لتتفاوض حول معاهدة صداقة.

صداقة، لسوء الحظ، ستظل ناقصة ومعلقة. تتأرجح في الهواء ولا تجد لنفسها موطئ قدم. صداقة لم تكتمل دائرتها في هيئة قصة أبدًا، لأن، وبسرعة خاطفة تجاوزت المعقول، صوفي مول أصبحت ذكرى، بينما صار فقدان صوفي مول عنيفًا وحيًا وقويا. مثل فاكهة تنضج في موسم. كل المواسم.

---

* كينين: مادة شبه قلوية شديدة المرارة لعلاج الملاريا. (المترجم)

♦ إشارة لرواية قلب الظلام لـ'جوزيف كونراد' Joseph Conrad (المترجم.)

-14-

العمل كفاح

مضى تشاكو على الطريق المختصر عبر أشجار المطاط المتمايلة حتى يمشـــى مســـافة قصـــيرة فقط أسفل الطريق الرئيسي إلى منزل الرفيق ك.ن.م. بيللاي. كان يبدو مضحكاً بشكل واهن، وهو يخطو فوق بساط مـــن الأوراق اليابســـة فـــي بدلته الضيقة التي كان يرتديها في المطار، رابطة عنقه كانت قد تطايرت وحطت على كتفه.

لـــم يكـــن الرفيق بيللاي بالداخل حين وصل تشاكو كانت زوجته، كاليانـــي، بمعجـــون خشـــب الصـــندل الطـــازج على جبهتها أذنت له بالجلوس، على كرسي معدني قابل للطي، في غرفتهم الأمامية الصغيرة واختفـــت عبر الباب الوردي الفاتح بستارته النايلون المخرمة في غرفة مجاورة معتمة يُشع منها ضوء خافت تُصدره لمبة زيت نحاسية كبيرة. كانـــت الرائحة السَنِقة للبخور تخرج عبر الباب، الذي علّق فوقه ملصق خشبي كُتِب عليه، ***العمل كفاح، الكفاح عمل.***

كـــان تشـــاكو ضخما جدا مقارنة بالغرفة ضاقت عليه الحوائط الـــزرقاء. تلفت حوله، كان متوترا وقلقا قليلا. فوطة نُشرت لتجف على قضبان النافذة الخضراء الصغيرة. المائدة مُغطاة بفرش بلاستيك منقوش بالأزهـــار الجميلة. كان البعوض يحوم حول عنقود من الموز الصغير علـــي طـــبق ابـــيض، ذا حواف زرقاء، مطلي بالميناء. في أحد أركان الغـــرفة كـــان هناك كومه من ثمار جوز الهند الخضراء التي لم تقشر. شبشـــب أطفال مطاطي مُلقي في متوازي أضلاع صنعه ضوء الشمس الـــذي تخلل القضبان وسقط علي الأرض. دولاب بألواح زجاجية يقف إلي جوار المنضدة. له ستائر مصبوغة تتدلي داخلة، وتخفي محتوي.

أم الرفـــيق بـــيلاي، ســـيدة ضئيلة الحجم ترتدي بلوزه بني وماندو أبـــيض مصـــفر، تجلـــس علي حافة السرير الخشبي العالي المُثبت إلى

جـوار الحائط، وقدميها تتدليان من اعلي دون أن تلمس الأرض. كانت تـرتدي فوطـة رقـيقة بيضـاء وُضعت بشكل فطراني فوق صدرها وطُرحت علي أحد كتفيها. قمع من البعوض، بشبة كاب سخيف مقلوب، كان بطية فوق رأسها. كانت تجلس ساندة خدها إلى راحتها، ملمسه كل التجاعـيد علي ذلك الجانب من وجهها. كل بوصة منها كانت متجعدة، حـتى رسـغيها وكاحليها. فقط جلد عنقها كان ناغما ومشدودا فوق غدة درقـية ضـخمة. نافورة شبابها. كانت تُحدق بخواء في الحائط المقابل، تـتأرجح بخفة، مُرددة بانتظام، نغمات قصيرة، كانة راكب إصابة الملل فـي رحلـة طويلـة بالـباص. كانـت شهادات إنهاء الدراسة الثانوية والجامعية والماجستير التي حصل عليها الرفيق بيلاي معلقة في براويز علي الحائط خلف رأسها.

علي حائط آخر عُلقت صورة أخرى في براويز للرفيق بيلاي وهو يطوق الرفيق إ.م.س. نامبوديريباد بالأزهار. كان هناك ميكروفون علي حامل يلمع ادني الصورة بلا لافتة كُتب عليها اجانثا.

مروحة المكتب التي كانت تدور إلى جوار السرير موزعه نسماتها بانـتظام، بمقاديـر ديمقراطـية، متماثلة – أولا برفع ما تبقي من شعر العجـوز مادام بيلاي، ثم شعر تشاكو. البعوض يتشتت ويتجمع ثانية بلا ملل.

عـبر النافذة كان تشاكو يشاهد قمم الباصات، الأمتعة علي شبكات حمـل الأمتعة، وهي تمر بهديرها. سيارة جيب بداخلها سماعة صوت تمـر، تـزعق بأغنـية للحـزب الماركسي كانت البطالة هي موضوع الأغنية. كان الكورس يُغني بالإنجليزية، وباقي الغنية با لمالايالام.

لا وظائف! إلا وظائف!

حيث يذهب الفقير إلي أي مكان في العالم

لالالالا وظائف!

كانت No تنطق مُقفاة مع باب door.

عـــادت كاليانـــي بكـــوب، ستانلسستيل، من القهوة المصفاة وطبق ستانلسســتيل علية شرائح الموز (صفراء براقة بحبوب صغيرة سوداء في منتصفها) وقدمتها لتشاكو.

"لقـــد ذهب إلي أولاسا. وهو علي وشك العودة الآن في أي وقت،" قالـــت. كانـــت تشير إلي زوجها بـــ "آديهام،" تلك الكلمة التي تُشير إلي الصـــيغة المحترمة من "هو he،" بينما كان يناديها بـــُ إيدي، التي كانت تعني تقريبًا،أيا، أنت!"

كانت امرأة ناضرة الجمال لبشرتها بريق بني ذهبي ولعينها اتساع ضخم. شعرها الطويل ذا الخصلات الصغيرة الملتوية كان رطبًا ويتدلى منســـابًا أسـفل ظهـــرها، مُضـــفرًا فقط عند أطرافه. بلل ظهر بلوزتها الضيقة العميقة الحُمرة فجعلها أكثر ضيق واعمق احمرارا. لحم ذراعها الـــناعم كـــان منـــتفخًا عند نهاية الأكمام ومتهدلاً علي مفصلي كوعيها الموشومات بالغازات فاخذ شكل نتوء جميل. الماندو والأبيض والكافاني الـــذان ترتديهما كانا مكويان ومنشيان. يفوح منها رائحة خشب الصندل الحمـــص الأخضر المهروس اللذان يستعملهما بدل من الصابون. للمرة الأولـــى مـــنذ ســـنوات، يراها تشاكو دون أن تجتاحه الإثارة الغامضة للرغـــبة الجنســـية. فقـــد كان لديه زوجة (زوجة سابقة، يا تشاكو!) في البيت. بنمش يزركش ظهرها وذراعيها. بفستان أزرق وساقين أسفله.

"يا بني! اذهب ونادي لاثا،" قالت مدام بيلاي له.

"ابـــنة أخونا من كوتايام. ابنة أخيه الأكبر،" وضحت مدام بيللاي. "لقد فازت بالجائزة الأولى في الإلقاء في مهرجان الشباب في تريفاندرام الأسبوع الماضي"

ظهـــرت الفـــتاة تعتريها علامات التحدي في حدود الثانية أو الثالثة عشـــرة مـــن العمر، عبر الستارة المخرمة. كانت ترتدي جونلة طويلة منقوشـــة تغطي ساقيها لأسفل حتي كاحليها، وبلوزة بيضاء قصيرة تبلغ خصرها بها مراشق تتسع لنهدين مستقبليين. كان شعرها المشبع بالزيت مقســـوم إلى نصفين. كلا ضفيرتيها البراقتين كانتا تلتويان لأعلى، وفي

طرف كل ضفيرة، شريطة تجعلها تتدلى على جانبي مثل خطوط أذنين كبيرتين متهدلتين لم يتم تلوينهما بعد.

"هل تعرفين من هذا يا لاتا؟" مدام بيللاي سألت لاتا.

هزت لاتا رأسها.

"السيد تشاكو. صاحب ومدير مصنعنا."

نظـــرت لاتا إليه في هدوء، دونما فضول؛ بدا هذا غير طبيعي لمن هم في سن الثالثة عشر.

"لقــد درس فــي لــندن بجامعة أكسفورد،" قالت مدام بيللاي. "هل ستلقين عليه مقطوعة شعرية؟"

امتثلت لاتا للأمر دونما تردد. باعدت بين قدميها قليلا.

"الســيد الرئــيس المحــترم،" قالت وهي تنحني لتشاكو، حُضرات المُحكميــن و....، تلفتت حولها وهي تنظر إلي الجمهور المُتخيل داخل الغرفة الصغيرة الحارة، وأصدقائي الأعزاء.، توقفت بشكل مسرحي.

"الــيوم يســعدني أن ألقــي علــيكم قصيدة لــ"سير وولتر سكوت" بعنوان "لوتشنيفار". شبكت يديها خلف ظهرها. سقط غشاء فوق عينيها. ثبتت نظرتها بذهول فوق رأس تشاكو تمامًا. تمايلت برقة وهي تتحدث. فــي الــبداية ظــن تشاكو أن ما ستلقيه هو ترجمة بالمالايالام لقصيدة، "لوتشــنيفار". دخلــت الكلمات في بعضها. المقطع الأخير في نهاية كل كلمة كان يدخل في المقطع الأول من الكلمة التالية. كانت القصيدة تُلقى بسرعة ملحوظة.

'O, young Lochin Varhas scum out of the vest,

Through wall the vide Border his teed was the bes,

T and savissgood broadsod heweapon sadnun,

Nhe rod all unarmed, and he rod all lalone.

تداخلـــت القصـــيدة مع بعض الترنيمات التي تتغنى بها السيدة العجوز الجالسة على السرير، ولم يبدو أن هناك من لاحظ هذا غير تشاكو.

'Nhe swam the Eske river where ford there was none;

Battair he alighted at Netherby Gate,

The bridehad cunsended, the gallantcame late.'

وصـــل الرفيق بيللاي في منتصف القصيدة، طلت من جلده لمعة عرق، المـــاندو الـــذي كان يرتديه كان مرفوعاً أعلى ركبتيه، يقع عرق غامقة تحـــت إبطيه الترلين. في أواخر الثلاثينات من عمره، كان رجلاً ضئيلاً شاحبا، لم يكن رياضياً. ساقاه كانتا نحيفتين، مشدودتين، بطنه المنتفخة، التـــي تشبه الغدة الدرقية في أمه الضئيلة، كانت على النقيض تماماً مع باقـــي جســـمه النحـــيف المقتضب ووجهه المُترصد. كأن شيء ما في التكوين الجيني لعائلتهم قد وهبهم نتوءات إجبارية تظهر بشكلٍ عشوائي في أجزاء متفرقة من أجسامهم.

شاربه المتأنق الرفيع كان يقسم شفته العليا أفقياً إلى نصفين وينتهي خـــط الشـــارب بالضـــبط عند طرفي فمه. كان منبت شعره قد بدأ في التراجع ولم يبذل أي محاولة لستره. كان يصفف شعره المشبع بالزيت إلـــى الـــوراء. مـــن الواضح أن كيانه هذا لم يكن الكيان التالي لمرحلة الشباب. فقد كان يمتلك السلطة اليسيرة لرجل البيت. ابتسم وأومأ مُجيبًا تشاكو، ولم يعترف أو يكترث بوجود زوجته أو أمه.

ألقـــت عينـــي لاثـــا إلـــيه بنظرة كي يأذن لها بالاستمرار في إلقاء القصـــيدة. فسمع لها. خلع الرفيق بيلاي قميصه، كوره ومسح به تحت إبطية. عندما انتهي من هذا، أخذت كاليانى القميص منه، وامسكته كأنه هـــبة. باقـــة مـــن الزهور. جلس الرفيق بيلاي علي كرسي قابل للطـي، مُـــرتديا صـــدرية بـــلا أكمام، ودفع قدمه اليسرى لأعلي ووضعها علي فخـــذه الأيمـــن خـــلال باقي القصيدة التي كانت تُلقيها ابنة أخيه، جلس

يحــدق فـــي الأرض متأملا، واضعا ذقنه في كفة واتكأ علي يده، وهو يــنقر الأرض بقدمـــيه اليمنـــي توقيــتا مع ايقاع ووزن القصيدة. بيده الأخرى كان يُدلك حمارة قدمه المنقوسة برقة.

عــندما انتهت لاثا، اثني عليها تشاكو بعطف رقيق. لم تعترف بما بــادر بـــه من ثناء وامتداح لها، لم ترد علية حتي برفة ابتسامة. كانت مثل سباحة من ألمانيا الشرقية في

منافســة محلــية. عيناها مثبتتان بقوة علي ذهبية الأولمبيات. وأي إنجــاز أقل تعتبره حقا مكتسبا. نظرت في عيني عمها ليأذن لها بمغادرة الغرفة.

أومــأ الرفيق بيللاي لها وهمس في أذنها، "اذهبي واخبري بوثاتشن وماثوكوتي بضرورة حضورهما فورا ما إذا كانا يريدان مقابلته."

"لا، يــا رفيق، في الواقع أنا لا أريد المزيد،" قال تشاكو، معتقدا ان الرفــيق بــيلاي قد ارسل لاثا في طلب المزيد من شرائح الموز. فابقي الرفيق بيلاي علي هذا الافتراض، شاكرا سوء الفهم هذا.

"لا لا لا.هـــه! مـــا هذا؟... إيدي كاليانى، إحضري طبق آخر من شرائح الموز هذه."

كـــان مـــن الضـــروري بالنسبة للرفيق أن يظهر، كسياسي طموح، في دائــرته الانتخابــية التـــي اخــتارها في صورة الرجل صاحب التأثير والفاعلــية. أراد أن يســتخدم زيــارة تشاكو ليسخر المواطنين أصحاب الالتماسات ورجال الحزب. بوثاتشن وماثوكوتي، الرجلان اللذان أرسل بــيلاي فـــي طلــبهما، كانا قرويان، وطلبا منه أن يستخدم علاقاته في مستشــفى كوتايـــام للحصول على وظائف في التمريض لابنتيهما. كان الرفـــيق بـــيللاي حريصًا على أن يظهر كلا الرجلين في انتظاره خارج منزـــله لمقابلته. وكلما كان عدد من ينتظر مقابلته أكبر من الناس أكبر، كلمـــا بـــدا أكـــثر انشغالا، وترك انطباعا أفضل. وإذا ما رأى منتظروه صـــاحب المصـــنع بنفسه وقد أتى لمقابلته، في مضماره، كان يُدرك أن هذا سيتمخض عن كل أنواع الدلالات المفيدة.

"هكذا يا رفيق!" قال الرفيق بيلاي، بعد أن أرسل لاثا وبعد وصول شرائح الموز. "ما الأخبار؟ ماذا عن انسجام ابنتك مع الحياة هنا؟ مُصيراً على التحدث مع تشاكو باللغة الإنجليزية."

"آه، بخير. لابد وأنها تغط الآن في نوم عميق."

"أوهو. نفاثة بطيئة، أعتقد،" قال الرفيق بيلاي، فرحًا بنفسه لقدرته علي معرفة شيئين أو أكثر عن السفر الدولي.

"ماذا يحدث في أولاسا؟ لقاء حزبي؟" سأل تشاكو.

"آه، لا شيء من هذا. لقد أصيبت أختي سودا بتصدع مؤخراً،" قال الرفيق بيلاي، كأن التصدعات والكسور زيارة من وجيه. "لهذا أخذتها إلى أولاسا للعلاج. بعض الزيوت وكل هذا. زوجها في باتنا، لذلك فهي تعيش وحدها مع أهل زوجها، ترك لينين موقعة علي عتبة الباب، والقي بنفسه بين ركبتي أبيه وأمسك أنفه.

"مُاذا عن قصيدة منك أيها الرجل الصغير؟"، قال تشاكو له. "ألم يعلمك أبوك أي قصيدة؟"

حدق لينين في تشاكو، "ولم يعطي أي إشارة تُفيد أنه سمع أو فهم ما قاله تشاكو."

"إنه يعرف كل شئ،" قال الرفيق بيلاي. "إنه عبقري غير أنه هادئ ومستكين أمام الزوار فقط."

هدهد الرفيق بيلاي بهدهدة لينين بركبتيه.

"وُلدي لينين، ألقي علي العم الرفيق، القصيدة التي تعلمتها من بابا. أيها الأصدقاء، الرومان، المواطنين.....،"

استمر لينين في التقاط كنز من أنفه.

"هيا، يا ولدى، ليس معنا سوى العم الرفيق ـــ،"

حــاول الرفـيق بـيلاي المـبادرة بالبدء في إلقاء شكسبير. "أيها الأصدقاء، الرومان، المواطنين...

ظلــت نظــرة لينين الجامدة مُثبتة علي تشاكو. حاول الرفيق بيلاي ثانية.

"أعيروني ـــ؟"

كــبش لينين كمية من شرائح الموز وانطلق خارج الباب الأمامي. بــدا يتســابق جيـئة وذهابًــا علي ممشى الحوش الأمامي بين المنزل والطــريق، وهو ينهق بإثارة لم يدركها. عندما ردد بعض النهيق تحول جريه إلي وثب عالي لاهث.

"اعيروني سنواتكم؛

زعــق لينيــن من الحوش، فغطي صوته علي صوت أتوبيس كان يمر وقتها.

أتيت لأقتل قيصر، لا لأمدحه.

وغالــبا ما يواري الخير في التراب
مع عظامهم؛

وصـــرخ مــردداً هذا بطلاقة، دون أن يتلعثم ولو مرة. هذا واضح، مع اعتــبار أنــه فقط في السادسة من عمرة ولا يفهم كلمة مما كان يردده. ابتســم الرفيق بيلاى بفخر، وهو يجلس بالداخل، ، ناظرا للخارج علي الترابــي الــذي يحوم في الحوش (متعهد الخدمات بطفله والموتوسيكل الباجاج في المستقبل).

"إنه الأول على الفصل. وهذا العالم سيحصل علي ترقيه مزدوجة؛"

تلك الغرفة الصغيرة الحارة كانت تزدحم بالطموحات.

العمل كفاح

أيــا كان ما يُخزنه الرفيق بيلاي في دولابه ذا الستائر، فلن يكون طائرات خشب البلزا المحطمة.

تشاكو، علي الجانب الآخر، منذ لحظه دخوله للمنزل، أو ربما منذ لحظـة وصـول الرفـيق بـيلاي، وهو يمر بعمليه إيطال غريبة. مثل جـنرال جرد من نياشينه حد ابتسامته. كبح جماح نفسه. إذا ما قابله أي إنســان هـناك للمــرة الأولي ربما يعتقد أنه وجل أو خجول. أو علي الأحرى كتوم.

كــان الرفـيق بيلاى يعرف ، بغرائز المُحارب التي الصائبة ، إن ظــروفه المتعسرة (بيته الصغير الحار، أمه التي تتغنى بترنيمها، قربه الواضح للطبقة العاملة) منحته من القوة ما تفوق به علي تشاكو. قوة لا يضاهيها أي قدر من التعليم في أكسفورد في هذه الآونة الثورية.

كان يصوب فقرة علي رأس تشاكو وكأنه مسدس.

أخــرج تشاكو ورقة مكرمشه عليها محاولة لتصميم شعار كروكي جديـد كان يريد أن يطبعه له الرفيق بيلاي. كان هذا المنتج جديد يريد مصــنع مخلــلات ومعلبات الجنة الترويج له وتسويقه في الربيع. خل طهُــي مركــب. الرســم لم يكن من مواهب تشاكو، لكن الرفيق بيلاي أمكــنة استخلاص جوهر فكرته. كان قد ألف لوجو راقص الكاثاكالي، والشــعار المكــتوب تحــت تــنورته الذي يقول **أباطرة مملكة المذاق** (فكــرته) ونــوع الخــط وحجم الأحرف التي قاما باختيارها لمخللات ومعلبات الجنة.

"نفس التصميم. أعتقد أن الفرق فقط في النص،" قال الرفيق بيلاى.

"ولون الحد،" قال تشاكو. "خردلي بدلاً من الأحمر؟"

دفع الرفيق بيلاى نظارته لأعلى إلى رأسه كي يقرأ النص بصوت عــال. صــارت عدسات النظارة مضببة بسبب زيت الشعر على الفور.

"خل طهي صناعي،" قال. "هذا كله بحروف كبيرة، أعتقد،"

"باللون الأزرق العميق،" قال تشاكو.

"مُحَضّر من حمض الخليك؟"

"وأزرق ملكي،" قال تشاكو. "مثل الملصق الذي طبعناه للفلفل الأخضر المنقوع في ماء مملح."

"المحتويات. رقم الكمية، تاريخ الإنتاج، تاريخ انتهاء الصلاحية، الوزن عند التعبئة... بنفس الأزرق الملكي؟"

تشاكو أومأ موافقا.

"وإننا نقر هنا أن الخل المعبأ في هذه الزجاجات مضمون طبقا لمواصفات الجودة المعلن عنها. المكونات: ماء وحمض خليك. أعتقد أن هذا سيكون باللون الأحمر.،

كان الرفيق بيلاى يستخدم عبارة اعتقد، ليخفى الأسئلة خلف قناع من الجمل التقريرية. كان يكره طرح الأسئلة إلا إذا كانت أسئلة شخصية. فالأسئلة تنم عن مهاجرة بالجهل وقبل أن يفرغا من مناقشة أمر ملصق الخل، كان كلاً من تشاكو والرفيق بيلاى قد صار له قمعه الخاص من البعوض على جبهته.

اتفقا على موعد التسليم.

"هكذا تكون مظاهرة أمس ناجحة؟" قال تشاكو، أخيرا، ليثير الموضوع الحقيقي لزيارته.

"لا نستطيع القول بنجاحها أو عدمه، لو لم تُلبى المطالب،" زحفت نبرة خطابية إلي صوت الرفيق بيلاى. "وحتي يحدث هذا، لابد أن يظل الكفاح مستمرا،"

"ولكن رد الفعل كان طيبًا،" بادر تشاكو، محاولا أن يتحدث بنفس المصطلح.

"بالطبع هذا قائم،" قال الرفيق بيلاى. "فقد قدم الرفاق تقريرًا موجزًا لرئاسة الحزب. لنرى الآن. ما علينا الآن هو أن ننتظر ونراقب."

"بالأمس مررنا بهم في الطريق،" قال تشاكو. "الموكب،"

"فــي الطــريق إلــى كوتشين، أعتقد" قال الرفيق بيلاي. "لكن وفقا لمصادر الحزب فقد كان رد الفعل في تريفاندرام أكبر بكثير."

"وآلاف الــرفاق كـــانوا في كوتشين أيضًا،" قال تشاكو. "حقيقة لقد رأت ابنة أختي فتاتا الشاب، فيليوتا بينهم."

"أوهــو. نعم." لقد أخذ الرفيق بيلاي حين غرة. لقد كان فيليوتا أحد الموضوعات التي خطط الرفيق بيلاى لإثارتها مع تشاكو. يوما ما. في الـنهاية. لكــن لـيس بهــذه المباشرة. أخذ ذهنه يطن مثل مروحة يوم المكتــب. فكر في استخدام هذا الإثارة الموضوع، أو تركها ليوم آخر. قرر أن يستفيد بفتح الموضوع الآن.

"نعم إن عامل جيد،" قال بإمعان. "شديد الذكاء."

"إنه،" قال تشاكو. "نجار ممتاز بعقل مهندس لولا أن ـــ"

"ليس ذلك العامل يا رفيق،" قال الرفيق بيلاى. "عامل الحزب،"

واصــلت أم الرفــيق بيلاي تأرجحها وغنائها. ثمة شئ كان يؤكد إيقــاع غــنائها. مثل تكات ساعة الحائط. صوت تلاحظه بالكاد، لكنك تفتقده! إذا ما توقف.

"آه ، فهمت. إذا فهو حامل لبطاقة عضوية الحزب؟"

"آه نعم،" قال الرفيق بيلاي برقة. "آه نعم."

ســال العرق من جبهة تشاكو. أحس وكأن سرب من النمل يتجول في فروة رأسه. أخذ يهرش في فروة رأسه كلها لأعلى وأسفل.

"أقرة كاريـــام بارياتـــي؟" تحول الرفيق بيلاي للتحدث بالمالايالام بنبرة تآمرية خفيضة وكأنه يُفضي بسر. "إنني أتحدث كصديق يا كيتو، ليس للنشر."

تفحص الرفيق بيلاي وجه تشاكو، محاولاً قياس مدى استجابته، قبل أن يستأنف حديثه. كان تشاكو يتفحص المعجون الرمادي للعرق ونخالة الرأس التي تسكن تحت أظافره. "سوف يتسبب لك هذا البرافان في مشاكل،" قال. "خذها من.... ابحث له عن وظيفة في مكانٍ آخر. أبعده."

ارتبك تشاكو من المنعطف الذي أخذه الحوار. لقد كان فقط ينوي استكشاف ما يحدث، وأين تقف الأمور. لقد توقع أن يواجه خصومة، أو حتى يتصادم معهم، ولكن عُرِّض عليه تآمر مضلل وخبيث.

"أبعده؟" ولكن لما؟ ليس لديّ اعتراض على حمله لبطاقة عضوية. كنت فضوليًا فقط، وهذا كل ما في الأمر.....ظننت أنك ربما تتحدث إليه،" قال تشاكو. "لكنني واثق أنه يُجرب فقط، يختبر جناحيه، إنه شخص متعقل، يا رفيق. إنني أثق به........."

"ليس الأمر هكذا،" قال الرفيق بيلاي. "ربما يكون جيدًا جدًا كشخص. غير أن العمال الآخرين لا يرتاحون له. إنهم يأتون إليّ حاملين شكاوى ضده... فهمت يا رفيق، من وجهة نظر محلية، هذه المشاكل الطبقية متأصلة للغاية."

"لنأخذها على سبيل المثال. سيدة هذا المنزل. حتى هيّ لن تسمح أبدًا للبارافان وكل هؤلاء بالدخول إلى منزلها. أبدًا. حتى أنني لا أستطيع إقناعها: زوجتي أنا. بالطبع هي المديرة/الرئيسة داخل المنزل." استدار بابتسامة صوبها تنطوي على شقاوة ووله. *"آلاي ايدي، كالياني؟"*

نظرت كالياني لأسفل وابتسمت، مُعلنة عن اعتراف خجول بتعصبها.

"أرأيت؟" قال الرفيق بيلاي بنظرة انتصار. "إنها تفهم الإنجليزية جيدًا. فقط هي لا تتحدث بها."

انشق وجه تشاكو عن نصف ابتسامة.

"تقول إن عمالي يأتون إليك بشكاوى....."

"آه نعم،" قال الرفيق بيلاي.

"هل هناك شئ على وجه التحديد؟"

"لا شـــئ علـــى وجـــه التحديد،" قال الرفيق ك. م. م. بيلاي. "لكن لــتفهم، يـــا رفـــيق، إن أي مـــزايا منحـــتها له، بطبيعة الحال يرفضها الآخـــرون. إنهم ينظرون إلى هذه المزايا على أنها تحيُز. وعلى الرغم مـــن ذلك، أي وظيفة يؤديها، نجار أو كهربائي أو اي وظيفة أخرى أيًا كانت، فهو بالنسبة لهم مجرد بارافان. إنها صفة تصمهم منذ الميلاد. أنا نفســي أخـــبرتهم أن هـــذا خطأ. لكن بصراحة، يا رفيق، التغير شئ؛ والقبول شئ آخر. عليك أن تحترس. من الأفضل له أن تبعده...."

"زميلـــي العزيـــز"، قال تشاكو "هذا مستحيل. إنه لا يقدر بثمن. إنه هو الذي يدير المصنع فعليًا.... نحن لا نستطيع حل المشكلة عن طريق إبعاد كل الأشخاص البارافان. بالتأكيد يتحتم علينا أن نتعلم كيف نتعامل مع هذا الهراء."

امتعض الرفيق بيلاي من مخاطبته بـ"زميلي العزيز". فقد بدت له العـــبارة على أنها إهانة مُغلفة في إنجليزية جميلة، مما، بالطبع،جعل من الجملـــة إهانة مزدوجة، وحقيقة ظن تشاكو أنه لن يفهمها. لقد أفسد هذا حالته المزاجية تمامًا.

قـــال بســـخرية، "ربما كان الأمر كذلك، لكن الدنيا لم تُبنى في يوم واحد. ليكن نصب عينيك يا رفيق، أن هذا المكان ليس جامعة أكسفورد التي بُعثت إليها. فما تعتبره هراءً، تعتبره الجماهير شيئًا آخر."

لينيـــن الذي أخذ من أبيه نحوله ومن أمه عينيها، ظهر على الباب لاهـــثا. انـــتهى من الصراخ بحديث مارك أنتوني قبل أن يُدرك أنه بال جمهور. فاستعاد وضعه بين ركبتيّ أبيه المتباعدتين.

كـــان يصـــفق بـــيديه فـــوق رأس أبـــيه محدثًا جروحًا في مدخنة الـــبعوض. كـــان يعد الجثث المهروسة على كفه. بعضها كان متضخمًا بدم طازج. كان يريها لأبيه، الذي أعطاه لأمه لتنظفه.

ثانـية استعمرها الصمت بسبب خوار مدام بيلاي. وصلت لاثا مع بوثاتشن وماثوكوتي. كان الرجلان مأمورين بالانتظار في الخارج. كان البـاب مواربًـا. حيـنما تحدث الرفيق بيلاي للمرة الثانية، تحدث بلغة المـالايلام وتـأكد مـن ارتفاع صوته حتى تسمعه الجماهير المنتظرة بالخارج.

"بالطـبع، إن القناة المناسبة للتعبير عن شكاوى العمال هي الاتحاد النقابـي. وفـي هـذه الحالـة، عندما يكون مودالالي نفسه رفيقا، فمن المخزي له ألا يكونوا متحدين وملتحقين بالحزب في كفاحه".

"لقـد فكرت في هذا،" قال تشاكو "سوف أجمعهم رسميًا في اتحاد. سوف ينتخبون ممثليهم".

"لكـن يـا رفيق، ليس بإمكانك أن تخطط لهم ثورتهم. بإمكانك فقط أن تبـث الوعـي بيـنهم. تعلمهم. لابد أن يدشنوا كفاحهم هم. لابد أن يتغلبوا على مخاوفهم".

"ممن؟" ابتسم تشاكو. "مني؟"

"لا، ليس منك يا رفيقي العزيز ولكن من قرون من القهر".

عـندئذٍ وبصـوت جهوري هادر، اقتبس الرفيق بيلاي من الزعيم مـاو، بالمالايـالام، "إن الـثورة ليست حفل عشاء. الثورة تمرد. عنف تتغلب به طبقة على أخرى." كان تعبيرًا يشبه تعبيرات ابنة أخيه.

جلسا إلى جوار بعضهما البعض في ظهيرة اليوم الذي وصلت فيه صـوفي مـول. كانا يحتسيان القهوة ويتناولان شيبسي الموز ويطردان باللسان ما التصق بسقف الحلق.

الـرجل الصـغير النحـيف والرجل الكبير السمين قطبا عداء في حربٍ على وشك الاندلاع بين دفتي كتاب كوميدي.

تحولت إلى حرب سوف تنتهي، لسوء الحظ، بالنسبة للرفيق بيلاي، قبل أن تـبدأ. فقـد مُـنِح النصر مُغلقا ومزينا بأشرطة ملونة على طبق من فضـة. حينئذ فقط ـــ بينما كان الوقت قد مضى وانهار مصنع مخللات

ومعلـبات الجـنة بهدوء دونما غمغمات صاخبة أو حتى مجرد تظاهر بالمقاومة ــ هل أدرك الرفيق بيلاي أنه كان بحاجةٍ إلى الاندلاع الفعلي للحـرب أكـثر من احتياجه لما أسفرت عنه؟ كانت الحرب هي الجواد الـذي امـتطاه جزئـيًا، إن لم يكن كليًا، ليقطع به الطريق إلى المجلس التشـريعي، لكـن النصر تركه في وضع ليس أفضل من وضعه حينما بدأ.

لقد كسر البيض لكنه حرق الأومليت.

لـم يـدرك أحـد مطلقا الطبيعة المحورية للدور الذي لعبه الرفيق بـيلاي فـي الأحداث التالية. حتى تشاكو الذي كان يعرف أن الخطب المحمومـة التعـبوية التـي ألقاهـا الرفيق بيلاي أثناء حصار الحزب الماركسـي لمخللات الجنة، كانت دعائية وزائفة، لم يكن يعرف القصة كاملـة ولم يجتهد في محاولة المعرفة. وقتئذ كان فقدان صوفي مول قد صم أذنيه وأخرسه، مما ضمخ نظرته على وإلى الأشياء بالأسى، ومثل طفـل مسـته مأسـاة بكـى بغتة وهجر لعبه ولهوه، ألقى تشاكو لعبَةُ وهجـرها. أحـلام بارون مخللات وحرب الشعب انضمت إلى أرفف الـدولاب المـزجج بمـا فيه من طائرات مهشمة. بعد إغلاق مخللات الجـنة، بيعـت بعـض حقول الأرز مع بعض الأملاك المرهونة لسداد القـروض البنكية. أشياء أخرى بيعت كي تتمكن الأسرة من سداد نفقات الملـبس والمـأكل. عـندما هاجر تشاكو إلى كندا، كان مصدر الدخل الوحـيد للأسرة هو مزرعة المطاط الملحقة بمنزل آيمينيم وأشجار جوز الهـند القلـيلات حـول أبنـية المصنع. هذا ما عاشت من ريعه بيبي كوتشاما وكوتشو ماريا بعد موت الجميع أو عودة من أعيد.

ولنسـتحل بالموضـوعية فيما يخص الرفيق بيلاي، إذ أنه لم يخطط للأحداث التالية. لقد انزلق بأصابعه المتحفزة إلى قفاز التاريخ المترقب.

لـيس خطأه تمامًا أنه عاش في مجتمع يعتبر موت رجلٍ فيه أكثر فائدة من حياته.

ظلت زيارة فيليوتا للرفيق بيلاي ــ بعد صدامه مع ماماتشي وبيبي كوتشاما ــ وما دار بينهما سرًا. الخيانة الأخيرة التي أرسلت فيليوتا عبر النهر سابحًا عكس التيار في الظلام والمطر، كانت في توقيتها الملائم جدًا، بالنسبة لموعده الأعمى مع التاريخ.

استقل فيليوتا الباص الأخير من كوتايام حيث كان يصلح ماكينة التعبئة. قفز في أحد أتوبيسات عمال المصنع الآخر في موقف الأتوبيس، الذين أخبروه بابتسامة متكلفة أن مماتشي تريد أن تراه. لم يكن لدى فيليوتا أي فكرة عما حدث وكان غير واع تمامًا بزيارة والده الثملة إلى منزل آيمينيم. كذلك لم يكن يعرف أن فيليا بابن ينتظره من ساعات على باب كوخهم، وأنه لم يزل ثملاً، وعينه الزجاجية وفأسه يلمعان في ضوء المصباح، في انتظار عودة فيليوتا. وكذا أن المسكين المُعاق كوتابن، المُعاق بفهمه وإدراكه، قد تحدث مع والده على امتداد ساعتين، محاولاً أن يهدئ من روعه، وأنه طيلة الوقت يسترق السمع كي يلتقط صوت خطوات أقدام أو همس في العشب حتى يتمكن من إطلاق صرخة تحذير لأخيه حسن النية، الذي لا يتوقع شيئًا من أبيه.

لم يذهب فيليوتا للبيت. لقد ذهب مباشرةً إلى منزل آيمينيم. رغم أن المفاجأة قد أربكته، من ناحية، وملن ناحية أخرى، أنه عرف، كان يعرف، بفطرة قديمة، أن دجاجات التاريخ الملتوية سوف تُحمَل إلى المنزل ذات يوم لتُطَهى. أثناء انفجار ماماتشي كله ظل هادئًا ورابط الجأش بما يثير الدهشة. رباطة جأش أنتجها العنف المفرط. نبعت من الصفاء الكامن وراء الحنق والغضب.

عندما وصل فيليوتا، فقدت ماماتشي سيطرتها وبَخَتْ سمها الأعمى، ولعناتها المتطرفة صوب الباب الزلاج حتى قامت بيبي كوتشاما بدورها التكتيكي ووجهتها كي تصوب غضبها وحنقها في الاتجاه الصحيح؛ على فيليوتا الذي يقف ساكنًا تمامًا في العتمة. استأنفت ماماتشي وابل سبابها بعينين خاويتين، ووجهه ملتوي وقبيح، غضبها كان يدفعها صوب فيليوتا حتى أصبح صراخها موجهًا بالضبط في وجهه فاستطاع أن يشعر برذاذ لعابها ويشم رائحة الشاي العطن في أنفاسها. أما بيبي كوتشاما فظلت على مقربة من ماماتشي، إلا أنها

استخدمت يديها للتستحث غضب ماماتشي، لتشعله. واحدة تربت ظهرها مشجعة، وأخرى على كتها. لم تكن ماماتشي مُدركة إطلاقا لهذه المعالجة.

أين تعلمت امرأة عجوز في سنها (ترتدي بلوزات ساري منشية وتعزف على الكمنجة في الأماسي) مثل هذه اللغة الوقحة التي استخدمتها ماماتشي في ذلك اليوم، كان هذا مُلغزًا للجميع (بيبي كوتشاما، وكوتشو ماريا وآمو في غرفتها المغلقة) ممن سمعوها.

"أخرج من هنا"، صرخت فيه أخيرًا، "إذا ما رأيتك في ممتلكاتي غدًا فسوف آمر بخصائك مثل كلب البارياه الذي أنت من فصيلته! سوف آمر بقتلك!"

"سوف نرى هذا،" رد فيليوتا بهدوء.

كان هذا كل ما قاله. وهو أيضًا ما قالته بيبي كوتشاما في مكتب المفتش توماس ماثيو لتعزز وتدبج به تهديدات القتل والاختطاف.

بصقت ماماتشي في وجه فيليوتا. بصقة كثيفة. انتثرت على وجهه. فمه وعينيه.

ظل واقفا هناك تمامًا. ذاهلاً. ثم استدار وغادر المكان.

وبينما كان يمشي بعيدًا عن المنزل، شعر بأن حواسه قد شُحذت وأخذت تعلو. كأن كل شئ من حوله قد انبسط في تصوير دقيق. آلة ترسم من خلال كتاب تعليمات يخبره بما يفعل. عقله الذي يرنو بيأس إلى مرسى، كان متشبثًا بالتفاصيل. فلون كل شئ حوله.

بوابة، كان يفكر وهو يمضي خارج البوابة. *بوابة. طريق. سماء. مطر.*

بوابة.

طريق.

سماء.

مطر.

المطر على بشرة وجهه كان دافئا. صخور اللطريط تحت قدمه خشنة ومسننة. كان يعرف إلى أين يمضي. لاحظ كل شئ. كل

ورقة شجر. كل شجرة. كل السحب في سماء بلا نجوم. كل خطوة خطاها.

بدأ يعد. كل شئ. أي شئ. ***2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 1 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29***

....

الآلة التي كانت ترسم أخذت في التلاشي. الخطوط الواضحة بدأت تتداخل. التعليمات لم يعد لها أثر. ارتفع الطريق ليقابله وأصبحت العتمة أكثر كثافة. لزوجة. الاندفاع عبرها صار مجهدًا. مثل السباحة ضد التيار.

إنه يحدث، ثمة صوت قال له هذا. *لقد بدأ*.

عقله، الذي شاخ بشكل مباغت ومستحيل، طفا خارج جسده ورفرف أعلاه في الهواء، بدأ في إرسال ما يشبه الثرثرة التحذيرية المنفعلة عديمة الجدوى من موقعه هذا.

أطل من علٍ وحدق في جسد رجلٍ يمشي عبر العتمة والمطر العاتي. كان لدى هذا الجسد رغبة في النوم تفوق أي رغبة أخرى. رغبة في النوم والاستيقاظ في عالم آخر. *عالم مفعم برائحة جسدها تنسل إليه في الهواء الذي يتنفسه. وجسدها على جسده. فربما لن يرها ثانيةً. أين هي؟ ماذا فعلوا بها؟ هل أصابوها بأذى؟*

ظل يمشي. لم يرتفع وجهه ليواجه المطر؛ وكذا لم يشح به بعيدًا عنه. لم يرحب به وكذا لم يطرده.

بالرغم من أن المطر قد غسل وجهه من بصاق ماماتشي، إلا أن شعوره بأن هناك من رفع رأسه وتقيأ داخل جسده ظل يلازمه. قيئ متخثر ينساب منحدرًا في تجويف جسده. فوق قلبه. رئتيه. الانزلاق الكثيف البطيئ صوب تجويف بطنه. كل أعضائه وقد غسّلها القئ. لم يكن هناك ما يستطيع المطر أن يفعله حيال هذا.

كان يعرف ما يتحتم عليه أن يفعله. كتاب التعليمات قد أخبره. كان يتحتم عليه الذهاب إلى الرفيق بيلاي. لم يعد يعرف لماذا. حملته قدماه إلى لاكي برس، التي كانت مغلقة، ثم عبر الفناء الصغير صوب بيت الرفيق بيلاي.

كان مجرد رفع يده ليطرق الباب يجهده.

طرق فيليوتا الباب. أرسل الرفيق بيلاي زوجته لتفتح. عادت واجمة، و، فكر الرفيق بيلاي، شبقة بغتة. أراد على الفور أن يلمس نهدها. لكنه رأى بعض اللبن المتخثر على إصبعه، وأن هناك على الباب. جلست كالياني على السرير، وبشرود أخذت تربت على ظهر لينين، الذي كان نائمًا إلى جوار جدته الضئيلة، وهو يمص إبهامه.

"من هذا؟"

"ابن البارافان الذي يدعى بابن. إنه يقول أن الأمر مُلّح."

أنهى الرفيق بيلاي ما كان يفعله بهدوء ودونما عجلة. وجاءته كالياني ببعض الماء في إناء إستانلستيل وسكبته على يده. وأتته بمنشفة. جففت يديه، وعدل هندامه ومضى صوب الباب.

أنت Enda؟ في هذا الوقت من الليل؟"

أحس فيليوتا أن صوته يرتد إلى الوراء عندما همَّ بالإجابة، وكأنه ارتطم بحائطٍ. حاول أن يشرح له ما حدث، غير أنه سمع نفسه ينزلق في جمل مفككة لا معنى لها. الرجل الذي كان يحدثه، بدا بعيدًا وضئيلا، خلف حائط زجاجي.

"إننا نعيش في قرية صغيرة،" قال الرفيق بيلاي. "الناس تتحدث. وأنا أسمع ما يقولونه. ليس الأمر وكأنني لا أعرف ما يدور."

ثانية سمع فيليوتا نفسه تقول شيئًا لا جدوى منه بالنسبة للرجل الذي يتحدث إليه. كان صوت يطوقه وكأنه ثعبان.

"ربما،" قال الرفيق بيلاي. "لكن يا رفيق، لابد وأن نعي أن الحزب ليس قائمًا لدعم سلوكيات العمال المنفلتة في حياتهم الخاصة."

شاهد فيليوتا جسد الرفيق بيلاي وهو يختفي عبر الباب. لم يزل صوته المزماري يستأنف إرسال الشعارات دون أن يكون هناك ما يجسد هذا الصوت.

ليس ضمن اهتمامات الحزب معالجة مثل هذه الأمور.

اهتمامات الأفراد فرعية بالنسبية لاهتمامات المنظمة.

إن مخالفة نظام الحزب يعني الإطاحة بوحدة الحزب.

استمر الصوت. تفككت الجمل إلى عبارات. إلى كلمات.

تقدم الثورة.
إبادة الطبقة المعادية.
*الرأسمالي الكومبرادور**.
وهاهو ثانية يحدث. دين آخر ينشق على نفسه. صرح شيده الحقل البشري، تهدمه الطبيعة البشرية.

أغلق الرفيق بيلاي الباب وعاد إلى زوجته والعشاء. قرر أن يأكل إصبع موز آخر.
"ماذا يريد؟" سألت زوجته، وهي تعطيه إصبع الموز.
"لقد اكتشفوا كل شئ. لابد وأن هناك من أخبرهم بكل شئ. لقد طردوه."
"هل هذا كل ما في الأمر؟ إنه محظوظ لأنهم لم يأمروا بتعلقه في أقرب شجرة."
"لقد لاحظت شيئا غريبا......" قال الرفيق بيلاي وهو يُقشر إصبع الموز. "أظافره مطلية بطلاء أحمر...."
غلب النوم فيليوتا فجأةً وهو يقف بالخارج في المطر والبرد، والضوء المبلل من المصباح الوحيد في الشارع. كان عليه أن يحمل عينيه على اليقظة.
غدًا، قال لنفسه. *غدًا عندما يتوقف المطر.*
حملته قدماه صوب النهر. كأنهما المقود وهو الكلب.
التاريخ يجر الكلب.

* الكومبرادور: وكيل أو مستشار وطني تستخدمه مؤسسة أجنبية (كقنصلية أو بيت مالي) في الصين للإشراف على شئون مستخدميها الصينيين. (المترجم)

-15-

العبور

كـــان انتصـــاف اللـــيل. ارتفع النهر، كانت مياهه سريعة قاتمة، تتلوى صـــوب البحر، حاملة معها سماوات ليلية غائمة، وسعفة نخيل برمتها، كانت جزءاً في سياج من القش، وهيات أخرى منحتها الرياح إياها.

لـــبرهة انخفضـــت حـــدة المطر فتحول، إلى رشاشات رذاذية ثم توقـــف. هزت هفهفات النسيم الماء على الأشجار ولبعض الوقت صار المطر يسقط تحت الشجار فقط، المكان الذى كان، قبل قليل، مأوى.

قمـــر باهـــت، مشبع بالماء كان يرشح عبر الغيم فكشف عن شاب يجلـــس أعلى ثلاث عشرة درجة سلم حجرية تقود إلى الماء. كان ساكناً تمامـــاً، مـــبللاً جـــداً. يافعًا بالشباب. نهض واقفاً لبرهة، خالعًا الماندو الأبـــيض الـــذي كـــان يـــرتديه، عصر منه الماء ولفه حول رأسه مثل عمامـــة. عاريـــاً الآن، مضى أسفل الدرجات الحجرية الثلاثة عشر إلى عمـــق الماء، جتى طاول الماء صدره. ثم بدأ يسبح ضارباً الماء بسهولة وقـــوة، متجهًا إلى حيث يكون التيار مباشرًا ومنتظمًا، وحيث يبدأ العمق الحقيقـــي. يـــبدأ الـــنهر المستضيئ بالقمر يسّاقط عن ذراعية السابحتين كأنما أكمام من الفضة. لم يستهلك سوى دقائق معدودة ليتمكن من عبور الـــنهر. عـــند مـــا بلـــغ الضفة الأخرى خرج براقا ساحبًا نفسه صوب الشاطئ، قاتمًا كان مثل الليل الذي يطوقه، قاتماً مثل الماء الذي عبره.

مضـــى علـــى الممر الذي يقوده عبر الأرض الرخوة السبخية التى تقود إلى بيت التاريخ.

لم يترك تمويجة واحدة تجعد صفحة الماء.

لا آثار أقدام على الشاطئ.

نشر الماندو الخاص به على رأسه ليجف. كانت الرياح ترفعه كأنه شـــراع. بغـــتة أحس بالسعادة. *ستصبح الأشياء أسوأ*، قال في نفسه. ثم

تتحسن. الآن يمشي مباشرة في طريقه، صوب قلب الظلام. وحيداً مثل ذئب.

إله الخسارة.

إله الأشياء الصغيرة.

عارياً إلا من طلا ء أظافره.

-16-
بعد ساعات قلائل

ثلاثـــة أطفال على ضفة النهر. توأم وأخرى، ثوبها البنفسجي الفضفاض مكتوب عليه! ***Holiday*** بخط مرح مائل.

الأوراق المبللة على الأشجار كانت تومض كأنها المعدن المطروق كـــتل كثـــيفة من الخيزران الأصفر تتدلى في النهر كما لو كانت تتأسى علـــى ما كانت تعرف بحدوثه مسبقا. النهر ذاته كان قاتمًا وهادئا. غياب أكثر من حضور، يخفي أي إشارة تشي بقوته الفعلية.

إيستا وراهيل جذبا القارب من الأدغال التي عادة ما كانا يخفيانه فيها. المجاديف التي صنعها لهما فيليوتا كانت مخبأة في شجرة مجوفة. وضـــعاه في الماء وثبتاه لصوفي مول كي تركب. ظهرا وكأنهما يثقان فـــي الظـــلام ويـــتحركان جيئة وذهابا على الدرجات الفضية المضيئة بخطى واثقة كأنهما عنزتين صغيرتين.

كانـــت صـــوفي مـــول أكـــثر حذرًا. يعتريها قليل من الخوف مما يترصـــدها فـــي الظلام المحيط به. حقيبة من القماش تحتوى على طعام مختلس من الثلاجة، كانت مشدودة على صدرها. خبز، كعك، بسكويت. الـــتوأمان المـــثقلان بكلمات أمهما ـــ لولاكما لكنت حرة. كان على أن ألقى بكما في أحد الملاجئ يوم ولدتكما. أنتما علامتان تطوقان رقبتي ـــ لم يحملا شيئًا. شكرا لما فعله بائع شراب البرتقال والليمون بإيستا، كان بيـــتهما البعـــيد عن البيت مُعَد ومجهز بالفعل. في الأسبوعين اللذين تليا تقليـــب إيستا للمربى القرمزية وجالت بخاطره فكرتان، بدءوا في اتخاذ احتـــياطات وتجهـــيزات أساســـية: كبريت، بطاطا، كفت مخفوق، إوزة مطاطـــية قابلة للنفخ، وجوارب بأصابع متعدد الألوان ـــ، أقلام مرسوم عليها باصات لندن.

"ماذا لو وجدتنا آمو وتوسلت لنا كي نعود؟"
"حينئذ سنفعل. لكن إذا توسلت فقط."
إيستا العطوف.
لقد أقنعت صوف مول التوأمين بأنه من الضرورة أن تذهب معهما أيضًا. لأن غياب الأطفال، كل الأطفال، سيُزيد من ندم الكبار. حقيقة سيجعلهم هذا يشعرون بالأسف، مثل الكبار في هيملين بعد أن اختطف الزمار الأرقط أطفالهم. سيفتشون كل مكان، وعندما يتأكدون فقط أن ثلاثتهم قد ماتوا، سيعودون للبيت وهم يشعرون بالنصر. يطوقهم التقدير، والحب، والاحتياج إليهم أكثر من ذي قبل. برهانها الجدلي الحاسم يفترض أنها إذا ما تُرِكَتْ وحدها دون أن تذهب معهم كانت ستُعذب وتُجبر على الإفصاح عن المكان الخفي.
انتظر إيستا حتى ركبت راهيل. ثم أخذت مكانه، وهو يحتضن القارب الصغير وهي منفرجة الساقين كأنها على زحلوقة. استخدم ساقية في دفع القارب بعيداً عن الشاطئ. عندما أوغلوا في المياه الأكثر عمقاً، بدءوا في التجديف بانحراف أعلى النهر، ضد التيار، كما علمهما فيليوتا. (وإذا كنتما تريدان الوصول إلى هناك، لابد من توجيه القارب إلى هناك،).
في الظلام لم يتمكنوا من إدراك أنهم في الطريق الخطأ، أنهم على طريق سريع ساكن مكتظ بمرور أعمى. أن الغصون والجذوع، وأجزاء من الأشجار، تتجه صوبهم بسرعة ما.
كانوا قد مروا من العمق الحقيقي، فقط على بعد ياردات قليلة من الضفة الأخرى، عندما اصطدموا بجذع شجرة طاف على الماء وانقلب القارب الصغير. لقد حدث هذا لهم كثيراً في حملات سابقة عبر النهر، وكانوا يسبحون خلف القارب، مستخدمين إياه كعوامة، كطوق نجاة للشاطئ. لقد جرفهما التيار. فاتجهوا صوب الشاطئ، مندهشين من طول الوقت الذي أخذوه في قطع هذه المسافة القصيرة.
تمكن إيستا من الإمساك بغصن خفيض تدلى في الماء حدق في العتمة أسفل ليرى ما إذا كان يستطيع رؤية القارب ثانية.
"لا أرى أي شئ. لقد اختفي."

راهيل، مغموسة في الرداغ مضت متثاقلة إلى الشاطئ وأمسكت يد إيستا كي تساعده على الخروج من الماء. مكثا عدة دقائق ليتمكنا من التوقف عن اللهاث، ويدركا فقدان القارب. ويحزنا على اختفائه.

"وفسد كل طعامنا،" قالت راهيل لصوفي فقابلها السكون. سكون مندفع متدفق مثل سكون سمك يسبح.

"وصوفي مول؟"، همست للنهر المندفع "ونحن هنا! هنا! قرب شجرة الإيليمبا!"

لا شئ.

على قلب راهيل همت فراشة باباتشى فاردة جناحيها القاتمين.

للخارج.

للداخل.

ورفعت ساقيها.

لأعلى.

لأسفل.

ظلا يجريان على طول الضفة وهما يزعقان. لكنها اختفت. حُمِلَت بعيدًا على الطريق الأعمى. الأخضر الرمادي. والأسماك فيه. والسماء والأشجار فيه. والقمر الأصفر المهشم يكمن فيه ليلا.

ليس ثم من موسيقى عاصفة. لا دوامات تعلو من الأعماق القاتمة لنهر الميناتشال. ليس هناك سمكة قرش راقبت المأساة.

فقط مراسم تسليم هادئة. قارب يُفرِّغ حمولته. نهر يقبل العرض. حياة صغيرة. شعاع شمس مختصر. بكشتبان فضي مثبت للحظ في قبضتها الصغيرة.

كانت الرابعة صباحاً، لم تزل الدنيا مظلمة، عندما أخذ التوأمان، المتعبان، المذهولان، المنغمسان في الطين، طريقهما عبر الطريق السبخي ووصلا بيت التاريخ. هانسل وجرتيل في حكاية خرافية مروعة حيث يتم الاستيلاء على أحلامهما وتعاد ثانية للحلم بها. استلقيا أرضاً في الشرفة الخلفية على بساط من العشب ومعهما الإوزة المطاطية القابلة للنفخ. قزمين بليلين، يرتجفان من الخوف، في انتظار نهاية العالم.

"أتعتقد أنها ميتة الآن؟"

إيستا لم يرد.

"وماذا سوف يحدث؟"

"سنسجن."

كان يدرك جيداً. رجل صغير. كان يعيش في كارا ــ فان. دام دام. لم يشاهدا شخصاً آخر يستلقي نائماً في الظلام. وحيدًا مثل ذئب. بورقة شجر بنية على ظهره الأسود. تلك التي تجعل الرياح الموسمية تهب في موعدها.

-17-
محطة ميناء كوتشين

إيســتا (ليس كبيراً، ليس صغيراً) جلس على سريره فى غرفته النظيفة فــي منزل آيمينيم القذر. كان يجلس معتدلاً تماماً. مستقيم الكتفين. يديه فــي حجره. كأنه التالي في الصف في انتظار تحقيق ما. أو في انتظار القبض عليه.

انــتهى من أعمال الكي. ووضع الملابس مرتبة فوق بعضها على ترابيزة الكي. قام بكي ملابس راهيل أيضًا.

كان المطر ينهمر باطراد. مطر ليلي. ذلك الطبال الوحيد الذى ظل يمارس دوره طويلاً بعد ما ذهبت بقية الفرقة للنوم.

فــي الميتام الجانبي، بجوار المدخل المنفصل **للاحتياجات الآدمية،** كانــت الــزعانف كرومــية اللــون تومض من وقت لآخر في البرق. لســنوات بعد أن رحل تشاكو إلى كندا، كانت بيبي كوتشاما تأمر بغسلها بانــتظام. مرتيــن أسبوعيًا في مقابل بسيط، أخو زوج كوتشاماريا الذي يقــود عــربة القمامة الصفراء التابعة للمجلس المحلى في كوتايام كان يقــود في آيمينيم ليسلب زوجة أخيه راتبها ويقود البليموث على مقربة لــيحافظ علــى شحن بطاريتها. عندما انهمكت في التليفزيون، أسقطت بيبى كوتشاما السيارة والحديقة معاً. جميعًا.

مــع كل رياح موسمية، كانت السيارة القديمة ترسخ بثبات أكثر في الأرض. مثل دجاجة زاوية مصابة بالتهاب المفاصل ترقد متصلبة على مــا لديهــا من البيض. دونما رغبة في النهوض عنه على الإطلاق. نما

العشب حول إطاراتها الفارغة من الهواء. اللوحة الإعلانية لمخللات ومعلبات الجنة اهترأت وسقطت للداخل مثل تاج مهشم.

طائر متسلق اختلس نظرة على نفسه في النصف المتسخ المتبقي من مرآة السائق المكسورة.

على المقعد الخلفي عصفور يرتمي ميتاً. وجد طريقه للداخل عبر ثقب في الزجاج الأمامي، أغوته قطعة من إسفنج المقعد ليستخدمها في بناء العش. بعد ذلك لم يتعرف على طريق الخروج أبداً. لم يلاحظ أحد استغاثاته المذعورة على زجاج النافذة. مات على المقعد الخلفي، ساقاه مرفوعتان في الهواء. مثل دعابة.

كانت كونشوماريا نائمة على أرضية غرفة الصالون، متكومة على شكل فاصلة '،' في ضوء التليفزيون المتواتر الذي لم يزل يعمل. رجال شرطة أمريكيين كانوا يزجون بمراهق مغلول الأيدي في سيارة الشرطة. على الرصيف كان هناك قطرات من الدم. كشافات سيارة الشرطة أومضت وأطلقت سارين إنذار. امرأة هزيلة، أم الولد ربما، كانت تترقب بخوف من الظلام. كان الولد يناضل. كسا بالدم فمه كله، صدر الـ "تي ــ شيرت" الذي يرتديه أصبح مثل صدرية حمراء. شفتاه الطفوليتان ورديتا اللون ارتفعتا عن أسنانه في شكل عقدة. بدا وكأنه إنسان ذئب. كان يصرخ عبر نافذة السيارة في وجه الكاميرا.

"إنني في الخامسة عشرة من عمري وكنت أتمنى أن أصبح شخصًا أفضل مما أنا عليه. لكنني لست كذلك. هل تريد أن تسمع حكايتي المحزنة؟"

بصق في وجه الكاميرا قذيفة من البصاق انتثرت فوق العدسات وأخذت تنزل عليها.

كانت بيبي كونشاما في غرفتها، جالسة في السرير، تملأ كوبون تخفيض الليسترين الذي كان يعرض تخفيض روبيتين على العبوة

الجديـــدة حجم 500 مليمتر وإيصال بألفين روبية هدية للفائز المحظوظ في اليانصيب الخاص بهم.

ظـــلال عملاقـــة لحشـــرات صـــغيرة تنقض على امتداد الحوائط والســـقف. كانـــت بيبي كوتشاما تطفئ الأنوار وتشعل شمعة كبيرة في حـــوض مـــاء. المـــاء يكون بالفعل كثيفاً بالجثث المحترقة. كان ضوء الشـــمعة يشـــكل خديها المطليين بأحمر الخدود وفمها المبرقش بإصبع الشفاه. الماسكارا قد خبت وبهتت. مجوهراتها تلمع.

مالت بالكوبون في اتجاه الشمعة.

أي نوع من غسيل الفم تستعملين عادة؟

ليســـترين، كتبـــت بيـــبى كوتشاما بيد صارت عنكبوتية من جراء العمر.

حددي أسباب تفضيلك لهذا النوع:

لـــم تتردد. *فم له نكهة مميزة. نفس منتعش*. لقد تعلمت لغة إعلانات التليفزيون الذكية المرنة.

كتبت اسمها وكذبت فيما يخص السن.

تحـــت الوظـــيفة: كتبـــت، *بساتين الزينة من روتشستر بالولايات المتحدة الأمريكية*.

وضـــعت الكوبـــون في مظروف كتب عليه ميديكوس، كوتايام. أخذتـــه كوتشـــوماريا معها في بعثتها لشراء كعكات الكريمة من مخبز المدينة لتسقطه في صندوق البريد.

التقطـــت بيـــبى كوتشاما دفتر اليوميات الأحمر ومعه قلمه. انتقلت إلى صفحة واحد يونيو وبدأت التدوين بمفتتح جديد. كانت طريقتها روتينية: *أحبك. أحبك*.

كـــل صفحة من يومياتها كانت تبدأ بنفس المفتتح. كان لديها حقيبة تكـــتظ بدفاتر اليوميات التي تبدأ بنفس المفتتح. بعضها كانت تبدأ بأكثر

مــن هــذا. بعضــها يحتوى على سرد لأحداث اليوم، قائمة بالمواعيد والأعمــال، مقــتطفات من الحوارات المفضلة، لكن كل هذه المفتتحات جميعها كانت تبدأ بنفس الكلمات: *أحبك أحبك*.

مات الأب موليجان منذ أربع سنوات مضت من جراء التهاب الكبد الفيروســي، فــي اشــرم* شمال ريشكيش. السنوات التي قضاها في الــتأمل والتفكير في الكتاب الهندوسي المقدس قد أدت أولاً: إلى فضول لاهوتــي، لكــنها في النهاية أدت إلى تغير عقائدي. فمنذ خمس عشرة سنــه، أصــبح الأب مولــيجان فيشــنافا♦. ظل على اتصال بــ "بيبى كوتشاما" حتى بعد أن التحق بالأشرم. كان يكتب لها كل ديوالى ويرسل لهــا كــروت تهنــئة كل رأس سنة. منذ سنوات قليلة أرسل لها صورة فوتوغرافــية له وهــو يخطب في حشد من الأرامل البنجاب من الطبقة الوســطى في معسكر ديني. كانت النساء جميعاً تــرتدين ملابس بيضاء علــيها بلوزات ساري تغطي رؤوسهن. كان الأب موليجان يرتدى ثوباً بلــون الزعفــران. مُح يخطب في بحر من البيض. كان شعره طويلاً، وكــذا كانت لحيته البيضاء، غير أنه كان مهتمًا بتصفيف وتهذيب شعره ولحيــته. قديــس زعفرانــي برماد قدسي على جبهته. لم تصدق بيبى كوتشــاما الصــورة. كانت الشئ الوحيد الذي أرسله لها ولم تحتفظ به. انزعجــت لأنــه في النهاية تتصل بالفعل من العهود التي أخذها على نفســه، لكــنه لــم يتنصــل مــنها. بالنسبة للعهود الأخرى. إنه كفتح الذراعيــن للترحيــب بشخص، فقط لكي تجعله يمضى مباشرةً مارًا في طريق شخص آخر.

لــم يغــير موت الأب موليجان نص الافتتاحيات في دفاتر يوميات بيبــي كوتشاما، ببساطة لأن موته لم يغير الأمل فيه لديها. رغم أي شئ فهــي تمــتلكه فــي موته بشكل لم تستطعه أبدًا في حياته. على الأقل

---

* اشرم: معتزل ديني (المترجم).

♦ فيشنافا: أحد أتباع الإله فيشنو، وفيشنو هو أحد أقانيم الثالوث الهندسي. (المترجم)

فذكـراه لديهـا تعتبر ملكا خاصًا بها. خاص بها وحدها. ملكها بضراوة وعنف. لا تشاركها فيه عقيدة، لا تشاركها فيه الراهبات المتنافسات، أو أى شـخص مـزعج أو أى ممـن كـن تسـمين أنفسهن بالسواميات* المشاركات.

رفضـه لها في حياته (رغم أنه كان رفضًا متعاطفا ومهذبًا) صار رفضًـا محايدًا بسبب الموت. ففي ذاكرتها له، أنه قد عانقها. هي فقط. بالطـريقة التي يتعانق بها الرجل والمرأة. وطالما قد مات، فـ "بيبى كوتشـاما" قـد جردته من ردائه زعفراني اللون وألبسته كاكولة الكاهن التـي أحبـتها كثـيراً. (احتفلت حواسها ـ، بين التغيرات، بهذا الجسد اليسـوعي، المتمايل، المقعر.) خلعت عنه سلطانيته المتوسلة، ونعله الهندوسـي الخشـن وأعادت له صندله المريح. حولته إلى الجمل الذي كان يمشى بخطى عالية ويأتي إلى الغداء كل خميس.

وكـل لـيلة، ليلة بعد أخرى، عام بعد آخر، في دفتر يوميات بعد أخر، كانت تكتب: *احبك احبك.*

أعـادت القلـم ثانـية إلى مكانه في دفتر اليوميات وأغلقته. خلعت نظارتهـا. أزاحـت طاقم أسنانها بلسانها، فاصلة الجدائل المريمية التي تـربطه بلثتها مثل الأوتار المرتخية لآلة الهارب، وأسقطتها في كوب مـن الليسـترين. فغاصت إلى القاع وأرسلت لأعلى فقاعات صغيرة تشـبه الابـتهالات. قلنسـوة نومها. ابتسامة صودا ثانية. أسنان مميزة النكهة في الصباح.

أسـندت بيـبى كوتشاما ظهرها إلى وسادتها وانتظرت كي تسمع راهـيل وهى تخرج من حجرة إيستا. لقد بدأ التوأمان يقلقانها، كلاهما. مـنذ عـدة صـباحات مضت، فتحت نافذتها (لتستنشق نفسا من الهواء المنعش) فلمحتهما وشاهدت أيديهما الحمراء عند عودتهما من مكان ما. مـن الواضح أنهما قد مكثا الليلة بكاملها خارج البيت. معًا. أين يحتمل

** السوامي: معلم ديني هندوسي.

أن يكونا قد مكثا الليلة بكاملها؟ ماذا تذكرا وما مقدار ما قد تذكراه؟ متى سيرحلان؟ ماذا الذي كانا يفعلانه، يجلسان معًا في الظلام لوقت طويل؟ غطت في النعاس وهي تستند وسادتها، معتقدة أنها لم تسمع صوت باب غرفة إيستا وهو ينفتح، ربما بسبب صوت المطر والتليفزيون؛ وأن راهيل قد ذهبت للسرير منذ وقت طويل.

راهيل لم تفعل.

راهيل كانت مستلقية على سرير إيستا. بدت أكثر نحافة وهي راقدة. أصغر. أقل. كانت تشيح بوجهها صوب النافذة المجاورة للسرير. مطر مائل يضرب قضبان شبكة النافذة وينشطر إلى رذاذ جميل على وجهها وذراعها العاري الناعم. الـ ـ تي ـ شيرت الرقيق "الكَتّ"، كان أصفر براقًا في الظلام. الجزء السفلي منها، في الجينز الأزرق، ذائبًا في الظلام.

كان الجو باردًا قليلا. رطبًا قليلاً. هادئًا قليلا. الهواء.

لكن ماذا هنا ليُقال؟

من أين جلس، على طرف السرير، إيستا، ودون أن يلتفت أمكنه أن يراها. وهي مرسومة بشكل باهت. الخط الحاد لفكها. عظام ترقوتها مثل أجنحة ممتدة من قاعدة حنجرتها حتى أطراف كتفيها. طائر معاق له بشرة آدمية.

أدارت رأسها ونظرت صوبه. كان يجلس معتدلا تمامًا. في انتظار التحقيق. لقد انتهى من الكي.

كانت محببة إلى نفسه. شعرها. خديها. يديها الصغيرتين. رشيقة الشكل.

أخته.

صوت مزعج بدأ يعلو في رأسه. هدير قطارات تَمُر. الضوء والظل والضوء والظل اللذان يسقطان عليك إذا كان مقعدك إلى جوار النافذة.

جلس أكثر اعتدالا. ساكنًا، كان يراها. صار لها لون بشرة أمهما. الومضة السائلة لعينيها في الظلام. أنفها المستقيم الصغير، فمها، ممتلئ الشفتين. يعتريه شئ أشبه بجرح. كأنه يجفل من شئ ما. كأن شخص ما ــ رجل يطوق أصابعه بخواتم ــ قد لكمها فيه منذ زمن بعيد. فم جميل متوجع.

فم أمهما الجميلة، تأمل إيستا. فم آمو.

الفم الذي لثم كفه عبر قضبان نافذة القطار. بالدرجة الأولى، في قطار بريد مدراس إلى مدراس.

"باى، إيستا. في رعاية الله"، قال فم آمو. فم آمو الذي كان يحاول ألا يصرخ.

في آخر مرة رآها.

كانت تقف على رصيف محطة ميناء كوتشين، وجهها لأعلى شطر نافذة القطار. بشرتها الرمادية، الباهتة، المسلوبة من بريقها الوضاء بسبب ضوء المحطة النيون. ضوء النهار قد حجبته القطارات على الجانبين. سدادات طويلة من الفلين تحفظ الظلام معبأ في زجاجة. قطار بريد مدراس.

راهيل وقد قبضت عليها يد آمو. بعوضة على مقود. حشرة لاصقة ترتدى صندل من باتا. جنية مطار في محطة سكة حديد. قدميها ملتصقتين برصيف المحطة، تزيح غيوم القاذورات المستقرة في المحطة. حتى هزتها آمو وأمرتها أن تكف فكفت. حولهم حشود تتدافع متصادمة.

عدو، انطلاق، بيع، شراء، أمتعة، راكب يدفع لشيال، أطفال يتغوطون، أناس يبصقون، ذهاب، إياب توسل، عقد صفقات، تأكيد حجز.

أصداء لأصوات المحطة.

باعة متجولون يبيعون القهوة.

أطفـــال هـــزيلة، أصـــابهم سوء التغذية بالشحوب، يبيعون مجلات متسخة؛ وطعام ليس بإمكانهم إطعام أنفسهم منه.

شيكولاتة سائلة. سجائر حلوى.

مشروبات برتقال.

كوكاكولا فانتا آيس كريم روزميلك.

دمى وردية البشرة. أجراس. توكات الحب ــ في ــ طوكيو.

ببغاوات صغيرة بلاستيكية مجوفة مليئة بالحلوى بروؤس لا يمكنك فكها.

نظارات شمسية حمراء بحواف صفراء.

ساعات لعبة وقد رسم الوقت عليها.

كارة مليئة بفرش الأسنان المعيبة.

محطة ميناء كوتشين.

رماديـــة فـــي ضـــوء المحطـــة. أناس مجوفين. مشردين. جياع. مـــازالوا ممسوسين بمجاعة العام الماضي. ثورتهم قد أجلها لهذه اللحظة الرفـــيق إ. م. س نامبوديريـــباد (الأداة السوفيتية، الكلب المنفدع). حبة عين بكين السابق.

كان الهواء متخمًا بالذباب.

رجـــل أعمى بلا أهداب وعيون زرقاء بلون الجينز الباهت، جسده مـــندب بـــتقرحات الجـــدري، كان يثرثر مع أبرص لا أصابع له، يأخذ أنفـــاس دخـــان متقنة من أعقاب السجائر المنتقاة المتكومة على الأرض إلى جواره.

"ماذا عنك؟ متى انتقلت إلى هنا؟"

كـــان الاختـــيار كـــان بإمكانهما. كأنهما قد قاما بانتقاء هذا ليصبح بيـــتهما من بين عدد كبير من العقارات السكنية الفخمة المعلن عنها في كتيبات صقيلة.

رجــل جالس علي ميزان أحمر نازعاً حزام ساقه الصناعية (ركبته لأسفل) ذات البووت الأسود والجورب الأبيض الجميل المرسوم عليها، ربلــة الساق المجوف، بهضبتها المدورة، كانت ورديه اللون، كما يجب أن تكــون ربلة الساق. (لماذا عندما نعيد تصوير الإنسان، نكرر أخطاء الإلــه؟). بداخلهــا كــان يخــزن تذاكــره. منشــفته. فدحه الإستانلس ســتيل.؟روائحــه. أســراره. عشقه. جنونه. أمله متعته اللانهائية. قدمه الحقيقية كانت عارية.

اشترى بعض الشاي لقدحه.

امرأة عجوز تقيأت. بركة متخثرة. ومضت فى طريق حياتها.

عالم المحطة. سيرك المجتمع. حيث يعود اليأس أدراجه، مع تدفق الصلات الاجتماعية، ليجثم ويتصلب ببطء بالغًا نقطة الإذعان.

لكــن هــذه المرة، بالنسبة لآمو وتوأميها ثنائى اللقاح، لم يكن هناك نافذة بليماوث ليشاهدوه عبرها. لا شيباك لتنقذهم حينما يبدأان الوثب فى فضاء السيرك.

احزمى أمتعتك وغادرى المكان، قال تشاكو. وهو يخطو فوق باب مهشــم. ومقبض الباب فى يده. وآمو، رغم ارتعاشة يديها، لم تقلع عن غمغمــتها الــتى لا جدوى منها وتنظر لأعلى. علبة شرائط مفتوحة فى حجرها.

لكن راهيل فعلت. رفعت عينيها. ورأت ان تشاكو قد اختفى وترك وحشًا فى المكان.

رجــل غلــيظ الشــفتين بخواتم فى أصابعه، رابط الجأش فى ملابسه البيضــــاء، اشترى مقصًا وسجائر من بائع على رصيف المحطة. ثلاث علب ليد خنها فى كوريدور القطار.

مشبعة

للرجال ذوى الأداء المتميز

كان مرافق إيستا صديقا للعائلة الذى تصادف ذهابه لمدراس. السيد مورين ماثن.

قالت ماماتشى لا حاجة لإضاعة المال فى شراء تذكرة أخرى طالما أن هناك مرافق مع إيستا بأى شكل. بابا كان قد اشترى تذكرة مدراس ـ كالكتا. آمو كانت تشترى الوقت. هى ايضا كان لزاما عليها أن تحزم أمتعتها وتمضى. لتبدأ حياة جديدة، لتتمكن من رعاية طفليها. وحتى يحدث هذا، فقد تقرر أن يقيم أحد التوأمين فى آيمينيم. ليس كلاهما. وجودهما معا مشكلة. الشيطان فى عينيهما. لابد من انفصالهما.

ربما كانوا على حق، قالت همسة آمو وهى تحزم أمتعتها وحقيبة سفرها. ربما يحتاج الولد إلى بابا.

كان الرجل ذو الشفتين الغليظتين فى كوبية مجاورة لكوبية إيستا. قال إنه سيحاول أن يبدل المقاعد مع شخص أخر عندما يتحرك القطار.

مؤقتا سيترك الأسرة الصغيرة وحدها.

كان يدرك أن هناك ملاكا جهنميًا يرفرف فوقهم. يذهب أينما يذهبون. يتوقف أينما يتوقفون. يقطر عليهم شمعا سائلا من شمعة مائلة.

الجميع كانوا يعرفون.

لقد نشرتها الصحف. أخبار موت صوفى مول، وتصادم الشرطة مع بارافان اتهم بالاختطاف والقتل. حصار الحزب الشيوعى لمخللات ومعلبات الجنة، الحصار الذى قاده صليبيو العدل فى آيمينيم والمتحدث الرسمى باسم المضطهدين. زعم الرفيق ك.ن.م بيلاى أن إدارة المصنع قد ورطت البارافان فى قضية أمنية ملفقة لأنه كان عضوا نشطاً فى الحزب الشيوعى. أرادوا طرده لانغماسه فى "ممارسات وحدوية مشروعة"

كل هذا كان فى الصحف. فى الرواية الرسمية للأحداث.

بالطبع لم يكن لدى الرجل غليظ الشفتين أى فكرة عن الروايات الأخرى.

الرواية التي قالت بان حشداً من رجال الشرطة المخصصين للطبقة العليا عبرت نهر الميناتشال، وقد تبلدوا وانتفخوا بالمطر المنهمر، وقطعوا طريقهم عبر الوحل الذى يفترشه، بمشية متثاقلة صوب بيت الظلام.

-18-

بيت التاريخ

جماعـــة مـــن بوليس الطبقة العليا عبرت نهر الميناتشال، تعتريهم بلادة وانـــتفاخ مـــن جـــراء المطر الأخير، وقطعوا طريقهم عبر الوحل الذي يفترش خطوتهم، صلصلة الكلبشات في الجيب.

شـــورتاتهم الكاكي الواسعة كانت متصلبة بالنشا، وتهتز فوق العشب الطويـــل كأنها صف من التنورات المتيبسة،مستقلة تماما عن السيقان التي تتحرك داخلها.

كان هناك ستة منهم.خدم الدوله.

تأدب	Politeness
إخلاص	Obedience
طاعة	Loyalty
كياسة	Intelligence
تهذب	Courtesy
كفاءة	Efficiency

بولـــيس كوتايـــام. فصـــيل من الجند. أمراء العصر الجديد في خوذاتهم المدبـــبة المضحكة. كرتون محشو بالقطن. زيت الشعر وقد بقع تيجانهم الكاكية البالية.

عتمة القلب.

عزيمة متطرفة.

رفعوا سيقانهم النحيلة لأعلى، وهم يتثاقلون في مشيتهم عبر العشب الطويـــل. والنـــباتات المتســـلقة تعلـــق بشعر سيقانهم المُندى. دود ألفية الأرجـــل بلونـــه البنـــي يـــنام في نعال أحذيتهم ذات الأطراف المعدنية المســـتدقة. العشـــب الخشن ترك جلد سيقانهم مسلوخاً، تكسوها خطوط

متقاطعة من الجروح الوحل كان يفسو تحت أقدامهم كلما خاضوا في الطريق السبخي.

فروا بإجهادٍ وتثاقل علي طيور الزفة التي تستوطن قمم الأشجار،وهي تجفف أجنحتها البليلة المفرودة مثل الملابس المنشورة قبالة السماء. وعلي البلشون الأبيض. وطيور الغائق المائية الضخمة. طيور أبوسعن. طيور كركي تفتش عن متسع لترقص. أسراب من طائر مالك الحزين الأرجوانية بعيون مجردة من الرحمة. تطلق أصواتها *وارك وارك وارك* التي تصم الآذان. أمهات الطيور وبيضها.

كانت حرارة الصباح مُتخمة بوعد عن وابل آت.

وراء البركة التي كانت تنضح برائحة الماء الراكد، مرورا بالأشجار العتيقة المغطاة بالكروم. بنباتات الماني العملاقة. بالفلفل البرى.

مرورا بخنفساء قاتمة الزرقة تتوازن على ورقة عشب مستقيمة.

مرورا بنسيج عنكبوتي ضخم قاوم المطر وانتقل من شجرة إلى أخرى كأنه القيل والقال.

زهرة موز غلفت نفسها في أوراق داكنة الحمرة كانت تتدلى من شجرة حقيرة ممزقة الأوراق. جوهرة استحوذ عليها تلميذ عفن حقيرة. دورة في الغابة المخلية.

فرافير الماء كانت تتزاوج في الهواء. يتلاصقون نجفة. أحد رجال الشرطة المعجبين أخذ يترقب متعجبا لبرهة من ديناميكا الجنس لدى فرفور الماء، ماذا قد ولج في ماذا. ثم فرقع ذهنه كي تنتبه فعاودته الأفكار البولبسبية

إلى الأمام.

مرورا بتلال من النمل تخثرت في المطر. سقطت بغتة مثل الحراس الثملين على مداخل الجنة.

مرورا بفراشات تتطاير في الهواء مثل الرسائل البهيجة.

سرخس عملاق.

حرباء.

زهرة جافلة.

انطلاق ديك الغابة الرمادي بحثاً عن غطاء.
شجرة جوز الطيب التي لم يجدها فيليا بابن.
قناة متشعبة. ساكنة. مخنوقة بالطحلب البطي. مثل ثعبان أخضر ميت. جذع شجرة سقط فوقها. رجال شرطة الطبقة العليا تبختروا فوقه. بهراوات خيزرانية براقة مُدورة.
جنيات مشعرة بعصي سحرية مميتة.
حينئذٍ كان ضوء الشمس قد تكسر على الجذوع النحيلة للشجر المائل. قلب الظلام يمضي على أطراف أصابعه داخل قلب الظلام. الصوت الحاد لصرصار الليل قد تزايد.
السناجب الرمادية نطلق أسفل الجذوع المُرقشة لأشجار المطاط المائلة صوب الشمس. ندوب قديمة شَرَّطَتْ لحاءها. ختمت عليه. لثمتها. ضمدتها.
مساحات من هذا، ثم، أرض عشبية خالية من الشجر. بيت.
بيت التاريخ.
بأبوابه المغلقة ونوافذه المفتوحة.
بأرضياته الحجرية الباردة وظلاله المنتفخة التي تتشكل على هيئة سفن فوق الحوائط.
حيث الأسلاف الشمعيين بأظافر أقدام خشنة ونَفَس ينضح برائحة خرائط صفراء تتبادل همسات ورقية.
حيث تعيش سحالي شفافة خلف اللوحات القديمة.
حيث أسرت الأحلام وأعيد صياغتها في هيئة أحلام.
حيث الشبح العجوز للرجل الإنجليزي، الذي أبطله زوج من التوائم ثنائي اللقاح ـ جمهورية متحركة لها 'بُفٌ' قد زرعت علماً ماركسياً في الأرض إلى جواره. وحين تبخترت فصيلة من جنود الشرطة مروراً به لم يسمعوا توسلاته. بصوته التبشيري العطوف. معذرة، *هل لي، أم م م ... ليته لا يحدث وتفعل أم م م ... لا أعتقد أنك ستغرس سيجار عليَّ؟ لا؟ ... لا، لا أعتقد هذا.*
بيت التاريخ.

حيـــث، في السنوات التالية، الرعب (لم يزل في طريقه)قد دُفِن في مقـــبرة ســـطحية. يختفي تحت الهمهمات المبتهجة لطهاة الفندق. إذلال الشيوعيين القدامى. الموت البطيء للراقصين. الدُمى التاريخية التي أتى أثرياء السائحين للعب بها.

كان بيتاً جميلاً.
ذات يـــوم كان له حوائط بيضـاء. وأسطح حمراء. لكنه الآن مطلي بـــألوان الطقس. بفرش غُمِست في باليتة الطبيعة. أخضر طحلبي. بني طينـــي. أسود مفت. مما جعله يبدو أقدم من حقيقته. مثل كنز غريق تم انتشـــاله مـــن قاع المحيط. وقد قبلته الحيتان واللزيق* البحري. ملفوفاً بالصمت. زافراً فقاعات عبر نوافذه المحطمة.
شـــرفة عميقة تلف كل أركانه. الغرف ذاتها تتراجع، وتغوص في الظـــلال. الســـطح المـــائل يميل لأسفل كأنه جانبيّ قارب ضخم مقلوب رأســـاً علـــى عقب. دعامات بالية كانت ذات يوم تسند أعمدة بيضاء قد تلـــوث عـــند منتصفها، تاركة ثقباً ينفرجُ متثائباً. ثقب التاريخ. ثقب في الكـــون علـــى هيـــئة الـــتاريخ خرجت عبره غيوم كثيفة من الخفافيش الصامتة، مع حمرة الشفق، كأنها دخان مصنع وخبت في غياهب الليل.
عادت عند الفجر حاملة أخبار عن العالم. سديم رمادي في الفضاء الوري الذي امتزج واسودٌ بغتة فوق البيت قبل أن يهبط إلى داخله عبر ثقب التاريخ مثل دخان في فيلم يعرض من الأمام للخلف.
الخفافـــيش، جمـــيعها نامت طيلة اليوم، مُبَطِنة السطح كأنها فراء ناثرةً غائطها على الأرضية.

توقـــف رجـــال الشرطة وانتشروا على شكل مروحة. حقيقة، لم يكونوا بحاجـــة لهـــذا، لكنهم كانوا يحبون ألعاب الطبقة العليا تلك. مثل رجال الشـــرطة في فيلم. بهدوء، بهدوء في العشب. والهروات في أيديهم. في أذهـــانهم أسلحة رشاشة. وعلي أكتافهم النحيفة القادرة مسئولية مستقبل الطبقة العليا.

وجـدوا طريدتهم في الشرفة الخلفية. بُفـْ مَنكوش. نافورة مربوطة بـتوكة "الحـب فـي طوكيو". وفي ركن آخر وجدوا نجاراً (وحيد كأنه ذئب) ـ بأظافر لها حمرة الدم.

نائماً. غير مكترثٍ بكل مكر الطبقة العليا هذا.

الانقضاض المفاجئ.

المانشيتات التي تخطط رؤوسهم.

وقوع المجرم في كمين للشرطة.

لهذه الغطرسة، إفساد المتعة، دفعت طريدتهم. آه، نعم.

أيقظوا فيليوتا بأحذيتهم.

إيسـتابن وراهـيل اسـتيقظا علـى صوت انفجار مذهولين لتهشم رضفة ركبة.

توقـف الصـراخ داخلهما وطفا على السطح، مثل السمك الميت. مـتوجاً الأرض، متأرجحاً ما بين الفزع والذهول، أدركا أن من يُضرَب هو فيليوتا. من أين أتى؟ ماذا فعل؟ لماذا أحضره الشرطيين إلى هنا؟

سمعا ارتطامات خشب الهروات باللحم. الأحذية بالعظام. بالأسنان. الصـوت المكتوم عندما تكيل اللكمات للبطن. الارتطام الخافت للجمجمة بالأسـمنت. صوت التدفق المتقطع للدم على شهيق وزفير إنسان عندما يمزق رئته الطرف الخشن من ضلع مكسور.

أزرق الشـفتين وعيلين مزركشتين مثل طبق العشاء، شاهدا، شيئاً مـا يحسـانه لكن لا يفهمانه جمدهما وأشعرهما بالذهول: غياب النزوة فـيما فعلـه رجال البوليس. الهاوية التي لابد وأن الغضب كان يسكنها. الوحشية الواقعية المستمرة، التدبير لكل هذا.

كانوا يفتحون زجاجة.

أو يغلقون صنبور.

يكسرون بيضة لعمل "أومليت".

كـان الـتوأمان صغيرين على إدراك أن هؤلاء ليسوا سوى زبانية الـتاريخ. وقـد أرسِـلوا لتسـوية الكتب وتحصيل الرسوم من هؤلاء الخارجين على قوانينه. تُجْبرهم مشاعر جوهرية لكنها على النقيض من ذلـك ذاتية تماماً. مشاعر خزي أفرزها خوف ناقص مجهول ـ خوف

المدينة من الطبيعة، خوف الرجال من النساء، خوف القوة من انعدام القوة.

الدافع اللاوعي لدى الإنسان لتحطيم ما لا يستطيع أن يقهره أو يُعَظِمه.

حاجات الآدميين.

ما شاهده إيستابن وراهيل ذلك الصباح، رغم أنهما لم يدركاه لحظتئذٍ، كان وصفا تحليليا في أطر منضبطة (رغم ذلك فهذه لم تكن حربا، أو إبادة جماعية) لمطاردة السطوة للطبيعية الإنسانية. بناء. نظام. احتكار كامل. ذلك هو التاريخ الإنساني، متنكراً في صورة قضاء الله، معلنا عن نفسه أمام جمهور في مقتبل العمر.

لا شئ كان عرضيا فيما قد حدث ذلك الصباح. لاشيء كان بمحض الصدفة. لم يكن هجوما شارداً أو تسوية شخصية للحسابات. كانت فترة تركت بصمتها على هؤلاء الذين عاشوها.

التاريخ في عرض حي.

لو أنهم أصابوا فيليوتا بضرر أكبر من المتفق عليه، لكان فقط بسبب أي قرابة، أي علاقة بينهم وبينه، أي ورطة إن لم يكن أي شئ آخر، على الأقل فهو بيولوجياً رفيقهم في الآدمية — وقد انفصل منذ زمن بعيد. لم يكن ما فعلوه إجراءات قبض على إنسان، كان طرداً للخوف. لم يكن لديهم أداة يحددون بها مقدار العقاب الذي يمكن أن يتلقاه. لا وسيلة لقياس مقدار أو كيفية الإيذاء الذي أصابوه به.

على النقيض من عادة هياج الغوغاء الدينية أو قهر جيوش مشاغبة، تصرفت مجموعة شرطة الطبقة العليا ذلك الصباح، في بيت الظلام، بحكمة، لا بتهور. بكفاءة لا بفوضى. بمسئولية، لا بهستيريا. لم يقتلعوا شعره أو يحرقوه حيا. لم يقطعوا بشره ويد سوه في فمه. لم يغتصبوه. أو يقطعوا رأسه.

رغم هذا كله، لم يكونوا في نضال ضد وباء. كانوا فقط يقومون بتطعيم مجتمع ضد الثورة.

في الشرفة الخلفية لبيت التاريخ، وبينما كان الرجل الذي تقاسما حبه يُسحق ويُحطم، كانت مدام إيابن ومدام راجاجوبالان، توأمان من سفراء الله يعرف ماذا، قد تعلمتا درسين جديدين.

الدرس رقم واحد:

الدم بالكاد يظهر على رجل أسود. (دام دام)

و

درس رقم اثنين:

رغم ذلك، كان ينضح

برائحة الحلوى المُغثية.

مثل زهور عتيقة في مهب النسيم. (دام دام)

'*ماديو؟*' سأل أحد نواب التاريخ.

'*مادي آيريكام*،' أجاب آخر.

يكفي؟

كفي.

ابتعدوا عنه. حرفيون يُقيِّمون صنيع أيديهم. يبتغون بُعداً جمالياً.

صنيع أيديهم الذي استنكره الله والتاريخ، وماركس، والرجل، والمرأة، و(في الساعات التالية) الأطفال، يرتمي مُتكوماً على الأرض. كان شبه واعٍ، غير أنه لم يكن يتحرك.

كانت جمجمته مكسورة في ثلاثة أماكن. أنفه وعظمتا وجنتيه قد تهشموا، فصار وجهه مُتَلجِّن، بلا ملامح. اللكمة التي تلقاها في فمه شقت شفته العليا وكسرت ستة أسنان، ثلاثة منها ثُبِتت في شفته السفلي فقلبت ابتسامته الجميلة ببشاعة. أربعة من أضلعه قد تمزقت، واخترق ضلع منها رئته اليسرى مما جعله ينزف من فمه. كان الدم على نفسه أحمر صافٍ. عذب. مزبد. عموده الفقري قد انكسر في مكانين، فقد شل الارتجاج المخي ذراعه اليمنى وأدى إلى فقدان السيطرة على المثانة والشرج. رُضفتا ركبتيه قد تهشمتا.

ما زالوا يخرجون الكلبشات.

باردة.

لهـــا رائحة معدنية نتنه. مثل الدرابزون المعدني للباص، ويد الكمساري مـــن جراء الإمساك به. هذا عندما لاحظوا طلاء أظافره. أحدهم رفعهم ولوح بأصابعه للآخرين بانجذاب. ضحكوا. 'ما هذا؟' بصوت عالي.

أحدهـــم ضـــرب قضـــيبه برفق مستخدماً عصاه. 'هيا، أرنا سرك الخـــاص. أرنـــا إلـــى مدى تكبر عندما تنفحها.' ثم رفع حذاءه (والدود يلتف حول نعله) ووضعه على الأرض بارتطامة خفيفة.

شدوا ذراعيه خلف ظهره.

كليك.

أســـفل ورقة الحظ. الورقة الخريفية ليلاً. التي كانت تجعل الرياح الموسمية تهب في موعدها.

ظهرت كدمات على جلده حيث احتكت به الكلبشات.

همســـت راهـــيل لإيســـتا،'لـــيس هو'. أنا متأكدة. إنه أخوه التوأم أورامبان. من كوتشي.'

إيســـتا لـــم يقل شيئاً، لم تكن لديه رغبة في الحصول على ملاذ في الخيال.

شـــخصٌ ما كان يحدثهم. شرطي عطوف من بوليس الطبقة العليا. عطوف على نوعه.

"يا بني، يا ابنتي، أنتما على حق؟ هل أصابكما بضر؟"

أجاب التوأمان بهمس، ليس في نفس الوقت لكن معاً تقريبا.

"نعم . لا."

"لا تقلقا. أنتما في أمان معنا الآن."

حينئذ نظر رجال البوليس حولهم ورأوا بساط العشب.

الأواني والأوعية.

الإوزة المطاطية القابلة للنفخ.

حيوان الكوال اللعبة بأزرار عينه المفكوكة.

أقلام عليها صور لشوارع لندن.

جوارب بألوان أصابع متعددة.

نظارة شمس بلاستيكية حمراء بحواف صفراء.

ساعة لعبة وقد رسُم الوقت عليها.

"ملك من هذه الأشياء؟ من أين أتت؟ من أتي بها؟" كان الصوت محفوفاً بالقلق والهم.

إيستا وراهيل، الممتلئان بالسمك، التفتا للخلف وحدقا فيه.

نظر رجال البوليس في وجوه بعضهم البعض كانوا يعرفون ما يتحتم عليهم القيام به.

أخذوا حيوان الكوال اللعبة لأولادهم.

والأقلام والجوارب. أبناء الشرطيين في جوارب بأصابع متعددة الألوان.

فجروا الإوزة بسيجارة. *بانج*. ودفنوا الشرائح المطاطية.

إوزة معدمة. هذا واضح تماما.

أحدهم ارتدى النظارة. ضحك الآخرون لذا ظل يرتديها لفترة. جميعهم نسوا الساعة. ظلت خلفهم في بيت التاريخ. في الشرفة الخلفية. تسجيل مزيف للزمن. الثانية إلا عشرة.

غادروا.

ستة أمراء، بجيوب محشوة باللعب.

وإله الخسارة.

لم يستطع المشي. لذا سحبوه.

لم يرهم أحد.

الخفافيش، بالطبع، عمياء.

-19-

إنقاذ آمو

في قسم البوليس، أرسل المفتش توماس ماثيو في طلب زجاجتين من الكوكاكولا. بماصتين. احضر الكوكاكولا كونا ستبل ذليل على صينية بلاستكية وقدم الزجاجتين للطفلين المتسخين بالوحل الجالسين قبالة المفتش على الطاولة، رأسيهما تعلوان قليلاً عن الملفات والأوراق المكتومة عليها.

صعد الفور لأعلى إلى أنفة. تجشأ. قهقلهة راهيل. نفخت في الماصة حتى فار الشراب على فستانها. وعلى الأرض. قرأ إيستا بصوت عال اللوحة المعلقة على الحائط.

بدأت، قال. بدأت، تعاط،

قالت راهيل، ءالو، تسايك،

بذهت.،

تثافك.،*

ظل المفتش توماس ماثيو، لثقته، هادئاً. أحس التنافر المتزايد في الأطفال. لاحظ التلاميذ المسهبين. لقد شاهد هذا كله من قبل .... صمام الهروب في العقل البشرى. طريقته في تدبر الصدمة. سمح بهذا، وأخذ يصبغ أسئلته بمهارة. برفق. ما بين متى عيد ميلادك، "يايني، و ما هو لونك المفضل، يا ابنتي؟"

تدريجيا، وبطريقة مفككه، متشظية، بدأت الأشياء تأخذ موضعها. اطلعه رجاله على الأواني والأفلام. حصيرة العشب. اللعب التي لا يمكن أن تنسى، الآن بدأ وايدركون. لم يكن المفتش توماس ماثيو مسرورا. أرسل سيارة جيب لبيبي كوتشاما. تأكد ان الطفلان ليسا موجودين في الغرفة لحظة مصولها. لم يبادر بتحيتها.

---

* الكلمات الآتية مكتوبة من خلف للأمام وفقا نطقها على لسان راهيل (كياسه، تمدب وكفاءة) "المترجم."

قال، "تفضلي بالجلوس."
أحسست بيبى كوتشاما أن هناك أمرا شنيع.
"هل وجدتهم؟ هل كل شئ على ما يرام؟"
"لا شئ على ما يرام،" أكد لها المفتش.
أدركت بيبى كوتشاما، من نظرتها في عينية ومن نبرة صوته، أنها تتعامل مع شخص مختلف هذه المرة. وليس ضابط البوليس اللطيف الذي قابلته في المرة السابق. انخفضت في مقعدها. لم يتصنع المفتش تومس ماثيو في كلامه.
لقد تعامل بوليس كوتايام على أساس من الـ FIR ممتلئ بها. لقد قبض على الباراڤان. ولسوء الحظ فقد أصيب بجروح خطيرة عند الصدام به ومن المرجح أن يموت قبل مرور هذه الليلة. لكن الأطفال، الآن، قالوا أنهم قد ذهبوا بإرادتهم. انقلب قاربهم وغرقت الطفلة الإنجليزية بالصدفة. مما جعل البوليس مسئولاً عن موت إنسان برئ قانونياً في الحجز. حقيقة، هو باراڤان. حقيقة أنه أخطأ التصرف. لكن كانت هناك أوقات حرجة تفيا، ووفقا للقانون، فهو إنسان برئ. وليس هناك قضية.
"محاولة اختطاف؟"، اقترحت بيبى كوتشاما بضعف.
"وأين الشكوى المقدمة من ضحية الاختطاف؟ هل أرسلت؟"
هل قامت بعمل محضر؟ هل أحضر تهيا معك؟، كانت نبرة المفتش عدائية. مناهضة تقريباً.
بدت بيبى كوتشاما وكأنها منكمشة. تجاعيد لحميته كانت تتدلى من عينيها وقلبها. اختمر الخوف داخلها وصار اللعاب الكامن في فمها حامضا. فدفع المفتش بكوب من الماء إليها.
"الأمر في غاية البساطة. إما أن تتقدم ضحية الاختطاف بشكوى. أو أن يعترف الأطفال بأن الباراڤان هو المختطف في حضور شاهد من البوليس. أو، انتظر حتى تنظر إليه بيبى كوتشاما.' أو اتهمك بتقديم شكوى كاذبة. ذنب جنائي."
بقع العرق بلوزة بيبى كوتشاما الزرقاء الفاتحة وجعلها قاتمة الزرقة. لم يتعجلها المفتش توماس ماثيو. كان يعرف الظرف السياسي

الراهـــن، هو نفسه من الممكن أن يكون في وضع حرج. كان مدركاً أن الرفـــيق ك. ن. م. بيلاى لن يدع هذه الفرصة تفوته. ضرب نفسه لأن تصـــرف باندفـــاع مبالغ فيه. استخدم فوطة يده المطبوعة ليدخل تحت قميصه ويمسح صدره وإبطيه. كان الجو هادئاً في مكتبة. صوت الجلبة فـــي قسم البوليس، ضربات الأحذية على الأرض، العواء العارض من شخص يتم استجوابه، كل هذا بدا بعيداً، كأنه يأتي من مكان ما آخر.

قالـــت بيـبى كوتشاما، "سيفعل الأطفال ما يؤمران به، هل لي أن أنفرد بهما لبضعة دقائق؟"

"على رسلك." نهض المفتش ليغادر مكتبه.

"من فضلك، امنحني خمسة دقائق قبل أن ترسلهما."

أومأ المفتش توماس ماثيو بالموافقة وغادر.

مســـحت بيـــبى كوتشاما وجهها الذي أضاءه العرق. مطت رقبتها، ناظرة إلى السقف كي تمسح ثنيات الترهلات اللحمية التي تطوق رقبتها بطرف شالها. لثمت صليبها.

"السلام المريمي، المفعم بالرحمة ...."

خذلتها كلمات الصلاة التي تلفظت بها.

انفـــتح الـــباب. أدخـــل إيســـتا وراهـــيل. مكسوان بالطين. مبللان بالكوكاكولا.

أصابتهما رؤية بيبى كوتشاما بالانطفاء والاعتدال المباغت. فردت الفراشـــة ذات القنزعات الظهرية الكثيفة بشكل غير عادى جناحيها على قلبيهما. لماذا أنت؟ أين آمو؟ ألم تزل محتجزة؟

نظرت بيبى كوتشاما إليهما بتجهم. لوقت طويل لم تقل شيئاً. عندما تحدثت كان صوتها مبحوحاً وغريب..

"قارب من هذا؟ من أين أتيتما به؟"

"قاربنا. وجدناه. أصلحه لنا فيليوتا،" همست راهيل.

"منذ متى تملكانه؟"

"وجدناه يوم وصلت صوفي مول."

"وقمتما بسرقة أشياء من المنزل وأخذتاها للنهر داخله؟"

"لقد كنا فقط نلعب..."

"تلعبان؟ أهذا ما تسميان به ما حدث؟"

نظرت إليهما بيبي كوتشاما مليا قبل أن تبادرهما ثانية بالحديث.

"إن جثة ابنة خالكم الجميلة ممددة في غرفه الجلوس. أكل السمك عينيها. أمها لا تتوقف عن البكاء. أما حدث تسميانه لعبا؟"

نسمة مفاجئة جعلت ستارة النافذة المنقوشة بالزهور تتمايل. وبالخارج استطاعت راهيل أن ترى سيارات جيب تصطف إلى جوار بعضها. أناس يمشون. رجل يحاول تشغيل موتوسيكل. في كل مرة كان يقفز على رافعة التشغيل، فتميل خوذته إلى أحد الجانبين.

داخل حجرة المفتش، كانت فراشة باباتشي تمارس حركتها.

"والقضاء على حياة إنسان شئ بشع"، قالت بيبي كوتشاما. "وأسوأ شئ يقوم به إنسان في حياته. الله ذاته لا يغفر هذا مطلقاً. تعرفون هذا، أليس كذلك؟"

رأسان هما بالإيماء مرتين.

نظرت بخزي إليهما، ومع هذا، فقد ارتكبها هذا. "أنتما قتلة." انتظرت حتى غاص هذا. "تعرفان أنني أعرف أنها لم تكن حادثة. أعرف أنكما كنتما تغيران منها. وإذا ما سألني القاضي في المحكمة فسوف أضطر لأن أخبره، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أكذب، أليس كذلك؟" ضربت الكرسي المجاور لها. "هنا، تقدما واجلسا ــ"

أربعة أرداف لمؤخرتين طيعتين حشروا فيه.

"سأخبرهم أنكم خالفتم القوانين تماماً بخروجكما وحدكما إلى النهر. وكيف أنكما قد أجبرتماها على الذهاب معكما رغم أنكما تعرفان أنها لا تستطيع العوم. وكيف دفعتماها خارج القارب وهو في منتصف النهر. لم تكن حادثة، أليس كذلك؟"

أربعة أطباق فناجين عادت تحدق فيها. مشدوهين بالقصة التي كانت تحكيها. ثم ماذا حدث؟

"وبذلك فسوف تذهبان للسجن"، قالت بيبي كوتشاما برفق، "وسوف تذهب أمكما للسجن بسببكما. أتحبان هذا أن يحدث؟"

عيون مفزوعة ونافورة عادوا ينظرون إليها.

"وثلاثـتكما في ثلاثة زنزانات مختلفة. أتعرفان ماذا تعنى السجون في الهند؟"

رأسان قامتا بالإيماء مرتين.

أقامـت بيبى كوتشاما دعواها. نسجت (من خيالها) صور حية عن حـياة السجن. طعام من رقائق الصراصير. البراز منكوم في الحمامات مـثل جبال لينة سقيمة بنية اللون. بَقّ الفراش. الضرب والجلد. أمعنت الـنظر فـي السـنوات الطويلة التي ستقضيها آمو مبعدة من جراء ما ارتكـباه من إثم. وكيف ستصير إمرأة عجوز، مريضة، يرتع القمل في شـعرها عـندما تخـرج ـ لـو لم تمت في السجن. بطريقة منظمة استحضـرت بصـوتها العطـوف المهمـوم المسـتقبل المروع الذي ينـتظرهما. عـندما أضـمرت كل بصيص أمل، دمرت حياتهما تماماً، كأنهمـا إلهـة سفلية طرحت عليهما حلاً. لن يغفر لهما الله ما فعلاه أبداً، لكن هنا على الأرض هناك طريقة للخلاص من جزء من الكارثة. إنقاذ أمهمـا مـن الخزي والمعاناة من جرائهما. شرط أن يكون كلاهما على استعداد للتفكير بشكل عملي.

"لحسن الحظ"، قالت بيبى كوتشاما، "لحسن حظكما، ارتكب البوليس خطأ. من حظكما." توقفت. "تعرفان ما هو، أليس كذلك؟"

هـنا أناس وقعوا في شرك في مثقلة الورق الزجاجية التي وامرأة ترقص الفالس كذلك. ترتدى فستاناً أبيض بسيقان أسفله.

"أليس كذلك؟"

كـان هناك موسيقى فالس تخرج من مثقلة الورق. ماماتشي كانت تعزفها على كمنجاتها.

را. را. را. را. رام.

برام ـ برام.

"الشيء هو"، كان صوت بيبى كوتشاما يقول، "ما حدث قد حدث. المفتش يقول. أنه عـلى وشك الموت على أي حال. لذلك فلن يعبأ حقيقة بما يوجهه البوليس ضده. ما

يهـم الآن هـو مـا إذا كنتما تريدان الذهاب للسجن وأن تكونا سبباً في ذهاب آمو لسجن. هذا ما تقرراه أنتما."

كـان هـناك فقاعـات داخـل مثقلة الورق جعلت الرجل والمرأة يظهران وكأنهما يرقصان الفالس تحت الماء. كانا يبدوان سعيدين. ربما كانـا يـتزوجان. هـي ترتدي فستانها الأبيض. هو يرتدي بدلته سوداء وبابيون. كان كلاهما ينظر بعمق في عيني الآخر.

"إذا مـا كنـتما تريدان إنقاذها، فكل ما يتحتم عليكما القيام به، هو الذهـاب مع العم ذا الشارب الكبير. سوف يسألكما سؤالاً واحداً. سؤال واحـد. وكـل ما عليكما هو الإجابة بـ "نعم". ثم نذهب جميعاً للمنزل. الأمر في غاية السهولة. ثمن قليل تدفعانه."

تتبعت بيبى كوتشاما نظرة إيستا. كل ما استطاعت أن تفعله لتحمي نفسها من أخذ المثقلة والقذف بها خارج النافذة. كان قلبها يدق بصخب.

"انقذنـا!"، قالـت بيـبى كوتشاما، بابتسامة صافية هشة، وقد بدأت الوصـمة تحدث أثراً في صوتها. "ماذا سأقول للعم المفتش؟ ماذا قررنا؟ أتـريدان إنقـاذ آمو أم أننا سنلقى بها إلى السجن؟" كأنها كانت تعرض عليهما خيار من شقين. صيد السمك أم حموم الخنازير؟ حموم الخنازير أم صيد السمك؟

نظـر التوأم لأعلى إليها. ليسا معاً (لكن تقريباً) صوتان مفزوعان همسا، "ننقذ امو."

فـي السـنوات اللاحقـة سيستحضران هذا المشهد في رأسيهما. كالأطفـال. كالمراهقيـن. كالبالغيـن. هل خدعا وفعلا ما قد فعلاه؟ هل زُيِّنت الإدانة لهما؟

بطريقة ما، نعم. لكنها لم تكن بهذه البساطة. كلاهما يدرك جيداً أنه كـان يمتلك حق الاختيار. وكم تسرعا في الاختيار! لم يمكننا أكثر من ثانية للتفكير قبل أن يبادرا بالنظر لأعلى وقول (ليسا معاً، ولكن تقريباً) ــ ننقذ آمو. تنقذنا. ننقذ أمنا.

ابتسـمت بيـبى كوتشـاما بابتهاج. الراحة كان لها فعل المسهل. صـارت حاجـه لدخول الحمام مُلحة. على وجه السرعة. فتحت الباب وطلبت المفتش.

"إنهما طفلان جميلان،" أخبرته عندما أتى. "سيذهبان معك"
"لا حاجـة للاثنيـن. أحدهما سيؤدى الغرض"، قال المفتش توماس ماثيو. "أيهما. الولد. البنت. من يريد أن يأتي معي؟"
"إيسـتا."، قامـت بيبى كوتشاما بالاختيار. مدركة أنه أكثر الاثنين عملـية. الأكثر سلاسة. الأبعد نظراً. الأكثر مسئولية. "أنت تذهب. إلى اللقاء."

رجل صغير. يعيش في كارا ــ فان. دام، دام.

ذهب إيستا.

السـفير إ. بلفـيس. بعينين تشبه طبق الفنجان وبف منكوش. سفير صـغير يطوقه رجل بوليس طويل، في مهمة مريعة في غياهب أحشاء قسم بوليس كوتايام. صدى خطواتهما على الأرضية المبلطة.

ظلـت راهـيل خلفهما في مكتب المفتش وكانت تستمع للأصوات البذيـئة التـي تصـدر عن راحة بيبى كوتشاما وهى تسيل على جانبي كبينـيه المفـتش فـي الحمام الملحق بمكتبه. "السيفون لا يعمل،"، قالت وهـى تخـرج من الحمام. "هذا مزعج جداً". مرتبكة لأن المفتش سوف يرى لون برازها وتماسك قوامه.

كـان السجن حالك الظلمة. لم يتمكن إيستا من رؤية أي شئ، لكنه كان يسـمع الصـوت الخشن المتثاقل للتنفس. جعلته رائحة الغائط يتقيأ. قام شـخص ما بإضاءة النور. متوهج. يصيب بالإعماء. ظهر فيليوتا على الأرضـية الزلقة الرطبة. عفريت مشوه استحضره مصباح حديث. كان عاريـاً، المـاندو المتسـخ الذي يرتديه كان مفكوكاً. الدم كان يسيل من جمجمـته مـثل سر. كان وجهه متورماً ورأسه مثل يقطينة، كبيرة جداً وثقـيلة مقارنــة بالعنق النحيل الذي يحملها. يقطينة لها ابتسامة وحشية مقلوبـة رأسـاً على عقب. حذاء شرطي تراجع للخلف تبعداً عن حافة حـوض ملـئ بالبول ممتد منه، ينعكس فيه المصباح الكهربي الساطع الضئيل.

سمك ميت أخذ يطفو داخل إيستا. أحد رجال الشرطة نخس فيليوتا بحذائـه. لـيس ثم من استجابة. جثم المفتش توماس ماثيو على ردفيه،

وقام بوخز فيليوتا في باطن قدمه بمفتاح سيارته الجيب. انفتحت العينان المتورمـــتان. تجولتا. ثم تسمرتا عبر غشاء من الدم على طفل محبوب تخيل إيستا أن شيئاً ما منه قد ابتسم. ليس فمه، لكن جزء ما ليس مشوباً بالم. ربما مرفق ذراعه. أو كتفه.

طرح المفتش سؤاله. رد فم إيستا قائلاً، "نعم."

خرجت الطفولة على أطراف أصابعها.

وانسل الصمت إلى الداخل كأنه سهم.

ثمة شخص أطفأ النور فاختفى فيليوتا.

فـــي طـــريق عودتهم في سيارة الشرطة الجيب. عندما وصلوا كوبري شـــانجام كانـــت عـــيونهما قد بدأت تنغلق. همس إيستا بشئ ما في أذن راهيل.

"لقد كنت على حق. لم يكن هو. لقد كان إرامبان."

"شُجْرًا لله،" ردت راهيل هامسة.

"أين تظنيه قد ذهب؟"

"هرب إلى أفريقيا.

تـــم تســـليمها إلـــى أمهما وهما يغطان في نوم عميق، طافيان على هذا الوهم.

حـــتى الصبح التالي، عندما نفضت آمو هذا الوهم عنهما. لخطتئر كان هذا متأخراً مشاماً.

المفـــتش ماثـــيو، الرجل الخبير في هذه الأمور، كان على صواب. لأن فيليوتا لم تمر عليه الليلة إلا وهو ميت.

أتاه الموت، بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

وبالنســـبة للعائلـــة الصـــغيرة الملفوفة والنائمة على شرشف أزرق بغرز متقاطعة؟ ماذا أتاهم؟

ليس الموت. فقط نهاية الحياة.

بعد جنازة صوفي مول، عندما عادت بهما آمو إلى قسم البوليس وانتقى المفتش ثمار المانجو التي أعجبته (تاب، تاب)، كانت الجثة قد نقلت بالفعل. ألقيت في اليثمادى كوزهى مدافن العائلة. فاقدي الأهلية ــ حيث يلقى البوليس موتاه بشكل روتيني.

عــندما ســمعت بيبى كوتشاما بزيارة لقسم البوليس، أصابها الفزع. كل شئ، قد فعلته بيبى كوتشاما، أقامته على افتراض واحد. لقد قامت على يقيــن بــأن آمــو، مهما كانت قد ارتكبت من أفعال أخرى، مهما كانت غاضبة، فهي لن تعترف جهاراً بعلاقتها مع فيليوتا. لأن هذا، وفقاً لبيبى كوتشــاما، ســوف يعجــل بانهيارها ودمار طفليها. للأبد. غير أن بيبى كوتشــاما لــم تضع في اعتبارها الحافة الخطرة الكافة في آمو. المزيج اللاممــتزج ــ رقــة الأمومة اللانهائية الحماس الثوري الطائش للفدائي الانتحاري.

لقــد أصــابها رد فعــل آمو بالذهول. لقد انسحب البساط بعيداً من تحــت قدمهــا. كانت مدركة أنها تحالفت مع المفتش توماس ماثيو. لكن إلى أي مدى سيستمر هذا؟ وماذا إذا ما نقل واعيد فتح القضية؟ كان هذا ممكــناً ــ إذا أخذنــا بعين الاعتبار الجمع والصاحب الذي يرفع شعار حــزب العمــال الذين تمكن الرفيق ك. ن. م. بيلاى من جمعهم خارج الــبوابة. الذي منع العمال من المجيء للعمل، وتركوا كميات هائلة من المانجو، والموز، والأناناس، والثوم، والزنجبيل لتفسد ببطء في أحواض مخللات الجنة.

أنجــزت هذا عن طريق قيامها بما تتقنه تماماً. بري حقولها، بتغذية غلالها بعواطف الآخرين.

كانــت تقــرض مــثل فار في مستودع الأسى الكامن في تشاكو. وغرســت في حوائطه هدفاً ممكناً، سهل المنال من غضبه الجنوني. لم يكــن صــعباً عليها أن تصور آمو على أنها المسئول الفعلي عن موت صوفي مول. آمو وتوأمها ثنائي اللقاح. محطم الأبواب.

تشـــاكو كـــان الثور الحزين الوحيد الذي يندفع محموماً على نهاية مقود بيبى كونشاما. أن تضطر آمو إلى تحزيم أمتعتها وترحل. أن يعاد إيستا كانت فكرتها.

-20-

بريد مدراس

وهكـذا، فـي محطـة ميناء كوتشين، إيستا وحده في نافذة القطار ذات القضـبان. السفير إ. بلفيس. صوة لها "بُفـ". وإحساس أخضر متموج، كثـيف مائـي، مـتورم، طاف، له هيئة حمول البحر، وقرار لا يسبر غـوره. كـان صـندوق ملابسـه الذي كتب عليه اسمه تحت مقعده. وصـندوق طعامـه الـذي يحمل سندوتشات الطماطم داخله وزمزمية الصقر ذات صقر، كانا أمامه على طاولة صغيرة قابلة للطي.

إلـي جـواره سيدة تأكل، كانت ترتدي ساري كانجيفارام اخضر، وأرجواني وماسات تعنقدت على فتحتي أنفها مثل نحل براق، وأصرت بلطـف عينـيها الطبيتين اللتين توارتا على هيئة شقوق خلف نظارتها. كانت تصدر من فمها أصوات لها رنين القُبَل.

"جرب واحدة.إنها حلوة جدا"، قالت بلغة التاميل. "رامبو مادورام."

"حلوة."، قالت كبرى بناتها، إنها كانت في عمر إيستا، بالإنجليزية.

هـز إيسـتا رأسـه ثانية. نفشت السيدة شعره وأفسدت الـ (بُفـ). أسـرتها (زوج وثلاثـة أطفال) كانوا يأكلون أيضا. قطع لادو مستديرة كبـيرة صفراء كانت على المقعد. تحت أقدامهم دوي القطار وهديره. لم يكن النور الليلي الأزرق قد أضاء بعد.

قـام الابن الأصغر للسيدة التي تأكل بإشعال النور. فأطفأته السيدة ووضحت للطفل أن هذا الضوء للنوم. وليس لأوقات اليقظة.

كـل شـئ في قطار الدرجة الأولى كان أخضر المقاعد خضراء. المراقد خضراء. السلاسل خضراء. أخضر غامق اخضر فاتح.

لكي توقف القطار اسحب السلسلة، كتبت بالأخضر.

"السلسلة اسحب القطار توقف لكي"، فكر إيستا بالأخضر.

أمسكت آمو بكفه عبر نافذة القطار.

"حـــافظ علـــي تذكرتك." قال فم آمو. فم آمو الذي يحاول ألا يبكي، "سوف يأتون ويسألونك عنها."

أومـــأ إيســتا لأسفل لوجه آمو المائل لأعلي علي نافذة القطار. إلى راهـــيل الصغيرة المتسخة بقاذورات المحطة. ثلاثتهم قد ارتبطوا وقيدوا بالمعرفة اليقينية المنفصلة التي تقر بأنهم قد احبوا رجلاً حتى الموت.

لم يكن هذا في الصحف.

ســنوات عديــدة دون أن يدرك التوأم دور آمو فيما قد حدث. في جـــنازة صوفي مول وفي هذه الأيام التي قد سبقت ترحيل إيستا، شاهد عينيها المنتفختين، وبمركزية الذات التي ينطوي عليها الأطفال، اعتبروا نفسيهما مسئولان عما ألم بها من أسى.

لابـــد أن تأكل الساندويتشات قبل أن تفسد، وقال آمو ولا تنسي أن تكتب لي.

تفحصـــت أظافـــر اليد الصغيرة التي كانت تمسكها ونزعت قوس أسود من القاذورات من تحت ظافر الإبهام.

"لابد أن تعتني بحبيب قلبي لأجلي حتى آتى وآخذه."

"متي يا آمو متي ستأتين له؟"

"حالاً."

"لكن متي؟ متي بالضبط؟"

"حالا يا حبيبي فور ما أستطيع."

"الشـــهر بعـــد القادم؟ آمو؟"، عن عمد جاعلاً إياها تبدو وقتا طويلاً مـــن الفـــراق لكـــي تقـــول آمو قبل هذا يا إيستا لتكن عمليًا. ماذا عن دراستك.

"بمجـــرد أن أحصـــل علي وظيفة فور ما أستطيع أن ابتعد عن هنا وأحصل علي وظيفة."، قالت آمو.

"لكن ذلك لن يحدث أبدًا"، موجة من الهلع. إحساس عميق لا يسبر غوره.

كانت السيدة التي تأكل تسترق السمع باستمتاع.

"انظروا كيف كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة."، قالت لأطفالها بلغة التاميل.

بريد مدراس

"لكــن هذا لن يحدث أبدًا"، قالت كبري بناتها بتحذ " En ee vee aar
.never"
كان إيستا يعني بكلمة أبدًا never أن هذا سيكون بعيدًا جدا. إن هذا لن يكون الآن، لن يكون حالاً.
لكن هكذا خرجت الكلمات
لكن ذلك لن يحدث أبدًا.
فمــن أجــل كلمة أبدًا NEVER كانوا فقط يحذفون حرف O و T من ليس توًا NOT EVER.
هم؟
الحكومة.
حيــث يرســل الــناس إلـــى جولي سيتصرف جيدا JOLLY WILL BEHAVE.
وتلك هي الكيفية التي تغير بها كل شئ.
أبدًا NEVER ليس توًا NOT EVER.
كان خطاه هو أن الرجل البعيد في صدر أمو قد توقف عن الزعيق خطاه هو أنها قد ماتت في المسكن دون أن يكون لديها من يستلقي علي ظهرها ويحدثها.
لأنه هو الذي قد قالها. ولكن امو هذا لن يحدث أبدًا!
"لا تكن أحمق يا إيستا سيحدث هذا حالا سيحدث هذا حالاً"، قال فم آمو، "سأصبح مدرسة سأبدأ مدرسة وستكون أنت وراهيل فيها."
"وســيكون بوســعنا لأنهــا ستكون ملكنا؟"، قال إيستا ببراجماتيته القوية. الفرصة الأساسية نصب عينيه.
ركــوب باصـــات بالمجان. جنازات مجانية. تعليم مجاني رجل صغير كان يعيش في كارا ـــ فان دام دام.
"سيكون لنا بيت يخصنا"، قالت آمو
"بيت صغير."، قالت راهيل.
"وفي بيتنا سيكون لدينا فصول وسبورات،قال إيستا
"وطباشير."
"ومدرسون حيقيقون يقومون بالتدريس."

بريد مدراس

"وعقوبات ملائمة؟"، قالت راهيل.

تلـك كانـت الخامة التي نُسجت منها أحلامهم يوم أن أعيد إيسيا. طباشير. سبورات. عقوبات ملائمة.

لـم يطلبا العفو عنهما دونما اكتراث فقط طلبا عقوبات تلائم جرائمهما. وليس عقوبات مفروضة تأتي مثل دواليب مدمجة في بناء غرف النوم. عقوبات تقضي فيها حياتك كاملة. متجولا عبر متاهة أرففها.

دونما إنذار بدأ القطار رحيله ببطء شديد.

اتسـعت عيني إيستا. انغرست أظافره في يد آمو وهي تمشي علي امـتداد رصـيف المحطـة تحولـت مشيتها إلي هرولة عندما بدأ بريد مدراس في أخذ سرعته.

"في رعاية الله يا ابني، يا روح قلبي. سآتي إليك حالا!"

"آمو" قال إيستا وهو يترك يدها. وهو يفك إصبعًا صغيرًا بعد آخر.

"امو أشعر برغبة في القيء"، تصاعد صوت إيستا إلى عويل.

الصغير إلفيس البلفيس بالـ "بُف" المنكوش ذا النتوء الخاص أعلي رأسه. والحذاء البيجي المدبب. ترك صوته وراءه.

علـي رصـيف المحطة ضاعفت راهيل من سرعتها من صوتها وصرخت وصرخت.

مضي القطار إلى الخارج. فتقدم الضوء للداخل.

بعد ثلاثة وعشرين عامًا راهيل امرأة قاتمة ترتدي تي ــ شيرت أصفر، تلفت صوب إيستا في الظلام.

"إيستا بابيتشاتشن كوتابين بيترمون."، تقول.

تهمس.

تحرك فمها.

فم أمها الجميل.

إيستا الجالس في تمام اعتداله، في انتظار القبض عليه. يرفع أصابعه إليه. ليلمس الكلمات التي يصوغها. ليحتفظ بالهمس. أصابعها تقتفي أثر شكله. ملمس الأسنان. أمْسِكَتْ يدها وقبِّلَتْ.

ضغطت على برودة خدٍ بلله رذاذ المطر المنشطر.

حينئذ نهضت جالسة وطوقته بذراعيها. سحبته لأسفل إلي جوارها.

رقدا هكذا لوقت طويل كانا يقظان في الظلام. الهدوء والفراغ.

ليسا كبيرين، ليسا صغيرين.

لكنهما في عمر قبل للموت.

كانا غريبين التقيا في محض صدام.

كانا كلاهما يعرف الآخر قبل بدء الحياة.

قلما يجد أي إنسان ما يقوله ليوضح ما الذي حدث بعد هذا. لا شئ (في كتاب ماماتمشي) يستطيع الفصل بين الجنس والحب. أو بين الاحتياجات والمشاعر.

إلا أنه ربما لم يكن هناك رقيب يتلصص عبر عيني راهيل. لا أحد يحدق خارج النافذة أو قارب في النهر. أو أحد المارة يمضي مرتديا قبعة الضباب.

باستثناء أن الجو كان باردًا قليلاً. رطبًا قليلاً. لكن هادئ تمامًا. الهواء.

لكن أي شئ كان هناك ليقال؟

بريد مدراس

كـان هـناك دمـوع فقـط. فقط السكون والفراغ. وقد تطابقا مثل ملاعـق تكدسـت فـوق بعضـها. فقـط هناك خشخشة في التجاويف الموجـودة عـند قـاعدة حنجرة جميلة. فقط كان هناك كتف قوي بلون العسـل موشـوم بآثار أسنان رسمت عليه شبه دائرة. فقط كانا يتعانقان بحميمـية ودفء. لوقـت طويل بعدما فرغا. فقط لم يكن ما تقاسماه في تلك الليلة هي السعادة ولكن الأسى المروع.

فقط أنهما تجاوزا ثانية قوانين الحب. التي تحدد من الذي ينبغي أن يحب. وكيف والي أي مدي.

علـي سقف المصنع المهجور، كان الطبال الوحيد يقرع طبلته. باب قد انغلـق بعـنف فأر اندفع عبر أرضية المصنع. خيوط العنكبوت طوقت أحـواض التخلـيل القديمة ــ حيث تراكمت كومة من التراب الأبيض المتخثر رماد عظام لبومة ماتت منذ زمن بعيد. بومة مخللة.

ردًا علـي سـؤال صوفي مول: "تشاكو، أين تذهب الطيور الهرمة لتموت؟ لماذا لا تسقط علينا من السماء كالأحجار؟"

سـألت مساء اليوم الذي وصلت كانت تقف علي حافة بركة حديقة بيبـي كوتشـاما وهـي تنظر إلى أعلي علي الطائرات وهي تحوم في السماء.

صـوفي مول ذات القبعة والبنطال ذات الفتحات أسفله، مثار الحب منذ البداية.

مارجريت كوتشاما لأنها كانت تعرف (لأنها إذا ما ذهبت إلى قلب الظـلام (ب) فمـن الممكن أن يحدث أي شئ لأي شخص) نادتها لتأخذ جرعتها من الحبوب. فيلاريا. ملاريا. إسهال. لم تتناول لسوء الحظ أي مصل واقي ضد الموت غرقًا.

ثم كان وقت العشاء.

"عشاء بشع"، قالت صوفي مول عندما أرسلوا إيستا ليناديها.

علـى العشـاء البشع، جلس الأطفال على طاولة أصغر منفصلة. صـوفي مـول بظهرها صوب الكبار كانت تنظر إلي الطعام بحركات وجـه مشـمئزة. مقـدار من الطعام في فمها كانت تعرضه لابنة وابن

بريد مدراس

عمــتها اللــذان يصغرانها. نصف ممضوغ. مطمور، علي لسانها كأنه قيء طازج.
عندما فعلت راهيل نفس الشيء راتها آمو وأخذتها إلى السرير.
دســت آمو ابنتها الشقية في السرير وأطفأت النور. قبلة، "تصبحين علــي خــير" لم تترك اثر لعابي علي خد راهيل واستطاعت راهيل أن تقول إنها ليست غاضبة فعلاً.
"أنت لست غاضبة، يا آمو."، قالت تهمة مبتهجة. أحبتها أمها أكثر قليلا.
"لا."، قبلتها امو ثانية. "تصبحين علي خير، يا حبيبتي. في رعاية الله."
"تصبحين علي خير، يا آمو إرسلي إيستا بسرعة."
وعندما همت أمو بالابتعاد، سمعت ابنتها تهمس، "آمو،"
"ما معني هذا؟"
"نحن من دم واحد، أنت وأنا،"
اســتندت أمو باب غرفة النوم في الظلام، محجمة عن العودة إلى مــائدة العشــاء حيث كان الحديث يحوم دائريًا مثل فراشة حول الطفلة البيضــاء وامها كأنهما المصدر الوحيد للضوء أحست امو أنها ستموت، ستذبل وتموت، إذا ما سمعت كلمة أخرى. إذا ما اضطرت لتحمل دقيقة اخــرى من ابتسامة تشاكو المختالة التي تشبه ابتسامة الفوز في مباراة تــنس. او تــيار الغيرة الجنسية الخفي المنبعث من ماماتشي. أو حديث بيبــي كوتشــاما المصــمم لطرد آمو وطفليها، ولتخبرهم بمكانهم علي خارطة الأشياء.
عــندما استندت باب الغرفة في الظلام، أحست بحلمها، كابوس بعد الظهــر يتحرك داخلها مثل ضلع مائي يرتفع من محيط، ليلتحم بموجة. الــرجل البشــوش ذا الذراع الواحدة والبشرة المالحة وكتفه الذي ينتهي بغتة مثل جرف، ظهر من خلال الشاطئ المسنن ومضي صوبها.
من هو؟
أي رجل يحتمل أن يكون؟
إله الخسارة.
إله الأشياء الصغيرة.

بريد مدراس

إله القشعريرة الجلدية و الابتسامة المفاجئة.

لم يكن يستطيع سوي شئ واحد في الوقت الواحد.

إذا مـــا لمسها، لا يستطيع الكلام معها، إذا ما احبها لم يكن يستطيع أن يغادرهـــا، إذا ما تحدث لم يكن يستطيع أن ينصت، إذا ما حارب لم يكن يستطيع أن ينتصر.

كانت أمو تتوق إليه. تئن لأجله بكل ما أوتيت من حياة بجسد.

عادت إلى مائدة العشاء.

بريد مدراس

-21-
نفقات الحياة

عــندما أغمــض البيت القديم عينيه المسبلتين بالنعاس، وغط في النوم، خرجــت آمو، وهي ترتدي أحد قمصان تشاكو القديمة فوق قميص نوم طويــل، إلــى الشرفة الأمامية. أخذت تتمشى جيئة وذهابا لبرهة. قلقة. همجــية. ثم جلست على الكرسي الخيزران أسفل رأس الثور الأمريكي بعينــيه ذات الأزرار التــي يعلوهــا غشاء من العفن، وبوتريه المبارك الصــغير، وبورتريه آليوتي ماماتشي المعلقين على جانبي رأس الثور. كــان توأمهــا ينامان بنفس طريقتهما المعتادة عندما يقتنصهما التعب ــ بعينــيهما نصــف مغلقة، نصف مفتوحة، وحشان صغيران. ورثا هذه العيون عن أباهما.

فتحت آمو مذياعها الترانزيستور الذي يأخذ هيئة برتقالة. خرج منه قرقعة صوت رجل. أغنية إنجليزية لم تسمعها من قبل.

جلســت هــناك في الظلام. امرأة وحيدة ألقة هادئة ترمي بنظرتها أعلى بستان الزينة، صنيع يد عمتها المسكونة بالمرارة وهي تستمع إلى الترانزيســتور البرتقالة. إلى صوت يأتيها من بعيد. يهب مخترقاً الليل. مُــبحرًا فــوق البحيرات والأنهار. فوق الرؤوس الكثيفة للأشجار. عبر الكنيســة الصــفراء. عبر المدرسة. متخبطًا أعلى الطريق القذر. أعلى درجات الشرة إليها.

وبيــنما هــي لا تستمع إلى أكثر من الموسيقى، كانت تشاهد هياج الحشرات التي تمرق سريعًا حول الضوء، متبارية في قتل نفسها.

انفجرت كلمات الأغنية في رأسها.

ليس ثم من وقت نضيعه
سمعتها تقول
اغتنم أحلامك قبل

أن تمرق بعيدًا
وتموت إلى الأبد
إذ تفقد أحلامك وذاتك
تفقد عقلك.

سحبت أمو ركبتيها لأعلى وتشبثت بهما. لم تستطع أن تصدق هذا. التطابق الساذج لهذه الكلمات. حدقت بإمعان خارج بستان الزينة. حلقت أوسا بومة المخازن فوق دورية عسس ليلية صامتة. زهرة الأنثيروم أومضت وكأنها عيار ناري.

ظلت جالسة لبرهة. لوقت طويل بعد انتهاء الأغنية. ثم نهضت بغتة مغادرة الكرسي ومضت خارج عالمها مثل ساحرة. إلى مكان أفضل وأروع.

تحركت بسرعة عبر الظلام، مثل حشرة تقتفي أثر سحابة كيميائية. كانت تعرف الطريق إلى النهر تمامًا مثل طفليها، واستطاعت أن تستكشف طريقها في العماء. لم تكن تعرف ما الذي تسرع عبر الهشيم المعشوشب. ما الذي جعلها تحول مشيتها إلى هرولة. ما الذي جعلها تبلغ ضفة الميناتشال لاهثة. ناشجة. كأنما تأخرت على شئ ما. كأن حياتها متوقفة على الوصول إلى هناك في الموعد المقرر. كأنها كانت تعرف أنه هناك. ينتظر. كأنه كان يعرف بمجيئها.

كان.

يعرف.

تلك المعرفة التي انسلت إليه في تلك الظهيرة. بوضوح. مثل حد سكين مشحوذ. عندما صعد التاريخ لأعلى. بينما كان يطوق ابنتها الصغيرة بذراعيه. عندما أخبرته عيناها بأنه لن يصبح المانح الوحيد للهدايا. وأن لديها أيضًا هدايا ستمنحه إياها، وأنها ، في مقابل قواربه، صناديقه، وطواحين الهواء الصغيرة، سوف تمنحه غمازتيها العميقتين وقت الابتسام. بشرتها البنية الألقة. كتفيها الوضاءتين. عينيها اللتين كانتا دائمًا في مكان آخر.

لم يكن هناك.

جلست آمو على الدرجات الحجرية التي تقود إلى الماء. دفنت رأسها بين ذراعيها، تتملكها الحماقة ليقينها المفرط.

بعيدًا في منتصف النهر، أسفل التيار، كان فيليوتا يطفو على ظهره، مُحدقًا لأعلى في النجوم. لقد انتهى أخوه المُعاق وأبوه الأعور من تناول العشاء الذي طهاه لهما واستسلما للنوم. لذا فقد أصبح حرًا ولديه من الوقت ما يُمكنه من الاستلقاء في النهر والانجراف ببطء مع التيار. كجذع شجرة. كتمساح هادئ. شجرة جوز هند انحنت في النهر وأخذت تشاهد طفوه على صفحة الماء. بكى البامبو الأصفر. الأسماك الصغيرة كانت تداعبه بحرية. تنقره. انتفض لأعلى وأخذ يسبح. أعلى النبع. ضد التيار. استدار صوب الضفة ليلقي نظرة أخيرة، مع إيغاله في الماء، انتابه شعورٌ بالحماقة لأنه كان متأكدا جدًا . في تمام اليقين.

عندما رآها، أغرقه الانفجار تقريبا. استهلك كل طاقته ليظل طافيا. داس الماء ليظل واقفا في منتصف النهر المعتم.

لم ترى قمة رأسه وهي ترتفع فوق النهر المعتم. كان بإمكانها أن تظنه أي شيء. شجرة جوز هند طافية. على كل الأحوال، هي لم تكن تنظر. فقد كانت رأسها مدفونة بين ذراعيها لم تزل.

رآها. أخذ وقته.

لو كان يدرك أنه آخذٌ في الإيغال عبر نفق ليس له سوى فتحة خروج واحدة وهي هلاكه هو، لاستدار ومضى بعيدًا.

ربما.

ربما لا.

من يجزم؟

أخذ يسبح صوبها. في هدوء. دون أن يترك على صفحة الماء أي جلبة. كان قد بلغ الضفة تقريبًا عندما رفعت رأسها ورأته. وطأت قدماه طرح النهر الموحل. عندما نهض من النهر وأخذ في صعود الدرجات الحجرية، رأت أن العالم الذي يقفان فيه ملكه هو. وأنه ينتمي إليه. الماء. الطين. الأشجار. الأسماك. الأشجار. الجمال الذي ينتمي إليه.

كيف صاغه العمل الذي يمارسه. كيف أن الأخشاب التي يشكلها قد شكلته. كل لوح صممه، كل مسمار دقه، كل شئ صنعه، قد أعطاه هيئة وصاغه. ترك طابعه عليه. منحه قوته، ومرونته الرشيقة اللدنة.

كان يلف قطعة قماش خفيفة بيضاء حول حقويه، تلتوي بين ساقيه القائمتين.نفض الماء عن شعره. استطاعت أن ترى ابتسامته في الظلام. ابتسامته البيضاء المباغتة التي حملها معه من الصبا إلى الرجولة. متاعه الوحيد.

نظر كلاهما إلى الآخر. لم يفكر أكثر من هذا. لقد أتى وقت التفكير ومضى. ابتسامات مهشمة استلقت أمامهما. لكن هذا سوف يكون فيما بعد.

فيما بعد.

وقف أمامها بينما كان النهر يتساقط عنه. ظلت جالسة على الدرجات الحجرية، تشاهده. وجهه كان شاحبا في ضوء القمر. زحفت عليه رعشة مباغتة. دق قلبه بعنف. كان هذا كله خطأ فادحا. لقد أخطأ فهمها. الأمر كله كان محض نسيج خيالي. كان شركًا. ثمة أناس كانوا خلف الأشجار. يترصدونهما. لقد كانت طعمًا شهيًا، لذيذًا. ماذا يكون الأمر غير هذا؟ لقد شاهدوه في المظاهرة. حاول أن يجعل صوته طبيعيًا. مألوفا. فخرج مُتحشرجًا.

"أموكوتي.. .. ما هذا؟"

مضت إليه، وألقت بامتداد جسدها عليه. كان واقفًا فقط. لم يمسسها. كان يرتجف. جزئيًا من البرد. وجزئيًا من جراء الرغبة المؤلمة. جزئيًا من الخوف. ورغم خوفه فقد كان جسده مُعدًا لابتلاع الطُعم. كان يريدها بنهم. بللها بلله. طوقته بذراعيها.

حاول أن يتعقل: *ما هي أسوأ العواقب التي يمكن أن تنزل به؟*

بإمكاني أن أخسر كل شئ. وظيفتي. عائلتي. حياتي. كل شئ.

كانت تسمع نبضاته العنيفة.

ظلت تضمه حتى هدأ. إلى حدٍ ما.

فكت أزرار قميصها. وقفا هناك. بشرة قبالة بشرة. لونها البُني قبالة سمرته. نعومتها قبالة خشونته. نهداها الأخذان هيئة ثمرتا جوز

هند (اللذان لا يتسعان لحمل فرشاة أسنان) قبالة صدره الأبنوسي الناعم. تشممت النهر الذي ينضح به جسده. رائحة البارافان المميزة التي تثير اشمئزاز بيبي كوتشاما. أخرجت آمو لسانها وتذوقته، في تجويف حلقه. علـى شحمة أذنه. سحبت رأسه صوبها وقبلته في فمه. قُبلة غائمة. قبلة تطلبت الرد بأخرى. بحذر أولاً. ثم بنهم. زحفت ذراعاه ببطء خلفها. تحسس ظهرها. بنعومةٍ شديدة. أمكنها أن تستشعر كفيه. المتجعدتين. ورقتا صنفرة. كان حريصًا ألا يؤلمها. أمكنه أن يحس إلى أي مدى هي ناعمة إذا ما قورنت به. أمكنها أن تُحس بأنها تنسل إليه. بشرتها. الطريقة التي يبعث بها جسدها فقط في المكان الذي يلمسه. ما يتبقى منها محض دخان. شعرت به يرتجف قبالتها. كماه كانا على ردفيها (اللذان يتسعان لحمل مجموعة من فرشاة الأسنان)، سحب ردفيها نحوه ليخبرها إلى أي مدى يريدها.

البيولوجي صمم الرقصة. وضبط الفزع موعدها. فرض الإيقاع الذي استجاب له وبه جسد كلٍ منهما للآخر. كأنما بالفعل كانا يُدركان أنهما سيدفعان مقدارًا متساويًا من الألم لقاء كل ارتعاشة لذة. كأنهما كانا يُدركان أنهما سوف يُؤاخذان بقدر ما يوغلا. لذا عادا للعناق ثانية. تحرش كلّ منهما بالآخر. ببطء منح كلاهما الآخر. غير أن هذا قد زاد الطين بلة. لقد رفع مبلغ المقامرة فقط. فقط كلفهما أكثر. لأنه هذب التعسفات، وأزال تعثر واندفاعة الحب الشاذ وقذف بهما إلى ذروةٍ محمومة.

خلفهما كان النهر ينبض في العتمة، يهفهف مترقرقا كالحرير البري. والبامبو الأصفر يبكي.

اتكأ مرفق الليل على الماء وأخذ يرقبهما.

استلقيا تحت شجرة المانجوستين* ، حيث اقتلع قبل قليل لبات قارب رمادي قديم له أزهار قارب وثمار قارب بواسطة **جمهورية جوالة**. نحلة. علم. نُف مشدوه. نافورة شعر مربوطة بـ توكة الحب ـ في ـ طوكيو.

---

* شجرة فاكهة، وهي كثيرة العصارة ولها قشرة ثخينة حمراء بُنية (المترجم)

كان عالم القارب المُسرع المنطلق بالفعل قد مضى.
النمل الأبيض كان في طريقه للعمل.
أسراب الدعسوقة* كانت في طريقها للبيت.
الخنافس البيضاء تزحف مبتعدةً عن الضوء.
الموسيقى البيضاء الحزينة.
كل شئ قد مضى.

ولم يبق شئ سوى قطعة من الأرض المتيبسة وعلى هيئة قارب، نظفت وأعدت للحب. كان إيستا وراهيل قد أعدا المكان لهما. شاءوا أن يحث هذا. القابلتين التوأمين في حلم آمو.

آمو، تكبو الآن عارية فوق فيليوتا، فمها على فمه. سحب شعرها حولهما هيئة خيمة. مثلما يفعل طفليها حينما يرغبان في طرد العالم الخارجي. انسلت لأسفل أكثر، طارحة جسدها على ما تبقى منه. رقبته. حلمتيه. بطنه الشيكولاتة، احتست ثمالة النهر من تجويف سرته. ضغطت بحرارة انتصابه على رموش عينيها. تذوقته، مالحًا كان، في فمها. نهض وسحب ظهرها إليه. أحست بطنه تضيق تحتها، صلبة كأنها مثل لوح خشبي. أحست بللها ينزلق على جلده. لقم حلمتها في فمه، وأمسك نهدها الآخر براحته الخشنة. قطعة قطيفة في ورق سنفرة.

لحظة قادته إلى داخلها، اختطفت لمحة من شبابه، حميته، دهشة عينيه من السر الذي اكتشفه واستخرجه وألقت إليه بابتسامة كأنه طفلها.

حين دخلها، تزحزح الخوف، وهيمن البيولوجي. وصعدت تكاليف الحياة إلى مرتفعات لا يمكن بلوغها؛ رغم أن بيبي كوتشاما ستقول، فيما بعد، إن هذا مقابل ضئيل يتحتم دفعه.

أهو كذلك؟
حياتان. طفولتا طفلين.
ودرس في التاريخ لآثمي المستقبل.

عيون غائمة ترمق عيون غائمة في نظرة طويلة وامرأة مضيئة فتحت نفسها لرجل مضيء. كانت متسعة وعميقة مثل نهر في ذروة

* الدعسوقة: خنفساء صغيرة مرقطة الجانبين (المترجم)

فيضـانه. أبحـر فـي مياهها. أحس به يتحرك لأعمق وأعمق داخلها. هائجًـا. محموما. متوسلاً إياها أن تدعه يوغل لأعمق. لأبعد. ألا يوقفه سوى منتهاها. منتهاه. وعندما رفض، عندما مس أعمق أعماقها، غاص مُخلفا أنة نشيج مرتجفة.

اسـتلقت قُبالـته. جسـداهما كانا زلقين من جراء العرق. أحست بجسـده يسّـاقط متـباعدًا عنها. تنفسه أصبح أكثر انتظامًا. رأت عينيه صـافيتين. مسـح شعرها بيده، شاعرًا أن النتوء الذي هدأ داخله كان لم يـزل يرتج متوترًا داخلها. ثم، برفق، قلبها على ظهرها. مسح العرق. جراشـة الـرمل الناعم عنها بثيابه المبلل. استلقى فوقها، بحذر حتى لا يرتمي بثقله كاملاً فوقها. أحجار صغيرة ضغطت ساعديه. قبلّ عينيها. أذنـيها. نهديها. بطنها. العلامات الفضية السبعة الممتدة من أثر استيلاد تؤمها. خط الزغب الذي يقود من سرتها حتى مثلثها المعتم. الذي أخبره أيـن تريده أن يرسو. داخل ساقيها. حيث أنعم مناطق جلدها. ثم قامت كفـرجار بـرفع ردفيها، وأوغل بلسانه المنبوذ ومس أعمق ما فيها. لقد تجرع من حوضها طويلاً وكثيرًا وبنهم.

رقصـت له. فوق تلك البقعة من الأرض التي اتخذت هيئة قارب. عاشت.

ضـمها إلـيه، ساندًا ظهرها إلى شجرة المانجوستين، بينما كانت تصـرخ وتضـحك في ذات اللحظة. ثم، ولوقت بدا وكأنه أبد، لكنه في الحقـيقة لم يتجاوز خمس دقائق، غطت في النوم وهي تُلقي بجسدها في جسـده، ظهـرها فـي صدره. سنوات سبع من السهو علت وتطايرت متلاشية على جناحين ثقيلين مرتعشين كأنما أنثى طاووس معدنية كئيبة. وعلـى طـريق آمو (صوب الهرم والموت) ظهر مرجٌ صغيرٌ مشمس. عشب نحاسيٌ قد رقشته فراشات زرقاوات. خلفه، هاوية.

بـبطء تراجع الفزع إلى الوراء مخترقا اياه. على ما فعله. على ما كان يدرك أنه كان سيفعله مرة بعد أخرى.

اسـتيقظت على صوت قلبه الذي يرسل نبضه عبر صدره. وكأنما يبحـث عـن طـريق للفلات. عبر هذا الضلع المتحرك. الباب السري الـزلاج. ذراعـاه كانتا لم تزل تطوقاها، كانت تشعر بعضلاته تتحرك.

بيـنما كفـاه تعبثان بسعفة نخيل يابسة. ابتسمت أمو لنفسها في العتمة، وهي تفكر في مدى عشقها لذراعيه ـ ما لهما من هيئة وما يكمن فيهما مـن قوة، مدى الأمان الذي تشعر به وهي تأوي إليهما على الرغم من كونهما أخطر الأمكنة التي يمكن أن تكون فيها الآن.

طـوى خوفـه فـي صورة وردة متقنة. ووضعها على راحة يده. أخذتها منه ووضعتها في شعرها.

اقتربـت أكـثر، كانت تود لو تسكنه، أن تتماس مع قدر أكبر منه. لملمهـا فـي كهـف جسـده. هبت نسمة من النهر فأصاب البرد دفء جسديهما.

كان الجو باردا قليلا. رطبًا قليلا. هادئًا قليلا. الهواء.

لكن أي شئ هناك كان يتحتم الإفصاح عنه؟

بعد ساعة انسلت برقة متباعدة.

"لابد أن أمضي."

لم يقل شيئًا، لم يتحرك. شاهدها وهي ترتدي ملابسها.

ثمـة شـئ وحيد مهم. كانا يدركان أنه كل ما يمكنهما أن يستفسرا عنه من كلامهما. هو الشيء الوحيد. أبدا. كلاهما كان يُدرك ذلك.

حـتى بعـد هذا، في الليالي الثلاثة عشر التي تلت هذه الليلة، كانا يـتعلقان غريزيًا بالأشياء الصغيرة. الأشياء الكبيرة دائمًا تكمن بالداخل. كانـا يدركان أنهما لا يملكان من الأمكنة ما يمكن أن يذهبا إليه. لا شئ لديهما. لا مستقبل. لذا فقد تعلقا بالأشياء الصغيرة.

ضـحكا من لدغات النمل في مؤخرتيهما. من يرقات الفراش وهي تـنزلق علـى أطـراف أوراق الأشجار. من الخنافس المقلوبة التي لا تسـتطيع أن تسـتعيد اعـتدالها.ضحكا على سمكتين كانتا دائمًا تداعبان فيليوتا في النهر وتعضاه. عل أفراس النبي التي تمارس الصلاة بخشوع مذهـل. على العنكبوت دقيق الحجم الذي كان يعيش في شرخ في جدار الشـرفة السـوداء في بيت التاريخ خافيًا نفسه بخداع عن طريق تغطية جسده بنثار القمامة ـ شريحة من جناح دبور. جزء من نسيج عنكبوت. تراب. ورقة نبات متعفنة. الهيكل المجوف لنحلة ميتة. تشابو ثامبوران،

كمــــا اعتاد فيليوتا أن يسميه. السيد قمامة Lord Rubbish . ذات ليلة قاما بمـــنحه لباسًـــا ـــ عبارة عن قطعة من قشر الثوم ـــ وشعرا بقرف شديد عـــندما رفض اللباس الذي منحاه له وخلعه مع باقي درعه ـــ كان يبدو متـــبرمًا عاريًا، طاعنًا في لون المخاط. كأنه يعلن عن استنكاره لذائقتهما فـــي اختيار الملبس. وظل لعدة أيام متماهيًا في حالته الانتحارية مستأنقًا عـــريه المزري هذا. ظل الغلاف المرفوض المكون من فضلات الطعام قائمًا كما هو، مثل منظر عتيق للعالم.

فلســـفة بـــائدة. ثـــم تفتت. وبالتدريج اكتسب تشابو ثامبوران ملبسًا جديدًا.

لقـــد ربطـــا مصيرهما، مستقبلهما (حبهما، جنونهما، أملهما، لذتهما اللانهائـــية) بهـــذا العنكـــبوت، دون أن يعلنا عن هذا لبعضهما أو حتى لذاتيهما. كانا يطمئنان عليه كل ليلة (بهلع يتزايد طرديًا مع مرور الوقت لـــيريا ما إذا كان لم يزل حيًا أم لا. تحسرا حين شاهداه طاعنًا في وهنه. ضموره. اكتفائه بالكيموفلاج. الخيلاء الظاهري المدمر لذاته. أحبا ذائقته الانتقائية. كرامته المتراخية.

لقـــد اخـــتاراه لأنهمـــا يدركـــان حتمية إيمانهما بالهشاشة. التشبث بالضـــآلة. فـــي كـــل مرة كانا يفترقا، كان كلاهما يستل من الآخر وعدًا صغيرًا.

"غدًا؟"

"غدًا"

كانـــا يدركـــان أن الأمور يمكن أن تتبدل لقد كانا على صواب في هذا.

رغـــم هـــذا لم يجانبهما الصواب فيما يخص تشابو ثامبوران. لقد عمر أكثر من فيليوتا. وصار أبًا لأجيالٍ كثيرة.

مات موتًا طبيعيًا.

فـــي تلـــك اللـــيلة الأولى، في اليوم الذي وصلت فيه صوف مول، رأى فيلـــيوتا حبيبـــته وهي ترتدي ملابسها. وعندما انتهت جلست القرفصاء قبالته. لمسته بخفةٍ بأصابعها تاركة خطًا من قشعريرة أوزية على جلده.

كانمـــا طبشـــور انبسط على سطح سبورة. كأنما خطوط نفاثة في سماء كنيسة زرقاء. ضم وجهها بكفيه وقربه إلى وجهه. اغمض عينيه وتشمم رائحة جلدها . ضحكت آمو.

نعم يا مارجريت، تفكرت. نحن نفعل هذا أيضًا.

قبلـــت عينـــيه المغمضــــتين ونهضت واقفة. شاهدها فيولوتا وهي تمضي بعيدا وهو يستند بظهره إلى شجرة المانجوستين.

كانت تضع وردة جافة في شعرها.

استدارت لتقولها ثانية: 'غدًا.'

غدًا

المترجم

طاهر البربري،
شاعر وروائي ومترجم مصري.
صدر له
١- **توقـيعات علـى جسد المساء** (شعر) عن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة. سلسلة إبداعات ١٩٩٧.
٢- **مـدن فارهـة للنسـيان** (شعر) عن الهبة المصرية العامة للكتاب (سلسلة كتابات جديدة) ٢٠٠١.
٣- **قنص الأحلام** (رواية) طبعة أولى عن الهيئة العامة لقصور الثقافة إقليم غرب ووسط الدلتا، فرع المنوفية الثقافي ٢٠٠٢. طبعة ثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة ٢٠٠٢).
٤- **أرض المسـاء وقصائد أخرى** (ترجمة) مختارات من شعر د. ه. لورانـس David Herbert Lawrence. عـن المجلـس الأعلى للثقافة؛ المشروع القومي للترجمة العام ٢٠٠٠.
٥- **نحـو لغة وطنية للتقدم العلمي والتكنولوجي في أفريقيا** (ترجمة) بالاشـتراك مـع الأستاذ حلمي شعراوي؛ عن مركز الدراسات العربية والأفريقية بالقاهرة العام ٢٠٠١.
٦- الترجمة الإنجليزية الكاملة لديوان الشاعر رفعت سلام (**إنها تومئ لي**) العام ١٩٩٤.
٧- **إلـه الأشـياء الصغيرة** The God of Small Things للكاتبة الهندية آرونداتي روي Arundhati Roy – الرواية الفائزة بجائزة بوكر ١٩٩٧
قيد النشر:
- **سينما التحولات الاجتماعية في مصر ١٩٩٨ – ٢٠٠٠** (دراسة).
- **هواء مُمَصَّر** (رواية).
- **اللغـة والإيديولوجـيا في أدب الأطفال** language and Ideology in Chilgren's Fiction، تأليف جون ستفينس John Stephens (ترجمة).
- **أيديولوجـيات العولمـة** Ideologies of Globalization تألـيف مارك رابرت Mark Rupert (ترجمة).

أرونداتي

روى

إله الأشياء الصغيرة

رواية



ميريت للنشر والمعلومات